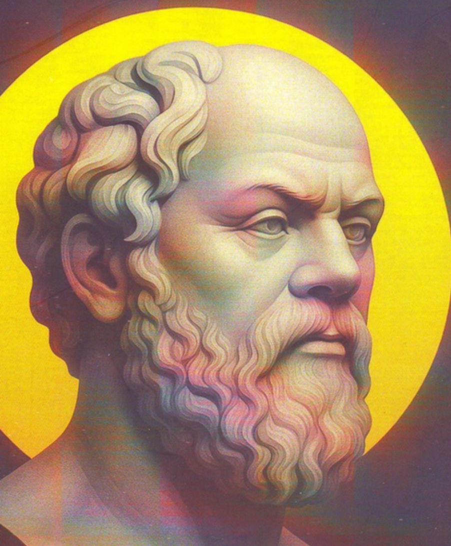
إيريك وينر

قطار سقراط

بحثًا عن دروسٍ من فلاسفة راحلين



ترجمة:
عمر فتحي

منشورات

إيريك وينر

«قطارُ سقراط»

بحثًا عن دروسٍ من فلاسفة راحلين

«قطارُ سقراط»
بحثاً عن دروسٍ من فلاسفة راحلين

إيريك وينر

ترجمة: عمر فتحي

الطبعة الأولى - سنة 2025
ISBN: 978-9922-9127-4-5

الإخراج الفني: TRIGRAPHICS

منشورات درابين

العراق | بغداد | شارع المتنبي | قيصرية المصرف | الطابق الأول
dallutub@gmail.com +964 770 280 3658

إيريك وينر

«قطارُ سقراط»
بحثًا عن دروسٍ من فلاسفة راحلين

ترجمة: عمر فتحي

منشورات درابين

إلى شارون..

«عاجلًا أم آجلًا.. تُحوِّلنا الحياة جميعًا إلى فلاسفة».

-ماوري ريسلينج

الفهرس

مقدمة: المغادرة 11
الجزء الأول: الفجر 21
الفصـل الأول: كيف تنهض من الفراش مثل ماركوس أوريليوس 23
الفصل الثاني: كيف تتساءل مثل سقراط 39
الفصل الثالث: كيف تمشي مثل روسو 74
الفصل الرابع: كيف ترى مثل ثورو 102
الفصل الخامس: كيف تستمع مثل شوبنهاور 139
الجزء الثاني: الظهيرة 171
الفصل السادس: كيف تستمتع مثل أبيقور 173
الفصل السابع: كيف تنتبه مثل سيمون فايل 197
الفصـل الثامن: كيف تقاتل مثل غاندي 237
الفصل التاسـع: كيف تكون لطيفًا مثل كونفوشيوس 279
الفصل العاشر: كيف تُقدّر الأشياء الصغيرة مثل سي شوناجون 299
الجزء الثالث: الغسق 327
الفصل الحادي عشر: كيف لا تشعر بالندم مثل نيتشه 329
الفصل الثاني عـشر: كيف تتأقلم مثل إبيكتيتوس 357
الفصل الثالث عشر: كيف تتقدّم في العمر مثل بوفوار 393
الفصل الرابع عشر: كيف تموت مثل مونتين 433
خاتمة: الوصول 457
شكرٌ وتقدير 463
ببليوغرافيا مختارة وقراءات إضافية 467

مقدمة

المغادرة

نجوع؛ فنأكل ونأكل، لكن نظلّ جائعين.

أحيانًا نشـعر بالجوع بشـكلٍ خافت؛ وفي أوقات أخرى، عندما ينقلب العالم رأسًـا على عقب وتحلّ الفوضى ويسود الخوف، يتفاقم الجوع لدرجة قد تُهلِكنا.

نصـل إلى هواتفنـا الذكية، وبضغطةٍ واحـدة، يمكننا الوصول إلى جميع المعـارف البشرية: من مصر القديمة إلى فيزياء الكم. نلتهمها بشراهة، لكن نظل جائعين.

مـا ذلـك الجوع الـذي لا يمكن إشـباعه؟ نحـنُ لا نريد مـا نعتقد أننا نريـده. إذ نعتقـد أننا نريـد المعلومات والمعرفـة. لكن ليس ذلـك ما نريد؛ بـل نريد الحكمة. هناك فـارق. المعلومات هي خليطٌ من الحقائق، والمعرفة خليـطٌ أكثر تنظيمًا. أما الحكمة فتُفكّك الحقائـق، وتفهمها، وتقترح أفضل السُبل لاستخدامها. وكما قال الموسيقيّ البريطاني مايلز كينجتون: «المعرفة هـي معرفـة أنّ الطماطم فاكهة. الحكمة هي ألا تضعها في سـلطة الفواكه». المعرفة تعرف. الحكمة تُدرِك.

إنّ الفـارق بين المعرفـة والحكمة هو فارق في النوع وليـس في الدرجة؛ فلا تُترجَم المعرفة الأكبر بالضرورة إلى حكمة أكبر، بل وفي الواقع يمكنها أنْ تجعلنا أقل حكمة. إذ من الممكن أن تكون لديك معرفة خاطئة أو معرفة مضللة.

المعرفة شيءٌ تمتلكه. الحكمة شيءٌ تفعله. إنها مهارة، ومثل جميع المهارات، يمكنك تعلّمها. لكنها تتطلّب جهدًا. إنّ توقُّع اكتساب الحكمة عن طريق الحظّ يُشبه توقّع تعلّم العزف على الكمان عن طريق الحظّ.

ومع ذلك، فهذا هو ما نقوم به في الواقع. إذ نخوض غمارَ الحياة ونتخبط فيها، على أملِ أنْ نكتسب بعضَ شذرات الحكمة هنا وهناك. وفي غضونِ ذلك، نكون في حيرةٍ من أمرنا. حيث نخلط بين العاجل والمهم، والإسهاب والتفكير، والشائع والجيد. نحن، على حدّ تعبير أحد الفلاسفة المعاصرين، «مُضلَّلون».

***

أنا أيضًا جائع، بل وأكثر من معظم الناس -كما أظنّ- بسبب الكآبة المستمرة التي ألقت بظلالها عليّ منذ فترة طويلة للغاية. وعلى مرّ السنين، جرَّبت وسائل مختلفة لإشباع ذلك الجوع: الدين، والعلاج النفسي، وكُتب المساعدة الذاتية، والسفر، وتجربة وجيزة ومشؤومة مع مواد طبيعية تُغيّر من طبيعة الوعي والإدراك. كلُّ طريقة تُهدِّئ الجوع، ولكن ليس بشكلٍ كاملٍ ولا لفترة طويلة.

ثم، ذات صباح يوم سبت، غامرتُ بالذهاب إلى العالم السفلي: قبوي. هذا هو المكان الذي أعزل فيه الكتب التي تعدُّ غير مناسبة لغرفة المعيشة. وهناك، وسط كتب الأطفال والإدارة المالية، اكتشفتُ كتابَ ويل ديورانت الصادر عام 1926: قصة الفلسفة. كان له ثقلٌ حقيقيٌّ، وعندما فتحتُ الغلاف، انبعثت سحابةٌ من الغبار. نظفته من الغبار وبدأتُ في القراءة.

لم تؤدِّ كلمات ديورانت إلى هبوط الوحي، ولا إلى لحظة استنارة. لكنَّ

شيئًا ما جعلني أستمرُّ في القراءة. لم يكن ذلك يرجع للأفكار الموجودة في الكتاب بقدر ما كان يرجع إلى الشغف الذي قُدِمت به. من الواضح أن ديورانت كان رجلًا مغرمًا، لكن بمَن؟ بماذا؟

يرجع أصل كلمة «فيلسوف Philosopher» إلى الكلمة اليونانية *philosophos* التي تعني «مُحِبًا للحكمة». لا يقول التعريف شيئًا عن امتلاك الحكمة إلا بقدر ما يقول إعلان الاستقلال أي شيء عن الحصول على السعادة. يمكنك أن تحبَّ شيئًا لا تمتلكه ولن تمتلكه أبدًا. السعي هو ما يهم.

***

وأنا أكتب هذه الكلمات، فأنا على متن قطار. أنا في مكانٍ ما في ولاية كارولينا الشمالية، أو ربما كارولينا الجنوبية، لستُ متأكدًا. من السهل أنْ تفقد إحساسك بالمكان والزمان أيضًا في القطار.

أحبُّ القطارات. بتعبيرٍ أدقَّ، أحبُّ استقلال القطارات. لستُ مهووسًا بها بحيث أقفز من مكاني مُهللًا عند رؤية قاطرة تعمل بالديزل والكهرباء من طراز SD45 على سبيل المثال. لا أهتمُّ كثيرًا بتصنيفات القطارات المختلفة وما يتعلَّق بها. أنا أحبُّ التجربة؛ ذلك المزيج النادر من الرحابة والراحة الذي يوفِّره السفر بالقطار.

هناك شيء يُشبه الوضع الجنينيّ داخل القطار. تلك الحرارة المريحة والضوء الدافئ. تنقلني القطارات إلى حالة أكثر سعادة لاشعوريًا. تنقلني إلى زمنٍ ما قبل الإقرارات الضريبية ومدَّخرات الرسوم الدراسية، وهموم زيارة الأطباء وحركة المرور.

تُعاني حماتي من مرض باركنسون في مراحله المتأخرة. إنّه مرضٌ قاسٍ يسرق منها القدرات والذكريات. لقد نسيتِ الكثير. ومع ذلك فهي تحتفظ بذكريات حيّة لركوب القطار في طفولتها في شمال ولاية نيويورك. تتدفّق المشاهد والأصوات والروائح في ذاكرتها كما لو أنّها حدثت بالأمس. هناك شيء ما يتعلق بالقطار يبقى معنا.

تُشكّل الفلسفة والقطارات مزيجًا رائعًا. أستطيع التفكير في القطار، بينما لا أستطيع التفكير في الحافلة، ولا حتى قليلًا. أظن أنَّ الأمر له علاقةٌ بالأحاسيس المختلفة التي يستشعرها المرء بداخل كل منهما، أو ربما يتعلق الأمر بالذكريات؛ إذ تُذكّرني الحافلات برحلات الطفولة إلى المدرسة والمخيم، أي الأماكن التي لم أكن أرغب في الذهاب إليها. بينما تأخذني القطارات إلى حيث أريد أنْ أذهب.

ومع ذلك، فإنّ كلًا من الفلسفة والقطارات ينضحان بعبق الماضي، إذ تقلّصت الأهمية الكبيرة التي كانا يتمتعان بها في الماضي وباتا بمثابة تحفٍ فنيةٍ من عصورٍ بائدة. ففي العصر الحديث، يختار عددٌ قليلٌ فقط السفر بالقطار عندما تتوفر خيارات أخرى، تمامًا كما يختار عددٌ قليلٌ من الأفراد دراسات الفلسفة، إذا كان لآبائهم رأيٌ. وهكذا تبدو كلٌّ من الفلسفة ورحلات القطارات وكأنها مساعٍ من الماضي، انخرط الناس فيها قبل أن يعرفوا بدائل أكثر جاذبية.

أشترك في مجلة تُسمى فيلوسوفي ناو Philosophy Now، تصل لي كل شهرين في ظرفٍ بني كبير، مثل المواد الإباحية. يسأل أحد عناوينها الرئيسية الأخيرة «هل العالم وهم؟» ويسأل آخر: «هل الحقيقي هو نفسه

الحقيقة؟» عندما قرأتُ هذا العنوان لزوجتي، نظرتْ إليَّ نظرة استخفاف. بالنسبة لها، مثل كثير من الناس، فإنّ مثل هذه المقالات تُلخّص كل عيوب ومساوئ الفلسفة. إنها تطرح أسئلة سخيفة غير قابلة للبتّ. تُعدُّ الفلسفة بالنسبة للعديد من الناس محض هراء نظري بعيد كل البعد عن العملية. ربما فقط في القاموس تظهر كلمتَي «فلسفة Philosophy» و «عملي Practical» بالقرب من بعضهما.

تدفعنا التكنولوجيا إلى الاعتقاد بأنّ الفلسفة لم تعد مهمة. فمَن يحتاج إلى أرسطو عندما يكون لدينا خوارزميات؟ تتفوق التكنولوجيا الرقمية في الإجابة عن أسئلة الحياة الصغيرة من قبيل: أين يمكنني العثور على أفضل مَن يقدِّم السوشي في مدينة بويسي؟ ما هو أسرع طريق إلى المكتب؟ ونفترض أنها جيدة في الإجابة عن الأسئلة الكبيرة أيضًا. لكنها ليست كذلك. قد تتألق سيري Siri في العثور على أفضل مطعم يقدِّم السوشي، لكن اسألها عن أفضل طريقة للاستمتاع به ولن تجد سوى فراغ[1].

أو فكّر في رحلات القطار. يمكن للتكنولوجيا وعلمها أن يخبروك بسرعة القطار ووزنه وكتلته ولماذا تستمرُّ شبكة الوايفاي Wi-Fi الموجودة على متنه في الانقطاع. لكن لا يمكن للعلم أن يخبرك ما إذا كان ينبغي عليك ركوب القطار للقاء أصدقاء المدرسة، أو زيارة العم كارل، الذي كان يزعجك دائمًا ولكنه الآن مريضٌ بشدة. لا يمكن للعلم أن يخبرك ما إذا كان من المقبول أخلاقيًا التسبُّب في ضررٍ جسدي للطفل الذي يصرخ

(1) ربما غيرّ المؤلف رأيه الآن بعد ظهور شات جي بي تي ChatGPT، وغيره من نماذج الذكاء الاصطناعي المتقدمة! (المترجم)

وهـو يـركل مقعـدك. لا يمكن للعلـم أن يخـبرك مـا إذا كان المنظر خارج نافذتك جميلًا أم مبتذلًا. لا يمكن للفلسفة أيضًا، ليس بشكل قاطع، لكنها يُمكن أن تسـاعدك على رؤية العالم من خلال عدسـة مختلفـة، وهناك قيمة كبيرة في ذلك.

في مكتبتـي المحليَّة، لاحظتُ قسـمين: «الفلسـفة» و«التحـوُّل الذاتي» بجواره. لكن إذا تصورنا وجود مثل هذه المكتبة في أثينا القديمة، فسيكون هذان القسـمان قسـمًا احدًا. فقد كانت الفلسـفة تحولًا ذاتيًا. كانت الفلسفة عملية. كانت علاجًا ودواء للروح.

صحيحٌ أنّ الفلسفة بمثابة دواء ولكن ليس على طريقة التدليك بالحجر السـاخن. فالفلسفة ليست سهلة، ليست لطيفة. ليست مُلطِّفة ومُهدئة، إذ تُشبه صالة الألعاب الرياضية أكثر من المنتجع الترفيهي.

***

أشـار الفيلسـوف الفرنسي موريـس ميرلو بونتي إلى الفلسـفة على أنّها «تأمل راديكالي». تعجبني الطريقة التي يضفي بها على الفلسفة ما تستحقه مـن جـرأة ونفحة من الخطر. لقد اسـتحوذ الفلاسـفةُ ذات مـرة على انتباه العـالم. لقـد كانوا أبطالًا. كانوا على اسـتعداد للموت من أجل فلسـفتهم، وبعضهم فعل ذلك، مثل سـقراط. أما الآن فكل ما هو بطولي في الفلسـفة هو النضال الملحمي من أجل المنصب الأكاديمي.

معظم الكليات اليوم لا تُدرِّس الفلسفة؛ بل تُدرِّس «عن» الفلسفات. إنها لا تُعلّم الطلاب كيف يتفلسـفون. الفلسفة تختلف عن المواد الأخرى. إنهـا ليسـت بناءً معرفيًـا ولكنهـا طريقة تفكـير؛ طريقة للوجـود في العالم.

ليست «ماذا» أو «لماذا» ولكن «كيف».

لا تحظى كلمة «كيف» باحترامٍ كبيرٍ هذه الأيام. في عالم المطبوعات، تعدُّ الكتب الإرشادية (التي تتساءل عن الكيفية) مصدر إحراج، فهي ناجحة ولكن غير مألوفة. لا يكتب الكُتّاب الجادون كتبًا إرشادية، والقُراء الجادون لا يقرؤونها (على الأقل لا يعترفون بقراءتها). ومع ذلك، فإنَّ معظمنا لا يسهر ليلًا متسائلًا «ما هي طبيعة الواقع؟» أو «لماذا يوجد شيء بدلًا من لا شيء؟» بل سؤال عن الكيفية -كيف نعيش؟- هو الذي يستحوذ علينا ولا يفارقنا أبدًا.

إنّ الفلسفة، على عكس العلم، معيارية. فهي لا تصف العالم كما هو فحسب، بل تصف كيف يمكن أن يكون، وتفتح أعيننا على الاحتمالات المختلفة. وقد قال المؤلف دانيال كلاين عن الفيلسوف اليوناني القديم أبيقور ما يمكن أن يُقال عن كل الفلاسفة الرائعين: «لا تقرأه كفلسفة» بل اقرأه على أنه «شِعرٌ يُثري الحياة».

لقد أمضيتُ السنوات القليلة الماضية أتشرَّب ذلك الشِعر، ببطء، وبنفس وتيرة تفكيري، وأنا جالسٌ على مقعدٍ بجوار النافذة في قطار. لقد استقلّيت القطارات حيثما وكلما أمكن ذلك. سافرتُ إلى حيث كان يفكر بعض أعظم مفكري التاريخ. واجهت تحدياتٍ مثل تحمل «مخيم الرواقية» في جامعة وايومنغ وتجاوز تعقيدات بيروقراطية السكك الحديدية الهندية في دلهي.

ركبت قطار مترو الأنفاق في مدينة نيويورك أطول مما ينبغي لأي شخص. كانت هذه الرحلات بمثابة استراحة لي، وفرصة للاسترخاء والتأمل بين استكشافاتي الفلسفية. لقد أعطتني وقفة، بأفضل معاني الكلمة.

***

اكتب على جوجل «فلاسفة» وسوف تجد المئات، وربما الآلاف. لقد اخترت أربعة عشر. كيف؟ بحرصٍ. كلهم حكماء، وإنْ كان بطرقٍ مختلفة. لـكلٍّ منهم نكهـةٌ مختلفةٌ من الحكمة. وهـم يُغطُّون فترة طويلـة من الزمن -عاش سقراط في القرن الخامس قبل الميلاد، وسيمون دي بوفوار في القرن العشرين- والمكان أيضًا: من اليونان إلى الصين، ومن ألمانيا إلى الهند. مات الأربعة عشر جميعًا، لكنَّ الفلاسـفة الجيدين لا يموتون أبدًا؛ إنهم يعيشون في عقـول الآخرين. فالحكمة قابلةٌ للانتقال. إنهـا تتجاوز المكان والزمان، ولا تصبح بالية أبدًا.

تتضمـن قائمتي العديد من الأوروبيين ولكـن لا تقتصر عليهم. إذ لا يحتكـر الغرب الحكمة. كان بعض فلاسـفتي، مثل نيتشـه، غزيري الإنتاج بشـكل ملحوظ. أما آخرون، مثل سـقراط وإبكتيتوس، فلـم يكتبوا كلمة واحدة. (لحسـن الحـظ، فعل طلابهم ذلك). حقَّق البعض شـهرة كبيرة في حياتهـم، بينما مـات آخرون مجهولين. سـوف تقرُّ بلا جـدال للبعض بأنهم فلاسفة؛ البعض الآخر، مثل غاندي، ربما لا تنظر له كفيلسوف (لكنه كان كذلـك). وقـد تكون بعض الأسـماء، مثل امـرأة البلاط والكاتبـة اليابانية سي شـوناجون Sei Shōnagon، جديدة بالنسـبة لك. حسـنًا. في النهاية، تَلخَّص معيـاري في الآتي: هل أَحَبَّ هـؤلاء المفكِّـرون الحكمة وهل هذا الحب مُعدٍ؟

عادة ما نفكر في الفلاسفة كعقول بلا أجساد. لكن لا ينطبق ذلك على هـذه المجموعة. لقد كانوا كائناتٍ ماديةً ونشـطة. قاموا برحلات وامتطوا

الخيـول. خاضـوا حروبًـا وشربوا الخمـر ومارسـوا الحبَّ. كانوا فلاسـفة عمليين. لم يكن معنى الحياة هو ما يثير اهتمامهم بل عَيش حياة ذات معنى.

لم يكونـوا مثاليـين. كانت لهم عيوبهـم وأخطاؤهم. فقـد كان ينغمس سـقراط في حالاتٍ من الاسـتغراق تسـتمرُّ لسـاعات في بعـضِ الأحيان. وكشـفَ روسـو أردافـه في الأماكـن العامـة في أكثـر مـن مناسـبة. وكان شـوبنهاور يتحـدث إلى كلبـه. (لا تجعلنـي أبـدأ في الحديث عن نيتشـه!). فالحكمةُ قلَّما ترتدي حُلَّةً أنيقة، وإن يكنْ ذاك مُحتملًا في بعض الأحيان.

نحـنُ نحتـاج دائمًا إلى الحكمـة، لكننا نحتـاج إلى أنواعٍ مختلفـةٍ منها في مراحل مختلفة من حياتنا. إنّ أسئلة «الكيفية» التي تهمُّ طفلًا يبلغ من العمر خمسـة عشر عامًا ليسـت هي الأسئلة التي تهم شخصًا يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا أو خمسة وسبعين عامًا. الفلسفة لديها شيء حيويٌّ لتقوله عن كل مرحلة.

تمـرُّ المراحـل سريعًـا. يُمضي الكثـير منّا أيامـه بلامبـالاة، ويملأ عقله بأمورٍ تافهةٍ وغير مهمة، ويتصرف كما لو كان لديه الكثير من الوقت. لكن للأسـف ليـس لدينا الوقت الذي نعتقده. أحـبُّ أنْ أعدَّ نفسي في منتصف العمر، لكنَّ ابنتي المراهقة أشـارت لي مؤخرًا، وهي خبيرة في الرياضيات، إلى أنه ما لم أكن سـأعيش حتى سـن 110، فأنا في الواقع لسـتُ في منتصف العمر.

لذلـك، عـلى الرغم من القطـار البطيء الذي كنت أسـتقله وأنا أكتب هـذه الكلـمات، فإنَّ الشـعور بالإلحاح يدفـع قلمي. إنّه إلحاح شـخص لا يريد أن يموت دون أنْ يعيش بحق. إنّ الحياة ليسـت مشـكلة بالنسـبة لي،

ليس بعد، لكنني أشعر بأنفاس الوقت الحارَّة على رقبتي، وتزداد حرارتها قليلًا كل يوم. أريد -بل أحتاج- أنْ أعرف ما يهمُّ وما لا يهمُّ، وقبل فوات الأوان، «فعاجلًا أم آجلًا، تُحولنا الحياة جميعًا إلى فلاسفة» كما قال المفكر الفرنسي ماوري ريسلينج.

عندما قابلتُ هذه الكلمات لأول مرة، منذ عدة سنوات، كان العالم مكانًا أكثر سعادة. كانت الأوبئة أشياء لا توجد سوى في كتب التاريخ وسيناريوهات هوليوود. ومع ذلك، فقد أثّرت كلمات ريسيلينج فيّ لأنني كان يراودني شكٌّ مزعجٌ بأنني لا أعيش حياتي كما ينبغي.

وفي لحظة اندفاع، وبتبصّرٍ غير معهود، قلت «لماذا الانتظار؟» لماذا الانتظار حتى تصبح الحياة مشكلة بالنسبة لي؟ لماذا لا أدع الحياة تحوّلني إلى فيلسوف اليوم، الآن، بينما لا يزال هناك وقت؟

الجزء الأول

الفَجْر

الفصل الأول

كيف تنهضُ من الفراش مثل ماركوس أوريليوس

7:07 صباحًا في مكانٍ ما في داكوتا الشمالية، على متن قطار إمباير بيلدر التابع لشركة أمتراك، في طريقه من شيكاغو إلى بورتلاند بولاية أوريغون.

يُشعُّ ضوء الصباح عبر نافذة مقصورتي. أودُّ أن أقول إنه يوقظني بلطف، لكنَّ الحقيقة هي أنني لم أكن نائمًا. أشعر وكأنَّ هناك مَن كان يرجُّ رأسي بقوة لمدة طويلة. ينتشر ألمٌ خفيفٌ من جانبَي رأسي إلى باقي أجزاء جسدي. ضبابٌ كثيفٌ وسأمٌ يغمر عقلي. جسدي في حالة راحة لكنه ليس مرتاحًا.

عندما يتعلَّق الأمر بالنوم، هناك نوعان من الناس. النوع الأول ينظر إلى النوم على أنه انقطاعٌ مزعجٌ للحياة. والثاني يعتبر النوم أحد الملذات البحتة في الحياة. أنا أنتمي للفئة الثانية. لديَّ القليل من القواعد الصارمة، لكنَّ أحدها هو: لا تعبث بنومي. عبثَت شركة أمتراك به، وأنا لستُ سعيدًا.

إنّ العلاقة بين السفر بالقطار والنوم معقدة مثل معظم العلاقات. نعم، ساعدتني حركة تأرجح القطار على النوم، ولكن سرعان ما جعلتني أحاسيس حركية أخرى -بما في ذلك، على سبيل المثال لا الحصر، الانعطاف الحاد للقطار، والرجفة المفاجئة، والحركة الترنحية (المعروفة أيضًا باسم الموجة)-أستيقظ مرارًا وتكرارًا طوال الليل.

توقظني الشمس بصرامة قائدٍ عسكري. إنّ شياطيننا -صراعاتنا الداخلية- لا تطاردنا في الليل، بل تخرج في الصباح. ونحن نكون في أضعف حالاتنا عندما نستيقظ، عندما نتذكر مَن نحن وكيف أتينا إلى هنا.

أستلقي على جانبي، وأسحب بطانية أمتراك الزرقاء الصغيرة على جسدي. بالتأكيد يمكنني النهوض من السرير -حقًا يمكنني ذلك- ولكن لِمَ؟

***

«صباح الخير جميعًا!»

لقد غفوتُ ولكنني استيقظتُ الآن، ليس بفعل ترنحِ جانبي أو انعطاف حاد، ولكن بفعل صوت. يبدو الصوت نشيطًا ومفعمًا بالحيوية.

مَن ذاك؟

«أنا الآنسة أوليفر، مضيفة القطار. أودّ أن أُعلِمكم أن الكافيتيريا مفتوحة الآن وتقدِّم خدماتها. أما إذا كنتم تريدون بعض المساعدة مني، فيُرجى ارتداء الأحذية والقمصان؛ وكونوا لطفاء! «

يا إلهي. ليس هناك من عودة للنوم الآن. أمدُّ ذراعي لأحضر حقيبتي وأبحث عن كتابٍ بها، بينما أحرص على ألا أُحرّك بطانيتي. ذاك هو. التأملات. كتابٌ صغير، لا يزيد عن 150 صفحة. توجد على الغلاف صورة لرجل مُلتحٍ مفتول العضلات، يمتطي حصانًا. تشي نظرته بقوة شخص يثق بنفسه جيدًا.

قاد ماركوس أوريليوس، الإمبراطور الروماني، جيشًا قوامه يقرب

من نصف مليون رجل، وحَكَم إمبراطورية تضم خُمس سكان العالم وتمتد من إنجلترا إلى مصر، من شواطئ المحيط الأطلسيّ إلى ضفاف نهر دجلة. لكن ماركوس لم يكن شخصًا صباحيًا. كان يُفضّل البقاء في الفراش حتى وقتٍ متأخر من الصباح، ويقوم بمعظم أعماله في فترة ما بعد الظهر، بعد أخذ قيلولة. جعله هذا الروتين على خلافٍ مع رفاقه الرومان الذين كان يستيقظ معظمهم قبل الفجر. ففي ظُلمة الصباح الباكر في شوارع روما، كان يتوجّه الأطفال المُترنّحون إلى المدرسة. بينما كان ماركوس، بفضل خلفيته النخبوية، يدرس في المنزل، وبالتالي يمكنه أن ينام. وقد فعل ذلك طوال حياته.

لا يبدو أنّ هناك الكثير من القواسم المشتركة بيني وبين ماركوس. فهناك قرون بيننا، ناهيك عن فارق سُلطة لا يُستهان به. كان ماركوس يسيطر على إمبراطورية غطتْ مساحة تعادل نصف الولايات المتحدة تقريبًا. بينما أنا أسيطر على مساحة تقارب نصف حجم مكتبي، والحق يُقال، فحتى ذلك بمثابة كفاح. فأنا في صراعٍ دائم ضدَّ بطاقات العمل المتمرِّدة، وإشعارات التذكير باشتراكات المجلات، وآثار شعر القطة، وسندويشات التونة الساكنة في مكانها لثلاثة أيام، وقطتي، والحلي البوذية، وأكواب القهوة، والأعداد القديمة من مجلة فيلسوفي ناو، والكلب، واستمارات الضرائب، والقطة مرة أخرى، وحبيبات الرمال (لأسباب غير واضحة تمامًا نظرًا لبُعدي الكبير عن أقرب محيط).

ومع ذلك أقرأ ماركوس وتتلاشى هذه الاختلافات. فنحن إخوة أنا وماركوس. فهو يدير إمبراطورية ويصارع شياطينه؛ وأنا، أطعم القطة

وأصارع شياطيني. ولدينا عدو مشترك: الصباح.

يضبط الصباح إيقاع بقية اليوم. فالأيام السيئة تنتج عن صباحٍ سيئ. ليس دائمًا، ولكن في أغلب الأحيان. أثناء وجودك تحت الأغطية خلال صباح يوم الإثنين[2] البارد والمُلبد بالغيوم، تفقد المكانة الاجتماعية والامتيازات أهميتها. حتى الثروة، التي يمكن أنْ تكون مفيدة في مواقف مختلفة، تصبح غير مهمة. إذا كان هناك أي شيء تفعله الثروة في تلك اللحظة، فهو أنَّها تتآمر مع الأغطية لإبقائك في وضعٍ أفقي.

يُثير الصباح مشاعر قوية ومتضاربة. فهو من ناحية، تفوح منه رائحة الأمل. فكلُّ فجرٍ هو ولادة جديدة. لم يؤسس رونالد ريجان حملته على شعار «الليل في أمريكا»، بل كان وعده بـ«الصباح في أمريكا» هو ما أوصله إلى البيت الأبيض. وبالمثل، فإنّ الأفكار المهمة لا تأتي إلينا خلال المساء؛ بل تظهر مع بداية اليوم.

لكن بالنسبة للبعض منَّا، تفوح رائحة اليأس الغليظة من الصباح. إذا كنت لا تُحبُّ حياتك، فأنت على الأرجح لا تُحبُّ صباحك. الصباح بالنسبة للحياة غير السعيدة هو بمثابة المشهد الافتتاحي لفيلم The Hangover الجزء الثالث. إنه مذاق الفظاعة القادمة.

الصباح وقتٌ انتقالي، والانتقالات ليست سهلة أبدًا، إذ نترك حالة معينة من الوعي، وهي النوم، وندخل حالة أخرى، وهي اليقظة. بعبارة جغرافية، الصباح هو المدينة الحدودية للوعي.

(2) يوم الإثنين هو بداية الأسبوع في العالم الغربي. (المترجم)

ينقسم الفلاسفةُ حول الصباح بقدر انقسامهم حول كل شيء آخر. كان نيتشه يستيقظ عند الفجر، ويغسل وجهه بالماء البارد، ويشرب كوبًا من الحليب الدافئ، ثم يعمل حتى الساعة الحادية عشرة صباحًا. لكن إيمانويل كانط جعل نيتشه يبدو كسولًا؛ إذ كان يستيقظ في الخامسة صباحًا، بينما لا تزال سماء كونيغسبيرغ سوداء كالحبر، ويشرب كوبًا من الشاي الخفيف، ويدخن غليونًا -واحدًا فقط، وليس أكثر- ثم يبدأ العمل. أما سيمون دي بوفوار -بارك الله فيها!- فلم تكن تستيقظ حتى الساعة العاشرة صباحًا، وتستغرق بعض الوقت في تناول قهوة الإسبريسو. لم يكن ماركوس، للأسف، يتمتع بمثل هذه الرفاهية؛ فقد وُلد قبل اختراع القهوة بحوالي 1200 عام.

***

قال الوجودي الفرنسي ألبير كامو إنّ الانتحار هو «المسألة الفلسفية الوحيدة الخطيرة»؛ فقط سؤال «هل الحياة تستحق العيش أم لا»؟ هو المهم أما الباقي فمجرد هراء ميتافيزيقي. لأنّه ببساطة، إذا لم يكن هناك فيلسوف ، فلا توجد فلسفة.

أطروحة كامو سليمة منطقيًا ولكنها في رأيي غير مكتملة. إذ بمجرد أن تُصارع سؤاله حول الانتحار، وتَخلص إلى أنَّه، نعم، تستحقُّ الحياة العيش (على الأقل في الوقت الحالي؛ فالاستنتاجات الوجودية مشروطة دائمًا)، فإنّك تواجه سؤالًا آخر أكثر إثارة للقلق وهو: هل يجب عليَّ النهوض من الفراش؟ هذا السؤال، في اعتقادي، هو المشكلة الفلسفية الخطيرة حقًا. إذا كانت الفلسفة لا تستطيع إخراجنا من تحت الأغطية، فما نفعها؟

إنّ سـؤال الفـراش الكبير، مثل جميع الأسـئلة الكبرى، هـو في الواقع العديد من الأسـئلة المُتخفية في شـكلٍ سـؤالٍ واحد. دعونا ننظر فيه. على أحد المسـتويات، نحن نسأل هل تسـتطيع النهوض من الفراش. ما لم تكن معاقًـا، فإنّ الإجابة هي نعم، تسـتطيع ذلك. لكننا نسـأل أيضًا عمّا إذا كان من المفيد النهوض من الفراش، والأهم من ذلك، هل ينبغي أن تنهض من الفراش. هذا هو المكان الذي يصبح فيه الأمر صعبًا.

فكّـر الفيلسـوف الاسـكتلندي ديفيد هيـوم كثيرًا في هـذه الأنواع من الأسـئلة، عـلى الرغم من أنّـه نادرًا مـا كان يظلُّ في الفراش. لقد قسَّـم أي مسـألة إلى قسـمين: «وصفي» أو متعلق بما هو كائن، و«معياري» أو متعلق بـما ينبغـي أن يكـون. الجـزء الوصفـي هو محـض مراقبـة. فنحـن نلاحظ ونراقب-دون إصدار أحكام- الفوائد التجريبيَّة للنهوض من الفراش من قبيل زيادة تدفُّق الدم، على سبيل المثال، وتحقيق الأرباح المحتملة...إلخ.

ويحتـوي الجـزء المعياري على حكـمٍ أخلاقي. فهو لا يسـأل عن فوائد النهـوض من الفراش بـل لماذا ينبغي علينـا القيام بذلك. اعتقـد هيوم أنّنا قفزنـا بسرعـة كبيرة مـن الجزء «الوصفـي» إلى الجـزء «المعيـاري». فالجزء المعياري الأخلاقـي لا ينتج أبدًا مباشرة من الجزء الوصفي الواقعي. (لهذا السـبب تُعرَف «مشـكلة ما ينبغي فعله» أيضًا باسـم «مقصلة هيوم»)، نظرًا لأنـه يفصـل بين ما هو كائن ومـا ينبغي أن يكون ويصرُّ عـلى وجود فجوة بين الاثنين). فإذا نظرنا مثلًا في مسألة من قبيل الآتي: من المرجَّح أن يؤدي اختـلاس الأمـوال من صاحـب العمل إلى نتائج سـلبية، لذلـك ينبغي ألا تختلس، أليس كذلك؟

ليس بالضرورة، كما يقول هيوم. لا يمكنك الانتقال من عبارة عن الحقائق إلى عبارة عن الأخلاق. قد يكون النهوض من الفراش أمرًا صحيًا ومربحًا، لكن هذا لا يعني أنَّه «ينبغي» علينا القيام به. ربما لا نريد تحسين تدفُّق الدم وزيادة مكاسبنا المادية. ربما نحن مرتاحون تحت الأغطية. أعتقد أنَّ هذا الجانب المعياري المزعج يُفسِّر مأزقنا. فنحن نشعر أننا ينبغي أن ننهض من الفراش، وإذا لم نفعل فمن المؤكَّد أنَّ هناك خطأً ما فينا.

فهل ينبغي أنْ أنهض أم أبقى؟ بينما تكون دافئًا ومرتاحًا تحت الأغطية، تنخرط الدوافع المتضاربة في معركة شديدة مثل الحوار السقراطي أو مناظرة سياسية ساخنة. يقدِّم الفصيل الذي يدافع عن البقاء في الفراش حجةً مقنعة. البقاء في الفراش يوفِّر الدفء والأمان؛ إنه ليس كالرحم تمامًا، لكنَّه قريبٌ جدًا منه. تبدو الحياة حينها طيبة، وحتى أرسطو، الفيلسوف ذو المكانة العظيمة، أكَّد أنّ عيش حياة طيبة هو الهدف الأسمى. من ناحية أخرى، فإنَّ الخروج من الفراش يستلزم البرودة وعدم اليقين. إذ تتكشَّف الأحداث غير السارة خارج الأغطية من قبيل الحروب والأوبئة وحتى الأصوات المزعجة.

يبدو الأمر وكأنَّ هناك تفوُّقًا واضحًا لمعسكر الإقامة في السرير. ومع ذلك، لا يوجد شيء قاطع في الفلسفة. هناك دائما «لكن». بُنِيت أنساقٌ فلسفيةٌ كاملة، وصروحٌ فكرية ومعرفية شاهقة على تلك الكلمة البسيطة: لكن.

لكن الحياة هناك تلوح في الأفق. لدينا القليل من الوقت الثمين على هذا الكوكب. هل نريد حقًا قضاءه ونحن نائمون؟ لا، لا نريد ذلك. من

المؤكَّد أنَّ قوة الحياة، التي تنبض في عروقنا المرهقة، قويةٌ بما يكفي لانتزاع رجلٍ في منتصف العمر، يعاني من زيادة الوزن قليلًا، من السرير. أليس كذلك؟.

لطالما كانت هذه المحادثة تجري بشكلٍ ما تحت الأغطية طالما كانت هناك أغطيةٌ وأشخاصٌ للاختباء تحتها. لقد أحرزنا تقدمًا كبيرًا منذ العصر الروماني، لكنَّ سؤال الفراش الكبير لم يتغير بشكلٍ جوهري. لا أحد مُحصَّن منه، سواء أكان رئيسًا أو فلاحًا؛ طاهيًا شهيرًا أو باريستا ستاربكس؛ إمبراطورًا رومانيًا أو كاتبًا عُصابيًا، كلنا خاضعون لنفس قوانين القصور الذاتي. كلنا أجسادٌ في حالة راحة، ننتظر قوة خارجية تؤثر علينا.

***

أُغمِضُ عيني ويتجسّد ماركوس، حقيقيًا مثل فنجان القهوة الموجود على حافة سريري الصغير. أستطيع أن أتخيَّله مستريحًا في خيمته الخاصة في المعسكر الروماني على طول نهر جران، أحد روافد نهر الدانوب. أتخيَّل أنَّ اليوم باردٌ ورطبٌ، ومعنوياته منخفضة. الحرب لا تسير على ما يرام. نصبتِ القبائل الجرمانية كمينًا لخطوط الإمداد الرومانية. الروح المعنويَّة بين قوات ماركوس منخفضة، ومَن يستطيع أن يلومهم؟ فقد قُتِل أكثر من خمسين ألف جندي روماني.

لا شكَّ في أنَّ ماركوس افتقد روما، وخاصة زوجته المُحبَّة -وإن لم تكن المُخلصة دائمًا- فوستينا. لم يكن العقد الماضي سهلًا، إذ لم تشوبه تلك القبائل الجرمانية المثيرة للقلق فحسب، بل شابته أيضًا ثورةٌ فاشلةٌ قام بها كاسيوس الماكر. ثم هناك أطفاله. أنجبتْ فوستينا ثلاثة عشر طفلًا على

الأقل. أقلُّ من نصفهم فقط هم مَن بقوا على قيد الحياة.

كان ماركوس رجلًا نادرًا؛ فقد كان مَلِكًا فيلسوفًا. فما الذي دفع أقوى رجل في العالم لدراسة الفلسفة؟ فهو بصفته إمبراطورًا، بإمكانه أن يفعل، أو لا يفعل، ما يشاء. لماذا يأخذ وقتًا من جدول أعماله المزدحم لقراءة الكلاسيكيات والتأمُّل في أشياء الحياة المجردة غير القابلة للقياس؟

تُقدِّم السنوات الأولى لماركوس بعض الإشارات لسبب قيامه ذلك. فقد حظي بطفولة نادرة؛ طفولة سعيدة، طفولة ممتلئة بالكتب التي كان يُحبُّها، إذ كان يُفضِّل القراءة على الذهاب إلى السيرك. وقد وضعته هذه النزعة ضمن أقلية مميزة من تلاميذ المدارس الرومانية.

في وقتٍ لاحق، كان مفتونًا بأسلوب الحياة اليوناني، وكان ينام على الأرض الصُلبة مُغطى فقط بعباءة الفيلسوف الرثَّة، حتى وبَّخته والدته وأصرت على أن يتخلى عن «هذا الهراء» وينام في سريرٍ مناسب.

كان الرومان ينظرون إلى الفلسفة اليونانية بالطريقة التي ينظر بها معظمنا إلى الأوبرا: شيء قيِّم وجميل، ويجب علينا حقًا أن نذهب إليه كثيرًا، ولكن من الصعب للغاية إدراكه، علاوة على ذلك، مَن لديه الوقت؟ لقد أحبَّ الرومان فكرة الفلسفة أكثر من الفلسفة الفعلية. وهذا ما جعل ماركوس، الفيلسوف الفعلي، موضع شك كبير. وحتى عندما كان إمبراطورًا، كان الناس يسخرون منه في غيابه.

لقد أصبح ماركوس إمبراطورًا بالصدفة. إذ لم يرغب في هذا المنصب أبدًا. كان سلفه هادريان هو الذي أشعل فتيل الأحداث التي أدت إلى تتويج ماركوس إمبراطورًا في عام 161م. وكان عمره أربعين عامًا.

استمتع ماركوس بفترة هانئة لستة أشهر. ثم جاء طوفانٌ مميتٌ وطاعونٌ وغزواتٌ. وبصرف النظر عن هذه الحروب، لم تكن يد ماركوس ملطَّخةً بالدماء إلا قليلًا. إنّ ذلك بمثابة دليل حيٍّ على أنَّ السلطة المطلقة لا تتسبب في الفساد دائمًا. كان يصدر ماركوس بشكل معتاد أحكامًا مخفَّفة للفارّين من الجُندية وغيرهم من منتهكي القانون. وعندما واجهت الإمبراطورية أزمة مالية، قام ببيع الأشياء الملكية بمزادٍ علني -الملابس والكؤوس والتماثيل واللوحات- بدلًا من زيادة الضرائب. وفي فعل أجده مؤثرًا بشكل خاص، أصدر مرسومًا ينص على أنَّ جميع مَن يمارسون رياضة المشي على الحبال المشدودة -وغالبًا ما يكونون من الصبية الصغار- يجب عليهم من الآن فصاعدًا القيام بذلك وبأسفلهم مراتب إسفنجية سميكة.

أظهر ماركوس شجاعةً كبيرةً في المعارك، ولكن، كما يقول كاتب السيرة الذاتية فرانك ماكلين، كان إنجازه الأكثر شجاعة هو «سعيه المستمر للحدّ من تشاؤمه الطبيعي». يمكنني إدراك تلك المعاناة. فأنا أيضًا أتصارع مع قوى السلبية، التي تحاول دائمًا تجنيدي لصالحها. بالنسبة لنا -مَن نطمح أن نصبح متفائلين- فإنَّ كأسًا نصف فارغة أفضلُ من عدم وجود كأس على الإطلاق، أو من كأس تحطَّمت إلى مائة قطعة صغيرة واخترقت شريانًا رئيسيًا. الأمر كله يتعلق بالمنظور.

واجه ماركوس صعوبةً في النوم. إذ كان يعاني من آلام غير محددة في الصدر والمعدة. وقد وصف له طبيبه، وهو رجلٌ متعجرفٌ ولكنَّه بارعٌ يُدعى جالينوس، الترياق (ربما ممزوجًا بالأفيون) لمساعدته على النوم.

كان ماركوس -مثلي- يطمح إلى أن يكون شخصًا صباحيًا. ومع

ذلك، هناك فجوةٌ واسعةٌ تفصل بين الأشخاص الصباحيين الفعليين والأشخاص الذين يطمحون لأن يصبحوا صباحيين. وأنا مستلقٍ هنا الآن، وأشعر باهتزازات القطار اللطيفة، وبطانية شركة أمتراك تُدفئ جسدي، أستطيع أنْ أرى أنّها فجوةٌ لا يمكن التغلب عليها.

قد تعتقد أن لا شيء يُمكن أن يكون أسهل من ذلك. ضعْ قدمًا واحدة على الأرض، ثم الأخرى، ثم اسحب نفسك إلى وضعٍ عمودي. لكنني أفشل في تحقيق الوضع العمودي. ولا حتى وضعٍ قُطري. ما خطبي؟ ساعدني يا ماركوس.

***

لا يُشبه كتاب التأملات أي كتاب قرأته. إنّه ليس كتابًا حقًا على الإطلاق. إنَّه موعظةٌ. مجموعةٌ من التذكيرات والمحادثات الحماسية. ملاحظات تُشبه الملاحظات التي نضعها على الثلاجة في عصرنا الحالي. أكثر ما يخشاه ماركوس أوريليوس ليس الموت بل النسيان. يُذكِّر نفسه باستمرار أنْ يعيش بشكل كامل. لم يكن لدى ماركوس أيُّ نية لنشر ملاحظات الثلاجة الخاصة به. كانت مُخصصةً لنفسه. وهكذا فأنت لا تقرأ ماركوس بقدر ما تتنصَّت عليه.

وأنا أُحبُّ ما «أسمعه». أُحبُّ صدق ماركوس. تعجبني الطريقة التي يُعرِّي بها ذاته على الصفحات، ويكشف عن مخاوفه ونقاط ضعفه. هنا يعترف أقوى رجل في العالم بأنَّه يُعاني من الأرق ونوبات الهلع، ويصف أداءه الجنسي بأنَّه متوسط في أحسن الأحوال(«يُودِع حيواناته المنوية ويغادر»، هكذا يصف فعل الجماع). لم يغفل ماركوس أبدًا عن المبدأ

الرواقي القائل بأنَّ كل الفلسفة تبدأ بالوعي بضعفنا.

لم يبنِ ماركوس أيَّ نسقٍ فلسفي كبير يمُكن تفكيكه على أيدي أجيال من طلاب الدراسات العليا الجادين. هذه هي الفلسفة كعلاج، حيث يلعب ماركوس دور المعالج والمريض. كتابه التأملات، كما أشار المترجم جريجوري هايز، هو «كتاب مساعدة ذاتية بالمعنى الحرفي للكلمة».

فمرارًا وتكرارًا، يحثُّ ماركوس نفسه على التوقُّف عن التفكير والبدء في التصرف. توقف عن وصف كيف يكون المرء صالحًا، بل كُنْ واحدًا. إنَّ الفارق بين الفلسفة والحديث عن الفلسفة هو الفارق بين شرب الخمر والحديث عن الخمر. رشفة واحدة من نبيذ البينو نوار الجيد تخبرك عن الخمر أكثر من سنوات من الدراسة الجادة للخمور.

لم تتحقق أفكار ماركوس ببساطة. لكن لا يقتصر ذلك عليه، فلا توجد أي أفكار فلسفية تتحقق ببساطة. لقد كان رواقيًا، ولكن ليس على سبيل الحصر. فقد تشرَّب مصادر أخرى: هيراقليطس، وسقراط، وأفلاطون، والكليكيون، والأبيقوريون. كان ماركوس، مثل كل الفلاسفة العظماء، جامعًا للحكمة. ما كان يهم بالنسبة له هو قيمة الفكرة، وليس مصدرها.

إنَّ قراءة التأملات هي بمثابة مشاهدة فعل فلسفي مباشرة. إذ يبثُّ ماركوس أفكاره مباشرة دون رقابة. إنني أشاهد «شخصًا يُدرِّب نفسه ليكون إنسانًا»، على حدّ تعبير المؤرخ بيير هادو.

تبدأ العديد من الفقرات في التأملات بعبارة «عندما تواجه صعوبة في النهوض من الفراش. . .». وبينما أواصل القراءة، يتبادر إلى ذهني أنَّ جزءًا كبيرًا من الكتاب عبارة عن أطروحة متخفية حول «سؤال الفراش الكبير»،

ليس فقط كيفية النهوض من الفراش ولكن لماذا تتكبَّد عناء ذلك؟ يبدو لي وكأنَّه سؤال كامو الخاص بالانتحار لكنَّه ملفوف في لحاف من الريش. يتأرجح ماركوس بين وجهات النظر المتعارضة ويجادل نفسه.

«من أي شيء أشتكي إذا كنت سأفعل ما وُلدت من أجله؛ إذا كنت سأفعل الأشياء التي جئت إلى العالم لأقوم بها؟»

«أم لهذا خُلِقت؟ أن أتقوقع تحت البطانيات وأظل دافئًا؟»

«لكن من اللطيف البقاء هنا...».

« إذن هل وُلِدت لتشعر بشعور ‹الطيف؟› بدلًا من القيام بالأشياء وتجربتها؟»

يظلُّ ماركوس يجادل نفسه ذهابًا وإيابًا. إنه يعلم أنّ هناك أعمالًا عظيمة يجب القيام بها، وأفكارًا عظيمة يجب التفكير فيها.

لو أنه يستطيع فقط النهوض من الفراش.

***

«مرحبا أيها الركاب. الكافيتريا لا تزال مفتوحة وتقدم خدماتها!»

لقد عادت الآنسة أوليفر، وهي أكثر مرحًا من أي وقت مضى.

حسنًا أنا الآن أفكر بجدية في النهوض من السرير في أي دقيقة. أتفحص فنجان القهوة المصنوع من مادة الستايروفوم وألاحظ شذرات من حكمة شركة أمتراك عليه. «غيِّر كيفية رؤيتك للعالم»، وعلى الجانب الآخر، «تذوَّق طعمًا أفضل للعالم». أعترف أنَّني لست مثقفًا جهبذيًا، لكني

الرواقي القائل بأنَّ كل الفلسفة تبدأ بالوعي بضعفنا.

لم يبنِ ماركوس أيَّ نسقٍ فلسفي كبير يمُكن تفكيكه على أيدي أجيال من طلاب الدراسات العليا الجادين. هذه هي الفلسفة كعلاج، حيث يلعب ماركوس دور المعالج والمريض. كتابه التأملات، كما أشار المترجم جريجوري هايز، هو «كتاب مساعدة ذاتية بالمعنى الحرفي للكلمة».

فمرارًا وتكرارًا، يحثُّ ماركوس نفسه على التوقُّف عن التفكير والبدء في التصرف. توقف عن وصف كيف يكون المرء صالحًا، بل كُنْ واحدًا. إنَّ الفارق بين الفلسفة والحديث عن الفلسفة هو الفارق بين شرب الخمر والحديث عن الخمر. رشفة واحدة من نبيذ البينو نوار الجيد تخبرك عن الخمر أكثر من سنوات من الدراسة الجادة للخمور.

لم تتحقق أفكار ماركوس ببساطة. لكن لا يقتصر ذلك عليه، فلا توجد أي أفكار فلسفية تتحقق ببساطة. لقد كان رواقيًا، ولكن ليس على سبيل الحصر. فقد تشرَّب مصادر أخرى: هيراقليطس، وسقراط، وأفلاطون، والكلبيون، والأبيقوريون. كان ماركوس، مثل كل الفلاسفة العظماء، جامعًا للحكمة. ما كان يهم بالنسبة له هو قيمة الفكرة، وليس مصدرها.

إنَّ قراءة التأملات هي بمثابة مشاهدة فعل فلسفي مباشرة. إذ يبثُّ ماركوس أفكاره مباشرة دون رقابة. إنني أشاهد «شخصًا يُدرِّب نفسه ليكون إنسانًا»، على حدّ تعبير المؤرخ بيير هادو.

تبدأ العديد من الفقرات في التأملات بعبارة «عندما تواجه صعوبة في النهوض من الفراش. .». وبينما أواصل القراءة، يتبادر إلى ذهني أنَّ جزءًا كبيرًا من الكتاب عبارة عن أطروحة متخفية حول «سؤال الفراش الكبير»،

ليس فقط كيفية النهوض من الفراش ولكن لماذا تتكبَّد عناء ذلك؟ يبدو لي وكأنَّه سؤال كامو الخاص بالانتحار لكنَّه ملفوف في لحاف من الريش. يتأرجح ماركوس بين وجهات النظر المتعارضة ويجادل نفسه.

«من أي شيء أشتكي إذا كنت سأفعل ما وُلدت من أجله؛ إذا كنت سأفعل الأشياء التي جئت إلى العالم لأقوم بها؟»

«أم لهذا خُلِقت؟ أن أتقوقع تحت البطانيات وأظل دافئًا؟»

«لكن من اللطيف البقاء هنا...».

« إذن هل وُلِدت لتشعر بشعور ‹لطيف؟› بدلًا من القيام بالأشياء وتجربتها؟»

يظلُّ ماركوس يجادل نفسه ذهابًا وإيابًا. إنه يعلم أنّ هناك أعمالًا عظيمة يجب القيام بها، وأفكارًا عظيمة يجب التفكير فيها.

لو أنه يستطيع فقط النهوض من الفراش.

***

«مرحبا أيها الركاب. الكافيتيريا لا تزال مفتوحة وتقدم خدماتها!»

لقد عادت الآنسة أوليفر، وهي أكثر مرحًا من أي وقت مضى.

حسنًا أنا الآن أفكر بجدية في النهوض من السرير في أي دقيقة. أتفحص فنجان القهوة المصنوع من مادة الستايروفوم وألاحظ شذرات من حكمة شركة أمتراك عليه. «غيِّر كيفية رؤيتك للعالم»، وعلى الجانب الآخر، «تذوَّق طعمًا أفضل للعالم». أعترف أنّني لست مثقفًا جهبذيًا، لكني

أجد البساطة الطفولية مُحببة.

تحب سونيا، ابنتي البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، نومها بقدر ما أحبُّه. أعلنتْ ذات يوم: «أنا أُعرّف نفسي على أنني إنسانة كسولة». إنَّ محاولة جعلها تنهض من الفراش في صباح أيام الأسبوع تتطلَّب حشدًا للموارد لم نشهده منذ عملية نورماندي. ومع ذلك، في عطلات نهاية الأسبوع والأيام الثلجية، تعود إلى الحياة دون مساعدة. وعندما سألتها عن هذا التناقض، أوضحتْ بطريقة فلسفية: «إنّ النشاط هو الذي يُخرِجك من الفراش، وليس المنبِّه».

إنها مُحقة. عندما أجد صعوبة في النهوض من السرير، فإنَّ عدوي ليس السرير، أو حتى العالم الموجود بالخارج، بل توقعاتي. وأنا مستلقٍ تحت الأغطية، أتخيل عالمًا معاديًا مصممًا على قلب حالتي رأسًا على عقب. تمامًا مثل ماركوس. صحيح أنَّ عالمه شهد برابرة محاربين، وطاعونًا، وثوراتٍ في القصور. لكنَّ العوائق نسبية. المكتب الفوضوي لشخص ما هو بمثابة غزو وحشي لشخصٍ آخر.

ربما يكون العائق الأكبر هو الأشخاص الآخرين. لم يذهب ماركوس إلى ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، الذي قال في عبارته الشهيرة أنَّ «الجحيم هو الآخرون»، لكنه يقترب من ذلك، إذ يقول: «عندما تستيقظ في الصباح، قل لنفسك: ‹الأشخاص الذين تتعامل معهم اليوم سيكونون متطفلين، ناكرين للجميل، متعجرفين، حاسدين، وفظين›». ولم يتغير الكثير منذ أيام ماركوس.

اقترح ماركوس التعامل مع الأشخاص صعبي المراس من خلال

إضعافهـم. أبطِل تأثيرهم على حياتك. لا يمكن للآخرين أن يؤذوك، لأنه «لا شيء يـدور في ذهن أي شـخص آخر يمكن أن يؤذيـك». بالطبع. لماذا أهتمُّ بما يفكر فيه الآخـرون عندما يكون التفكير، بحكم التعريف، يحدث بالكامل داخل عقولهم، وليس عقلي؟

لقـد كنت أشـكُّ دائمًا في أن هناك كراهية ماكـرة للذات تكمن في قلب عـدم قدرتي على النهوض مـن الفراش، وهو أمرٌ لا أسـتطيع الاعتراف به تمامًـا. لكنَّ ماركوس أشـجع منـي، ويفعل ذلك. إذ يقـول: «أنت لا تُحبُّ نفسـك بما يكفـي»، ويبدو أنـه على وشـك التعاطف مع ذاتـه لكنه ينقضُّ مهاجمًـا مرة أخرى بعد صفحة أو اثنتين. «كفـى هذا الأنين البائس، وحياة القـرود... . يمكـن أن تكـون مُنتِجًا اليـوم. لكنك بدلًا مـن ذلك اخترت الغد». وهو يوجّه أشـد انتقاداته الحادة لأنانيته المتصورة. «عندما أسـتلقي في السريـر، كما أنا الآن، لا أفكر سـوى في نفسي». وهكـذا فإنَّ البقاء تحت الأغطية هو، كما يَخلُص في نهاية المطاف، فعلٌ أناني.

هذا الإدراك يجعل ماركوس يتحرَّك. إذ يقع عليه واجب النهوض من السريـر. «واجب» وليس «إلزامًا». هنـاك فرقٌ. الواجب يأتي من الداخل، والإلـزام من الخـارج. عندما نتصرف انطلاقًا من الشـعور بالواجب، فإننا نفعل ذلك طوعًا لنرتقي بأنفسنا وبالآخرين. أما عندما نتصرف من منطلق الإلزام، فإننا نفعل ذلك لحماية أنفسنا، وأنفسنا فقط، من التداعيات.

كان ماركـوس عـلى علم بهذا التمييـز، ولكن كالعـادة كان بحاجة إلى تذكير نفسه به. «عند الفجر، عندما تجد صعوبة في النهوض من السرير، قل لنفسـك: «يجب أن أذهب إلى العمل كإنسان». ليس كرواقي أو إمبراطور،

أو حتى كروماني، ولكن كإنسان..

***

أوه. الآنسة أوليفر هنا..

«هـل ذكرتُ لكـم أنَّ الكافيتيريا مفتوحـة؟ إنني أتطلـع إلى مقابلة كل واحد منكم!»

هذا يكفي. سأنهض من الفراش.

أزيـل بطانية شركة أمتراك، التي يمكن نزعها بسـهولة. أنهض وأقف. وأتساءل، ما الذي كان وراء كل هذا التذمر والمبالغة؟ الأمر بسيط.

كنـت على وشـك الاحتفـال بانتصـاري الصغـير ولكن الحاسـم على الجاذبيـة حـين باغتني انعطافٌ جانبي -أو ربما هزة ترنحية مفاجئة، لسـت متأكدًا- وألقى بي على السرير مجددًا.

هذا هو الأمر المثير للقلق بشأن سؤال الفراش الكبير. إذ لا يكفي الرد عليـه مرة واحدة. إنّه مثل الذهاب إلى صالـة الألعاب الرياضية، أو الأبوة والأمومة. يتطلَّب مجهودات متكررة ومنتظمة.

أوه..الآنسة أوليفر هنا مرة أخرى..سيداتي وسادتي!

أُدثّر جسـدي ببطانية أمتراك وأقـول لنفسي: «خمس دقائق أخرى، فقط خمس دقائق أخرى».

الفصل الثاني

كيف تتساءل مثل سقراط

10:47 صباحًـا على متن القطار رقم 1311 المتجه مـن كياتـو إلى أثينـا.

قطـار الأفـكار[3]. تعبـيٌر مبتـذل، لكنه مُعـبرٌ. فكل فكرة مـن أفكارنا مرتبطـة بالأخـرى مثـل عربـات النقـل في قطار الشـحن. إنهـا تعتمد على بعضهـا البعض في زخمها إلى الأمام. كل فكرة، سـواء كانت تتعلق بالآيس كريم أو الاندماج النووي، تدفعها الفكرة السابقة وتسحبها الفكرة التالية.

تسـافر المشـاعر في القطارات أيضًـا. إذ تبدو نوبـات الاكتئاب الدورية التـي أعاني منها وكأنها تأتي من لا مـكان، ولكن عندما أتوقف وأتحقق من مصدرها، أكتشـف سـببًا خفيًا. كان سبب حزني هو فكرة أو شعور سابق، والذي كان سـببه فكرة أو شعور أسـبق، والذي أثاره شيء قالته والدتي في عـام 1982. إنّ المشـاعر، مثـل الأفكار، لا تأتي أبـدًا من فـراغ. هناك دائمًا قاطرة تسحبها.

أطلـب بعـض المعجنات وقهـوة، فيتباطأ قطـارُ أفـكاري. لا أفكر ولا أشـعر بشيء. أنا لسـتُ مخدرًا، ليس بالضبط. لا أشعر بالسعادة ولا الحزن ولا الطيف الواسـع بينهما. أنا فارغ، لكن بطريقة جيدة. يساعدني التأرجح اللطيف للقطار -على عكس رحلات شركة أمتراك الوعرة- والاسـتمتاع بقهوتي-ليـس فقـط المذاق ولكـن الطريقة التـي يلائم بها الكـوب الدافئ

---

(3) لعل الترجمة المناسبة لعبارة train of thoughts هي حبل الأفكار كما نقول في العربية، لكني آثرتُ ترجمتها ترجمة حرفية لأن المؤلف يبني ما بعدها عليها. (المترجم)

الثقيـل يدي- على أخذ إجازة من قلقي وتصفية ذهني. أشـاهد الأسـطح الحمـراء والبحر الأيـوني الأزرق ينزلقان كما لو كانا يتحـركان، وليس أنا. أحدّق من النافذة إلى لا شيء على وجه الخصوص، وأتساءل.

«أتسـاءل». كلمة بسيطة، لكنها تحتوي على بذور الفلسفة كلها، وأكثر. كل الاكتشـافات العظيمـة والإنجـازات الشـخصية بدأت بهـذه الكلمة: أتساءل.

***

في مناسبات نادرة، ربما مرة أو مرتين في العمر إذا كنت محظوظًا، تواجه عبارة مفاجئة بشـكل اسـتثنائي ومليئة بالدلالة العميقة، مما يجعلك تتوقف لبُرهة. عثرتُ على مثل هذه العبارة مُخبأة ضمن كتاب غريب بعنوان «قلب الفلسـفة» من تأليف جاكوب نيدلمان. أقـول غريبًا لأنني في ذلك الوقت لم أكن أعلم أنَّ للفلسفة قلبًا. كنت أعتقد أنَّها دماغ فقط!

وإليـك العبـارة: «تميـلُ ثقافتنـا عمومًا إلى حـل مشـكلاتها دون عَيش أسئلتها».

وضعـتُ الكتـاب جانبًـا وقلَّبـت الكلـمات في ذهني. كنـت أعلم أنَّها تحتوي على حقيقةٍ مهمَّة لكنني لم أعرف ما هي. كنتُ مشوَّشًا. كيف يعيش المرء الأسئلة؟ وما العيب في حل المشكلات؟

وبعـد بضعة أسـابيع، وجدتُ نفسي جالسًـا في مواجهـة الرجل الذي كتـب تلك العبـارة العميقة والمُحيرة. جاكوب نيدلمان هو أسـتاذ الفلسـفة في جامعة سـان فرانسيسـكو. لقد أبطأ العمر مشـيته. أصبح صوته خافتًا،

وجلده شاحبًا، لكنَّ عقله ظلَّ مُتقدًا. يفكر جاكوب قبل أنْ يتحدث، وعلى عكس معظم أساتذة الفلسفة، يستخدم الكلمات التي يستخدمها الأشخاص العاديون. كلمات مثل «سؤال» و«عيش». لكن الطريقة التي يجمع بها بينهما ليست عادية على الإطلاق.

وبينما كنَّا نجلس على سطح منزله المُطل على تلال أوكلاند، نحتسي شاي إيرل جراي ومياه مملوءة بالليمون، سألتُ نيدلمان: ما ذلك الذي تقوله؟ نحن نسأل الأسئلة، أو نطرحها، وقد نتصارع معها. لكن نحن لا نعيش الأسئلة. ولا حتى في كاليفورنيا.

ظلَّ نيدلمان صامتًا لفترة طويلة لدرجة أنني خشيتُ أن يكون قد غفا. لكن أخيرًا، تحرَّك وتحدَّث بصوتٍ منخفضٍ جدًا لدرجة أنَّني كان لابدَّ أن أقترب منه لأسمعه.

«إنَّه أمرٌ نادرٌ ولكنه ممكن. لقد عاش سقراط الأسئلة».

بالطبع. سقراط الغامض الذي لا مفرَّ منه. شفيعُ الفلسفة. ملك السؤال. لم يخترع سقراط السؤال، لكنه غيَّر الطريقة التي نطرحه بها، وبالتالي الإجابات التي تتولَّد عنه. أنت تفكِّر وتتصرَّف بشكل مختلف بسبب سقراط، حتى لو كنت لا تعرف عنه شيئًا.

سقراط ليس رجلًا يسهل معرفته. إذ يجلس عاليًا في البرج العاجي الذي شيّدناه له، وبالكاد يمكن رؤيته. مجرد بقعة. مجرَّد فكرة، وغالبًا غامضة.

وهذا مُخزٍ. إذ لم يكن سقراط مجرَّد بقعة. ولم يكن فكرة. لقد كان رجلًا.

رجلًا يتنفس، ويمشي، ويتغوَّط، ويمارس الحب، ويمسح أنفه، ويشرب الخمر، ويُلقي النكات.

كان رجلًا قبيحًا أيضًا، بل وقيل إنَّه «أقبح رجل في أثينا». كان أنفه عريضًا ومسطحًا، وشفتاه ممتلئتين وسمينتين، وبطنه كبيرًا. وكان أصلع، ولديه عيون تُشبه السلطعون، ومتباعدة كثيرًا، مما منحه رؤيةً محيطية رائعة. ربَّما كان سقراط يعرف أو لا يعرف أكثر من الأثينيين الآخرين (لقد أصرَّ على أنَّه لا يعرف شيئًا)، لكنَّه بالتأكيد رأى المزيد.

وكان سقراط يأكل قليلًا، ولا يستحمُّ إلا نادرًا، ويرتدي دائمًا نفس الملابس الرثَّة. كان يسير حافي القدمين في كلِّ مكان، حتى في الشتاء القارص، وبمشيةٍ غريبة، ما بين التمايل والتبختر. كان يُمكنه أن يقضي أيامًا دون نوم، ويشرب دون أن يسكر. كما كان يسمع أصواتًا، بل صوت واحد إنْ شئت الدقة. أطلق عليه اسم «قرينه». وكما أوضح أثناء محاكمته بتهمة التجديف وإفساد شباب أثينا: «بدأ هذا الأمر عندما كنتُ طفلًا. إنّه صوتٌ، وكلَّما تحدَّث فإنَّه يُبعدني عن شيء أكون على وشك القيام به، لكنَّه لا يُشجعني أبدًا على القيام بأي شيء».

إنَّ مظهر سقراط الغريب بالإضافة لسماته جعلاه يبدو من عالمٍ آخر. يقول الفيلسوف المعاصر بيتر كريفت: «يبدو أنَّه دخل «المحادثة الكبرى»[4] للبشرية من الخارج، كما لو كان من كوكب آخر».

(4) يشير مصطلح «المحادثة الكبرى» للعملية المستمرة التي يقوم فيها الكُتّاب والمفكرون بالتفكير في الأسئلة البشرية والوجودية الكبرى في السياسة والدين والأخلاق والمعرفة بالإشارة إلى أعمال أسلافهم والبناء عليها وتنقيحها. (المترجم)

أعتقد أنَّ هذا ينطبق على جميع الفلاسفة. إنهم يمتلكون شيئًا يبدو وكأنَّه من خارج عالم البشر. حتى ماركوس، الإمبراطور الروماني، شعر بأنَّه غيرُ كفء. وكان ديوجانس، مؤسس المذهب الكلبي، فيلسوفًا غريب الأطوار. إذ كان يعيش في برميل، ويستمني في الأماكن العامة، وبشكل عام كان يمثل صدمة للناس الصالحين في أثينا القديمة.

هذه اللمسة الغريبة -بغض النظر عن الاستمناء في الأماكن العامة!- منطقية. إذ تدور الفلسفة حول التشكيك في الافتراضاتِ والمسلَّمات، وهزّ القوارب المستقرة. نادرًا ما يهزُّ القباطنة قواربهم الخاصة. فلديهم الكثير مما يخافون عليه. أما الفلاسفة فلا. إنَّهم من عالمٍ آخر. إنَّهم كائنات فضائية.

***

كان سقراط ممارسًا لـ «الحكمة المجنونة». وهي توجد في تقاليد متباينة مثل البوذية التبتية والمسيحية. تعملُ الحكمة المجنونة على فرضية أنَّ الطريق إلى الحكمة ملتوٍ. وهكذا فلا بد من السير في مساراتٍ متعرجة.

تعني الحكمة المجنونة التخلي عن الأعراف الاجتماعية والمخاطرة بالنبذ، أو ما هو أسوأ من ذلك: دفع الآخرين إلى الفهم. إنَّها النموذج الأصلي للعلاج بالصدمة. لا أحد يحب أن يُصدَم، وغالبًا ما ننبذ ممارسي الحكمة المجنونة باعتبارهم مجانين أكثر من كونهم حكماء. إليكم كيف وُصِف سقراط من قِبل تلميذه ألسيبياديس: «سيتحدَّث عن حمير القطيع والحدادين والإسكافيين والدباغين، ويبدو أنَّه يكرر دائمًا نفس الأشياء بحيث إنَّ الشخص الذي لم يكن معتادًا على أسلوبه ولم يكن سريعًا جدًا في الاستيعاب سيعتبر ما يقوله مجرد هراء مطلق». ومع ذلك، يخلُص ألسيبياديس إلى أنَّك إذا قضيت بعض

الوقت في الاستماع حقًا إلى سقراط، فسوف تُدرك أنَّه بعيد عن الهراء. إذ يقول: «إنّ حديثه هو حديثٌ شِبه إلهي».

***

بينما كان جاكوب نيدلمان يصبُّ كوبًا آخر من شاي إيرل جراي، أخبرني عن السؤال الأول الذي عاشه. يتذكر ذلك بوضوح. كان في الحادية عشرة من عمره. كان هو وصديقه إلياس بارخورديان يجلسان بجانب جدار حجري منخفض في الحي الذي يقطنانه في فيلادلفيا، تمامًا كما يفعلان عدة مرات في الأسبوع، حتى في الأيام التي كان فيها الجدار مُغطى بالجليد والثلج.

كان إلياس أكبر من جاكوب بسنة، وكان طويل القامة بالنسبة لعمره، و«ذا وجه كبير مستدير وعينين داكنتين لامعتين». كان الاثنان يستمتعان بمناقشة الأسئلة العلمية المهمة، حول كل شيء بدءًا من حركة الإلكترونات وحتى طبيعة الأحلام. أثارت هذه الأسئلة فضول جاكوب، ولكن في هذا اليوم بالذات، سأله إلياس سؤالًا أذهله: «مَن خلق الله؟»

يتذكَّر جاكوب التحديق في «جبهة إلياس الكبيرة الناعمة كما لو كنت أحاول النظر إلى دماغه» على حدّ تعبيره، وأدرك أنَّه «عندما سأل هذا السؤال، لم يكن يتحدَّاني فحسب، بل كان يتحدَّى الكون بأكمله. لقد بثَّ شعورًا غير عادي بالحرية فيّ. وأتذكر أنّني قلت لنفسي هذه الكلمات: 'هذا هو أفضل صديق لي'».

كان جاكوب نيدلمان منبهرًا بالفرحة غير المتوقعة المتمثلة في طرح الأسئلة الكبيرة وعيشها.

وتماثل قصة سقراط قصة جاكوب. المكان مختلف بالطبع -شوارع أثينا وليس فيلادلفيا- لكنَّ المسار متشابهٌ. كان هناك تحوُّل إلى اتجاهٍ جديدٍ وغير متوقع، ومرة أخرى، كان أحد الأصدقاء هو المسؤول، في حالة سقراط، كان شابًا يُدعى كريفون. ففي أحد الأيام، زار كريفون عرَّافة دلفي وسألها سؤالًا: هل يوجد في أثينا رجلٌ أكثر حكمة من سقراط؟

جاءه الرد: «لا، لا يوجد».

وعندما نقل كريفون كلمات العرافة إلى سقراط، أُصيب بالذهول. لا يوجد أحدٌ أكثر حكمة منه؟ كيف ذلك؟ لقد كان -من وجهة نظره- مجرد ابن قاطع حجارة لا يعرف شيئًا. ومع ذلك، فإنَّ العرّافين لا يُخطئون أبدًا، لذلك قرَّر سقراط التحقيق في الأمر. اقترب من الأثينيين الموقّرين، بدءًا من الشعراء وحتى الجنرالات. وسرعان ما أدرك أنَّ هؤلاء الرجال لم يكونوا حكماء كما كانوا يعتقدون. إذ لم يستطع الجنرال أن يخبره ما هي الشجاعة، ولم يستطع الشاعر تعريف الشعر. وفي كل مكان توجَّه إليه التقى بأشخاصٍ «لا يعرفون ما لا يعرفونه».

وخلُص سقراط إلى أنَّه ربما تكون العرَّافة محقة. ربما يمتلك نوعًا من الحكمة؛ حكمة معرفة ما لا يعرفه. إنَّ أسوأ أنواع الجهل بالنسبة لسقراط هو ذلك النوع الذي يتنكَّر في صورة المعرفة. إنَّ الجهل الواسع والصادق أفضل من المعرفة الضيقة والمشكوك فيها.

إنَّ تقديم هذا الجهل البريء، هذه «السذاجة الجديدة الرائعة»، على حدّ تعبير الفيلسوف كارل ياسبرز، هو أعظم مساهمة لسقراط في البحث البشري، وهي المساهمة التي لا تزال تحرِّك السعي الفلسفي حتى اليوم.

لم يكـن سـقراط الفيلسـوف الأول. فقد سبقه كثيرون: فيثاغورس، وبارمنيـدس، وديموقريطس، وطاليس، على سبيل المثال لا الحصر. حوَّل هـؤلاء الرجـال نظرهم نحو السـماء. لقد سـعوا جاهدين لـشرح الكون، واختراق أسرار العالم الطبيعي. وكانت النتائج مختلطة. كان طاليس، الذي كان بارعًا في العديد من النواحي، مقتنعًا بأنَّ كلَّ مادة في الكون تتكون من الماء. ومثل سـقراط، طرح هؤلاء الفلاسـفة أسئلة، لكن أسئلتهم كانت في الأساس أسـئلة «ماذا» و«لماذا». أسئلة من قبيل: ممّ يتكون كل شيء؟ لماذا تختفي النجوم أثناء النهار؟

هذا النوع من الأسـئلة لم يُثِـر اهتمام سـقراط. كان يعتقد أنَّها أسئلةٌ غير قابلـة للإجابة، وفي النهاية، غير مهمة. قد يكون الكون رائعًا، لكنه لا يُجيد فنَّ الحوار، والحوار هو أكثر ما كان يتوق إليه سقراط .

قـال عالم الكونيـات كارل سـاجان ذات مرة: «كلُّ سـؤال هو صرخة لفهم العالم». وقد يوافق سقراط على ذلك إلى حدٍّ ما. كلُّ سؤال هو صرخة لفهم أنفسـنا. كان سقراط مهتمًا بأسـئلة «الكيفية» من قبيل: كيف يمكنني أنْ أعيش حياة أكثر سـعادة ومعنى؟ كيف يُمكنني ممارسـة العدالة؟ كيف يمكنني أن أعرف نفسي؟

لم يتمكن سقراط من فهم سبب عدم اهتمام زملائه الأثينيين بهذا النوع من الأسـئلة، بالنظر لحماسهم للتحسُّن، سواء تَمثّل ذلك الحماس في البحث عـن طريقة أفضل لصنع التماثيل أو ممارسـة الديمقراطية. بدا لسـقراط أنّ الأثينيين عملوا بلا كلل لتحسين كل شيء، باستثناء أنفسهم. كان يعتقد أنَّ هذا يجب أن يتغير، وجعل مهمة حياته أنْ يفعل ذلك.

كان هذا بمثابة تحوُّل كبير في الفلسـفة. إذ لم تعد مجرد تكهنات غامضة حـول الكون؛ بل أصبحـت تتعلَّق بالحياة وكيفية تحقيق أقـصى إفادة منها. أصبحتْ عملية، ولا غنى عنها. وكما قال السياسي والفيلسـوف الروماني شـيشرون: «إنَّ سـقراط هو أول من أنزل الفلسـفة من السـماء، وأقامها في المدن، وأدخلها في بيوت الناس».

لم يتصرَّف سـقراط بالطريقة التي نعتقد أنَّ الفلاسفة يجب أن يتصرَّفوا بهـا. إذ لم يُظهـر أيَّ اهتمام بحشـود المريدين والتلاميذ. (عندما كان يسـأله الطلّاب عن فلاسـفة آخرين، كان يجيبهم بسـعادة). ولم يورِّث أي قدرٍ من المعرفة، ولا نظريات أو مذاهب. لم ينشر أيَّ مجلدات ضخمة. في الواقع، لم يكتب كلمة واحدة. فنحن نعرف سقراط اليوم بفضل مجموعة من المصادر القديمة، أبرزها تلميذه أفلاطون.

لا يوجد شيء اسـمه «الفكر السقراطي»، بل فقط التفكير السقراطي. كان سقراط مهتمًا بالوسائل، وليس الغايات. إنَّنا نتذكر سقراط اليوم ليس بسبب ما عرفه، بل بسبب الطريقة التي عرفه بها. لقد كان يهتمُّ بالمنهج أكثر مـن المعرفة. المعرفة يمكن أنْ تتأثر بالزمـن وتصبح بالية. أما المناهج فتظل ذات قيمة.

يسـتخدم الباحثـون العديـد من المصطلحـات المعقـدَّة لوصف منهج سقراط: الجدلية، والإلينخوس (التفكير التحاوري) والتفكير الاستقرائي. أمـا أنـا فأُفضِّـل مصطلحًا أبسـط: التحـدث. أُدرك أنَّ هذا لا يبـدو أنيقًا، وربـما لـن يجعلني أحصل على جائـزة نوبل، لكنَّه صحيح. تحدث سـقراط إلى الناس. لقد قدَّم نموذج «الدردشـة المسـتنيرة»، كما يسـميها الفيلسوف

المعاصر روبرت سولومون. أحبُّ ذلك. إنه ينزل بالفلسفة إلى الأرض ويسمو بها في الوقت نفسه.

إنَّ التأمل في الحياة يتطلَّب أخذ مسافة للوراء. يجب أنْ نتراجع عن أنفسنا لنرى أنفسنا بشكل أوضح. وأفضل طريقة لتحقيق هذا المنظور هي من خلال المحادثة. بالنسبة لسقراط، كانت الفلسفة والمحادثة مترادفين تقريبًا.

تحدَّث سقراط إلى جميع أنواع الناس: السياسيين، والجنرالات، والحرفيين، وكذلك النساء، والعبيد، والأطفال. وتحدَّث عن جميع أنواع الموضوعات أيضًا، ولكن فقط الموضوعات المهمة. لم يكن سقراط يُحبُّ الثرثرة كثيرًا. كان يعلم أنَّ الحياة قصيرة ولم يكن مستعدًا لإضاعة ثانية واحدة من وقته على تفاهات. قال بغضبٍ لسفسطائي اسمه كاليكليس: «إننا نفكر في كيفية عيش أفضل حياة ممكنة. أي سؤال يمكن أن يكون أكثر خطورة من هذا لشخص لديه أي قدر من العقل؟»

أعتقد أنَّ سقراط، بقدر ما كان يُحبُّ المحادثة، كان يرى فيها مجرد أداة أخرى في ذخيرته. فقد كان له هدف: أن يعرف نفسه. ومن خلال التحدُّث مع الآخرين تعلَّم كيفية التحدث مع نفسه.

***

قد تكون الفلسفة هي فنُّ طرح الأسئلة، ولكن ما هو السؤال؟ آهٍ، ها هو سؤال سيحبه سقراط! خذْ كلمة يعرفها الجميع، أو بالأدق كلمة يعتقد الجميع أنَّهم يعرفونها، وتفحصها، ودقِّق بها من زوايا عديدة. سلِّط عليها ضوءًا ساطعًا لا يرحم.

لقد انقضى نحو أربعة وعشرين قرنًا منذ أنْ جاب فيلسوف أثينا شوارع المدينة المتعرجة القذرة حافي القدمين وطرح الأسئلة. لقد أحرزنا الكثير من التقدُّم منذ ذلك الحين. لقد أمضينا أكثر من ألفي عام لصقل تعريفاتنا. ونحن أيضًا ماهرون في ذلك، استنادًا إلى ما يقرب من نصف مليون باب في قاموس ويبستر الدولي الجديد. لكننا لا نحتاج إلى تلويث أصابعنا بالصفحات المطبوعة أو حتى الرقمية. يمكننا دائمًا اللجوء إلى مساعدنا المخلص: سيري.

- «مرحبا سيري».
- «مرحبًا إريك».
- «لديَّ سؤال».
- «اسأل وسأجيب».
- «ما هو «السؤال؟»»
- «سؤال مثير للاهتمام يا إريك».

ثم صمتٌ مطبقٌ. لا شيء. أهزُّ هاتفي. مازال لا شيء. يبدو أنَّ سيري تعتقد أنني أمزح مع خوارزميتها وترفض التعاون. لذلك، أختار اتباع نهج أكثر وضوحًا.

- «سيري، أسألك ما تعريف السؤال؟»

جاءني الرد: «جملة مُصاغة للحصول على معلومات». أعتقد أنَّ هذا دقيق، لكنه غير مكتمل إلى حدٍ مؤسف. لن يكون سقراط راضيًا بهذه الإجابة. لقد كان متمسكًا بالتعاريف. سيجد إجابة سيري واسعة بأكثر

من اللازم وضيقة بأكثر من اللازم في الوقت نفسه. بحسب تعريف سيري، فإنَّ سؤال «هل رأيت مفاتيحي؟» و سؤال «ما معنى الحياة؟» هما على مستوىً واحد. كلاهما يهدف إلى الحصول على معلومات من نوعٍ ما -ومن الصعب الإجابة عليهما كليهما، على الأقل في منزلي- لكن المعلومات التي يبحثان عنها تختلف اختلافًا كبيرًا بحيث تكون من نوعٍ مختلف. كلّما كان السؤال أكبر، قلَّ اهتمامنا بالإجابة التي تقدِّم مجرَّد معلومات. ما هو الحبُّ؟ لماذا يوجد الشرُّ؟ عندما نطرح هذه الأسئلة، فإننا لا نرغب في الحصول على معلومات، بل على شيء أكبر: المعنى.

الأسئلة ليست ذات اتجاه واحد. بل تتحرك في اتجاهين (على الأقل). إنّها تبحث عن المعنى وتنقله أيضًا. إنَّ طرح السؤال المناسب على صديق في الوقت المناسب هو فعل من أفعال التعاطف والحب. ومع ذلك، في كثير من الأحيان، نستخدم الأسئلة كأسلحة، ونطلقها على الآخرين من قبيل «مَن تظنُّ نفسك؟» وعلى أنفسنا أيضًا من قبيل «لماذا لا أستطيع أن أفعل أي شيء بشكل صحيح؟» ونستخدم الأسئلة كأعذار مثل «ما الفارق الذي سيحدثه ذلك؟» أو كمبرر مثل «ما الذي كان بإمكاني فعله أكثر من ذلك؟» إنَّ الأسئلة، وليس الأعين، هي النوافذ الحقيقية للروح. وكما قال فولتير، فإنَّ أفضل ما نحكم به على الشخص ليس الإجابات التي يقدِّمها، بل الأسئلة التي يطرحها.

لم تعبِّر إجابة سيري عن أيٍ من السحر الكامن في كل سؤال جيد، ذلك النوع الذي كان سقراط يفكِّر فيه عندما قال: «كلُّ فلسفة تبدأ بالدهشة». اعتقد سقراط أنَّ الدهشة ليست شيئًا يُولد به المرء أو لا يولد به، مثل الشعر

الأشقر أو النمش. الدهشة مهارة، وهي مهارة نستطيع جميعًا تعلمها. وقد كان عازمًا على أن يُظهر لنا كيف.

«الدهشـة»[5] كلمة رائعة. من المستحيل أن تنطقها بصوت عالٍ دون أن تبتسـم. وهي مشتقة من الكلمة الإنجليزية القديمة wundor، والتي تعني «شيء عجيب، أو إعجازي، أو مثير للدهشـة». على مسـتوى ما، الدهشـة هـي بحثٌ عن المعلومات (التسـاؤل)، على طريقة سـيري. وعلى مسـتوى آخر، الدهشة هي تعليق التساؤل، على الأقل مؤقتًا، والتأمُّل ببساطة.

عندما نطرح الأسـئلة، نكون مقيدين بالموضوع الذي بين أيدينا. وأي استفسـارات تتجـاوز هذا الموضـوع تعتبر غير ضروريـة وبالتالي لا ننصح بهـا. فكِّـر في محامٍ يوبخـه القاضي لأنَّه انحرف إلى أسـئلة «غـير مهمة»، أو طالبة في المدرسة الثانوية يوبخها معلمها لأنها ابتعدت «عن الموضوع».

أما التسـاؤل (الاندهاش) فهو أمرٌ مفتوحٌ وواسع. التساؤل هو ما يجعلنا بشرًا. وقد كان هذا صحيحًا منذ أن تساءل أول رجل من أهل الكهف عمّا قد يحدث إذا فرك عودين معًا، أو أسقط حجرًا كبيرًا على رأسه. لا يمكنك أن تعرف أبدًا حتى تجرِّب، ولا يمكنك أن تجرِّب أبدًا حتى تتساءل.

غالبًا ما نخلط بين التسـاؤل (الدهشـة) والفضـول. نعم، كلاهما يوفرُّ ترياقًـا مفيدًا للّامبـالاة، ولكن بطرق مختلفة. التسـاؤل (الدهشـة) يكون شـخصيًا بطريقـة لا تنطبق عـلى الفضول. يمكنـك أن تكـون فضوليًا بلا عاطفة. يمكنك أن تسأل بلا عاطفة. لكن لا يمكنك أن تتساءل (تندهش) بـلا عاطفـة. الفضول مضطـربٌ ومتقلِّـبٌ بحيث قد يهمُّ بمطـاردة الشيء

(5) كلمة wonder في الإنجليزية تحمل معنى الدهشة وكذلك التساؤل. (المترجم)

اللامع التالي الذي يظهر في الأفق. أما التساؤل (الدهشة) فلا. إنَّه يستمر. التساؤل هو فضولٌ متكئ، وقدماه مرفوعتان، ويحمل مشروبًا في يده. التساؤل (الدهشة) لم يطارد شيئًا لامعًا قط، لم يقتل قِطًا قط.

التساؤل (الدهشة) يحتاج إلى وقت. ومثله كمثل الوجبة الشهية أو الجنس الممتع، لا يُمكن استعجاله. ولهذا السبب لم يكن سقراط يستعجل محادثاته قط. بل كان يثابر حتى عندما كان محاوروه يشعرون بالتعب والغضب.

كان سقراط هو المعالج النفسي الأول. كان يميل إلى الإجابة عن السؤال بسؤال آخر. لكن على عكس المعالج، لم يكن سقراط يتقاضى أجره بالساعة (لم يتقاضَ قطُّ درهمًا واحدًا مقابل جلساته) ولم يقل قطّ عبارة «للأسف هذا هو كل الوقت الذي لدينا». كان لديه دائمًا المزيد من الوقت.

حتى عندما كان وحيدًا، كان يُحبُّ أنْ يتسكَّع ويتباطأ، كما ذكر أحد أصدقائه في محاورة «الندوة» لأفلاطون، «في بعض الأحيان كان يتوقَّف في مكانٍ ما وهو يسير دون سببٍ واضح». ويروي صديقٌ آخر حادثة أكثر غرابة حدثت عندما خدم الرجلان معًا أثناء معركة بوتيديا.

«في إحدى المرات عند الفجر بدأ سقراط يفكِّر في أمرٍ ما، وظل واقفًا في نفس البقعة يفكر فيه، وعندما لم يجد حلًا، لم يغادر المكان بل وقف هناك غارقًا في التفكير. وحين حان وقت الظهيرة، أدرك الناس ذلك، فتعجبوا منه فيما بينهم، قائلين إنَّ سقراط ظلَّ واقفًا هناك منذ الفجر يفكِّر في أمرٍ ما. وأخيرًا، عندما حلَّ المساء، حمل بعض الأيونيين أسرَّتهم للنوم في الهواء البارد ومراقبة ما إذا كان سيقف هناك طوال الليل أيضًا. ووقف حتى جاء

الفجر وأشرقتِ الشمس؛ ثم صلَّى لها وغادر».

إنَّ الفلسفة الجيدة هي فلسفة بطيئة. لقد أطلق لودفيج فيتجنشتاين على مهنته اسم «العلاج البطيء» واقترح على جميع الفلاسفة أن يُحيّوا بعضهم بعضًا بقولهم «خذْ وقتك!». وأعتقد أنَّ هذه فكرة جيدة، ليس فقط للفلاسفة بل ولنا جميعًا. فبدلًا من قول «أتمنى لك يومًا طيبًا» أو أية تعبيرات أخرى فارغة مماثلة، فلنُحيي بعضنا بعضًا بقول «خذ وقتك» أو «أبطئ». وإذا ما كررنا هذه العبارات كثيرًا، فقد نُبطئ بالفعل.

على مستوى ما، أعتقد أنَّنا ندرك بالفعل الفوائد المعرفية المترتبة على التباطؤ. فعندما يجعلنا شيء ما نتوقف ونفكر، نقول إنَّه «أوقفنا لبرهة». والتوقُّف ليس خطأ أو خللًا. التوقف ليس تلعثمًا أو انقطاعًا. إنه ليس فراغًا بل مادة كامنة من نوعٍ ما. إنَّه بذرة الفكر. وكل توقف مليء بإمكانية الإدراك، والاندهاش والتساؤل.

***

إننا نادرًا ما نشكك في الأمور الواضحة. وقد اعتقد سقراط أنَّ هذا التغافل خطأ. فكلما بدا الأمر واضحًا، كلما أصبحتِ الحاجة إلى التشكيك فيه أكثر إلحاحًا.

إنني أُسلِّم بأنني أريد أن أكون أبًا جيدًا. إنَّه أمرٌ واضحٌ جدًا ولا يحتاج إلى التصريح به.

لكن سقراط قد يعترض قائلًا: «لا، ليس بهذه السرعة، ماذا تقصد بكلمة «أب»؟ هل تتحدث من منظورٍ بيولوجي بحت؟»

- «حسنًا، لا. في الواقع، ابنتي مُتبنَّاة».

- «آه، إذن «الأبوَّة» ليست شيئًا بيولوجيًا بحتًا؟»

- «نعم، بالتأكيد».

- «ما تعريف الأب إذن؟»

- «إنسان، ذكر، يعتني بطفلٍ صغير».

- «إذن إذا أخذت ابنتك إلى دلفي، على سبيل المثال، لبضع ساعات، هل أكون والدها؟»

- «لا، بالطبع لا يا سقراط. كونك أبًا يستلزم أكثر من ذلك بكثير».

- «ما الذي يفصل إذن بين الرجل البالغ الذي يعتني بطفل والرجل البالغ الذي يستحق لقب «الأب»؟

- «الحبُّ. هذا ما يجعل الأب أبًا».

- «جيد جدًا. تُعجبني هذه الإجابة. بالطبع، نحتاج إلى تعريف «الحبّ»، ولكننا سنترك ذلك لوقت آخر. الآن، تقول إنَّك تريد أن تكون أبًا «جيدًا»؟

- «نعم، بكل تأكيد».

- «ماذا تقصد بـ«جيد»؟»

أعترف هنا بأنني لا أملك أدنى فكرة عن الأمر. فقط بعض الأفكار الغامضة -صور غير مكتملة وكاريكاتيرية- تتبادر إلى ذهني: مثلجات الآيس كريم، وحفلات الفرق الموسيقية، وتدريبات كرة القدم، والواجبات

المنزلية، والجوَّلات الجامعية، والنكات التي ألقيها عندما تشعر بالإحباط، وحتى إذا لم تكن تشعر بالإحباط.

تلك صورٌ جميلة، كما قد يقول سقراط، ولكن ما الذي تعنيه هذه الصور؟ إنَّك لا تعرف حقًا ما تعنيه عندما تقول «أبًا جيدًا»، أليس كذلك؟ وبطعنة أخيرة من السكين الفلسفي، قد يشير سقراط إلى أنَّه ما لم أعرف حقًا ما أعنيه بـ «الأب الجيد»، فلن أستطيع أن أصبح أبًا جيدًا. لقد كنت أطارد شبحًا.

بالنسبة لسقراط، فإنَّ كلَّ الأفعال السيئة، مثل سوء التربية، لا تُرتكب عن عمد بل عن جهل. وإذا كنَّا نُدرك عواقب أخطائنا -ليس فقط على أطفالنا بل وعلى أنفسنا أيضًا- فلن نرتكبها. إنَّ الفهم الحقيقي لفضيلةٍ معينةٍ يؤدي إلى سلوك فاضل تلقائيًا. وهكذا فإنَّ معرفة ما يعنيه أن تكون أبًا جيدًا تعني أنْ تكون كذلك.

ذات مرة كنَّا في يوم «أحضر طفلك إلى العمل». ولطالما كنتُ أخشى هذا اليوم. فالآباء الآخرون يأخذون أطفالهم إلى مكاتب لامعة وجادة بها غرف اجتماعات وأشياء فاخرة. أما مكتبي فهو عبارة عن مطعم محلي يُسمى تاستي Tastee. والطعام لا يرقى إلى مستوى اسمه[6]، ولكن الطاولات كبيرة، والنادلات ودودات، والقهوة لا تنتهي. وفي هذا العام، وللمرَّة الأولى، وافقتِ ابنتي على مرافقتي.

إنَّ اكتشاف السبيل إلى قلب -وعقل- فتاة في الثالثة عشرة من عمرها لغزٌ لم يحله بعد أعظم فلاسفة العالم. فإذا سقطت شجرة في الغابة ولم يقم

(6) كلمة Tastee هي تحريف لكلمة Tasty التي تعني «شهي» و«لذيذ». (المترجم)

أصدقاؤهـا بمشـاركة صورهـا على سـناب شـات، فإنهـا لم تسـقط. لم تُبدِ سـونيا أي اهتمام بعملي، أو بالفلسـفة، أو بأي شيء، على مـا يبدو، خارج عالم مراهقتها. لقد شـككتُ في أنَّ السـبب الوحيد الذي جعلها توافق على الذهاب إلى العمل معي في ذلك الصباح هو من أجل أنْ تتمكن من التغيُّب عن المدرسة.

وبينـما كنـا نتنـاول وجبـة الإفطـار -عجة صحيـة للقلب بالنسـبة لي، وفطائر الشـوكولاتة بالنسـبة لها- كنت أتأمل تلك الهوة السـحيقة المُسـماة بالأبوة. شـعرتُ بأنَّني لا أكفي، بل وشعرتُ بانمحاءٍ تامٍ لوجودي. تُرى، كيف كان سقراطُ سيتصرَّف في هذا الموقف العصيب؟.

كان سيطرح أسئلة بالطبع. لكنَّني كنت أُصارع سؤالًا واحدًا على وجه الخصـوص، وهو سـؤالٌ من نـوعٍ مختلف. تُرى، هل تلـك الحكمة المأثورة صحيحـة: أحقًـا لا يوجد سـؤال غبي؟ طرحتُ هذا السـؤال عـلى ابنتي، فرفعتْ حاجبها الأيسر وكأنَّها تقول: لقد استوعبتُ سؤالك يا أبي، ورأيته لا يستحقُ عناءَ الرد، لذا سأعودُ الآن إلى فطائري وسناب شات.

لكنني أصريتُ، مثل سقراط، وكررتُ بصوتٍ أعلى: «هل يوجد شيء اسمه سؤال غبي؟»

رفعتْ رأسها عن الشاشة وفكَّرتْ لبعض الوقت. أو على الأقل بدا لي أنَّها كانت تفكِّر. ثم تحدَّثتْ، مما أثار دهشتي.

قالت: «نعم، السـؤال الغبي هو السـؤال الذي تعرف إجابته بالفعل». وبعد ذلك عادت إلى فطائرها وهاتفها وغضبها المراهق.

لم تكـن هذه هي المرَّة الأولى أو الأخيرة التـي تفاجئني فيها. لقد كانت مُحقة. فما لم تكن مدعيًا عامًا، فإنَّ طرح سؤال تعرف إجابته بالفعل يعدُّ غباءً حقيقيًـا. ونحـن نفعل هذا أكثر ممـا قد تتصوَّر، وبطـرقٍ مختلفة. فقد نطرح سـؤالًا لإظهـار معرفتنا، أو لاسـتخلاص معلومات تدعم قناعة راسـخة وغير مدروسة نتبناها بالفعل.

بالنسـبة لسـقراط، لم يكن أيٌّ من هذه الأسـئلة يسـتحقُّ أنْ يُطلَق عليه «سـؤالًا جديًا». فالسؤال الجادُّ يخطو إلى مياهٍ مجهولة، والسؤال الجادُّ يحمل في طياتـه مخاطرة، مثل إشـعال عود ثقاب في غرفـةٍ مظلمة. فأنت لا تعرف ماذا سـتجد عندمـا تُضاء الغرفة -وحوشًـا أم معجزات- ولكنك تشـعل عود الثقاب على أية حال. ولهذا السـبب فإنَّ الأسـئلة الجادة لا تُطرح بثقة، بل ببطء وتردد، وبكل الحرج الذي يتسمُّ به المراهق.

بالنسبة لسقراط، لم يكن هناك شيءٌ أكثر أهمية أو شجاعة من ذلك.

***

يسـكب لي البروفيسـور جاكـوب نيدلمان كأسًـا آخر من المـاء الممزوج بالليمـون، ويحـرِّك يديـه ببـطء ولكن بثبـاتٍ بينـما ترتطم مكعبـات الثلج بالكأس. ويصبح ضوءُ كاليفورنيا أكثر هدوءًا، وتُصبح الألوان أكثر ثراءً، مع انخفاض الشمس.

سـألتُ نيدلمان أكثر عن نفسـه. أخذ نفسًـا عميقًا متقطعًـا وأخذني إلى فيلادلفيـا في الأربعينيـات من القرن العشرين حيث كان شـابًا. واصل هو وصديقـه إلياس ثرثرتهما الفلسـفية عند الحائط الحجـري، وإنْ كان بوتيرةٍ متناقصـة. وذات يـوم عندما اتصل جاكوب بمنزل إليـاس، ردَّت والدته،

بصوتٍ غريب، وقالت إنَّه يستريح. عرف جاكوب أنّ هناك شيئًا ما خطأ قبل أن يسمع كلمة «سرطان الدم».

وهو يتذكَّر أحد الأسئلة الأخيرة التي عاشها مع إلياس. فقد سأل صديقه: «أتساءل عمَّا يحدث للإنسان عندما ينام، إلى أين يذهب؟»

ولأول مرَّة، لم يكن لدى إلياس إجابة. لقد توفي قبل وقت قصير من عيد ميلاده الرابع عشر.

إنَّ الموت، وخاصة الموت المبكر الذي يحدث في غير أوانه، له قدرةٌ على تركيز الذهن. وهكذا تدفقت الأسئلة في عقل جاكوب. لماذا إيليا وليس هو؟ ماذا ينبغي لنا أن نفعل في هذا الوقت القصير المخصص له؟ لم يتلقَ إجاباتٍ مُرضية من والديه أو معلميه أو حاخامه. لذلك لجأ إلى سقراط والفلسفة.

سألته: «لماذا الفلسفة؟»

«لأنّني شعرت بنداء. نداء يُوقظ في الروح أسئلةً خالدة. مَن نحن؟ ما ماهيتنا؟ ولِمَ وُجدنا على هذه الأرض؟ الإنسانُ بفطرته توَّاقٌ إلى المعنى. لذا، أجل، كان ذلك نداءً لا يُقاوم».

لكن لم يكنْ والدا جاكوب مُتحمسين لندائه. قال بسخريةٍ مُبطنة: «بصفتي الابن الأكبر، كنتُ مُلزَمًا -بمقتضى أمرٍ إلهي- أنْ أصبح طبيبًا». وقد أصبح جاكوب دكتورًا فعلًا، ولكنْ ليس في الطب. فقد نال درجة الدكتوراه في الفلسفة. ولا يزال يذكر أول مرةٍ قُدِّم فيها اجتماعيًا بلقب «الدكتور نيدلمان» بحضور والدته، إذ قاطعتِ المتحدث لتُشير إلى أنَّهُ «ليس

من نوعِ الدكاترة الذين ينفعون أحدًا، كما تعلمون».

وقد عكف نيدلمان لبقية حياته على إثبات خطأ والدته. فجمعَ الأوسمة والترقيات الأكاديمية، وكان حريصًا دومًا على الوصول إلى أوسع شريحةٍ من الجمهور. ولم يستوعب سبب إعراض الناس عن تلك «الأسئلةِ المصيرية» وقلة اهتمامهم بها. يقول: «لا يوجد في ثقافتنا مكانٌ تُحترَم فيه الأسئلة المصيرية والوجودية باعتبارها أسئلة. فكل مؤسسةٍ وكل شكلٍ اجتماعي لدينا مُكرسٌ إما لحلِّ المشكلات أو لتوفير المتع».

يقول ذلك ثم يتوقف قليلًا، مُطلقًا لكلماته العنان لتتسكع في هواءِ كاليفورنيا العليل. أدركتُ حينها أنَّه على حق. إنَّ حلَّ مشكلةٍ قبل أنْ نُعايشها يُشبه محاولة طهيٍ وجبةٍ قبل التبضع من السوق. ولكنْ كثيرًا ما نلجأ إلى الحلِّ الأسرع، أو المتعة العاجلة. وهكذا نفعل أيَّ شيءٍ لنتجنب مواجهة جهلنا.

تجول عيناي عبر تلال أوكلاند المُتوشِّحة باللون البنيِّ المغبرِّ في هذا الفصل من العام. وتلتقط أذناي رنينًا عذبًا لهسيس الرياح القريب، يمتزجُ بحضورٍ صامتٍ يملأ الفراغ بيني وبين جاكوب نيدلمان، ويُوثق عُرَى التواصل بيننا.

***

كان سقراط مُرتابًا من الكلمة المدونة. فهي ترقدُ هامدةً على الصفحات، ولا تسير إلا في اتجاهٍ واحدٍ، من الكاتب إلى القارئ. وهكذا فلا تستطيع مُحاورة كتابٍ، ولا حتى كتابٍ نفيس.

لـذا، عزمـتُ على ألا أتصفح محاورات أفلاطون، بـل أنْ أُصغي إليها. وقمـتُ بتنزيلها جميعًا مـن الإنترنت. لا أدري ما هو المُقابل اليونانيُّ القديم لكلمة «ميجابايت»، ولكنَّها بلا ريب كميةٌ هائلة منها.

غـدتِ المحاورات أنشـودة حيـاتي. أُصغي إليهـا وأنا أسـتقلُّ القطار، وأنـا أوصـل ابنتي إلى تدريب كـرة القدم. أُصغـي إليها وأنا أُحرِّك سـاقيَّ على جهاز المشي. أطبخُ على نغمات سـقراط، وأشرب على نغمات سـقراط. أستيقظ على صدى سقراط، وأنام على صدى سقراط.

تزخـرُ المحـاورات بسـقراط ومُحـاورٍ أو أكثـر يتصارعـون مـع معـاني مفـردات، على سـبيل المثـال، العدالة أو الشـجاعة أو الحب. وهي ليسـتْ رسـائل جافـة. بـل هـي أحاديثُ مفعمـةٌ بالحياة، تتسـم بالجـدل في بعض الأحيان، بل وبالفكاهةِ أيضًا. «حكمةٌ زاخرةٌ بالمقالب»، كما وصفها نيتشه.

غالبًا ما كان الحديث مع سـقراط يُثير الغضب ويُفقد المرءَ صوابه، كما تشـهد احدى شـخصيات المحاورات، نيكياس، إذ يقـول: «ألم تدر أنَّ كلَّ مَن يقترب من سقراط ويشرع في محاورته، حتى لو استهلَّ الحديثَ في شأنٍ آخر غير الذي نحنُ فيه، فإنَّه سرعان ما يجدُ نفسه مُساقًا قسرًا في دوامة من هذا الكلام، إلى أنْ يُرغَم على تقديم كشـفِ حسـابٍ عن نفسِـه؛ سواءً فيما يخـصُّ طريقة عيشـه الحالية، أو الماضيـة، ولا يدعُه سـقراط ينصرف حتى يُخضِع كلَّ ذلك لامتحانِ سيطرتِه، امتحانًا وافيًا شافيًا».

وشـكا مُحاورٌ آخر من أنَّ سـقراط حوَّله إلى «كومةٍ من العجز»، وشـبَّه سقراط بـ«سـمكة الطوربيد» (التي تُعرَف أيضًا بسمكة الراي الكهربائية) التي تُخدِّر عقول الناس.

كان التحاور مع سقراط مُستفزًا، تمامًا كما يستفزك التحاور مع طفلٍ فضوليٍّ في الخامسة من عمره.

«أيمكنُنا تناول المثلجات للعشاء؟»

« لا»

«لِمَ؟»

« لأنَّ المثلجات ليست مفيدة لك».

« لِمَ؟»

« لأنَّها تحتوي على السكر».

«ولِمَ السكرُ ضارٌّ؟»

« لأنَّه يُختَزن في خلاياك الدهنية».

«لِمَ؟»

«هذه هي الطبيعة! اذهب إلى حجرتك الآن».

إنَّ أسئلة الطفل لا تُضجرنا وتزعجنا لأنَّها حمقاء، بل لأنَّنا نعجز عن الإجابة عنها إجابةً وافية. والطفل، كسقراط، يُعرِّي جهلنا، وإذا كان ذلك نافعًا على المدى البعيد، فإنَّهُ مُضجر ومزعج على المدى القريب. و«إنْ لمْ تُضجر أحدًا، فأنت لستَ فيلسوفًا»، كما يقول بيتر كريفت.

قرأتُ ذلك، وانتعش أملي. لقد بلغني من مصادر َموثوقةٍ ومتعددةٍ أنني مُضجِرٌ ومزعجٌ حقًا. مُضجِرٌ من الطراز الرفيع. وألمح أوجه تشابهٍ أخرى مع سقراط: حالة الخروج عن المألوف، والكرش، والعقل المُتجوِّل المُتأمل، ومحبة الحديث.

لكـن موضع الافتراق بيننا هو الإصرار. فأنا أميل إلى الانسـحاب من أيِّ نزاعٍ أو صراع، سواءً كان حقيقيًا أم مُتخيلًا. أما سقراط، فكان خلاف ذلك. فقد أظهر شـجاعةً منقطعة النظير. فخـلال القتال في حصار بوتيديا عـام 432 ق.م، أبـان عـن قوةٍ وقـدرةٍ تحمـلٍ فائقتين، وأنقذ حيـاة صديقه ألكيبيادس.

وفي سـاحة الفلسـفة كذلك، كان سـقراط لا يلين. فقـد كان مُدققًا لا يعـرفُ المهادنة، يُطالب النـاس بأن يُقدموا تفسـيرًا منطقيًا ليس لمعتقداتهم فحسـب، بل لحياتهم أيضًا. ولم يكنْ لأحـدٍ أنْ يفلت من مناظرةٍ معه. كان يرى ما وراء القناع الزائف الذي يستعمله مُدّعو الثقافة، قديمًا وحديثًا.

ولم يكـن هدفـه الإذلال، بـل التنويـر، وتيسـير ضربٍ مـن «التمثيـلِ الضوئيِّ الفكري». فسـقراط كالبسـتاني. لم يكنْ يُحبُّ شـيئًا أكثر من «زرعِ لغزٍ في العقلِ ورؤيته ينمو».

لكـن كان زرعُ هـذا اللغـز عمـلًا مُضنيًا. فما مـن أحدٍ يُحـبُّ أنْ يُفضَح جهله، لا سـيما عـلى الملأ، وقد احتدمـتْ كثيرٌ من الحـوارات. «لا أفهمك يا سـقراط، فليتك تسـأل أحدًا غيري»، هكـذا قال أحد رفاقـه المنزعجين في محـاورةٍ تُدعـى جورجياس. «أنتَ طاغيةٌ يا سـقراط. فليتـك تُنهي هذا الجـدال، أو تُحاور غـيري». وقد تجاوز الأمرُ في بعض الأحيان مجرد الكلام الحاد. فقد «ضرب الرجال سـقراط بقبضاتِهم، ومزقوا شـعرهُ»، كما يروي المؤرخ ديوجانس اللايرتي في القرن الثالث الميلادي.

لكـن سـقراط كان يُزعـج الآخريـن لغايـةٍ نبيلـة؛ وهي تحقيـق بصيرة أفضـل. سـقراطُ كطبيـب العيـون. يسـيرُ النـاس وهـم يرتدون نظـاراتٍ

خاطئة. وبطبيعة الحال، يُؤثر هذا على كيفيةِ رؤيتهم، وعلى ما يرونه. إنَّهم يحسبون رؤيتهم المشوهة للواقع هي الرؤية الوحيدة. والأسوأ من ذلك، أنَّهم لا يعلمون حتى أنَّهم يرتدون نظارات. إذ يتعثرون طوال يومِهم، ويصطدمون بالأثاث والناس، ثمَّ يلومون الأثاث والناس على الدوام. ورأى سقراطُ أنَّ هذا الأمر سخيفٌ ويمكن تغييره.

***

تحولتِ الشمس إلى حُمرةٍ متوهجة، وتسللتْ نسمةُ بردٍ لطيفةٌ إلى الهواء. لقد أمضينا ساعاتٍ أنا وجاكوب نيدلمان في هذا الحوار النيِّر، ولم يكلَّ أحدُنا من هذا التبادل المُستنير للآراء. ثمَّ انتقلنا إلى موضوعِ المعتقدات الزائفة.

يُشير الفيلسوف نيدلمان إلى أنَّ الفيلسوف أشبه بحارسٍ ضخمٍ قويٍ في ملهىً ليليٍّ للأفكار.

يخاطبُ الفيلسوفُ آراءه قائلًا: «أنتِ آرائي. لكن كيف تسللتِ إلى هنا؟ لم تستأذني. ولم أتفحصك. ومع ذلك، أنا أؤمنُ بكِ. أنتِ تستولين على حياتي».

أُمعنُ النظرَ في آرائي وكيف تحتل عقلي. فهي، ككلِّ المُستعمرين الماكرين، تُوهمني بأنني استدعيتها. أهذا حقًا ما فعلت؟ أم أنَّها ظهرت فجأةً -تلك الأفكارُ التي هي لغيري- وارتدتْ رداء أفكاري؟

أعود فأستحضرُ تلك الفكرة الآسرة المُغرية، فكرة «معايشةِ الأسئلة». تُرى ما الذي يعنيه بذلك؟

يُوضّح جاكوب أنَّه يُفرق بين التساؤل الاعتياديِّ و«التساؤلِ العميق».

فالتساؤل الاعتيادي يتزلج على السطح، كصوت سيري. أما التساؤل العميق، فهو بطيءٌ ومتعمق.

«إذا ما عشتُ السؤال حقًا، وسمحتُ لهُ أن يُلازمني، فإنَّ هذه الحالة من التساؤل العميق يكون لها أثر كبير علي».

«عشت السؤال؟»

«نعم، عِش السؤال. اجعله رفيق فكرك في معظمِ الأوقات. عِش السؤال، ولا تُحاول إيجاد إجابة له فحسب. فكثيرًا ما نُبادر إلى الإجابات».

يبدو هذا الكلام حسنًا، ويُغريني بأنْ أقضي ما تبقَّى من أيامي في معايشة الأسئلة، ولكن ماذا عن الإجابات؟ أين موضعها؟ هذا هو النقد الذي يُوجه للفلسفة: أنها مجردُ كلام، أسئلةٌ لا تنتهي ولا إجابات. القطارُ الذي يُغادر على الدوام، ولا يصل أبدًا.

لكن نيدلمان يقول أنّ هذا غير صحيح. فالفلسفة لا شكَّ تُعنَى بالوجهة، ولكن لا يجوز التعجُّل في المسير. فهذا هو السبيل الوحيد لضمان بلوغك لا مجرد إجاباتٍ بارعة، بل «إجاباتٍ من صميم القلب». أما النوع الآخر، أي إجابات العقل، فليستْ أقلَّ إشباعًا فحسب، بل هي، في أعمق معانيها، أقلُّ صدقًا.

إنَّ بلوغ إجابات القلب لا يستلزم الصبر فحسب، بل يستلزمُ أيضًا الاستعداد لُمجالسة جهلك. وقبول الشكِّ والغموض، بدلًا من التسرع في حلِّ المشكلة، ووضع علامةٍ على بندٍ آخر في قائمة مهامك التي لا تنتهي. وهذا يتطلب وقتًا وشجاعة. ولا بدَّ أنْ يسخر منك الآخرون. دعهم

يسخرون، كما يقول جاكوب نيدلمان، وسقراط كذلك. فالسخريةُ هي ضريبةُ الحكمة.

***

قبل فترةٍ من الزمن، كنتُ أُحادث صديقتي جينيفر. وللتوضيح فحسب: كنتُ أتحدَّث، وهي تُصغي، إذ كنتُ أسرد عليها قائمة همومي المعتادة.

أعاني من مشكلةٍ في التوزيع، كما أخبرتها. إذ لديَّ ما يكفي من أيِّ صفةٍ معينة، ولكنَّها مُوزعةٌ بشكلٍ غير مُتوازن. الشعر، على سبيل المثال. لديَّ منه وفرةٌ في صدري، وفي منخري، ولكنَّه قليلٌ جدًا في رأسي.

أما النجاح، فهو أكثرُ تعقيدًا. فمشكلته ليست في التوزيع، كما أوضحتُ لها، بل هناك نقصٌ حقيقي. فأنا لستُ ناجحًا بالقدر الكافي.

صمتت جينيفر صمتًا يُشبه صمت الناس حين يكونون على وشك الإدلاء بكلامٍ عميق، أو حين يُدبرون خطةً للهرب. ولحسن الحظ، كان صمتُ جينيفر من النوع الأول.

قالت: «كيفَ يبدو النجاحُ في نظرك؟»

كررتُ كلامها متعجبًا: «كيفَ يبدو النجاح في نظري؟»

قالت: «نعم، كيفَ يبدو النجاح في نظرك؟»

عادةً، عندما تُعيد سؤالًا على مسامع أحدهم، يشعر بأنه ينبغي عليه التوضيح، لكن ليس جينيفر. فقد ارتدَّ سؤالي إليَّ، وارتطم برأسي. كيف يبدو النجاح؟ لم يخطر هذا ببالي قط. لطالما تصورت النجاح بمقاييس كميةٍ، لا جمالية.

إنَّ طريقة صياغتنا للسؤال أمرٌ جوهري. كان بوسع جينيفر أنْ تسألني: «لِمَ تتوق إلى النجاح؟» أو «ما هو مقدار النجاح الذي يُرضيك؟» كنت سأنبذ هذين السؤالين، وأطردهما كما أطرد البعوض الذي كان يحوم حولنا بينما كنا نجلس في شرفة منزلها في نيوجيرسي. لكن إذا فكرت في سؤال «لِمَ أتوقُ إلى النجاح؟» فإجابتي هي أنَّ هذا ما أريده ببساطة، أليس هذا ما يريده الجميع! أما سؤال «ما هو مقدار النجاح الذي يرضيني؟» فالإجابة هي مقدارٌ يفوقُ ما أملكه الآن.

لكن لم تُوجِّه جينيفر إليَّ تلك الأسئلة. بلْ سألتني كيف يبدو النجاح. وكان سؤالها يحمل في طياته جانبًا شخصيًا. فقد سألتْ عن كيف يبدو النجاح «في نظري»؟ هل سأتعرف عليه لو رأيته؟

بقيتُ هناك مُذهولًا، وكأنَّ سمكة رعاد قد صعقتْ عقلي. هذا ما يفعله السؤال الجيِّد. يُمسِك بك بقوةٍ ولا يُفلِتك. السؤال الجيد يُعيد صياغة المشكلة، لتراها من زاويةٍ جديدةٍ كليًا. السؤال الجيد لا يُحفز البحث عن الإجابات فحسب، بل يؤدي لإعادة تقييم عملية البحث ذاتها. السؤال الجيد لا يستدعي ردًا بارعًا، بل لا يستدعي ردًا بتاتًا. فمنذُ الأزمنة السحيقة، قبل سقراط بأحقابٍ، مارس الحكماء الهنود الـ«براهموديا brahmodya»، وهي منافسةٌ يطمحُ المشاركون فيها إلى التعبير عن الحقيقة المطلقة. وتنتهي هذه المنافسة دومًا بالصمت المُطبق. وكما تُبين الكاتبة كارين أرمسترونغ: «تأتي لحظة الإدراكِ عندما يُدركونَ عجزَ كلماتِهم، فيستشعرون بذلك ما لا يُمكن التعبير عنه».

لكن الصمت ليس من شيمتي. فالكلمات بالنسبة لي بمثابةِ الأكسجين

الذي أتنفّسه. ومع ذلك، قلَّبتُ سؤال جينيفر في ذهني بصمتٍ، متفحصًا إياهُ من زوايا مختلفة. فالسؤال الجيد يُوقظ في النفس أسئلةً أخرى، وبالفعل، أشعل سؤال جينيفر في داخلي عشرات الأسئلة. ومن ثمّ لمْ أعد أُحادثُها، بل أُحادث ذاتي.

وهذا عين ما كان سقراط يرمي إليه: حالةٌ من الاستجواب الذاتيِّ الذي لا يرحم، لا نسأل فيها عمّا نعرفه فحسب، بل مَن نكون، طمعًا في إحداث تحولٍ جذريٍّ في وجهة النظر.

تضمُّ رواية تولستوي القصيرة «موتُ إيفان إيليتش» أحد المقاطع الأدبية المفضلة لدي، ولعلَّ ذلك يعود إلى كونها مُخلِّصةً على نحوٍ غير متوقع، وتتضمَّن أيضًا قطارًا. البطلُ فيها مسؤولٌ حكوميٌّ ناجح. يصارع مرضًا عضالًا، ويُسيطر عليه الخوف والندم. وقرب نهاية القصة، يتبدَّد الرعب، ليحلَّ محلّه منظورٌ جديد، «كالإحساس الذي ينتاب المرء أحيانًا في عربة القطار عندما يظنُّ أنّه يسير إلى الخلف بينما هو في الحقيقة يتقدم إلى الأمام، ثمَّ يدرك فجأةً الاتجاه الصحيح».

بالعودة إلى حديثي مع جينيفر، أدركتُ كيف أنني، مثل إيفان، استشعرتُ فجأةً وجهتي الحقيقية. لقد كانت تلك هي التجربة الأكثر «سقراطيةً» التي مررتُ بها في حياتي. وهي لم تجرِ في أزقة أثينا القديمة المُغبرة، بل في شرفة منزل صديقتي في مدينة مونتكلير. لكن لا يهمُّ المكان. فالحكمة الأصيلة لا يحدُّها مكانٌ ولا زمان. إنَّها مُتنقلة.

الآن، كلما سعيتُ إلى تحقيق أيِّ هدفٍ، مهما كان بسيطًا، أتوقفُ لأسأل نفسي: كيف يبدو النجاحُ في نظري؟ ولأكون صريحًا، لم أجد بعدُ إجابةً

شافيةً لهذا السؤال، وربما لن أجدها أبدًا. ولكن لا بأس بذلك. لقد غيَّرتُ عدسات نظارتي، وأصبحتُ أرى الأمور بمنظورٍ أوضح.

***

تنزلقُ الأبوابُ لتُفسح المجال أمامي. أخطو إلى عربة مترو أنيقةٍ، برَّاقةٍ ومعدنيـة. في لغة اليونـان الحديثة، أشرع في رحلة «ميتافـورا metaforá». وهـي كلمـةٌ مُشـتقةٌ مـن الجـذر القديـم «metamorphoo»، الـذي يعني التحـول التـام مـن الداخـل إلى الخـارج، ومنـه اُشـتُقتْ كلمـة «ميتافـور metaphor» الإنجليزية، أي الاسـتعارة. ويستخدم اليونانيون اليوم كلمة «ميتافورا» للدلالة على السـفر بوسـائل النقل العام. فكلما اسـتقلَّ شخصٌ حافلـةً إلى عملـه، أو ركـب المـترو للقاء أصدقائـه، أوْ اسـتقلَّ عربةً لجلب ملابسـه من المغسـلة الجافة، فإنه، بطريقةٍ ما، يركب اسـتعارةً، وينخرط في فعـلٍ تحولي. أهوى اليونان. فكلُّ شيءٍ فيها يتجلَّى على مسـتويين، بل وأكثر في الغالب. حتى رحلة المترو العادية تحمل في طياتها وعدًا بتجديد الذات.

لا يقتصر تميُّز مترو أثينا على سلاسـة سـيره فحسـب، بل يُقدِّم دروسًا في التاريخ مع كلِّ رحلة. فخلال فترة إنشـائه، اكتشـف العمالُ آثارًا قديمةً تعـود إلى العـصر الذهبيِّ للمدينـة. وقد قام علماء الآثار باسـتخراج بعض هـذه الآثار (عبر «علمُ الآثار الإنقاذي» كما يُطلق عليه)، بينما دُمج البعض الآخـر في تصميم المحطات، ممَّا جعل السـكان المحليين يُطلقون على مترو الأنفاق وصف «متحفٍ يسير خلاله قطارٌ».

لقـد قَدِمـتُ إلى اليونـان، مهد الاسـتعارات، لأخطو عـلى الآثار التي خطتْ عليها قدما سـقراط، وأستنشـق عبير الهواء الذي استنشـقه. جئتُ

لأُعيد إلى ذاكرتي أنَّ سقراط لم يكن مجرد فكرة ذهنية مجردة، بل كان إنسانًا من لحمٍ ودم. لقد كان سقراط يتساءل ويُفكر، لكنه لم يكن يفعل ذلك في أيِّ مكان. بل كان يتساءلُ هنا، في أثينا، المدينة التي أحبها حبًا جمًا.

أترجلُ من قطار الأنفاق في محطة الأغورا وأشرع في السير. كانت الأغورا، أو السوق القديم، الملتقى المُحبب إلى قلب سقراط. كانت مكانًا يعجُّ بالناس وتنبعث منه روائح كريهة، مكتظًا بالباعة المتجولين واللصوص وسائر الناس. وقد كان سقراط يعشق هذا المكان. كانت الأغورا فصله الدراسيَّ ومسرحه الذي يُقدم فيه عروضه الفكرية.

شرع علماءُ الآثار في التنقيب عن الموقع في وقتٍ متأخرٍ نسبيًا، عام 1931، وذلك بعد مرور عقودٍ على عمليات التنقيب الكبرى الأخرى، مثل تلك التي جرتْ في بومبي وأولمبيا. ومع ذلك، فقد استدركوا ما فاتهم، كما تشهد على ذلك آلاف القطع الأثرية التي استُخرجت، من شظايا الفخار، والنقوش، والتماثيل، والعملات المعدنية، وغيرها من الكنوز القديمة.

اليوم، يغلب على الموقع، الممتدِّ على مساحة أربعةٍ وعشرين فدانًا، طابع الأنقاض، ولكن ما تبقَّى من معالم السوق القديم يكفي، مع قليلٍ من الخيال، لتصوير المشهد في الذهن. أستطيع أنْ أرى الباعة المتجولين يعرضون بضائعهم، من التوابل إلى الساعات المائية؛ والمتهمين بانتظار محاكمتهم؛ والشباب يتسكعون، كما هي عادتهم. وسقراط يراقب كلَّ ذلك، حافي القدمين، وعيناه الجاحظتان تتجولان سريعًا، باحثًا عن رفاقٍ في الفكر. لقد مارس سقراط الفلسفة في الأسواق. لم ينتظر أنْ يأتي الناس إليه. بل ذهب إليهم بنفسه.

لقد قال سقراط عبارته الشهيرة: «الحياةُ غير الخاضعة للتمحيصِ لا تستحقُّ أنْ تُعاش». عندما سمعتُ هذه المقولة لأول مرة، وأنا مراهقٌ تغشاهُ الكآبة، تنهدتُ بضيق. الحياةُ شاقةٌ بما يكفي، فهل تريد مني أنْ أُخضعها للتمحيص أيضًا؟ «الحياة الخاضعة للتمحيص». لا أحب هذا المصطلح. فبادئ ذي بدء، هو يحوي جذر كلمة «امتحان/ تمحيص Exam»، التي تُوقظ ذكرياتٍ كامنةً لأقلام الرصاص، وأيدي المعلمين الباردة. يبدو الأمر وكأنه عملٌ مُضنٍ للغاية. نستطيع أنْ نُقدم ما هو أفضل. لذا، مع كامل الاحترام والتقدير، أُقدم تعديلين لمقولة سقراط عن الحياة الخاضعة للتمحيص.

التعديل الأول: الحياة الخاضعة للتمحيص التي لا تُثمر نتائج عمليةً لا تستحقُّ أنْ تُعاش. فالتأمل في الذات له متعته، ولكن رؤية النتائج الملموسة، كتغيير الذات للأفضل، هي الأكثر إرضاءً. أطلق اليونانيون عليها اسم «يودايمونيا». وغالبًا ما تُترجم إلى «السعادة»، ولكن الكلمة تحمل دلالةً أوسع من قبيل حياة مزدهرة وذات مغزى. ولنتأمل، كما يقترح الفيلسوف المعاصر روبرت سولومون، شخصين. أحدهما يملك نظريةً مُفصلةً عن الكرم، بينما الآخر لا يملك شيئًا من ذلك. «فالكرم يتدفَّق منه بسلاسةٍ، دون تفكيرٍ، كما يتدفَّق الماء من النبع». الشخص الثاني، بلا شك، هو الذي يحيا الحياة المثالية وذات المغزى.

التعديل الثاني: الحياة غير الخاضعة للتمحيص قد لا تستحقُّ أنْ تُعاش، ولكن كذلك الأمر بالنسبة للحياة التي تخضع للتمحيص المُفرط. لقد قال الفيلسوف البريطاني جون ستيوارت ميل: «إذا سألتَ نفسكَ هلْ أنتَ

سـعيد، فإنكَ ستتوقفُ عنْ أنْ تكونَ سـعيدًا»، مُعبرًا عنْ مفارقة السعادة. فكلما سعينا إلى الإمساك بالسعادة، أفلتتْ من بين أيدينا. السعادة هي نتاج ثانـوي، وليسـتْ هدفًا بحدِّ ذاته. إنها مكسـبٌ غير متوقعٍ مـن عيش حياةٍ طيبة.

فهـل كان سـقراط مُخطئـًا فيـما يخـص موضـوع الحيـاة غـير الخاضعـة للتمحيص؟ أم أنني أغفل شيئًا ما؟.

تُلـحُّ عـليَّ غريزتي للإجابة عن هذه التسـاؤلات عـلى عجل، لأتخلص منهـا وأضيفها إلى قائمة المهام المُنجـزة. لكنني أكبح جماح هذه الغريزة. بل أدعُ السؤال يتردد في الهواء اليونانيِّ اللطيف، دون إجابةٍ فورية، ولكن ليس دون تفكيرٍ عميق. ثمَّ أستقلُّ «استعارة» عائدًا إلى فندقي.

***

لقد كان سقراطُ فاشلًا. أعلمُ أنَّ هذا الوصف يبدو قاسيًا، ولكنه عينُ الحقيقة. فمعظم حواراته لا تنتهي ببصيرةٍ مُلهمةٍ، بل بطريقٍ مسـدود. تُثير الفلسفة من الإشكالات أكثر مما تُقدم من حلول. وتلك هي طبيعتها.

لم يُخلِّـف سـقراط وراءه مؤلفـاتٍ منشـورة، بـل لقي حتفـه على أيدي رفاقه الأثينيين. وقد كانت التهم الموجَّهة إليه، ظاهريًا، هي الكفر وإفسـاد الشباب، ولكنَّ الدافع الحقيقي لإعدامه كان إغراقهم بالأسئلة التي لم ترق لهم. لقد كان أول شهيدٍ يُقدِّمه محراب الفلسفة.

عقب محاكمته، وقد قُضي في أمره، اجتمع ببعض أتباعه. كانوا مُحطَّمي القلـوب، أمـا هـو فقـد بقـي مُتفائـلًا، ومتحفظًا بـذكاءٍ، حتـى اللحظات

الأخـيرة. قال: «الآن حـانَ موعدُ الرحيل، أنا إلى المـوت، وأنتم إلى الحياة، وأيُّنا يمضي إلى مصيرٍ أفضل، هي مسألة لا يعلمُها إلا الآلهة».

تلـك كلـماتٌ أخـيرةٌ رائعة، وبها تُختتم العديد من سـير حياة سـقراط. ولكن ثمّة إشـكالٌ واحدٌ. لم تكنْ تلك هـي الكلمات الأخيرة التي نطق بها الفيلسوف. إذ يروي لنا أفلاطون، في محاورةٍ بعنوان «فيدون»، ما جرى في لحظات سقراط الأخيرة.

نطـق سـقراط مُخاطبًا صديقه: «يـا كريتو، نحن مدينون لأسـكليبيوس بديكٍ؛ قدِّم له هذه القربان ولا تنسَه».

أجاب كريتو: «سأفعل. هل لديك وصيةٌ أخرى؟»

لكن لم يأتِ جواب. لقد فارق سقراط الحياة.

فـماذا عسـانا أنْ نسـتخلص من هـذا الرحيـل الذي يبـدو في ظاهره عاديًـا؟ لقد أمـضى الباحثون قرونًـا يتأملون هذا السـؤال. يرى بعضهم في كلمات سـقراط الأخيرة دلالةً قاتمـة. ففي ذلك الزمان، كانت الديوكُ تُقدَّم كقرابين لإله الطبِّ، أسـكليبيوس، ولعلَّ سـقراط أراد أنْ يُشير إلى أنَّ الحياة بمثابة علةٍ يجب شفاؤها. أو ربما أراد أنْ يُعيدنا إلى أرض الواقع، حتـى وهو يصعد إلى السـماء. وربما كان يُذكرنا، ونحن نُصارع الأسـئلة الكـبرى في الحياة، بألا نغفل عـن الأمور الصغيرة. لا تنسـوا واجباتكم كمواطنـين وأصدقاء. كونوا أصحـاب مـروءة. وإنْ كان عليكم نذرٌ أو دين لأحدٍ، فوفوا به.

وهناك احتمالٌ أبسـط وأقلُّ عمقًا: وهو أنّ السـمَّ قد بدأ يُؤثر في وعيه،

فكان سقراط يُتمتم بكلامٍ غير مفهوم. لا أحد يجزم بذلك، وربما لن يجزم به أحدٌ قط.

أجل، أدرك هذا جيدًا: إنَّهُ لمن المذهل أنْ يرحل ملك الأسئلة وسط غيمةٍ من تساؤلاته، تاركًا إيانا في حيرةٍ، نمعن التفكير. وهكذا فلم يستطع سقراط أنْ يُقاوم إغراء زرع لغزٍ جديدٍ في أذهاننا؛ سؤال آخر لنعايشه.

الفصل الثالث

كيف تمشي مثل روسو

الساعة 2:42 ظهرًا. على متن السكك الحديدية الفيدرالية السويسرية، القطار رقم 59، في طريقهِ من بازل إلى نوشاتيل.

أُلقي بنظرةٍ عابرةٍ من نافذتي، وأُراقب الريف السويسريَّ وهو يتكشّف ببطءٍ مهيب. أو هكذا يبدو لي الأمر. فالسرعةُ مسألةٌ نسبية. يُجسّد السفر بالقطار، حين نُشاهده عبر غشاوة الحنينِ الوردية، عودةً إلى زمنٍ أبسط. أركبُ القطار لأُبدل من إيقاع حياتي، ولأُذكّر نفسي بمتعة التسكع والتروي.

لكن لم تكن الحال دومًا على ما هي عليه الآن. فعندما استقلَّ الناسُ القطارات للمرة الأولى في القرنِ التاسعِ عشر، تفاعلوا مع هذه التجربة بقلقٍ يقترب من الرعب. قال أحدُ الركاب الأوائل: «شعرتُ وكأنني قذيفةٌ مُنطلقة». وقال آخر: «شعرتُ وكأنني طردٌ بشري يُنقَل». لقد حوّلت السرعة -التي تجاوزتْ أيَّ سرعةٍ عرفها البشرُ على الأرض آنذاك- الريف المقدس إلى ضبابٍ مُرعب. وفي رسالةٍ في الثاني والعشرين من أغسطس عام 1837، وصف فيكتور هوغو المنظر من نافذة قطاره قائلًا: «لم تعد الأزهارُ على جانبي الطريقِ أزهارًا، بل تحولتْ إلى بقعٍ، أو بالأحرى إلى خطوطٍ حمراءَ أو بيضاءَ ... كلُّ شيءٍ يتحول إلى خطوط؛ وحقول القمح تبدو كخصلاتٍ صفراء مُتموجة؛ وحقول البرسيمِ كضفائرَ خضراءَ طويلة. ... وبين الحينِ والآخر، يظهرُ ظلٌّ، أو شكلٌ، أو شبحٌ، ثمّ يختفي

بسرعة البرق خلف النافذة». كان قطارُ هوغو يسير بسرعة خمسة عشر ميلًا في الساعة! كما أخبرتكم..السرعةُ مسألةٌ نسبية.

لقد صاغ الناقدُ الفنيُّ جون روسكين، الذي كان من بين أشدِّ المُعارضين لهذا النمط الجديد من وسائل النقل، حكمةً لا تزال صالحةً إلى يومنا هذا: «كلما زادتْ سرعةُ السفر، زادَ مللهُ».

بينما ينسابُ قطاري السويسريُّ انسيابًا سلسًا (فالقطاراتُ السويسريةُ تسير حقًا وكأنها تنساب) عبر ريف سويسرا الخلاب، بهدوءٍ لا يُسمع له همس، أتساءل عمّا كان جون روسكين سيقوله عن تجربة السفر الجويِّ في عصرنا هذا. لا أظنُّ أنه كان سيُبدي رأيًا حسنًا، أنا على يقينٍ من ذلك.

يتّبع النقل مساره التطوريَّ الخاص، حيث يسود قانون البقاء للأسرع، مُتجاوزًا أسلافه ومُسرعًا إلى الأمام دون توقف. نحن نتحرَّك بسرعةٍ فائقةٍ لا تسمح لنا بالتوقف والتساؤل عن كيفية وصولنا إلى هذه النقطة تحديدًا، مُقيدين في أنبوبٍ من الألومنيوم يُحلق بنا بسرعةٍ لا تُشوش المشهد فحسب، بل تمحوه تمامًا. هذا التسارع الهائل لم يحدث صدفةً، تمامًا كما لم تنشأ أدمغتنا الضخمة وأصابعنا القابلة للثني صدفةً. فقبل اختراع الطائرة كان القطار، وقبل القطار العربة، وقبل العربة السرج. ولكن، علينا أن نعود إلى الوراءِ أبعد من ذلك، إلى نقطة البداية الحقيقية.

في البدءِ كانت القدم.

***

كان جان جاك روسو شخصيةً متعددة الأوجه والمواهب؛ فقد كان

فيلسوفًا، وروائيًا، ومُلحنًا وموسيقيًا، وكاتب مقالات، وعالم نبات، وعصاميًا، وهاربًا من العدالة، ومُنظِّرًا سياسيًا، ومازوخيًا. ولكن قبل كلِّ هذا، كان روسو مُحبًا للمشي. فقد كان يمشي كثيرًا، وغالبًا ما كان يمشي وحيدًا. صحيحٌ أنَّ النزهة مع صديقٍ حميمٍ لها متعتها الخاصة، وكذلك الحال بالنسبة لنادي المشي، ولكن المشي في جوهره فعلٌ فرديٌّ خالص. نحن نمشي بأنفسنا ومن أجل أنفسنا. الحريةُ هي جوهر المشي. حرية الانطلاق والعودة متى شئنا، حرية التجول دون وجهةٍ محددة، وحرية «أنْ نسلك هذا الطريق أو ذاك، تبعًا لما تُمليهِ علينا نزواتنا العابرة» كما قال روبرت لويس ستيفنسون.

كان روسو يُطلق العنان لنزواته ورغباته العابرة. لقد قادته هذه النزوات في رحلاتٍ عبر أرجاء أوروبا، من مدينة البندقية الساحرة إلى باريس الصاخبة، ومن تورينو الهادئة إلى ليون النابضة بالحياة، وما وراء ذلك. لقد كان روسو من بين أوائل الشخصيات التي تجسّدتْ فيها روحُ الترحال الدائم والانفصال عن الجذور، وهو ما يُمكن أنْ نُطلق عليه اليوم لقب «الرحالة الحضري». لقد كان يشعر بأنَّه في وطنه في كل مكانٍ يحلّ به، وفي الوقت نفسه كان يشعر بغربةٍ دائمةٍ في أيِّ مكانٍ يتواجد فيه.

في معظم فترات التاريخ البشري، لم يكن المشي مجرد خيار مُتاح، بل كان ضرورةً حتمية. فإذا ما أردت الوصول إلى وجهتك، لم يكن أمامك سوى السير على قدميك. أما اليوم، فقد أصبح المشي خيارًا من بين خياراتٍ عديدة. لم يكن لدى روسو بالطبع الكثير من الخيارات التي نملكها نحن اليوم -فلم يكن القطار قد اُخترِعَ بعد- لكن كانت لديه بعض الخيارات.

فقد كانت شبكةٌ واسعةٌ منْ خدمات العربات تجوب أرجاء أوروبا. إلا أنه كان يكره السفر بالعربات بشدة، وكان يُفضِّل المشي كلما سنحتْ له الفرصة. وقد صرَّح قائلًا: «لم أُفكِّر قطُّ بعمقٍ، ولم أشعر بوجودي الحقيقي، ولم أعشْ حياتي بكلِّ جوارحي، ولم أكنْ نفسي حقًا... مثلما كنتُ في رحلاتي التي قمتُ بها وحيدًا على الأقدام». لقد أنقذ المشي حياة روسو، ولكنه أيضًا كان سببًا في نهايتها.

ترعرع روسو في مدينة جنيف، وكان ابنًا لصانع ساعاتٍ عصبيِّ المزاج يُدعى إسحاق. وقد فارقت والدته الحياة بعد ولادته بفترةٍ وجيزة، تاركةً له جرحًا عميقًا ظلَّ يُؤرقه طوال حياته. اعتاد روسو في صغره أنْ يُرافق أصدقاءه في رحلاتٍ لاستكشاف ريف جنيف الخلّاب. ويُدوِّن في مذكراته المعنونة بـ«الاعترافات» قائلًا: «كنتُ دائمًا ما أندفع في رحلاتي إلى مسافاتٍ أبعد من تلك التي يبلغها أصدقائي، دونَ أنْ أُفكر في العودة، إلا إذا نبهني الآخرون لذلك».

وفي ظهيرة أحد أيام الربيع الجميلة من عام 1728، خرج روسو في نزهةٍ غيَّرتْ مجرى حياته. كان في السادسة عشرة من عمره، مُتدربًا لدى نقَّاشٍ، وهي مهنةٌ كان يمقتها بشدة، وكان يشعر بقلقٍ واضطرابٍ وانفصالٍ عن كلِّ شيءٍ، بل وحتى عنْ ذاته كما يقول. لقد كان مراهقًا تقليديًا في تلك المرحلة العمرية. وقد غامر بالخروج إلى ضواحي المدينة. وبدأ الوقتُ يداهمه، وأدرك أنَّ عليه العودة قبل أنْ تُغلَق بواباتُ المدينة ليلًا. وكان روسو قد تأخر بالفعل عن موعد إغلاق البوابات مرتين من قبل، وتلقّى على إثر ذلك ضربًا مُبرحًا من صاحب عمله. وكان يخشى بشدةٍ ما قد يلقاه

هذه المرة.

ركض روسو بكلِّ ما أوتي من قوة، لكنَّ الوقت كان قد فات. لقد تأخر كثيرًا. قضى روسو ليلته تلك خارج أسوار المدينة، وأقسم على ألا يعود إلى جنيف أبدًا. ومنذ ذلك اليوم، عاش حياةً أشبه بحياة البدو الرُّحَّل، مسافرًا بلا كللٍ أو مللٍ، وغالبًا ما كان يُفضّل السفر سيرًا على الأقدام.

عاش روسو في مدنٍ عديدة، لكنه لم يكن من هواة الحياة المدنية. لقد وصف انطباعه الأول عن باريس -المدينة التي عند ذكرها تتبادر إلى أذهان معظمنا صور الجمال والرومانسية- قائلًا: «لم أرَ فيها سوى شوارع ضيقةٍ قذرةٍ تفوح منها الروائح الكريهة، ومنازل سوداء قبيحة، وجوًّا عامًّا من البؤس والفقر، ومتسولين وسائقي عرباتٍ وعمال وبائعي المشروبات العشبية والقبعات القديمة». ثمَّ أضاف واصفًا سكان باريس: «إنهم مملون» ولا يكفُّون عن ترديد «نكاتٍ سخيفة». كلا، لم يكنْ روسو من عشَّاق الحياة المدنية الصاخبة.

لم يكن روسو من هواة الاختلاط بالناس أيضًا. لقد كان شخصًا صعبَ المراسِ بشهادة معاصريه، وهو ما يُمكن أنْ نُطلق عليه اليوم وصف «صاحب متطلبات عالية». ويُعلق المؤلف ليو دامروش في سيرته الذاتية الرائعة عن روسو قائلًا: «لقد كان صديقًا صعب الإرضاء، وحبيبًا يُخيِّب الآمال، وموظفًا من المستحيل التعامل معه».

لقد أتاح المشي لروسو فرصة الاختفاء عن أنظار الآخرين. فقد كان رجلًا شديد الخجل، يُعاني من قِصرِ نظرٍ حاد، وأرق مُزمن على غرار ماركوس أوريليوس، بالإضافة إلى مشكلةٍ بوليةٍ لازمته طوال حياته

(شُخِّصت لاحقًا على أنَّها تضخمٌ في غدة البروستاتا)، كانت تُلزمه بالتردد المستمر على دورات المياه. لذا، كان يتجنبُ الاختلاط بالناس قدر الإمكان. وقد ظلَّ طوال حياته يتوهمُ أنَّ الأنظار مُسلطةٌ عليه باستمرار. ومما زاد الطين بلِةً أنَّه كان يُعاني من دافعٍ قهريٍّ غريبٍ لكشف مؤخرته للغرباء. كما كان روسو مازوخيًا علنيًا، يستمتعُ بتلقي الضرب المُبرح، كتلك المرة التي تلقى فيها عقابًا شديدًا وهو تلميذٌ مُشاغب. ويُدوِّن في مذكراته، التي تُعدُّ من أوائل المذكرات التي تضمَّنتْ تفاصيل شخصيةً فاحشةً بهذا القدر، قائلًا: «لقدْ وجدتُ في الألم، بل في الخزيِ نفسه، قدرًا من اللذةِ الجنسية التي جعلتني أتوقُ إلى المزيد».

وقد كان المشي متوافقًا بشكلٍ واضحٍ مع فلسفة روسو. فقد دعا إلى العودة إلى الطبيعة البكر، وأيُّ فعلٍ يُضاهي المشي في طبيعته الفطرية؟ إنهُ فعلٌ طبيعيٌّ خالص، على الأقل بالنسبة لأغلب البشر.

أنا لستُ روسو. لستُ من أبناء الطبيعة، ولا حتى من أقاربها البعيدين. لا أذهبُ للتخييم في البراري، ولا حتى للتخييم الفاخر في المنتجعات. سيارتي لا تحمل ملصقًا على المصدِّ يُعلن عن هواية الصيد. وينطبق الأمر نفسه على الصيد البري، والتخييم (كما ذكرتُ سابقًا)، واستكشاف الكهوف المُظلمة، والتجديف في الأنهار المتدفقة، والغطس في أعماق البحار، وتسلق الصخور الشاهقة، ومراقبة الطيور النادرة. لا أمتلك حذاءً خاصًا بالمشي في الطبيعة. ولا كيس نومٍ يُؤويني في الليالي الباردة. ولا مرابط تُعينني على تسلق الجبال الجليدية. أمتلك حقائبَ ظهرٍ عديدة، لكنها من الطراز العصريِّ الأنيق، تحمل أسماءً مثل «إصدار

المدينة» و«المتمرد الحضري».

الطبيعـةُ الأمُّ تُشبه في إلحاحها امرأةً كثيرة التذمُّر. فهـي لا تكفُّ عن تذكيري بعجزي المُطلق عن التعامل مع أبسـط الأمور. فأنا لا أُجيد نصب الخيـام أو تفكيكها، ولا أتقـن أيَّ شيءٍ يتعلق بالخيام على الإطلاق. أجهل تمامًا كيفية الاستدلال على الاتجاهات باستخدام النجوم أو الشمس أو أيٍّ من الأجرام السماوية الأخرى. ولا يقتصر عجزي على التعامل مع الطبيعة فحسـب، بل يمتدُّ ليشـمل جوانب أخرى من الحياة. فأنا لا أُحسـن تغيير فلتر الهواء في سـيارتي، ولا أُجيد التحدُّثَ مع ابنتي المراهقة، ولا أسـتطيع تخفيف معاناة والديَّ المسـنين، ولا أُتقن وضعيةَ الكلب المتجه للأسـفل في اليوجـا، ولا أسـتطيع حتى أن أجلـس مع أفكاري بهـدوءٍ لأكثر من خمس ثوانٍ دون أنْ أشعر بأنَّ رأسي سينفجر.

لطالمـا ظننتُ أنني أُتقنُ فنَّ المشي، ولكن بعد أنْ قرأت لروسـو، بدأتُ أشـكك حتى في هـذه المهارة البديهية. صحيحٌ أنني أسـتطيع أنْ أضع قدمًا تلـو الأخرى، وأكرِّر هذه الحركة بشـكلٍ آلي، لكنَّ هذا لا يُعدُّ سـوى تنقلٍ بسيطٍ على قدمين. إنه ليس المشي الحقيقيَّ الذي كان يقصده روسو.

تسـتطيعُ أنْ تستشفَّ الكثير عن شخصية المرء من خلال طريقة مشيه. وقـد اسـتحدث البنتاجون مؤخـرًا تقنية رادارية متطورةٍ قـادرةٍ على تمييز أنماط المشي الفردية بدقةٍ تصل إلى ٪95، تمامًا كبصمات الأصابع أو التوقيع الشخصي. فلكلِّ إنسانٍ أسلوبهُ الفريد في المشي.

لـديَّ أنـماطٌ متعددةٌ في المشي، وهـي، كتقلبات مزاجـي، تتغير وتتبدل باسـتمرار. فإمـا أنْ أندفع للأمام بكلِّ حماسـةٍ ونشـاط، كمتسـوقٍ يقتحم

المتاجـر في «الجمعة السـوداء»، أو أترنح ببطءٍ وثقـلٍ، كفيلٍ مُرهقٍ أفرَط في تناول الطعام من بوفيه هنديٍّ مفتوح. فإذا ما صادف أنْ كنت تمشي خلفي، أنصحك بتغيير مسارك. فأنا لستُ شخصًا يُمكن تتبعه بسهولة.

***

أستيقظ في مدينة نوشاتيل، المدينة التي لم تُثرْ إعجاب روسو، ثم أستقلُّ القطـار متوجهًـا إلى بلدةٍ صغيرةٍ تُدعـى موتيه، وهي بلـدةٌ نالتْ من كرهه نصيبًا أوفر. يُدوّن روسو في مذكراته قائلًا: «إنها أحقرُ الأماكن التي يُمكن للمرءِ أنْ يُقيمَ فيها وأكثرها سُـميةً». ويبدو أنَّ سـكان البلدة كانوا يُبادلونه الشعور نفسه.

لقد تحوَّل المنزل الذي كان روسـو يمقتـه في البلدة التي كان يمقتها إلى متحـفٍ صغير اليوم، مما يُثبت أنَّ مرور الزمـن وبعض الاهتمام بالتفاصيل يُمكـن أنْ يُصلحا أيَّ شيء. تُزين المنزل لوحةٌ تذكاريةٌ تحمل التواريخ التي أقـام فيها روسـو في هذا المكان: من العاشر من يوليـو 1762 إلى الثامن من سـبتمبر 1765. هذه التواريخُ دقيقةٌ من الناحيـة التاريخية، ولكنها لا تُقدم صـورةً كاملة. فهي تغفل عن ذِكر العداوة الشـديدة التـي كانت قائمةً بين روسـو وسـكان موتيـه، الذين كانـوا يُضمرون له كراهيةً شـديدةً بسـبب كتاباته الجريئة.

في الداخـل، أُشـاهد نسـخًا قديمـةً مـنْ الكتابـين اللذين أشـعلا فتيل الغضـب في قلـوب سـكان البلدة: «إميـل» و«العقـدُ الاجتماعـي». وألمح أيضًـا لوحةً زيتية تُصور روسـو وهـو يرتدي قفطانًا، وهـو رداءٌ فضفاضٌ كان رائجًـا في منطقة الشرق الأوسـط. لقد كان القفطـان مريحًا في ارتدائه،

ولكنه كان يبدو غريبًا في مظهره. وقد أثار هذا المظهر استياء سكان البلدة، تمامًا كما أثارتْ نزهات روسـو اليومية سـخرية واستهزاء الجميع. وفي أحد الأيـام، بلـغَ العـداءُ المُتأجج ذروته. فقد قام سـكان البلـدة، بتحريضٍ من قسيسِ البلدة، برشق منزل روسو بالحجارة. وقد أدرك روسو -الذي كانَ يُخطئ غالبًا في فهم الإشارات الاجتماعية- هذه المرة الخطرَ المُحدّق به. ففرَّ هاربًا من موتيه، ولم يعُد إليها أبدًا. وهكذا فعلتُ أنا أيضًا وغادرت المكان على الفور.

في ذلك المسـاء، وبعد عودتي إلى نوشـاتيل، استقريتُ في مقهىً صغيرٍ، وطلبتُ كأسًـا من نبيذ الشـاردونيه الأبيض، آملًا أنْ يُضفي مذاقهُ لمسةً من الرومانسـية على قراءتي. ثمَّ أخرجت مذكرات روسـو مـن حقيبة ظهري، وانغمسـتُ في قراءتها بشغف. فقراءة روسو ليسـت مجرد تصفحٍ عابر، بل هـي غوصٌ عميـقٌ في أعماق أفكاره ومشـاعره، إمـا أنْ تُقـدم عليه بكامل جوارحك، أو أنْ تُعرض عنه تمامًا.

ما يشـدُّ انتباهي بقوةٍ ولا يدعني أُفلته هو أسـلوب الكتابة نفسـه. لغةٌ سلسـةٌ وواضحة، سـهلة الفهـم، تختلـف تمامًا عن ذلـك الهراء الفلسـفيِّ المُعتاد. «رائع»، أُتمتم لنفسي، وأنا أحتسي رشفةً أخرى من نبيذ الشاردونيه، الذي يُضفي بالفعل مذاقه لمسةً رائعةً على قراءتي.

وسرعـان ما أدركـتُ أنَّ هذا الوضوح في الأسـلوب يترافقُ مع سـمةٍ أخـرى. إذ إنَّ روسـو -كيف لي أنْ أُعبر عن هذا بـأدب؟- يُبالغ في التعبير عن مشـاعرهِ بشـكلٍ درامي. فالكلمات تنبض بانفعالٍ شـديدٍ لدرجة أنني أكاد أقسـم أنَّ صفحـات الكتـاب رطبـةٌ من فـرط دموعه. يبكي روسـو،

بانتظامٍ وبغزارة. وهو كثيرًا ما تنتابه نوباتٌ من النشوة العارمة. وقد عُرِف عنه أنه يغشى عليه من فرط التأثر. وهو دائمًا ما يستسلمُ لـ«أحلى أنواع الكآبة»، أو لـ «قسوة القدر الذي يُلاحقني»، أو -وهذا هو تعبيري المفضل- لـ«الحياة الكسولة والمنعزلة». وقلبه، وهو العضو الذي يُفضله على ما يبدو، لا يكفُّ عن العمل. فهو إما «ينفتح» أو «يشتعل» أو «يتحرك». وفي معظم الأحيان، ينبض بقوة. ينبض بـ«نفاد الصبر»، أو بـ «الفرح الغامر»، أو»بعنفٍ شديد».

عادةً ما أجدُ هذا النوع من الكتابة التي تُركِّز على المشاعر مُنفرًا، ولكني لا أشعر بذلك تجاه كتابات روسو. فالكلمات، على الرغم من أنها تُبالغ في التعبير عن المشاعر، إلا أنها تخلو تمامًا من التصنّع والزيف. فروسو لا يُحاول أنْ يُظهر مشاعر زائفة.

تتلخص فلسفة روسو في أربع كلماتٍ موجزة: الطبيعة خيرٌ، والمجتمع شرٌّ. لقد كان يؤمن بـ «الخير الفطريِّ للإنسان». وفي كتابه «مقالةٌ في أصل التفاوت»، يرسم صورةً للإنسان في حالته الطبيعية الأولى، وهو «يتجوَّل في الغابات الكثيفة، لا يعرف الصناعة، ولا يتكلم لغةً مفهومة، ولا يملك مسكنًا يؤويه، ولا يشعر بحاجةٍ إلى شيء، ولا يُقيم علاقاتٍ مع الآخرين، ولا يرغب في إيذائهم». فالبشرُ لا يولدون خبثاء أو تافهين أو انتقاميين أو مرتابين، بل المجتمع هو الذي يُفسد فطرتهم النقية. والإنسانُ «الهمجي» الذي يتحدَّث عنه روسو يعيش كلَّ لحظة من لحظات حياته بكلِّ جوارحه، لا يبكي على ما فات، ولا يُقلقه ما هو آت.

يرى روسو أنَّ معظم ما نعتبرهُ طبيعةً بشريةً هو في الواقع مجرد عاداتٍ

اجتماعيـةٍ مكتسـبة. فنحن نتوهمُ أنَّ حبَّنا لجُبن بري المدخن أو اسـتخدامنا لإنستجرام هو أمرٌ فطري، بينما هو في الحقيقة نتاجٌ لثقافتنا. ففي سبعينيات القـرن المـاضي، كان النـاس يـرون أنَّ السـجاد الوبـريَّ وربطـات العنـق العريضـة جـدًا هي أمـورٌ «طبيعية»، بينما نُـدرك الآن أنَّها كانـت مجرد بدعٍ مُسـتهجنة. وحتى الأمور التي نعتبرها «طبيعية» كالمناظر الطبيعية الخلابة، تتأثـر بالثقافة السـائدة. ففي معظـم فترات التاريـخ الأوروبي، كان الناس ينظـرون إلى الجبال على أنَّها أماكن موحشـة، ولا يُقـدِم عاقلٌ على الذهاب إليهـا طوعًا. ولم تُصبـح الجبال موضع إعجابٍ إلا في القـرن الثامن عشر. ولكن الخبر السار، كما يقول روسو، هو أنَّنا قادرون على تغيير هذه العادات الاجتماعيـة، شريطة أنْ نُدرك حقيقتها، فهي مجـرد عاداتٍ مصطنعةٍ يُمكن التخلص منها بسهولة، تمامًا كما نتخلَّص من بنطلونات الجينز ذات الأقدام الواسعة الآن.

يشـعر الإنسـان الهمجي في فلسـفة روسـو دومًا بمشـاعر حبِّ الذات الفطريـة «amour-de-soi». وتختلـف هـذه العاطفة الصحيـة عن النوع الأكثر أنانيةً وتمركزًا حول الذات، والذي يُطلق عليه اسـم «الفخر بالذات amour-propre». فـالأولى تنبعُ من صميم الطبيعة البشريـة، بينما الثانية هـي نتاجٌ لتأثـير المجتمع. حب الذات هو الشـعور بالبهجـة الذي ينتابك عندما تُغني في الحمَّام تحت الدُش. أما الفخر بالذات فهو الشـعور بالنشـوة الذي يتملكك عندما تُغني على خشبة مسرح راديو سيتي. قد تُغني بشكلٍ غير متقنٍ في الحمام، ولكن متعتك في تلك اللحظة خالصةٌ لك وحدك، ولا تتأثر بآراء الآخرين، وبالتالي، كما يُجادل روسو، فهي أكثر أصالةً وصدقًا.

وهكذا، يتضح لنا السبب الذي دفع روسو إلى المشي. فالمشي لا يستلزمُ شيئًا من مظاهر الحضارة الحديثة: لا حيواناتٍ مُستأنسة، ولا عرباتٍ فاخرة، ولا طرقٍ مُعبدة. السائر في الطبيعة حرٌّ طليق، غير مُثقلٍ بأعباء الحياة المدنية. إنهُ تجسيدٌ خالصٌ لـ«حب الذات».

***

قد تُغير نزهةٌ واحدةٌ مجرى حياة الإنسان بأكملها. وهذا ما حدث مع روسو في ظهيرة أحد أيام صيف عام 1749. كان في نزهته المعتادة التي يقطع فيها ستة أميالٍ سيرًا على الأقدام من باريس إلى فينسين، لزيارة صديقه الفيلسوف دينيس ديدرو، الذي كان يقبع في السجن بتهمة كتابة نصوصٍ تُعتبر تجديفية. كان يومًا شديد الحرارة، والطريق مُغطى بالغبار. توقَّف روسو ليستريح قليلًا. وبينما كان جالسًا في الظلّ، يُقلب صفحات مجلة «ميركور دو فرانس» بشكلٍ عشوائي، لفت انتباهه إعلانٌ عن جائزةٍ تُقدمها أكاديمية ديجون لأفضل مقالٍ يُجيب على السؤال التالي: «هل ساهم إحياءُ العلوم والفنون في تحسين الأخلاق؟».

شعر روسو بدوارٍ شديدٍ وارتباكٍ مفاجئ، «كأنهُ ثملٌ». ويتذكر تلك اللحظة قائلًا: «لقد رأيتُ كونًا آخر، وتحولتُ إلى إنسانٍ آخر». وقد فاز مقاله بالجائزة الأولى، مما أدى إلى انطلاق مسيرته الأدبية في آفاقٍ واسعة.

هل كان من الممكن أن يتلقَّى روسو نفس الوحي والإلهام وهو جالسٌ في مكتبه، أو يركب عربةً فاخرة؟ ربما، ولكنَّ المشي في الهواء الطلق قد هيأ أرضيةً خصبةً لخياله الجامح. فالعقل يزدهر ويتفتح على أفكارٍ جديدةٍ عندما يتحرَّك بسرعة ثلاثة أميالٍ في الساعة، وهي سرعة المشي المعتدل.

وعندما يتحرَّر العقل من قيود العمل المكتبيِّ وتوقعات الآخرين، ينطلق في رحلةٍ حرةٍ في آفاق الخيال، حينها تحدث الأمور الرائعة وغير المتوقعة. ليس دائمًا، ولكن أكثر مما نتوقع. فالمشي يُوفر التوازن المثاليَّ بين التحفيز الذهنيِّ والراحة الجسدية، بين بذل الجهد والاسترخاء التام.

عندما نمشي، نكون في حالةٍ فريدةٍ نجمع فيها بين الفعل وعدم الفعل في آنٍ واحد. فعلى مستوىً ما، تكون عقولنا مُنشغلةً بالتفكير: نُركز على التضاريس التي أمامنا، ونُدرك ما يحيط بنا من تفاصيل. ولكن هذا التفكير لا يستحوذ على مساحةٍ كبيرةٍ من نشاطِ الدماغ. بل يترك مساحةً واسعةً للتجول الحرِّ في عالم الأفكار، ولتتبع الخواطر الغريبة التي قد تخطر ببالنا.

لا عجب إذنْ أنْ نجد العديد من الفلاسفة قد عشقوا المشي. فسقراط، على سبيل المثال، كان يُفضل التجول في ساحة الأغورا على أيِّ شيءٍ آخر. وكان نيتشه ينطلق بانتظامٍ في نزهاتٍ حيويةٍ مدتها ساعتان في جبال الألب السويسرية، مُقتنعًا بأنَّ «جميع الأفكارِ العظيمة حقًا تُولد أثناء المشي». وقد صمَّم توماس هوبز عصا مشيٍ خاصةً به مزودةً بمحبرةٍ محمولة، ليتمكن من تدوين أفكاره أثناء تجواله. وكان ثورو يقومُ برحلاتٍ طويلةٍ مدتها أربعُ ساعاتٍ عبر ريف كونكورد، وكانت جيوبه الواسعةُ تفيض بالبذور والزهور ورؤوس السهام الهندية وغيرها من الكنوز التي كان يجمعها. أما إيمانويل كانط، فقد كان يُحافظ على روتين مشيٍ مُنظمٍ للغاية. فكان يتناول غداءه في الساعة 12:45 ظهرًا كلَّ يوم، ثمَّ ينطلق في نزهةٍ مدتها ساعةٌ واحدةٌ بالضبط -لا أكثر، ولا أقل- في نفس الجادة الرئيسية في مدينة كونيغسبرغ البروسية (التي تُعرف الآنَ باسم كالينينغراد في روسيا). وقد

كان روتين كانط ثابتًا ودقيقًا للغاية لدرجة أنَّ سكان المدينة كانوا يضبطون ساعاتهم وفقًا لمواعيد تجواله.

جميعهم كانوا مُشاةً مهرة. ولكن لا أحد منهم يُضاهي روسو في شغفه بالمشي. فقد كان يقطع مسافة عشرين ميلًا في اليوم الواحد بشكلٍ منتظم. وفي إحدى المرات، قطعَ مسافة ثلاثمائة ميلٍ سيرًا على الأقدام من جنيف إلى باريس، واستغرق ذلك منه أسبوعين كاملين.

كانَ المشي بالنسبة لروسو جزءًا لا يتجزأ من حياته، تمامًا كالتنفس. «أجدُ صعوبةً بالغةً في التفكير عندما أكونُ ثابتًا؛ يجبُ أنْ يتحرَّك جسدي حتى ينشط عقلي»، هكذا يقول. وبينما كان يمشي، كان يُسجِّل أفكاره المتنوعة، الكبيرة والصغيرة، على أوراق اللعب التي كان يحملها دائمًا في جيبه. لم يكنْ روسو أول فيلسوفٍ يُمارس المشي، ولكنَّه كان أول من أفاض في الحديث عن فلسفةِ المشي وأهميته.

يُفنِّد الفيلسوف السائر إحدى الخرافات الكبرى التي تُحيط بالفلسفة، وهي أنَّها مجرد نشاطٍ ذهنيٍّ بحتٍّ منفصلٍ تمامًا عن الجسد. فمنْ لحظة اكتشاف أرخميدس الشهيرة في حوض الاستحمام، إلى مهارة ديكارت الفائقة في المبارزة، إلى مغامرات سارتر الجنسية الصاخبة، نرى أنَّ الفلسفة تتخللها تياراتٌ جسديةٌ قوية. فلا وجود لفلاسفةٍ أو فلسفاتٍ مُجردةٍ من الجسد. وكما قال نيتشه: «في جسدكَ حكمةٌ تفوقُ كلَّ ما في فلسفتك».

لنتأمل عاطفةً كالغضب مثلًا. عندما ينتابك الغضب الشديد، أين يتمركز هذا الشعور؟ في عقلك، بالطبع، ولكن أيضًا في جسدك، كما يُوضح الفيلسوف الفرنسي موريس ميرلو-بونتي: «لا أستطيعُ أنْ أتخيلَ

الخبثَ والقسوةَ اللذينِ ألمحهما في نظراتِ خصمي، بمعزلٍ عنْ إيماءاتهِ وحديثِهِ وجسدِهِ بأكمله. فكلُّ هذه المشاعرِ لا تتجسدُ في عالمٍ آخرَ مُنفصل، أو في مزارٍ يقعُ خارج نطاقِ جسدِ الرجلِ الغاضب». وبالمثل، عندما نمارس التفلسف، فإنَّنا لا نفعل ذلك بعقولنا فقط، بل بأجسادنا أيضًا.

***

بالعودة إلى المقهى الصغير، أُعاود الانغماس في قراءة روسو. نفسُ كأس النبيذ، ولكن كتابٌ آخر لروسو: عمله الأخير غير المكتمل، «هواجسُ المتجول الوحيد». إنَّه نصٌّ فريدٌ من نوعه، يجمع بين الغرابة والجاذبية، «كتابٌ يتناول موضوع المشي ولا يتناوله في الوقت نفسه»، كما تُشير ريبيكا سولنيت في كتابها الذي يُؤرخ لتاريخ المشي. وفي الواقع، فإنَّ فعل المشي نفسه ينطوي على تناقضٍ مماثل، فهو في جوهره فعلٌ بسيطٌ ومعقدٌ في آنٍ واحد.

يُعدُّ كتاب «هواجسُ المتجول الوحيد» العمل الأدبيَّ المُفضَّل لديَّ من بين مؤلفات روسو. فهو ينبض بالوضوح الأخلاقيِّ والحكمة المُتزنة لرجلٍ تجاوز مرحلة الاكتراث بآراء الآخرين، بعد أنْ ذاق مرارة الطرد والرجم والسخرية. هذا ليس روسو المُخالف للعرف أو روسو المُعترف بذنوبه، أو روسو المُصلح الاجتماعي. هذا هو روسو في لحظةِ استرخاءٍ تامٍّ وسلامٍ داخلي.

ينقسم الكتاب إلى سلسلةٍ من عشر نزهاتٍ أو هواجس. في كلِّ نزهةٍ، يخرج روسو في رحلةٍ سيرًا على الأقدام، ولكنَّ هذه النزهات ليست سوى وسيلةٍ، أو إطارٍ عام، للموضوع الحقيقيِّ الذي يتناوله الكتاب: الذاكرة.

كيف لنا أنْ نسترجع اللحظاتِ الجميلة التي عشناها، وهل يبقى مذاقها حلوًا كما كان، بل ربما أحلى، عندما نستعيدها في ذاكرتنا؟

وفي النزهة الخامسة من الكتاب، يستعيد روسو ذكريات إقامته في جزيرةٍ صغيرةٍ تُدعى سان بيير، التي كانت بمثابة ملاذٍ آمنٍ له بعد أنْ تعرّض للرجم بالحجارة في بلدة موتيه. لقد كانت تلك الجزيرة بمثابةِ جنةٍ أرضيةٍ بالنسبة له. «لقد كانتْ أسعدَ فترةٍ في حياتي»، كما يصفها.

عندما قرأتُ هذه الكلمات، كدتُ أنْ أبصق نبيذ الشاردونيه الذي كنت أحتسيه. فروسو، الخبير المتعمق في دراسة أمراضه النفسية الخاصة، لم يكنْ معروفًا عنه أنه يميل إلى نوبات السعادة الغامرة. لذا، انتابتني رغبةٌ شديدةٌ في رؤية هذه الجزيرة بنفسي.

أتوجهُ سيرًا على الأقدام نحو محطة القطار. ولكن هذه ليستْ نزهةً على طريقة روسو، فهي متسرعةٌ للغاية، كما أقول لنفسي. وتفتقر إلى التأمل والوعي. «ركّز، بحق السماء»، أُردد بصوتٍ عالٍ هذه المرة، مما أثارَ دهشة المارة السويسريين.

في محطة نوشاتيل الصغيرة لكن المزدحمة، صعدتُ إلى متن قطارٍ إقليميٍّ سريعٍ يُقلني إلى جزيرة روسو التي شهدتْ أسعد لحظات حياته. انطلق القطار في موعده المحدد تمامًا، كعادة القطارات السويسرية. فهي تستحقُّ بجدارةٍ سمعتها المرموقة في الالتزام بالمواعيد والدقة المتناهية. ولكن هذه الكفاءة الباردة والمنظمة بدقةٍ تبدو وكأنها متناقضة مع الحياة الفوضوية والعاطفية التي عاشها أعظم فلاسفة هذا البلد.

إنها رحلةٌ قصيرةٌ لا تتجاوز بضع محطات، ولكني قررتُ أنْ أُلقي نظرةً

على كتاب «هواجس المتجول الوحيد». يقول فيه روسو: «كلُّ شيءٍ في هذا العـالم في تغـيرٍ دائم»، مُرددًا مقولة الفيلسـوف اليونـانيِّ هيراقليطس: «كلُّ شيءٍ في حالةِ جريانٍ وتغيرٍ مستمر». فالنهر الذي نخطو فيه لا يبقى كما هو في المرة التالية، وكذلك نحنُ لا نبقى كما كنا.

ينسـاب القطـار عـلى القضبـان بسلاسـةٍ فائقة، لدرجـة أنَّني لـو لم أرَ المناظـر تتغير من حـولي، لظننتُ أننا ثابتـون في مكاننا. ولكـنَّ الحركة، كما يُخبرني روسـو، ضروريـةٌ وحيوية. ولكن يجـب أن تكون هـذه الحركة من نـوعٍ خـاص. «فإذا كانت الحركة مُتقطعةً أو عنيفـةً للغاية، فإنها تُوقظنا من أحلامنا وتُعكّر صفو أفكارنا».

ذكَّـرني حديث روسـو عن الحركـة العنيفة برحلتي عـلى متن قطارات أمـتراك عبر الولايـات المتحـدة، برفقة الإمبراطـور الفيلسـوف ماركوس أوريليـوس، الـذي كان يعـاني من الأرق. فبينـما كنا نعبر داكوتا الشـمالية، شـعرتُ بمللٍ شـديدٍ من المناظـرِ الطبيعيـة الرتيبة، فاحتجـتُ إلى فعل أيِّ شيءٍ يُخرجني من هذا الملل.

عـلى القضبان الصلبة لقطارات أمتراك، تتحوَّل الأنشـطة الروتينية إلى تحديـاتٍ صعبـة. فمحاولتي الوحيـدة للحلاقة، على سـبيل المثال، جعلت وجهـي مُلطخًا بالدماء ومُشـوهًا. والمشي أيضًا كان صعبًـا، إذ كنت أتمايل وأترنـح كأنني سـكرانُ في عـرض البحر. وهـذا الأمر منطقيٌّ مـن منظورٍ تطـوري. فنحـن البشر ننحدر مـن البحر، وهـي حقيقةٌ تتجـلَّى في الأصلِ اللغـويِّ لكلمـة «walk» (يمشي) باللغـة الإنجليزية. ففـي القرن الحادي عـشر، كانت هذه الكلمة تعنـي «التدحرج والارتطام» كحركة الأمواج في

البحر. ولم يكتسب فعل «المشي Walk» معناهُ الحاليَّ إلا في القرن الثالث عشر، عندما استقرَّ على اليابسة وجفف نفسه من مياه البحر. فالكلمات تتطور أيضًا وتتغير معانيها عبر الزمن.

أمّا أنا فلا. فبينما كنتُ أحاول المشي، كنت أتراجع في تطوري، وكأنّني أعود بالزمن إلى القرن الحادي عشر. كنت أتدحرج وأتمايل في الممرات الضيقة، وأصطدمُ بالأمتعة المتراكمة هنا وهناك، وبالغرباء الذين يعبرون الممر.

«عليك أنْ تتناغمَ معَ حركةِ القطار»، هكذا أخبرتني امرأةٌ مسنةٌ كانتْ تُراقب محاولاتي الفاشلة.

وقد كانت على صواب. إذ كنتُ أقاوم حركة القطار بدلًا من التناغم معها. كان عليَّ أن أرقص مع القطار وأدعه يُوجِّه خطواتي. استغرق الأمر منِّي بعض الوقت لأُتقن هذه المهارة، ولكنني تعلمتُ أنَّ السرَّ يكمن في الاسترخاء. كان القطار يتمايل يمينًا ويسارًا، وكنتُ أتمايل معه دون أيِّ مقاومة. وأخيرًا، وصلتُ إلى وجهتي، عربة الطعام، وشعرتُ بفرحةٍ عارمةٍ وكأنني قد وصلتُ إلى قمة جبل إيفرست.

***

منذ حوالي ستة ملايين سنة، تخلَّى أشباه البشر الأوائلِ عن المشي على أيديهم، وانتصبوا واقفين، وبدأوا المشي على قدمين. هذا الوضع الجديد المُنتصب جلب معه فوائد جمةً غير متوقعة. فقد حرر الأيدي من أجل صُنع الأدوات، بالإضافة إلى الإشارة والتعبير عن المودة والإيماء والتواصل بالإمساك بالأيدي، وحتى التعبير عن الغضب أو الاستياء، وتنظيف

الأنف وقضم الأظافر. فالمشي لم يكنْ مجرد وسيلةٍ للتنقل، بل كان ولا يزال أكثر من ذلك بكثير.

قد يبدو المشي أمرًا فطريًا، ولكنه ليس بالسهولة التي قد يتصوَّرها البعض. هنا، يُقدِّم جوزيف أماتو، في كتابه الموسوعيِّ «على الأقدام»، وصفًا مُفصلًا لفيزيولوجيا الخطوة الواحدة: «يتطلبُ المشي قضاءَ ثلاثة أرباع الوقت على إحدى القدمين فقط. ففي كلِّ خطوة، يضربُ المرء الأرض بساقٍ مستقيمة، مُلقيًا بكلِّ ثقله على الكعب الهابط، ثمَّ ينقل هذا الثقل إلى إصبع القدم الكبير مع تدوير الوركين وإعادة توجيه القدم والساق». يحدث كلُّ هذا بشكلٍ تلقائيٍّ دون تفكير، بالطبع. ولكن إذا ما أمعنت التفكير في هذه الميكانيكا الحيوية المُعقَّدة، فقد تفقد توازنك وتسقطُ على وجهك، كما كاد أن يحدث لي بعد قراءة هذا المقطع.

نحن نمشي على قدمين، ولكن على هيكلٍ عظميٍّ تطوَّر في الأصل للمشي على أربع. هذا التناقضُ بين التشريح القديم والاستخدام الحديث يُحافظ على ازدهار عيادات أطباء القدم. فالقدم المسطحة، وتورمُ القدمين، والتقرحات، وأورامُ إبهام القدم، وأصابع القدم المطرقية، ما هي إلا بعض المشاكل التي يُعاني منها القدمُ نتيجةً للمشي على قدمين. وقد عانى روسو مما يُسمى «مسامير القدم» طوال حياته. وكان يمشي على كعبيه بتحدٍّ واضح.

كان روسو مُحبًا للمشي بشكلٍ كبير، ولكنهُ لم يكنْ من النوع الذي يُقدِّم على مغامراتٍ بطولية. كان يمشي بخطىً وئيدةٍ بسبب معاناته من آلام القدم، ولم يكنْ قادرًا على «تجاوز خندقٍ بسيط». ولم يكنْ يحمل حقيبة ظهرٍ مُثقلةً بالأمتعة، أو أيَّ لوازم أخرى. ولم يصدَّ هجمات اللصوص أو

الكلاب الضالة. ولم يُنقذ أحدًا من مِحنة، سواءً كانت امرأةً في ضائقةٍ أو شخصًا آخر. كان يمشي ببساطة، دون إطلاق أحكامٍ أو انتظار أيِّ شيء. وعندما نمشي بهذه الطريقة المُتأملة، فإنَّ تجربة المشي تتحولُ إلى شيءٍ أقرب إلى القداسة.

***

يتوقَّف القطار في محطةٍ صغيرةٍ تقع على مسافةِ رحلةٍ حافلةٍ قصيرةٍ من مدينة سان بيير. وهذه المدينة تقع على جزيرةٍ تُخفي الكثير من المفاجآت. أولُ هذه المفاجآت أنَّها لم تعد جزيرةً منعزلة. فمنذ زمن روسو، تشكّل جسرٌ بريٌّ صغيرٌ يربط الجزيرة بالبرِّ الرئيسي. فكلُّ شيءٍ في هذا العالم يتغير باستمرار.

أخطو بقدمي على أرض الجزيرة التي لم تعد جزيرةً، وأُدرك سبب ولع روسو بها. إنها مكانٌ مثاليٌّ ببساطةٍ غير مُتصنعة، خصبةٌ ولكن ليست بالخصوبة المُبالغ فيها، خضراء ولكن ليس بشكلٍ مُفرط. ومن أيِّ زاويةٍ تنظر منها، ستجد إطلالةً ساحرةً على بحيرة بيين. هذا المنظر يُجسّد جمال الطبيعة في أبهى صوره، وهو ما وصفه الشاعر فيليب لاركين بـ «الأرضِ الجادة».

أتخيل روسو وهو يتجوَّل هنا في نزهاتٍ طويلةٍ غيرِ مُخططٍ لها، يصحبه كلبه المُحبب «سلطان»، أو ربما ينشغل بجمع عيناتٍ نباتية. وجدتُ الطريق الذي يعبر جزيرة سان بيير، وبدأتُ بالمشي. قدمٌ تتبع الأخرى، أُردد في نفسي، كما فعلتُ طوال حياتي، ولكن هذه المرة بشكلٍ أفضل. ترجمتُ كلمة «أفضل» إلى «أسرع»، وسرعان ما انطلقتُ بسرعةٍ مُفرطةٍ ومُضحكة. ثمَّ

تنبهتُ إلى ذلك وأبطأتُ خطواتي بشكلٍ مُبالغٍ فيهِ حتى أصبحتُ أتحرك بسرعة الفيل. لماذا لا أستطيع أن أجد وتيرةً مُعتدلةً للمشي؟ ما مشكلتي؟

والمُفاجأة أنَّ الإجابة جاءتْ على لسان الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس. «واجهِ المصاعبَ والتحديات، سواءً كانتْ حقيقيةً أو مُتخيلة، ليسَ بالاستسلامِ للشفقةِ على الذاتِ أو الانغماسِ في القلقِ واليأس، بل ببساطةٍ بالبدءِ من جديد». عندما ننظرُ إلى الحياة من هذا المنظور، فإنها لن تبدو لنا وكأنها قصةٌ انحرفت عن مسارها، أو نهايةٌ فاشلة. فكلُّ هذه المفاهيم ليست سوى أوهام. لا توجدُ نهاياتٌ حقيقية. بل سلسلةٌ لا مُتناهيةٌ من البدايات الجديدة.

لذا، أبدأ من جديد. أقدم قدمًا تتبعها الأخرى. جيد. وها أنا أكرر العملية. أتبع المسار المُحدد، وأتوقف بين الحين والآخر لأُمتع ناظريَّ بجمال البحيرة والسحب الرقيقة التي تُزين السماء. وأخيرًا، وصلتُ إلى الغرفة الصغيرة التي كان يقطنها روسو. إنها غرفةٌ بسيطةٌ للغاية، تحتوي على سريرٍ ذي مظلةٍ قماشية، ومنطقة جلوسٍ مُتواضعة، وفي إحدى زواياها، بابٌ خشبيٌّ كان روسو يستخدمه للهروب عندما يتعقبه مُعجبوه أو خصومه.

معشبه الخاصُّ موجودٌ هنا أيضًا: نباتاتٌ مُجففةٌ ومضغوطةٌ، سيقانٌ طويلةٌ ورقيقةٌ وكأنَّها مُجمدةٌ في الزمن. وهناك لوحةٌ صغيرةٌ تُشير إلى «شخصية روسو المُتناقضة»، وهي عبارةٌ لا تعبر بدقة عن مدى تعقيد شخصيته.

لكن هناك شيءٌ ملحوظٌ يفتقده المكان: الكتب. فقد كان هروب

روسو من موتييه على عجل لدرجة أنه لم يتمكن من أخذ مكتبته الضخمة. وفي كتاب «أحلامُ اليقظة»، يُشير إلى هذا النقص في مواد القراءة واصفًا إياهُ بأنه «من أعظم مصادر سعادتي». وهذا القول يبدو مُستغربًا من رجلٍ أفنى عمره بين الكتب قراءةً وكتابة. وفي موضع آخر، يصف روسو كيف كان يمشي إلى مكانٍ منعزلٍ على ضفافِ البحيرة، ويستمع إلى صوت الأمواج وهي «تتلاطمُ على أذنيَّ وعينيَّ... وكانَ ذلك كافيًا لأشعر بوجودي في هذا العالم دون أن أُرهقَ ذهني بالتفكير». حسنًا، لقد بدأ بالتخلي عن القراءة، ثمَّ توقَّف عن التفكير. فهل كان يتراجع إلى الوراء، أم أنه كان على وشك اكتشاف حقيقةٍ عميقة؟.

كان روسو، شأنه شأن سقراط، فيلسوفًا مُخالفًا للمألوف. لم يكن يتحمَّل «الجدل المنطقيَّ العقيم» أو «التفاصيل الميتافيزيقية المُتشعبة». لقد كان مفكرًا، ولكنه لم يُفرط في التفكير. كان روسو يدرك أنَّ قلبه، وهو العضو الأكثر قيمةً بالنسبة له، يمتلك ذكاءً خاصًا به، ذكاءً لا نُدركه بالتفكير المُرهق أو التوتر العصبي، بلْ بالاسترخاء الجسديِّ وحرية الحركة.

يمشي الناسُ بزهوٍ ويتبخترون أمام الآخرين ليُظهروا قوتهم أو مكانتهم، ولكن نادرًا ما يفعلون ذلك عندما يكونون بمفردهم. فهذه الحركاتُ هي تعبيراتٌ اجتماعيةٌ بحتة. والمشي، على الرغم من كونه أبطأ وسيلةٍ للتنقل، إلا أنه أسرع طريقٍ للوصول إلى ذواتنا الحقيقية. لا يُمكننا العودة إلى جنةٍ مفقودةٍ ربما لم تكن موجودةً أصلًا. ولكن يُمكننا المشي. يُمكننا المشي إلى العمل، وتوصيل أبنائنا إلى المدرسة سيرًا على الأقدام، والتجول بمفردنا في شوارع المدينة أو في الطبيعة الخلابة، دون وجهةٍ

محددة، في فترة ما بعد الظهيرة الخريفية المنعشة.

إنَّنا نمشي لنتخلص من أعباء الحياة. نمشي لننسى مدير العمل المُتقلب المزاج، والشجار الذي دار مع الزوج، وفواتير المستحقات المتراكمة، وضوء التحذير الوامض في لوحة سيارتنا، والذي يُنذر إما بانخفاض ضغط الإطارات، أو باشتعال السيارة. نمشي لننسى، ولو للحظاتٍ عابرة، هذا العالم الذي «يُثقل علينا بأعبائه أكثر مما ينبغي»، كما وصفه الشاعر ويليام وردزورث، وهو أيضًا من عُشاق المشي المُخلصين.

كما نمشي لننسى ذواتنا أيضًا. وهذا ما أفعلهُ شخصيًا. تلك الخمسة عشر رطلًا الزائدة التي تُقاوم كلَّ نظامٍ غذائيٍّ معروف، والشعر الأنفي الذي ينمو باستمرار، والبقعة التي تُشوّه مظهر رأسي الأصلعِ منذُ عقدٍ من الزمن، والتي قررتْ فجأةً، ولأسبابٍ غير مفهومة، أنْ تُظهر نفسها وتنتشر كبقعة حبر. كلُّ هذه الأمور تتلاشى من ذهني عندما أبدأ بالمشي.

أتذكرُ مرةً أنني كنتُ أشاهد الألعاب الأولمبية الصيفية على شاشة التلفاز، وقد استرعى انتباهي بشكلٍ خاصٍّ سباقُ المشي التنافسي. رياضيون شبابٌ مُجتهدون يسيرون بخطىً حثيثةٍ نحو خطِّ النهاية للفوز بالميدالية الذهبية. ولكنَّ مظهرهم كان مُضحكًا. فالمشي ليس رياضةً تنافسية. وعبارة «المشي التنافسي» تبدو مُتناقضةً تمامًا كعبارة «التأمل التنافسي». في عصرنا هذا، الذي يُهيمن عليه الإفراط في استخدام الإكسسوارات والكماليات، يظلُّ المشي واحدًا من الأنشطة القليلة التي لا تحتاج إلى أيِّ إضافاتٍ أو تعديلات، وهو نشاطٌ، كما تُشير الكاتبة ريبيكا سولنيت، ظلَّ «بسيطًا دون أيِّ تحسينٍ منذ فجر التاريخ».

المشي نشاطٌ ديمقراطيٌّ بامتياز. فباستثناء الأشخاص ذوي الإعاقة، يستطيعُ أيُّ إنسانٍ أن يمارسه. ولا يتمتع المشاةُ الأثرياءُ بأيِّ امتيازاتٍ إضافيةٍ على المشاة الفقراء. كان روسو، على الرغم من شهرته الأدبية ونجاحه، يعتبر نفسه دائمًا «ابن عاملٍ بسيط»، أو ما يُعرف في عصرنا الحاليّ بالعمال ذوي الياقات الزرقاء. وهؤلاء الأشخاص لم يكونوا يستخدمون العربات الفاخرة للتنقل، بل كانوا يعتمدون على المشي كوسيلةٍ أساسية للتنقل.

كانوا يمشون كما أمشي أنا الآن: بكلِّ انتباهٍ وتركيز، خطوةً تلو الأخرى، مُستمتعين بصلابة الأرض تحت أقدامهم، ومرونتها أيضًا.

***

في أواخر شهر أكتوبر من عام 1776، كان روسو يسير في أحد شوارع باريس الضيقة، عائدًا إلى منزله بعد نزهةٍ طويلة. وكما يروي كاتب سيرته الذاتية، ليو دامروش، «اندفعتْ نحوهُ عربةٌ يملكها أحدُ النبلاء، وكان يرافقها كلبٌ دانماركيٌّ ضخمٌ يركض بجانبها بسرعةٍ جنونية. ولم يتمكنْ روسو منْ تفاديها في الوقت المناسب، فصدمه الكلب بقوةٍ وأسقطه أرضًا على الشارع المرصوف بالحصى، مما أدّى إلى نزيفٍ غزيرٍ وفقدانِ الوعي». ويُرجَّحُ أنَّ روسو قد أُصيب بارتجاجٍ في المخ وتلفٍ في الجهاز العصبي، ولم يتعافَ تمامًا من هذه الإصابة. وبعد أقلَّ من عامين، عاد جان جاك روسو من نزهته الصباحية، وغشي عليه فجأةً وتوفي.

بحسب جميع الروايات التاريخية، مات روسو وهو رجلٌ سعيد. وفي أواخرِ أيام حياته، اتسمتْ نزهاته بطابعٍ أكثر هدوءًا وتفاؤلًا. وعلى الرغم

من بقاء بعض آثار الشفقة على الذات في كتاباته («ها أنا ذا وحيدًا على وجهِ الأرض») وبعض نوبات جنون الارتياب («السقفُ فوقَ رأسي له عيون، والجدرانُ حولي لها آذان»)، إلا أنَّ حاجته إلى الهروب أو إثبات وجهة نظرٍ فلسفيةٍ قد تلاشت تمامًا. لقد كان يمشي ببساطة، مُستمتعًا بكلِّ خطوة.

إرثُ روسو ضخمٌ ومتنوع. فهو يشمل بطاقات التهنئة الرومانسية التي تُنتجها شركة هولمارك، والأفلام الميلودرامية التي تُبكي المشاهدين في هوليوود، والرموز التعبيرية على شكل قلب، والمذكرات الشخصية التي تكشف عن تفاصيل حميمة. فإذا سبق لكَ أنْ قلت يومًا: «أحتاجُ إلى أنْ أبكيَ قليلًا لأُفرغَ ما بداخلي»، فالفضل في ذلك يعود إلى روسو. وإذا ما قلت يومًا: «أطلق العنانَ لخيالك»، فأنتَ بذلك تتبع فلسفة روسو. وإذا ما انفعلت أثناء جدالٍ وقلت: «لا يهمني إن كان كلامي غير منطقي، هذه هي مشاعري»، فروسو هو مُلهمك. وإذا ما واجهت ألم الفراق بالخروج في نزهةٍ طويلةٍ وغاضبة، فروسو هو قدوتك. وإذا ما أجبرك شريك حياتك على القيام برحلةٍ طويلةٍ لمسافة عشرةِ أميالٍ في يوم باردٍ ومُشبعٍ بالرطوبة، مُبررًا ذلك بأنّها «ستكون مفيدةً لك»، فيُمكنك أن تشكر أو تلعن روسو. فبفضله، أصبحنا نفكر ونشعر بطريقةٍ مختلفة، ونُدرك مشاعرنا بشكلٍ أعمق.

وإذا كان ديكارتُ يُعتبر فيلسوف العقل في العصر الحديث، فإنَّ روسو يُعتبر فيلسوف القلب. لقد أعطى روسو الأولوية للعواطف والمشاعر، وجعلها مقبولةً في الخطاب الفلسفي، وإنْ لم تكن على نفس مستوى العقل تمامًا، إلا أنّها أصبحت قريبةً منه. ولم يكن هذا التحوُّل سهلًا. ففي عصر

روسو، الذي يُعرف بعصر العقل، كان التفكيرُ الخياليُّ يُنظر إليه بعين الشك والريبة. وبعد مرور قرنين من الزمن، أعلن ألبرت أينشتاين -ذلك العقلاني البارز- أنَّ «الخيالَ أهمُّ منْ المعرفة».

قد يميل البعض إلى اعتبار روسو مجرد مُحب مُتطرفٍ للطبيعة، أو من دُعاة التخلي عن التكنولوجيا، يتمنى أنْ نعود جميعًا إلى حياة الصيد وجمع الثمار، ونتنازع على أفضل مكانٍ بجوار النار. ولكنْ هذا ليس ما كان يهدف إليه روسو. فهو لم يدعُ إلى العودة إلى حياة الكهوف البدائية، بل إلى إعادة التوازن والتناغم مع الطبيعة، وإلى حياةٍ أفضل في ظلالها. لقد تنبأ روسو بالمشاكل البيئية التي ستواجه البشرية، وذلك قبل عقودٍ من اندلاع الثورة الصناعية، وقرونٍ قبل ظهور الطرق السريعة في كاليفورنيا.

لم يكنْ مذهبُ روسو الطبيعاني بمثابة وصفةٍ علاجيةٍ جاهزةٍ للتطبيق. بل كان عبارةً عن تجربةٍ فكريةٍ عميقة. فقد طرح روسو سؤالًا مُهمًا: ماذا لو تمكَّنا من إزالة طبقات التزييف والتصنع التي أضافها المجتمعُ علينا بسخاء، تمامًا كإضافة أحمر الخدود على الوجه، وكشفنا عن ذواتنا الحقيقية والأكثر أصالة؟ إنَّ تحت قشرة المدير التنفيذيِّ المُهذب يكمن مُثيرٌ للشغب، وداخل كلِّ موظف مكتبٍ رتيبٍ يختبئ مُتسلق جبالٍ يتوق إلى الانطلاق والتحرر.

***

أخرج من غرفة روسو القديمة في الجزيرة التي لم تعد جزيرةً وأُظلل عينيَّ بيدي من أشعة الشمسِ الساطعة. أجد نفسي أمام خيارين: إما أن أُسرع للحاق بالتاكسي المائيِّ الذي سيُعيدني إلى المدينة، أو أن أختار المشي.

وقد قررتُ أنْ أمشي.

أسيرُ وحيدًا. أسير بخطواتٍ واعيةٍ ومُتأنية. أسمح لعقلي بالتجول والتفكير بحرية، ولكن دون أنْ يبتعد كثيرًا عن الواقع. بدأتُ أشعر أنني أتقنتُ هذه المهارة. لا، هذا صوت الغرور يتحدث. أسكتْ هذا الصوت بداخلك. تواصل مع الأرض تحتَ قدميك. هذا الشعورُ أفضل بكثير.

أجدُ إيقاعًا مُتناغمًا لخطواتي. أُدرك ما يحيط بي من أصواتٍ ومرئيات (تغريد العصافير المُبهج، وصوت حفيف الحصى تحت قدمي). أستمرُّ في المشي، وأمضي قُدُمًا. بدأتْ ساقاي تُؤلمانني. ولكن مع ذلك، أُواصل المشي. إنهُ مؤلمٌ، ولكنه يُشعرني بالرضا والإشباع في الوقت ذاته.

أشعرُ أنني أتقدم بخطىً ثابتةٍ الآن. أتساءل كم عددُ الخطوات التي قطعتها حتى الآن؟ وبشكلٍ لا إرادي، أُدير معصمي لألقي نظرةً على ساعتي الذكية، ولكنني أتوقف في اللحظة الأخيرة. أستنشق الهواء بعمقٍ شديد، وكأنني غواصٌ يصعد من أعماق البحر ليُجدد أنفاسه.

في مرحلةٍ ما من المسير، شعرتُ بتغييرٍ خفيٍّ لكنه واضحٍ في... في ماذا تحديدًا؟ في وعيي؟ لا، بل في قلبي. التوقعات التي كانتْ تُثقل كاهل ذهني -بشأن «فهم» روسو، وبشأن إحراز تقدمٍ في استكشافاتي الفلسفية- بدأتْ تتلاشى تدريجيًا. أُواصل المشي، ولكن لم أعد أشعر أنني الفاعل في هذه العملية. لقد تحولتُ إلى فعلٍ خالص، دون وجود ذاتٍ فاعلة.

شبّهَ اللاهوتي اليهودي أبراهام هيشل يوم السبت اليهودي بأنّه «ملاذ في الزمان». والمشي هو ملاذٌ مُتحرك. فالسكينة التي نشعر بها مع كلِّ خطوةٍ نخطوها تلتصق بنا، وتنتقل إلى من حولنا. إنهُ شعورٌ بالسلام الداخليِّ المُتنقل.

يتلاشى الألمُ تدريجيًا. مع كلِّ خطوةٍ أخطوها، أشعرُ بعبءٍ أقلَّ على كاهلي، وبخفةٍ ورشاقةٍ أكبر، وكأنَّ شخصًا ما قد نفخ الهواء في حذائي. أدركُ جدية الأرض وثباتها، ولكنني أحسُّ بخفتها ورشاقتها أيضًا.

ومع ميل الشمس نحو الغروب وانخفاضها في الأفق، شعرتُ بحضورٍ غريبٍ ومميز، وكأنَّ قدميَّ تلامسان مخلوقًا ضخمًا ولطيفًا. لا أستطيعُ أنْ أُحدد ماهية هذا الحضور، ولكني أشعر بيقينٍ غير معتادٍ أنه أقدم من أيِّ شيءٍ قديم، وأنه ينبع من زمنٍ بعيدٍ جدًا، قبل أنْ تُوجد الكلمات لتصفه.

الفصل الرابع

كيف ترى مثل ثورو

11:12 صباحًا. على متن قطار أمتراك أسيلا، رقم 2158، في طريقه من واشنطن العاصمة إلى بوسطن.

أجلس في عربةِ الهدوء[7] المقدسة. نتبادل نحن، رفاق الهدوء، نظرات استحسان صامتة، وكأننا نعقد تحالفًا سريًا. نحن رفاق سلاحٍ في حربٍ غير مُعلنة، مُتحصنون في «دونكيرك» الخاصة بنا، تتلقى نيران العدوِّ الصاخبة من كلِّ جانب، واحتمالات النجاة ضئيلة، ولكننا صامدون لا نلين. عربةُ الهدوء هي قمة الحضارة في هذا العالم المضطرب، حصنٌ منيعٌ ضدَّ الصخب البربريِّ الذي يزمجر خارج أسوارها.

إنها محاولةٌ يائسة، كما يتضح من توبيخ موظف القطار الفاتر لزوجينِ من الركاب المارقين الذين يُدنّسون «جوَّ المكتبة» الذي فرضته أمتراك. في أعماق قلوبنا، نحن رفاق الهدوء نُدرك أنَّ المعركة قد خُسرت بالفعل، وأنَّ صخب العالم الخارجيِّ قد تسلل إلى حصننا. فضلًا عن ذلك، فإنَّ أيَّ هدوءٍ يسود هنا ليس سوى قشرةٍ خارجيةٍ تُخفي وراءها عواصف من الأفكار المتضاربة والهموم المتزايدة. فداخل رؤوسنا، مستويات الضجيج الداخليِّ تتجاوز كلَّ الحدود. هذا هو سرُّ حياة اليأس الهادئ، إنها هادئةٌ فقط من الخارج، بينما تضطرب من الداخل كبركان يستعدُّ للانفجار.

---

(7) عربات الهدوء هي عربات في القطار يُمنع فيها التحدث في الهاتف أو بصوتٍ مرتفع أو إحداث ضوضاء. (المترجم)

لا شيء من هذا يهمُّ الآن، وأنا أملك بين يديَّ مكتبةً صغيرةً من الكتب التي تُؤنس وحدتي، بالإضافة إلى دفتري وقلمي اللذين يُشعرانني بالأمان والراحة. فجأةً، يتمايل القطار بعنف، وقلمي، ذلك الجمالُ اليابانيُّ المصنوع من الفولاذ المقاوم للصدأ، تحفةٌ فنيةٌ تجمع بين الكمال الجماليِّ والراحة في الاستخدام، يختفي فجأةً، وكأنَّهُ تبخَّر في الهواء.

أقلبُ المقعد رأسًا على عقب، أبحث تحته وحوله وداخله، وكأنَّني أُفتش عن كنزٍ مفقود. أنزل على ركبتيَّ وأُدسُّ يدي داخل آلية المقعد التي اتضح أنها معقدة للغاية. جذب هذا الالتواء الأخير بعض النظرات الجانبية الفضولية، ولكن لا توبيخ من أحد، فقد حرصتُ على تنفيذ هذه المناورات البهلوانية بمستويات صوتٍ مُنخفضةٍ للغاية، ملتزمًا بقوانين عربة الهدوء المقدسة.

لم أعثر على قلمي، ولكن على غير عادتي، لم أُعرْ الأمر اهتمامًا يُذكر. الحركة الإيقاعية للقطار، التي ليست اهتزازًا بالمعنى الدقيق، بل هي أقرب إلى حركة أرجوحةٍ صدئةٍ تتأرجح بلطف، تُهدئ من روع عقلي، بينما تنساب المناظر الطبيعيَّة أمام ناظري وكأنَّها لوحةٌ فنيةٌ متحركة: غيومٌ بيضاءُ منتفخةٌ تلطخ زرقة سماء أواخر الربيع بلمساتٍ رقيقة، نهر سسكويهانا الواسع ينساب بهدوء، والبلدات الساحلية الفاخرة في كونيتيكت وورود آيلاند تطلُّ بأبنيتها الأنيقة على النهر. كلُّ هذا أراه بأمِّ عيني، أو هكذا أعتقد على الأقل. فمن يقضي وقتًا طويلًا في قراءة الفلسفة سرعان ما يُصبح غير واثقٍ من أيِّ شيء.

بعضُ الناس يُولدون ثورو، وبعضهم يبلغون ثورو، وأكثرهم يُجبرون على ثورو.

زُرع هنري ديفيد ثورو في وعيي قسرًا في الصف التاسع[8]. لم أستطع اتّباعه، ولم أكن لأفعل حتى لو استطعت. كما ذكرتُ سابقًا، أنا لستُ من عشاق الغابات أو الحياة البدائية. حياتي ليست نموذجًا للبساطة التي كان يدعو إليها ثورو، بل هي مزيجٌ معقدٌ من الالتزامات والمسؤوليات. وبينما أملك ميولًا انعزالية، إلا أنَّني أفضِّل أن أمارس عزلتي في غرفة فندقٍ فاخرة، وليس في كوخٍ صغيرٍ مُتهالكٍ يفتقر إلى أبسط وسائل الراحة الحديثة، كالمياه الجارية أو شبكة واي فاي سريعة. نفيتُ على الفور كتاب «والدن» إلى سيبيريا عقلي، تلك المنطقة النائية والباردة التي أُرسل إليها الكتب التي لا أستسيغها، حيث انضمَّ إلى رفاقٍ آخرين منفيين مثله، مثل «موبي ديك» و«الإخوة كارامازوف» وحساب التفاضل والتكامل».

قبل أسابيع قليلةٍ من رحلتي إلى كونكورد، صادفتُ مقالًا في مجلة نيويوركر عن ثورو، بعنوانٍ استفزازيٍّ هو «غثاءُ البِرَك»، وكما تتوقع، لم يُسهم هذا العنوان في تحسين صورة ناسك كونكورد في مخيلتي، بل زادها تشويهًا. تبدأُ الكاتبة كاثرين شولز مقالها برسم صورةٍ قاتمةٍ لشخصٍ عديم الإحساس، يكره البشر ويعيش في عزلةٍ تامة. وتزيد هجومها شيئًا فشيئًا.

ولكن، وبينما يرسو قطار الركاب في محطة كونكورد، تمامًا كما كان يفعل في زمن ثورو، أُعاهد نفسي على أن أُبقي ذهني مُنفتحًا، وأن أُعطي ثورو فرصةً أخرى. فإذا كان لي أن أستخلص حكمةً من رحلتي في عالم الفلسفة، فهي أنَّ الانطباعات الأولى غالبًا ما تكونُ خادعة، وأنَّ الشكَّ هو رفيقُ الدرب الذي يُساعدنا على تجاوز حدود اليقين الزائف، والانتقال من

(8) يُدرَّس كتابُ «والدن» في الصف التاسع في المدارس الأمريكية. (المترجم)

مرحلة الجهل إلى مرحلة المعرفة الحقيقية. ولكن هذه الرحلة لا تتمُّ بسرعة، بل تتطلب صبرًا وتأنيًا، تمامًا كرحلة القطار الذي يتوقف في كلِّ محطةٍ من محطات الحياة.

لقد وطئتُ أرض كونكورد وأنا أحمل في جعبتي خطةً مُحكمة. سيحمل هذا الفصل عنوانًا مُغريًا، ربما «كيف تعيش وحيدًا مثل ثورو»، أو «كيف تعيش حياةً بسيطةً على طريقة ثورو»، أو، بعد أنْ كشفت لنا مقالةُ «غُثاء البِرَك» عن بعض جوانب شخصيته المُتناقضة، ربما «كيفَ تتظاهر بالعيش في عزلةٍ وبساطة، بينما تتسللُ خلسةً إلى منزل والدتك لتناول الكعك الساخن المنزليِّ، على طريقة ثورو». إنّ تجربة ثورو في العزلة لم تكنْ بتلك الصرامة التي حاول أنْ يُصورها، فقد كانَ يكسرُ عزلته بين الحين والآخر.

أخطو خطوةً واحدةً داخل مكتبة كونكورد العامة المجانية، وأُدرك على الفور أنها ليست مجرد مكتبةٍ عاديةٍ لبلدةٍ صغيرة. وكيف لها أنْ تكون كذلك؟ فكونكورد ليست بلدةً صغيرةً عادية. «أكبرُ مكانٍ صغيرٍ في أمريكا»، كما وصفها الروائيُّ هنري جيمس، فقد لعبتْ دورًا حاسمًا في حرب الاستقلال الأمريكية، حيثُ انطلقت منها «الطلقةُ التي دوَّتْ في أرجاءِ العالم»، وكانت مهدًا لحركة المتعالين التي أنجبت لنا، من بين عظماء الفكر والأدب، هنري ديفيد ثورو.

وُلِد ثورو في كونكورد، ومنها انطلق إلى رحلة الحياة، ولم يُغادرها إلا لفتراتٍ وجيزةٍ قضاها في هارفارد، ثمَّ في نيويورك، حيثُ لم يجد سعادتهُ المنشودة. لقد عشق ثورو كونكورد عشقًا جمًا، وكأنَّها جزءٌ لا يتجزأُ من روحه. حاول أصدقاؤه إغواءه بزيارة باريس، تلك المدينة الساحرة، لكنه

رفض بإصرار، مُفضلًا البقاء في أحضان بلدته الهادئة. وحتى عندما سافر إلى أماكن بعيدةٍ كولاية ماين وكندا، كان يحمل كونكورد في قلبه وعقله. «أحملُ أرض كونكورد في حذائي وفي قبعتي.. أولستُ مصنوعًا منْ غبار كونكورد؟»، هكذا يقول.

تُوفر مكتبة كونكورد، كأيِّ مكتبةٍ أصيلة، زوايا هادئةً للقراءة والتأمل. أخطو إلى إحدى هذه الزوايا، والتي تُدعى «خليج المتعالين»، وكأنَّها معبدٌ صغيرٌ يُخلد ذكرى رواد هذه الحركة الفكرية العظيمة. يُطلُّ عليَّ عمالقة الفكر، المُجسَّدون في تماثيلَ رخاميةٍ صامتة، من الأعلى. هناك إيمرسون وألكوت، وبالطبع ثورو، ذلك الرجل الذي أثار فضولي. يُجسّد التمثال النصفي ثورو في شيخوخته، ملتحيًا وذا نظرةٍ حكيمةٍ تُشبه نظرة البومة. إنه وجهٌ يُوحي بالطيبة والوداعة، أو هكذا يبدو للوهلة الأولى. ولكن هل هذا الوجه مجرد قناعٍ يُخفي وراءه نفسًا مظلمةً مليئةً بغثاء البرك؟

تُقدم الكتب التي كان ثورو يُفضلها، والمعروضة هنا، بعض الخيوط التي تساعدنا على فهم شخصيته الفكرية. فمثل الإمبراطور الرومانيِّ ماركوس أوريليوس، كان ثورو صيادًا للحكمة لا يتردد في اقتناصها من أيِّ مصدرٍ كان. «لا أهتمُّ قيدَ أنملةٍ من أينَ أستقي أفكاري، أو مَن الذي يُوحِي بها إليَّ»، هكذا كان يُعلن عن منهجه الفكريِّ المتفتح. لقد نهل ثورو من ينابيع الحكمة اليونانية والرومانية القديمة، ولكنهُ لم يتردد في استكشاف آفاقٍ فكريةٍ أكثر تنوعًا وغرابة، فقرأ «تحليلات كونفوشيوس» و«البهاغافاد غيتا». لقد كان ثورو من بين أوائل الفلاسفة الغربيين الذين استلهموا من كنوز الفكر الهنديِّ والصيني، مُدركًا أنَّ الحكمة لا تعرف

حدودًا ولا جنسيات. فالفلسفةُ الجيدة، شأنها شأن المصباح الكهربائيِّ الجيد، تُضيء العقلَ وتُزيل ظلام الجهل. أما مكان تصنيع المصباح، أو ثمنه، أو قوته الكهربائية، أو عمره، أو حتى الأساس العلميّ الذي يستند إليه، فلا يهمُّ طالما أنه يُؤدي وظيفته ويُضيء الغرفة، أي يُضيء غرفتك أنت، ويُساعدك على رؤية الحقائق بوضوح.

اتجه ثورو شرقًا، كما يفعل الكثيرون، هربًا من أزمةٍ شخصيةٍ عصفت بحياته. كان ذلك في عام 1837، عندما طُرِد من وظيفته كمدرسٍ في إحدى مدارس كونكورد، بسبب رفضه القاطع لممارسة العقاب البدنيِّ على الطلاب، وهو الأمر الذي كان شائعًا في ذلك الوقت. وهكذا وجد ثورو نفسه مُفلسًا، بلا عملٍ أو هدفٍ واضحٍ في الحياة. وفي هذه الفترة العصيبة، عثر على كتابٍ ضخمٍ يبلغ ألف صفحة، وعنوانه لا يقلُّ ضخامة: «سردٌ تاريخيٌّ ووصفيٌّ للهند البريطانية». ورغم صعوبة قراءته، إلا أنَّ ثورو أصرَّ على الغوص في أعماقه، واستخراج كنوز الحكمة التي تختبئ بين صفحاته. وتسللتْ هذه الأفكار الغريبة والمألوفة في الوقت نفسه إلى عقله وتغلغلت في أعماق وجدانه. «ففي لحظاتٍ نادرة، حتى أنا أُصبح يوجيًا»، هكذا كتب إلى أحد أصدقائه.

أرى أنَّ ثورو لم يكن يوجيًا بالمعنى الدقيق، بل كان أقرب إلى «السانياسي». ففي التقاليد الهندوسية، السانياسي هو الشخص الذي يُنهي واجباته العائلية، ويتخلَّى عن كلِّ ما يملك من متاع الدنيا، وينزوي في الغابات النائية مُتفرغًا لحياةٍ روحانيةٍ خالصة.

أستديرُ حول الزاوية فجأة، وأكاد أرتطم بليزلي ويلسون، أمينة

المجموعات الخاصة في المكتبة. إنها امرأةٌ طويلةٌ ورشيقةٌ بعيونٍ ثاقبةٍ تُشعُّ ذكاءً وفضولًا. لقد شعرتُ بالارتياح إليها على الفور. يُعجبني كيف أنها قضتْ عقودًا من حياتها في رحاب ثورو، وكأنها تعيش معه في بيتٍ واحد، ومع ذلك لم يخبُ شغفها به ولم يملَّ قلبها من صحبته. ويُعجبني أكثر كيف أنَّ إعجابها العميق بهذا الرجل لم يتحول إلى تملقٍ وتعصبٍ أعمى، بل ظلَّ إعجابًا مُتزنًا وموضوعيًا.

تُخبرني ليزلي أنها تضطرُّ يوميًا للتعامل مع سيلٍ من الأسئلة التي يطرحها عليها «الحُجاج والمعجبونُ والمُختلون» الذين يتوافدون على بركة والدن. ويبدو أنَّ المفارقة الساخرة في ازدحامهم في مكانٍ يُفترض أنه معبدٌ للعزلة والهدوء لا تخطر ببالهم أبدًا.

تُخبرني ليزلي، بلهجةٍ ساخرة، أنّه لا يوجد في والدن أيُّ شيءٍ يستحقُّ الذكر. «إنَّها مجردُ مستنقعٍ مُوبوءٍ بالبعوض». تُطيل في نطق كلمة «مستنقع»، وتُركز على الكلمة الأخيرة وكأنها تتلذذ بتدنيس قدسية المكان. «لا يوجدُ هنا أيُّ سحرٍ أو روحانيةٍ خاصة» هكذا تقول.

إنَّ الاعتقاد بغير ذلك يعني أنَّك في الواقع لم تفهم جوهر رسالة ثورو. فالمكانُ لا يكتسب قيمته إلا من خلال ما نُضفيه عليه من معانٍ وأحاسيس. لو كان ثورو حيًا اليوم، لوجَّه كلامه إلى معجبيه في القرن الحادي والعشرين قائلًا: «لا تأتوا إلى والدن. ابحثوا عن والدن الخاصَّة بكم في مكانٍ آخر. بل والأفضل من ذلك، اصنعوا والدن الخاصَّة بكم بأنفسكم، في أيِّ مكانٍ يُلهمكم ويُحقق لكم العزلة والسكينة».

تتوارى ليزلي عن الأنظار لبرهةٍ، وتتجه نحو خزنةٍ حديديةٍ قريبة،

لتُخرج منها قطعةً من الورق مُغلفةً بالبلاستيك الشفَّاف. إنَّها المخطوطة الأصلية لمقال ثورو الشهير «المشي». الخطُّ اليدويُّ كبيرٌ ومُنتشر، ويحمل في طياته لمسةً من الجموح. لقد كان ثورو يُحبُّ هذه الكلمة كثيرًا. «في الجموح يكمن بقاءُ العالم»، هكذا كان يُردِّد. غالبًا ما يُخطئُ الناس في فهم قصده ويستبدلون كلمة «الجموح wildness» بكلمة «البرية wilderness»، ولكنَّ الفرق بينهما شاسعٌ. فالبرية هي الطبيعة الخالية من تدخل الإنسان، وهي موجودةٌ في الخارج من حولنا. أما الجموح فهو القوة الهائلة التي تسكن داخلنا، وهي رمزٌ للحيوية والعزيمة والإرادة الصلبة.

أُمعن النظر في المخطوطة وأُلاحظ التعديلات التي أجراها ثورو. أرى كيف أنه استبدل عبارة «في وقتٍ مبكرٍ من الظهيرة» بعبارة «في وقتٍ مبكرٍ من ظهيرة أحد أيام الصيف». قد يبدو هذا التغيير بسيطًا، ولكنَّه كان يحمل أهميةً كبيرةً بالنسبة لثورو، الذي كان يُؤمن بأنَّ التفاصيل الصغيرة هي التي تصنع الفارق. لم يكن اهتمامه بالتفاصيل نابعًا من مجرد تدقيقٍ أو وسوسة، رغم أنه كان كذلك أيضًا، بل كان نابعًا من إيمانه الراسخ بأنَّ الجمال الحقيقيَّ يكمن في التفاصيل الصغيرة.

أُحاول أنْ أفتح مع ليزلي موضوع مقال «غُثاء البِرك» بحذرٍ شديد، مُستخدمًا مهاراتٍ دبلوماسيةً عادةً ما ألجأُ إليها فقط عندما أضطرُّ إلى الحديث عن مواضيع حساسةٍ مثل عمليات التدقيق الضريبي أو الثآليل التناسلية. تُجيبني ليزلي بأنها قرأتِ المقال، وأنَّ جميع سكان كونكورد قد قرأوه أيضًا. وتُضيف قائلةً إنَّ المقال كان مُتحيزًا، ولكنه لم يكنْ مُخالفًا للحقيقة تمامًا. ثمَّ تُضيف بلهجةٍ هادئةٍ ومُقتضبة، أنَّ ثورو «لم يكنْ شخصًا

يسهل على الآخرين التقرب منه».

هنري ديفيد ثورو، بطل والدن، الأيقونة المحبوبة في التراثِ الأمريكي، رسول البيئة وعملاق الأدب، كان شخصًا صعب المراس ومُستفزًا إلى حدٍّ ما. هذا ما اتفق عليه كلٌّ من عرفه. وصفه ناثانيال هوثورن قائلًا: «كانَ لدى ثورو نوعٌ من الصلابةِ الحديدية، جمودٌ لا يلين في شخصيته». أما الآخرون، فقد كانوا أقلَّ لطفًا في وصفه. قال هنري جيمس الأب، والد الروائي هنري جيمس والفيلسوف ويليام جيمس: «كانَ ثورو أكثرَ الرجالِ الذين قابلتهم طفوليّةً، ولا وعيًا، وأنانية».

وقد تمحورتْ أشدُّ الانتقادات حول ما زعموه من نفاقٍ في شخصية ثورو. فكيف له أنْ يتظاهر بالعيشِ وحيدًا في الغابة، مكتفيًا بذاته، بينما هو في الواقعِ يتسللُ خلسةً إلى منزل والدته ليأكل فطائرها اللذيذة ويستفيد من خدمةِ غسيلها لملابسه؟

لا شكَّ في أنَّ ثورو لم يكنْ يعيش في عزلةٍ تامةٍ في والدن، كما يتوهمُ الكثيرون. فقد كان يقطعُ المسافة التي تستغرقُ نصف ساعةٍ سيرًا على الأقدام إلى البلدة المجاورة بشكلٍ منتظم، ليس فقط ليُمتع نفسه بأطباق والدته الشهية، بل أيضًا لزيارة مكتب البريد أو المقهى المحلي. فهل كان كتاب «والدن»[9] مجرد ستارٍ زائفٍ؟ وهل وقعَ طلابُ الصفِ التاسعِ في جميعِ أنحاء البلادِ ضحيةً لخدعةٍ مُتقنة؟

لا أظنُّ ذلك. لم يزعم ثورو قطّ أنَّه قطع جميع صلاته بالمجتمع. إذ

(9) والدن هو اسم بركة تحاوطها غابات في مدينة كونكورد بولاية ماساتشوستس، حيث انعزل ثورو، وهو أيضًا اسم كتابه الشهير الذي يحكي فيه تجربته في الانعزال. (المترجم).

لم يُخفِ زياراته المتكررة إلى البلدة، ولا الزوار الذين استقبلهم في كوخه الصغير. (يحتوي كتابُ «والدن» على فصلٍ كاملٍ بعنوان «الزوار»). وكما أخبرني أحدُ المتحمسين لأفكار ثورو، «والدن» ليس كتابًا عن رجلٍ يعيشُ في الغابة وحيدًا، بل هو كتابٌ عن رجلٍ يحاول أنْ يعيش حياته بوعيٍ وإدراك.

أما بالنسبة لحدَّة طباع ثورو التي يتحدَّثون عنها، فلا يمكن إنكارها. ولكنه رغم ذلك لم يفقد شيئًا من قيمة حكمته. فلو كان سوءُ المزاج سببًا في إقصاء المفكرين عن ساحة الفكر، لما بقي لنا من الفلسفة سوى كتيبٍ صغير.

أُشارك ليزلي رؤيتي حول المنهج العمليِّ الذي أتبعه في دراسة الفلسفة، وأسألها عن أي سؤال قد تختاره لوصف ثورو والذي تعتقد أنه قدَّم الإجابة عنه في كتاباتهِ (على شاكلة كيف تـ..). كنتُ أتوقع أنْ تُجيبني بالإجابات المألوفة مثل «كيف تعيشُ وحيدًا» أو «كيف تعيشُ حياةً بسيطة».

لكن تُجيبني ليزلي، دون أيِّ ترددٍ أو تفكير: «كيف ترى».

«كيف ترى؟».. أرددُ في دهشةٍ واستغراب.

تُؤكد ليزلي قائلة: «نعم، فكلُّ الأشياء الأخرى -البساطة في العيش، والعزلة، والتعمق في الطبيعة- كانت مجرد وسائل تُؤدي إلى هدفٍ أسمى: الرؤية الحقيقية. ثورو يعلمنا كيف نرى العالم من حولنا بعيونٍ جديدة».

لم يخطر ببالي هذا الجوابُ قط. أُؤكد لها أنَّني سأُمعن النظرَ في هذا الأمر وأتحقق من صحته.

«تُجيبني قائلةً: «حسنًا». ثم تسألني: «هل قرأت لثورو؟»

أُجيبها قائلًا: «بالتأكيد». إذ لم أقرأ «والدن» فحسب، بل اطلعتُ أيضًا على مقالاته، وحتى كتابه الأول الذي لم يحظ بشهرةٍ واسعة المُعنون بـ «أسبوعٌ على نهرَي كونكورد وميريماك».

تُعقّب قائلةً: «جيد»، وكأنها تُثني على طفلٍ صغيرٍ نجح في فهم قصة «جورج الفضولي». ثمّ تُضيف: «ولكن إذا كنت ترغب حقًا في فهم ثورو، فعليك أنْ تقرأ يومياته».

أعِدُها بأنني سأفعل ذلك بالتأكيد. ولكنْ لم أكنْ أدرك حينها حجم المهمة التي ألقيتُ بها على عاتقي.

***

لم يخلُ لقاءٌ بثورو من تعليقاتٍ على مظهره الخارجي. البعضُ لفتَ انتباهه أنفهُ الرومانيُّ البارز، الذي وصفوه بأنه «علامةُ استفهامٍ مُوجهةٌ إلى الكون». والبعض الآخر علّق على فمه الذي وصفوه بأنّه «فظٌّ وريفيٌّ بعض الشيء»، أو على يديه «القويتين الماهرتين». ولكنْ أكثر ما أثار دهشة مَن قابلوه هو حواسه الخارقة، فقد كان يتمتع بأذنٍ شديدة الحساسية «تسمعُ أخفَّ الأصوات وأبعدها»، وحاسة شمٍّ قويةٍ «تفوقُ قدرةَ أيِّ كلب صيد».

لكنَّ عينَي ثورو كانتا الأكثر تأثيرًا، فقد تركتا انطباعًا فريدًا لدى كلِّ مَن رآهما. «عيونٌ زرقاءُ قويةٌ وجادة»، هكذا وصفها أحد سكان كونكورد. «عيونٌ ثاقبةٌ كعيون البومة»، هكذا يتذكرها شخصٌ آخر. بينما يروي ثالثٌ

قائلًا: «عيونٌ ضخمةٌ... كانتْ تُخيفني بشدةٍ في البداية».

لقد كانت قدرة ثورو البصرية خارقةً حقًا. بنظرةٍ خاطفة، كان يستطيعُ أنْ يُقدِّر ارتفاع شجرةٍ أو وزن عجلٍ بدقةٍ متناهية. كان يمدُّ يده إلى سلةٍ مليئةٍ بأقلام الرصاص، وبمجرد النظر إليها، كان يُمسك باثني عشر قلمًا بالضبط. وكان يمتلك موهبةً فطريةً في العثور على رؤوس السهام الهندية المدفونة تحت التراب. كان يقول ببساطةٍ وهو يُشير إلى الأرضِ بقدمه: «ها هي واحدة».

فيما يتعلقُ بالحواس، كما هي العادة في عالم الفلسفة، ينقسم الفلاسفة إلى فريقين مُتضادين. الفريق الأول، الذي يُعرَف بالعقلانيين، يُشكِّك في قدرةِ الحواس على إدراك الحقيقة، ويُؤمن بأنَّ العقل وحده، بما يحويه من معرفةٍ فطرية، هو القادر على إخراجنا من ظلماتِ الجهل إلى نورِ المعرفة. ومقولة ديكارت الشهيرة «أنا أفكر، إذًا أنا موجود» تُجسّد هذا الاعتقاد خيرَ تجسيد. أما الفريق الثاني، الذي يُعرف بالتجريبيين، فيُؤمن بأنَّ حواسنا هي الوسيلة الوحيدة التي ندرك بها العالم من حولنا، وأنها جديرةٌ بالثقة والاعتماد عليها.

لم يهتم ثورو بالخوض في هذه الجدالات المعرفية المُعقدة. لقد كان يُؤمن ببساطةٍ بأنَّ حواسنا، سواءً كانت جديرةً بالثقة أم لا، هي الوسيلة الوحيدة التي نمتلكها لإدراك العالم من حولنا، فلماذا لا نُحسِن استخدامها ونُطور قدراتنا الحسيةَ إلى أقصى حدٍّ ممكن؟ لقد كانتْ فلسفته تنطلق من العالم الخارجيِّ إلى الداخل، أيْ من الحواس إلى العقل.

يُصنّف ثورو ضمن المفكرين المتعالين، وهي حركةٌ فلسفيةٌ يُمكن

تلخيص جوهرها في أربعِ كلماتٍ بسيطة: الإيمانُ بما لا تراه العيون. ولكنْ ثورو كان يتمتَّع بإيمانٍ أقوى بما تراه العيون بالفعل. لقد كان اهتمامه منصبًا على واقع الطبيعة أكثر من طبيعة الواقع. هل يوجد في هذا العالم ما هو أبعد مما تراهُ العيون؟ ربمًا، ولكن ما تراه العيون من عجائبِ الطبيعةِ هو بحدِّ ذاته معجزةٌ تستحقُّ التأمل، فلنبدأ من هنا. لقد كان ثورو يُقدر الرؤيةَ أكثر من المعرفة نفسها، فالمعرفة بطبيعتها نسبيةٌ ومُتغيرة، ويقين اليوم قد يتحول إلى هراءِ الغد. «فمن يستطيعُ أنْ يُجزم بماهيةِ الأشياء؟ كلُّ ما يُمكنه فعله هو أنْ يُعبر عن رؤيته الخاصة».

***

فكيف نرى العالمَ من حولنا بالضبط؟ يؤمن معظمنا بما يُعرَف بالنموذج الفوتوغرافيِّ للرؤية. أي أنَّنا نعتقد أنَّ أعيننا تعمل كالكاميرا، إذ تلتقط صورًا للعالم الخارجي، ثم تُرسل هذه الصور إلى الدماغ ليُعالجها. فعيوننا، على سبيل المثال، «تُصوِّر» كوبَ القهوة الموجود أمامنا.

إنه نموذجٌ مُريحٌ وبسيط، ولكنه للأسف خاطئ. فالرؤية لا تُشبه التصويرَ الفوتوغرافيَّ بقدر ما تُشبه اللغة. فنحن لا نرى العالم ببساطة، بل نُجري معه حوارًا داخليًا معقدًا. ما هذا الشيء الموجود أمامنا؟ يبدو أنَّه كوبُ قهوة، كما تقول؟ دعني أراجع قاعدة بياناتي الذهنية وأُؤكد لك ذلك. نعم، إنه كوب. نحن في الواقع لا نرى الكوب نفسه، بل نُخبر أنفسنا أنه موجود. كوبُ القهوة يُرسل موجاتٍ كهرومغناطيسيةً إلى أعيننا وأدمغتنا، لا أكثر ولا أقل. ومن خلال هذه البيانات الخام، نقومُ نحن بخلق المعلومات والمعنى (في هذهِ الحالة، نُخبر أنفسنا أنَّ هذا الشيءَ الذي

أمامنا يُسمى «كوب قهوة»).

وأحيانًا، نُسارع إلى استخلاصِ المعاني، فنُخطئ في تقديرِ الأمور. فما قد يبدو لنا كوبَ قهوةٍ قد يكون في الواقع شيئًا آخر تمامًا. فعندما نُسارع إلى تعريف الأشياء والأشخاص، فإنَّنا نُخاطر بأنْ نعمي أنفسنا عن رؤية جوهرهم الفريد. لقد كان ثورو حذرًا من هذا الميل البشري. «لا أُسارع إلى اكتشاف القانون الكوني»، هكذا كانَ يُردد في نفسه. «بل أُركز على رؤية المثال الفرديِّ بوضوحٍ أكبر». إذا تمهلت في تعريف ما تراه، ستُبصر المزيد من التفاصيل الخفية التي تثري رؤيتك.

لقد عمد ثورو إلى إبطاءِ عمليةِ الرؤية إلى أقصى حدٍّ ممكن. كان يُطيل الفجوةَ الزمنيةَ الفاصلةَ بين وضعِ الفرضياتِ واستخلاصِ النتائج، وبين عملية الرؤية نفسها وما يُرى. وكان يُذكِّر نفسه مرارًا وتكرارًا بضرورة التريث والتأني. «يجب علينا أن نُمعن النظر طويلًا قبل أن نتمكن من الرؤية حقًا»، هكذا كان يُردد.

الرؤيةُ ليست مُطلقة، بل هي ذاتيةٌ بطبيعتها. ذلك «المنظر المحايد من اللا مكان» الذي يتبناه العلماء لم يكن أبدًا ما يستهوي ثورو. فلكي نرى شيئًا حقًا، يجبُ أنْ نراهُ من منظورٍ شخصيٍّ، من مكانٍ مُحدد. وكما كتب ثورو: «لكي تكون ملاحظتك مُثيرةً للاهتمام، أيْ ذات قيمة، يجب أن تنبع من ذاتك».

لا يُمكنُ للمرءِ أنْ يفلت من تأثير الجمال الشخصي. غروبُ الشمسِ بلون الدم القاني. سماءُ الليلِ الحالكة السوادِ المرصعة بالنجومِ التي لا تُحصى. كلها أحكامٌ شخصية، لا مفرَّ منها. وكما قال الفيلسوف روجر

سكرتون: «عالمٌ يتسع لمثلِ هذه الروائع يتسعُ لكَ أنتَ أيضًا».

كانت الرؤية والشعور مُتداخلين في فلسفة ثورو. إذ لم يكنْ يستطيع أنْ يُبصر شيئًا دون أنْ يشعر به أولًا. فمشاعره هي التي كانت تحدد ليس فقط كيف يرى، بل ما يراهُ أيضًا. بالنسبة له، لم تكن الرؤيةُ مجرد انفعالٍ عاطفي، بل كانت تفاعلًا حيًا. فعندما كان يرى وردةً مثلًا، كان يتواصل معها، بل يتعاون معها بطريقةٍ ما. أُدرك أنَّ هذا الكلام قد يبدو غريبًا، بل ومُختلًا بعض الشيء. ومع ذلك، يُشير العديد من الفنانين إلى ظاهرةٍ مشابهة: فعندما ينظرون إلى شيءٍ ما، يشعرون وكأنَّه ينظر إليهم أيضًا. ولا يمكن أنْ يكونوا جميعًا مختلين عقليًا!

***

«اقرأ يومياته». كلمات ليزلي ويلسون تترسخ في ذهني كأغنيةٍ من قائمة أفضلِ أربعين أغنيةً، لا أستطيع التخلص منها. لقد واظب ثورو على تدوين يومياته لمعظم حياته، وبلغ حجمها حواليْ مليوني كلمةٍ موزعةٍ على أربعة عشر مجلدًا.

عندما أستجمع شجاعتي وأفتح المجلد الأول، يغمرني شعورٌ بالرهبة، وتعود بي الذاكرة إلى حصة اللغة الإنجليزية في الصفِ التاسع. ولكن بينما أُواصل القراءة، يتلاشى هذا الشعور تدريجيًا، ويحل محله الارتياح، ثمَّ المتعة الخالصة. في يومياته، يظهر ثورو حيًا نابضًا بالحياة بشكلٍ لا نجده في كتابه «والدن». هنا نرى ثورو في أصدقِ حالاته وأكثرها ضعفًا. «لا أعرف، ولنْ أعرف أبدًا، رجلًا أسوأ من نفسي»، هكذا يكتب في أحد المواضع.

غالبًا ما نتصور ثورو -كيف أعبر عن ذلك بلباقة؟- كشخصٍ وديعٍ أو

ضعيف. لكن قراءة يومياته غيّرتْ هذا التصور تمامًا. تكشف الصفحات عن ثورو القويِّ النشيط. إنّه فيلسوفٌ أشبه بأبطال أفلام الحركة. كان يمشي، يتزلج، يسبح، يتذوق التفاح المُخمر، يقطع الحطب، يقيس أعماق البِرَك، يمسح الأراضي، يُجدف عكس التيار، يبني البيوت، يعزف الناي، يُلاعب الكرات، يطلق النار (كانَ راميًا بارعًا)، وفي إحدى المرات، حدَّق في حيوانِ مرموط الجبل بشجاعة. كان يمارس كلَّ هذه الأنشطة ليُحسّن رؤيته وإدراكه للعالم. وكما قال: «إنَّ اليد التي تعمل هي التي تعين العين على الرؤية».

لم يكنْ ثورو يخشى تلطيخ يديه، أو أيِّ جزءٍ آخر من جسده، بالوحل والطين. في إحدى صفحات يومياته، يصف كيف غمرَ نفسه في مستنقعٍ موحلٍ حتى ذقنه، مُستشعرًا برودة الطين على بشرته، ومُعانقًا الغثاء الطافي على سطح الماء.

كلما تعمقتُ في قراءة اليوميات، بدأتُ أسمع أصداءَ ماركوس أوريليوس وتأملاته. فثورو، مثل ماركوس، كان يُجري حوارًا مُطولًا مع ذاته. ونحن، القراء، لا نعدو كوننا مُتنصتين على هذا الحوار الخاص. وأسمع أيضًا صدى سقراط. لا يُمكن اعتبارهما توأمين مُتطابقين، فقرونٌ عديدةٌ تفصل بينهما. وثورو ترك لنا أكثر من مليونيْ كلمة، بينما لم يُخلف سقراط كلمةً واحدة. ومع ذلك، فهما أخوان في الفكر والفلسفة.

فقد عاش ثورو -تمامًا كسقراط- حياةً خاضعة للتمحيص، حياة قوامها «التأمل الذاتي الشجاع». ومثل سقراط، كان ثورو يتأرجح بين النشاط المفرط والسكونِ التام. كان يقطع مسافة أربعة أميالٍ سيرًا على

الأقدام يوميًا، ولكنه كان قادرًا أيضًا، كما يروي أحد جيرانه، على «الجلوس ثابتًا لساعاتٍ طويلة، تاركًا الفئران تزحف عليه وتأكل الجبن من يده دون أنْ يُحرك ساكنًا».

وكان كلٌّ من سقراط وثورو يُكثران من طرح الأسئلة المزعجة التي تثير حفيظة الناس. كانا بمثابة شوكةٍ في خاصرة مجتمعيهما. وكانا مزعجين نافعين. وقد دفع كلاهما ثمنًا باهظًا. إذ أعدمتْ أثينا سقراط، بينما تجاهلتْ كونكورد أعمال ثورو الأدبية.

وتمامًا كسقراط، كان ثورو يؤمن بأنَّ الفلسفة تنبع منْ الدهشة والتعجب. وقد عبّرَ عن هذه الفكرة مرارًا وتكرارًا، بأساليب متنوعة، ولكنَّ العبارة التي أُحبُّها بشكلٍ خاصٍّ هي تلك التي وردتْ في كتابه «والدن»: «الواقع مُدهشٌ حقًا». يُعجبني كيف يبدو ثورو في هذه العبارة أقرب إلى مراهقٍ مُنبهرٍ منه إلى فيلسوفٍ مُتزن. ولعلَّهما ليسا مُختلفين إلى هذا الحد.

***

لقد أُزيل اليوم غبارُ كونكورد -الذي وصفه ثورو بمشاعر فياضة- بشكلٍ كاملٍ وفعال. كونكورد في القرن الحادي والعشرين هي بلدةٌ ساحرةٌ بكلِّ المقاييس، تزخر بمتاجر النبيذ الأنيقة والمقاهي الراقية، وفي أيام الربيع الدافئة، تكتظُّ براكبي الدراجات بأزيائهم الزاهية ودراجاتهم الفارهة. إنها ذلك النوع من البلدات التي كان ثورو، بملابسه البالية وشعره الأشعث، سيُثير فيها نظراتٍ فضولية، وإنْ كانت متحفظة.

ولا بدَّ لي أنْ أُشيد بكونكورد في هذا الجانب: فهي تحافظ على تاريخها

بشكلٍ أنيق. كلُّ شيءٍ فيها مُحافظٌ وهادئ، على الطريقة النيو-إنجليزية الأصيلة. حتى صيدلية رايت إيد ومقهى ستاربكس المحليان يتميزان بتصاميم معماريةٍ مُتناسقةٍ مع الطابع التاريخيِّ للمدينة.

بالطبع، ينالُ ابنُ البلدة الأكثرُ شهرةً تكريمه المستحق. فهناك شارعٌ ومدرسةٌ باسم ثورو، ومركزٌ للياقة البدنية يُدعى، نعم، نادي ثورو. ولكن لا يوجد منتزهٌ مائيٌّ باسم ثورو، ولا متحفٌ للشمع يحمل اسمه.

يصادف يوم العشرين من يونيو الانقلاب الصيفي. أرى أنَّه يومٌ مثاليٌّ للتأمل في فن الرؤية الحقيقية. فإذا كنا حقًّا أبناءَ النور، فإنَّ هذا اليوم هو يوم ميلادنا.

أستيقظ في الصباح الباكر لكي... ماذا؟ لكي أُصبح ثورو؟ لا، هذا غير ممكنٍ وغير مستحب. ولكنني أفترض أنني، بتتبع مسار يومه، قد أتمكنُ للحظةٍ وجيزةٍ من رؤية العالم من خلال عينيه.

لقد كان ثورو، بخلاف ماركوس أوريليوس، من مُحبي الصباح الباكر. كان يستمتع بتلك اللحظات الأولى من استعادةِ الوعي، بتلك «المنطقةِ الفاصلةِ بين الأحلامِ والأفكار»، وكان يُحبُّ أنْ يستشهد بهذا السطر من نصٍّ هنديٍّ قديمٍ، وهو الفيدا: «تستيقظُ كلُّ العقولِ معَ بزوغِ الفجر».

وبعد أنْ يستحمَّ في البركة عند الفجر، كان ينكبُّ على «عمله الصباحي»: القراءة والكتابة. كان يُنقِّح مسودةً من يومياته، أو يُهذِّب فصلًا من كتابٍ قيد الإنجاز. كان الإحساس الجسدي بحركة اليدِ على الورق نوعًا من التأملِ العميق بالنسبة لثورو الذي كان يمارس اليوجا من حينٍ لآخر.

أمسكتُ بدفتري وقلمي، وخصصتُ وقت عملي الصباحيِّ لطرحِ بعضِ الأسئلةِ المُلحّة حول ثورو. ما الذي كان يراه في عملية الرؤية نفسها؟ وكيف كان يتمكن من رؤيةِ كلِّ هذا الكمِّ من التفاصيل؟ حدقتُ في هذه الأسئلة طويلًا، وهي بدورها حدقتْ بي، صامتةً لا تُجيب. لقد وصلنا إلى طريقٍ مسدود. لذا، فعلتُ ما كان يفعله ثورو عندما كانت مُلهمته تُدير ظهرها له. أغلقتُ دفتري وربطتُ حذائي استعدادًا للمشي.

كان ثورو يتجول في ريفِ كونكورد يوميًا، غالبًا في فترة الظهيرة. ومثل روسو، كان يجد صعوبةً في التفكير بوضوحٍ ما لم تتحرك قدماه. وفي حين كان روسو يستغرق في أحلام اليقظة، كان ثورو يتجول بتمهلٍ وتأمل. كان يتجول ليُحرر نفسه من ضجيجِ القريةِ ويعود إلى رشده وحواسه.

لم يكنْ ثورو بحاجةٍ إلى وجهةٍ محددةٍ عندما كان يتجول، أما أنا، فبحاجةٍ إلى ذلك. وفي خطوةٍ جريئةٍ من العصيان المدني، قررتُ أن أتجاهل تحذير ليزلي ويلسون بشأنِ زيارةِ ذلك المستنقع المزدحم الذي يُعرف ببركةِ والدن. فتحتُ الخريطة الصغيرة للمسار الذي يصل بين كونكورد والبركة. المسافة لا تتجاوز الميلين. كان كوخ ثورو في الغابةِ أقرب إلى كوخٍ يقع على أطرافِ بلدةٍ صغيرةٍ حيوية. أعذر ثورو على ذلك. فكتابٌ بعنوان «والدن، أو حياةٌ في كوخٍ ليس بعيدًا عن الحضارة» لنْ يكون جذابًا من الناحية التجارية.

أثناء تجهيزي لحقيبة ظهري، وهي نموذجٌ حضريٌّ عصريٌّ لم يكنْ ثورو ليقتنيه قطُّ، أقدمتُ على فعلٍ لم أعتد عليه. دسستُ هاتفي الذكيَّ في درج المكتب وخرجتُ من المنزل بدونه.

ولم تمضِ سوى دقائق قليلةٍ حتى بدأتْ أعراض الانسحاب تظهر علي: بشرةٌ متعرقة، وتسارعٌ في نبضات القلب. ليس الأمر أنني أشعر بالعُري بدون هاتفي. فالعُري أمرٌ أستطيع تحمله. بل أشعر وكأنني انطلقتُ في رحلتي دون كبدي، أو أيِّ عضوٍ حيويٍّ آخر. ومع ذلك، أثابر وأُكمل طريقي.

أدركتُ الآن لماذا كان ثورو يُحبُّ التجول في هذه المنطقة. الهواءُ ناعمٌ وباردٌ، يسوده الهدوء والسكينة. الأرض مخملية الملمسِ تحت قدمي. تذكرت ما قاله جون فايس، صديق ثورو، عنه: «كان يمشي وكأنَّ حوارًا عميقًا يدور بينه وبينَ الأرض». لا يدور بيني وبين الأرض حوارٌ عميقٌ كهذا -بل مجرد حديثٍ عابر- ولكنني سرعان ما استعدتُ إيقاع خطواتي. وأنا عازمٌ على استحضار حدةِ بصر ثورو.

أولُ ما وقعتْ عليه عينايَ كان شكلًا ضبابيًا يقترب بسرعة. كان يرتدي قميصًا لبني اللون وسماعات أذنٍ بيضاء. ذراعاه تتحركان بقوةٍ كالمكابس، وساقاه العضليتان تندفعان إلى الأمام بقوة. إنه تجسيدٌ للكفاءة والنشاط. إنه بالتأكيد لا يتجول بتأنٍ.

وصلتُ إلى مُسطحٍ مائيٍّ يُعرف ببركة أرض العجائب، وجلستُ على مقعدٍ خشبيٍّ قريب. نظرت حولي، ولكنْ لم أستطع أنْ أرى شيئًا ذا قيمة. «لا تُجهدْ نفسكَ في البحثِ عنِ الأشياء، بل دعها تأتي إليك»، يُعاتبني ثورو بأسلوبه المبطن بالانتقاد. «مجردُ غثاء على سطحِ البركة»، تمتمتُ بضيق.

لا جدوى. لا أستطيع أنْ أرى شيئًا ذا قيمة، ولكنني أسمع كلَّ شيء: ضجيج طائرةٍ مروحيةٍ تُحلق عاليًا في السماء، واندفاع سيارةٍ مسرعةٍ على

الطريق القريب. أصواتٌ تنتمي إلى عصرنا الحالي. إنَّ حاسةَ السمعِ المرهفة التـي أمتلكهـا هي نتاج سـنوات عملي كمراسـلٍ للإذاعة الوطنيـة العامة. فهناك تعلمت كيف أستمع إلى ما لا يسمعه الآخرون. فلكلِّ شيءٍ صوتٌ، حتـى الغرفـة التـي تبدو صامتـةً تمامًـا، إذا ما أصغيـت إليها جيـدًا. يُطلق مهندسـو الصوت على ذلك اسـمَ «نغمةِ الغرفة». أتساءل: هل يمكن نقل حدةِ الحواس من حاسـةٍ إلى أخرى؟ هل أستطيعُ أنْ أُحول أذني المرهفة إلى عينٍ ثاقبة؟

تلاشـتْ تلك الاهتزازات الوهمية التي كنت أشعر بها في جيبي، والتي كانـتْ تنبعـث من المكان الذي من المفـترض أنْ يكون فيـه هاتفي. بدأتُ أُدرك الهـدوء الذي يحيط بي. وشـعرتُ بلحظةٍ من ذلك الإحسـاسِ الذي يُعرف عادةً باسم «السلامِ الداخلي».

ثـمَّ هاجمتني أسراب البعوض. بعضها كان يلسـعني بخفة، بينما انقضَّ علـيَّ البعضُ الآخر بشراسـةٍ، كأنهـم طائراتٌ حربيةٌ تُغير علـى هدفها. لقد كانوا مزعجين للغاية، فتركت مكاني وأكملتُ تجوالي. كنت أتأمل في قدرة ثورو العجيبة على تجاهل المُشتتات، عندما انزلقت على لوحٍ خشبيٍّ وكدت أسـقط. لقد كانتْ لحظةً خطيرة. توقفتُ وأعدتُ ترتيبَ أفكاري. وبذلتُ جهـدًا واعيًـا لأرى مـا تُقدمـه الطبيعـة لي بوضـوحٍ وصدق. ولدهشـتي، نجحـتْ هـذه المحاولـة. رأيـتُ طائر أبـو الحناء يقفز برشـاقةٍ على سـلك الهاتـف. على الأقـل، هذا ما أعتقدُ أنه كان طائرَ أبـو الحناء. قد يكونُ طائرَ الأقطروس، أو الطوهي، أوْ أيَّ نوعٍ آخر لا أعرفه. هل هذا الأمر مهم؟

لم يكـنْ ثورو بالـضرورة يعتقد ذلك، وقد كان خبـيرًا بالطيور. معرفة

اسم الطائر الذي أراه قد تزيد من متعةِ المشاهدة، ولكنها قد تنقص منها أيضًا. فعالم الطيورِ قد يعرف التفسير البيولوجيَّ لألوان ريش الطاووس الزاهية، ولكنه قد لا يُدرك جمالها الأخاذ. «أبدأُ في رؤيةِ الأشياءِ حقًا عندما أتوقفُ عنْ محاولةِ فهمها»، هكذا يقول ثورو. فالعيون المُنهكة من كثرة التحليل والتدقيق لا ترى إلا القليل.

كان ثورو يُنمي «براءةَ النظرة» لديه. لم يفقد أبدًا دهشة الطفولةِ النقية. لم يكنْ يمرُّ بثمرة توت دون أنْ يقطفها. «إنهُ صبيٌّ وسيظلُّ صبيًا حتى الشيخوخة»، هكذا وصف رالف والدو إيمرسون صديقهُ ثورو. ومثل سقراط، كان ثورو يُقدّر الجهل الواعي، واقترح، بنصفِ مزاحٍ، أنْ يُنشئ جمعيةً لنشر الجهل النافع.

لقد أبدعَ الإنسان في خلق الجمال قبل أنْ يُحاول تفسيره بأزمنةٍ طويلة. فلم يكنْ هوميروس يعرف شيئًا عن النظريات الأدبية. والفنانون المجهولون الذين زينوا كهوف لاسكو برسوماتهم قبل سبعة عشر ألف عام، كانوا سيُخفقون في أيِّ اختبارٍ لتاريخ الفن. ومن ثمّ فرؤيةُ الجمالِ خيرٌ من فهمه.

لحسنِ الحظ، تفرّق البعوض المزعج، والعدّاء الطموح غادر منذ وقتٍ طويل. أما الطائر الصغير، فلا يزال يقفز برشاقةٍ على السلك، ولا يبدو عليه أيُّ إرهاق. «أحسنتَ فعلًا»، قلتُ في نفسي، «لكنَّ بركة والدن تنتظرُني». لذا، قررتُ أنْ أُكمل طريقي.

بعد بضع خطواتٍ فقط، أوقفت نفسي. لماذا هذه العجلة؟ لقد كانتْ آليةُ فرضية الرؤية في دماغي تعمل بكامل طاقتها. افترض دماغي أنَّ

مخلوقًا ما -قدْ يكونُ طائرَ أبي الحناء- يقفز على سلك الهاتف. وفي جزءٍ من الثانيـة، قَبِل دماغي هذا الافتراض وأصدر تقريرًا موجزًا: هناك طائرٌ، ربما كان طائر أبي الحناء، يقومُ بحركةٍ لطيفةٍ. نعم، يا طبيعة، أنتِ حقًا تُشـبهين جون موير. هل يمكننا الآن أنْ نُكمل طريقنا؟

أجـبر نفسي على التمهـل والتأني، كما كان يفعل ثـورو. «يجبُ أنْ تمشي أحيانًـا بحريـةٍ مُطلقة -دون فضـولٍ أو تطفل- دون أنْ تكـون مركزًا على رؤيـة أشـياء مُحـددة». كان ثـورو يقضي سـاعةً كاملـةً دون ملـلٍ في مُراقبة سـلحفاةٍ مُلونةٍ وهي تضع بيضها في الرمل الرطـب، أو شراعًا يرفرف مع هبات الريح. وقضى يومًا بأكمله يُراقب بطةً تُعلِّم صغارها أصول السباحة في النهـر، ثمَّ أسـعد الأطفال بقصـصِ البطِ التي رواها لهـم. ولكنْ ما يراه الأطفال مُدهشًـا، قد يراه الكبار غريبًا ومُريبًا. يتذكرُ مزارعٌ يُدعى موراي أنه رأى ثورو ذات مرةٍ واقفًا بلا حراك، يُحدق في بركةٍ مائية.

«توقفتُ ونظرتُ إليه مباشرةً وقلتُ له: «يا ديفيد، ماذا تفعل هنا؟» ولم يُدِرْ وجهه ولم يُلقِ إليَّ نظرة. ظلَّ يُحدق في تلك البركة المائية، وقال لي وكأنه يتأمـل النجوم في السـماء: «يا سـيد موراي، أنـا أدرسُ سـلوكيات ضفدع الثـور!» يا لهُ من أحمق! لقد ظلَّ واقفًا هناك طوال اليوم يُراقب سـلوكيات ضفدع الثور!»

ليـس من اليسـيرِ أنْ نُبـصر بتمهلٍ وتأنٍ كـما كان يفعل ثورو. فحاسـة البصر هي الأسرع بين الحواس، وهي أسرعُ بكثيرٍ من حاسة التذوق مثلًا. لا يوجـد في عـالم البصر ما يُعـادل متعة «التـذوقِ البطيء». (قـد نقول إنَّ أعيننـا «تعلقتْ» بشيءٍ مـا، ولكنَّ هذه العبارة تفتقر إلى المتعة الحسـية التي

تحملها كلمة «تذوق».)

أنـا مُبصرٌ كسـولٌ حقًا. أنتظـر مما أنظر إليـه أنْ يقوم بـكلِّ العمل نيابةً عنـي. أبهـرني، أيها المنظر الخـلَّاب! كُنْ جميلًا، بحق السـماء! وعندما يُخيب مـا أنظر إليه أملي حتمًا -سـواءٌ أكانـت جبال الألب الشـاهقة أم لوحةً فنيةً لمونيـه- أُلقي باللوم عليه، وليس على نفسي. كان ثورو يفكر بطريقةٍ مختلفةٍ تمامًا. فمن يملك عينًا مرهفة للجمال، سيجده حتى في مكبٍ للنفايات، أما من يبحثُ عن العيوب، فسيجدها حتى في جنة النعيم.

***

وصلتُ إلى فسـحةٍ صغيرةٍ في قلب الغابة: الموقع الذي كان يقوم عليه كوخ ثورو في والدن. يُحيط بالمكان سياجٌ أنيقٌ من الحديدِ، وتُشير إلى الموقع كومةٌ من الحجارة المُكدسة. (الكوخ نفسه لم يعدْ له وجود.) لوحةٌ منقوشةٌ تُخبرني: «تحتَ هذه الحجارة يقعُ أسـاسُ المدخنـةِ الذي كانَ جزءًا من كوخِ ثورو في الفترةِ ما بينَ 1845 و1847».

موقـعُ أعظـم تجربـةٍ في التاريـخ للعزلـة الاختياريـة مُكتـظٌ بالـزوار، وللمفارقة: امرأةٌ تُمسـك بكوبٍ ضخمٍ من ستاربكس وتتحدث في هاتفها المحمول بصوتٍ عالٍ، ومجموعةٌ من السـياح الصينيين يُوجّهون عدسـاتِ كاميراتهـم الطويلةِ كأنها مدافعُ قبل التقاط صورٍ لتلك الصخورِ المتراكمة. إنهم يُفسـدون عليَّ لحظـة العزلة التي كنت أصبو إليهـا، تلك اللحظة التي كنـت أتمنى أنْ أعيشـها على طريقة ثورو. أودُّ لـو أنهم يرحلون عن المكان، لكن هيهات.

أعلـمُ أنَّ هـذا غير منصف. لهم الحقُّ في الوجـود هنا تمامًا كما لي. الأمر

أشـبه بحركة المرور. عندما نصبحُ عالقين فيها، نُطلق الشكاوى حول «كلِّ هـذا الازدحـام»، مُتجاهلين حقيقـةَ أننا جزءٌ من هـذا الازدحام؛ جزءٌ من المشكلة نفسها.

كان هناك زوجان في منتصف العمر يُحدقان في تلك العلامات الحجرية البسـيطة. بدا لي أنَّ الرجل، بشـكلٍ خاص، كان مُنبهرًا بالمكان. كان يُتمتم بكلماتٍ تُعبر عن مدى إعجابه الشديد بثورو.

تُمازحـه زوجتـهُ قائلـةً: «وماذا أنـت فاعـلٌ الآن؟ هل ستشـدُّ الرحال لتعيش في الغابة مثله؟»

صمـتَ الرجـل بعد توبيخ زوجته له. لا، لنْ يذهـب للعيش في الغابة. سـيقود سيارته الميني فان عائدًا إلى المنزل، ويُفرغ الأمتعة، ويستأنف حياته التي يسودها اليأسُ الصامت.

هـذه هـي المعضلـة التـي يُثيرها ثـورو. ما فعلـه كان ضربًا مـن الخيال غير القابل للتطبيق. لا نسـتطيع أنْ نُلقي بـكلِّ شيءٍ وراء ظهورنا ونذهب للعيـش في الغابـة، حتى لـو كان طعام أمي الشـهيُّ عـلى مقربةٍ منـا. لدينا فواتير مُستحقة الدفع، وحفلاتٌ موسيقيةٌ نودُّ حضورها، ومؤتمراتٌ يجب أنْ نشـارك فيها. لكنْ دعونا لا ننسى أنَّ ثورو لم يدعُنا قطُّ إلى تقليد تجربته. كان كتابُ «والدن» بمثابة جرسِ إنذارٍ لإيقاظنا من سـباتنا، وليس وصفةً جاهزةً للحياة.

تجولـتُ قليـلًا إلى الأمام فوجدتُ نقشًـا آخر. هذه الكلمات، المقتبسـة من كتاب «والدن»، هي ربما أشـهر ما كتبه ثـورو: «ذهبتُ إلى الغابةِ لأنني أردتُ أنْ أعيـشَ بوعـيٍ وإدراك، وأنْ أواجـه الحقائـق الجوهريـة للحيـاةِ

فحسب، وأنْ أرى ما إذا كنتُ أستطيع أنْ أتعلم ما تُقدمه لي من دروس، وألا أكتشف في لحظةِ الموتِ أنني لم أعشْ حقًّا».

أُعجبتُ بالعبارة، ولكنني سأُجري عليها تعديلًا بسيطًا. سأُبدّل كلمة «أعيش» بكلمة «أرى». لا أظنُّ أنَّ ثورو كان ليعترض على ذلك. فالرؤية هي جوهر تجربته. وكلُّ ما عداها -العزلة والبساطة- كانت مجرد أدواتٍ لتحقيق هذا الهدف.

***

كان ثورو يُبصر أكثر من اللازم. لقد أرهقه ذلك تمامًا. «لقد بلغتُ في عادةِ الانتباهِ حدًّا مُفرطًا، بحيثُ لا تنعم حواسي بالراحة أبدًا، بل تعاني من إجهادٍ دائم»، هكذا دوّن في يومياته.

غالبًا ما نتصور حواسنا كهوائياتٍ تستكشف البيئةَ وتلتقط المعلوماتِ منها. ولكنها في الواقع أقرب إلى المرشحات، التي تُغربل فوضى الضوضاء المُحيطة بنا، وتنتقي منها الإشاراتِ المهمة فقط، حتى لا يُغرقنا سيلُ البيانات الحسية الهائل. لقد خُلِقنا، كما قال ثورو، لنتلقّى «نصيبنا من اللانهائي»، وليسَ أكثر من ذلك.

الرؤيةُ ليستْ مجرد فعلٍ عابر، بل هي فعلٌ واعٍ ومتعمد. إنها دائمًا خيارٌ نتخذه، حتى وإنْ لم ندرك ذلك. الرؤية الصحيحة، كما يُؤكد ثورو، تتطلب «قصدًا مُحددًا من العين». الأمر كله يتعلق بزوايا الرؤية ووجهات النظر. ولم يُتقنْ أحدٌ هذا الفنَّ مثلما فعل ثورو. غيّرْ منظورك، وستُغير ليس فقط طريقة رؤيتك للأشياء، بل ما تراهُ أيضًا. «فمنْ الزاوية الصحيحة، كلُّ عاصفةٍ وكلُّ قطرةِ مطرٍ فيها تُصبح قوس قزحٍ مُلونًا».

تأمل ثـورو بركة والدن من جميـع الزوايا التي يُمكـن تخيلها: من قممِ التلال، وعلى ضفافها، ومن قوارب تطفو على سـطحها، وحتى من أعماقِ مياهها. كان يشـاهد المنظر ذاته في ضوءِ النهار السـاطعِ وتحت ضوء القمر الخافت، في قسوة الشتاءِ ودفء الصيف.

قلَّما كان ثورو يُحدق في شيءٍ بنظرة مباشرة. بل كان يُلقي نظراته الجانبية. ولهذا الأمر أسـاسٌ فسيولوجيٌّ مُثبت. ففي الإضاءة الخافتة، تُصبح رؤيتنا للأشياء أكثر وضوحًا إذا ما نظرنا إليها من الزاوية. وسواءٌ عَلِم ثورو هذه الحقيقةَ أم لا، فقد كان مُدركًا لها من خلال تجربته الشخصية.

وسـعيًا منه لتجنب الوقوع في روتينٍ بصريٍّ مُمل، كان ثورو يُغيِّر زوايا رؤيته باسـتمرار. فأحيانًا، كان مجرد تغييرٍ طفيفٍ، «انحرافٌ بمقدار شعرةٍ عن مسـارنا المعتاد أو روتيننا اليومي»، كفيلًا بالكشـف عـن عوالم جديدةٍ تمامًـا. ففـي يومٍ شـتويٍّ بـاردٍ مـن ديسـمبر 1855، تمكَّن ثـورو من رصد عصفـور الصنوبـر، الـذي كان وجوده في تلـك المنطقةِ الجنوبية في الشـتاءِ «أمرًا نادرًا وغير مألوف»، وذلك فقط لأنه سلك طريقًا مختلفًا عن المعتاد.

وفي بعـض الأحيان، كان يُقدم على خطواتٍ أكثر جرأة. إذ كان ينحني بجسـده وينظر إلى العالم من بين ساقيه، مُتأملًا بعينين مُندهشتين هذا العالم المنعكـس. (لقد كانَ ثـورو مُغرمًا بفكرةِ القلـبِ والتحويل؛ حتى أنه قلب اسـمه، مُبدلًا إياه من ديفيد هنري إلى هنري ديفيد). كان شـعاره هو اقلب العالم رأسًا على عقب، وستُبصره بعينٍ جديدة.

أعثرُ على بقعةٍ هادئةٍ نسبيًا على امتداد البركة، وبعد أنْ تأكدتُ من عدم وجود عيونٍ تراقبني، حاولت القيام بهذه الحركة بنفسي. انحنيتُ بجسدي

ونظرت إلى العالمِ من بين ساقي. فجأةً، انقلبت السماء والأرض رأسًا على عقب. شعرتُ بتدفق الدم إلى رأسي. أصابني الدوار. استقمتُ في وقفتي، وعادت السماءُ والأرض إلى وضعهما الطبيعي. ربما لا أُتقن هذهِ الحركة كما ينبغي.

لا، لقد أغفلتُ المغزى الحقيقي. لم تكنْ رؤيةُ ثورو الثاقبة مجرد تقنيةٍ أو مجموعةٍ من الخدع البصرية المُسلية. بل كانتِ انعكاسًا لشخصيته الفريدة. لقد اعتبر إدراك الجمال «اختبارًا أخلاقيًا». فالجمالُ ليس مُجرد انعكاسٍ في عين الناظر، بل هو ينبع من صميمِ قلبه. ولا يُمكننا أنْ نُحسِّن رؤيتنا للعالم دون أنْ نُحسِّن من أنفسنا. هذه العلاقة الديناميكية تسري في كلا الاتجاهين. فليس فقط ما نكونه يُحدِّد ما نراه، بل ما نراهُ يُحدد أيضًا مَن نكون. وكما يقول كتاب الفيدا المقدس: «ما تراهُ، إليهِ تصير».

***

كانت ليزلي ويلسون مُحقة فيما قالت. أجل، إنها بركةٌ بديعة، تُحيط بها الأشجار من كلِّ جانب، ومياهها تتلألأ في ضوء شمسِ الانقلاب الصيفي. لكنها في نهاية المطاف مجردُ بركة. وليستْ بالضرورة الأكثر هدوءًا وسكينة. وبينما كنت أسير على طولِ شاطئها، سمعتُ دويَّ قطارٍ عابر، تمامًا كما كان يسمعه ثورو في زمانه. فقد تزامنتْ حياته مع التوسعِ السريع لشبكةِ السككِ الحديدية. وكان يسمع من كوخه صوتَ صفيرِ القاطرة «الذي يُشبه صرخةَ صقرٍ يُحلق فوقَ حقلِ أحدِ الفلاحين.

كان ثورو يُعاني من صراعٍ داخليٍّ تجاه هذه التكنولوجيا الحديثة العهد. فمن جهةٍ، كانتْ القوةُ الخامُ للقاطرة تُثير فيه شعورًا بالإعجابِ والرهبة.

ومـن جهـةٍ أخـرى، كان يخشـى أنَّ السـكك الحديديـة تُخـلُّ بالإيقاعـاتِ المألوفةِ للحياة. فالفلاحون الذين كانوا يُحددون الوقت سـابقًا وفقًا لحركةِ الشـمس، أصبحوا الآن يضبطون سـاعاتهم على موعدِ قطارِ الساعةِ الثانية ظهـرًا القادمِ من بوسـطن. كما جُـرِّدت غابة والدن من أشـجارها، لتكونَ وقودًا للمحركات العاملة بالحطب.

وصلـتُ إلى مركز زوار بركـةِ والدن، وهناك وجـدتُ نموذجًا مطابقًا لحجم كوخ ثورو. كان أجمل مما تصورتُ بكثير. بناءٌ مُثلثُ الشـكلِ مُتقن، مـع موقـدٍ للحطـب، ومكتبٍ بسـيط، وبـابٍ سريٍّ يقود إلى قبـوٍ لتخزين الجذور، وكراسٍ للزوار، وسريرٍ صغيرٍ ولكنه وثير، ونافذةٍ كبيرةٍ تُطلُّ على الجهةِ الجنوبية. لم يكنْ قصر فرساي، ولكنه لم يكنْ كوخًا بائسًا أيضًا.

يُقدم حارس المتنزهِ، المدعوُّ نايك، جولةً إرشاديةً للزوار. ومن الواضحِ أنَّ هذه ليسـتْ جولته الأولى، إلا أنَّ حماسًا صادقًا لثورو يُضفي حيويةً على ما قد يكون في ظروفٍ أخرى عرضًا مُعدًا سلفًا. لقد لاحظتُ هذه الظاهرة لـدى مُحبي ثـورو. فهناك شيءٌ ما في شـخصية هنري (دائمًا مـا يُناديه مُحبوه هنـري) يُثبط الميل الطبيعيَّ إلى السـخريةِ والتهكم، الذي عادةً ما يصاحب الإفراط في الألفةِ والمعرفة.

يُنهـي نايـك ملاحظاته، ثمَّ يفتح بابَ الأسـئلة للحضور. فتنهال عليه الأسئلة تباعًا وبسرعة.

– «كم بلغتْ تكلفةُ بناءِ الكوخ؟»

– «ثمانيـةٌ وعشرونَ دولارًا، واثنا عشر سـنتًا ونصف. كانت المسـامير هي الأغلى سعرًا».

- «وماذا كان يفعلُ طوالَ اليوم؟»

- «كان يقضي وقته في القراءةِ والكتابة».

«ولماذا فعلَ ذلك؟» يسأل مراهقٌ بنبرةٍ مُستنكرةٍ، وكأنَّ ثورو قد اختلس الملايين أو انضمَّ إلى طائفةٍ خطيرة، بدلًا من أنْ يعيش في الغابةِ بضعَ سنوات.

يجيبه نايك: «لقد كانت تجربةً في الحياةِ البسيطة، بالإضافةِ إلى ذلك، كان يبلغ من العمر ثمانيةً وعشرين عامًا. وكان بحاجةٍ إلى الابتعاد عنْ والديه».

يُبدي المراهق إعجابه بهذا الجواب، ويُومئ برأسه موافقًا.

لقد عاشَ ثورو حياةً بسيطةً حقًا، فكان يزرع بعضَ طعامه بنفسه. لقد عاش خارجَ نطاقِ الحضارةِ الحديثةِ قبل أنْ تُوجد شبكاتها. ولكنَّ البساطة لم تكنْ غايةً في حدِّ ذاتها. فقد كان ثورو، تلميذ الشرق، يخضع لنوعٍ من التطهير الروحي. تطهير لعدسةِ إدراكه للعالم.

كتبَ الفيلسوفُ الفرنسيُّ ميشيل فوكو عن ضرورة أنْ نجعلَ أنفسنا «مُستعدةً للمعرفة». أمَّا ثورو، الذي انزوى في والدن، فقد جعلَ نفسه مُستعدةً للرؤية الثاقبة. كان يُدرك أنَّ رؤيتنا للعالم تكون أكثرَ وضوحًا عندما نكون مُتحررين من الأعباء، وعندما لا يحول بيننا وبين النور أيُّ حاجز. وشبَّه ثورو نفسهُ بعالمِ رياضياتٍ يواجهُ مسألةً مُعقدة، فيُزيل عنها كلَّ ما هو دخيل، ويُركز على جوهرِ المعادلة فحسب.

***

كانَ ثورو سطحيًا، وأنا أعني هذه الكلمة بأجمل ما تحمله من معنى.

غالبًا ما يُساء فهم السطحية وتُخلط مع الضحالة، رغم اختلافهما التام. فالضحالة تعني غياب العمق تمامًا، بينما السطحية تعني الانتشار في كلٍّ مكان على السطح.

تساءلَ ثورو مُتعجبًا: «لماذا أسأنا إلى الظاهر الخارجي؟. إنَّ إدراكَ الظواهر السطحية سيُحدث معجزةً للحواسِ السليمة». وهذا ما يفسِّر لماذا لم يكنْ ثورو يُحدِّق في الأشياء مباشرة. بل كانَ يُلقي نظراتٍ خاطفة. كانتْ عيناه تتنقل بين الأشياء المختلفة، تارةً هنا، وتارةً هناك، كالنحلة التي تبحث عن رحيق الأزهار. وقد أطلقَ على هذه الطريقة اسم «تجوالِ العين».

يُلقي البشرُ نظراتٍ خاطفةً للأسبابِ ذاتها التي تدفع الحيوانات الأخرى إلى استنشاق الروائح: فهي وسيلتنا لاستكشاف محيطنا. كما أنَّ النظرة الخاطفة تكشف عن عجائب غير متوقعة. فكلمتا «سطح surface» و«مفاجأة surprise» تتشاركان في أصلٍ لغويٍّ واحد.

النظرات الخاطفة هي الحالة الطبيعية لعيوننا. فنادرًا ما تستقرُّ أعيننا في مكانٍ واحد، حتى عندما نتصور أنَّها تفعل ذلك. بل هي تُجري قفزاتٍ سريعةً تُعرف باسم الرمشات، تتخللها فترات توقفٍ وجيزة. وعادةً ما تتحرك أعيننا بمعدلِ ثلاثِ مراتٍ على الأقلِ في الثانية الواحدة، أي ما يُعادلُ حوالي 100,000 مرةٍ في اليومِ الواحد.

وللنظرةِ الخاطفةِ فوائدُ جمةٌ. فهي تُعيننا على إعدادِ وجبةٍ فاخرةٍ من ثلاثةِ أطباق، وتُسهم في قيادةِ الطائراتِ بمهارة. قبل بضع سنوات، حصلت على رخصةِ الطيرانِ الخاصة. لقد نسيتُ الكثيرَ من تلك الأيام، إلا أنَّ مهارةً

واحدةً ظلتْ عالقةً في ذهني: إلقاء نظرات على العدَّادات والأجهزة.

«لا تُحـدِّق! بـل ألقِ نظراتٍ سريعة» هكـذا كانَ يصرخ مدربي. مقياسُ الارتفاعِ. مُؤشر سرعةِ الهواء. الأفقُ الاصطناعي. أرخِ عينيك على كلٍّ منها لثانيةٍ أو اثنتين، ثمَّ انتقل إلى التالي. حافظ على حركةِ عينيك وانتباهك. يقعُ الطيارون في المشاكل عندما يُثبتون نظرهم على عدادٍ واحد. فإذا ما حدَّقت في مقيـاسِ الارتفاع، انحرفَ اتجاهـك. وإذا ما ركزتَ على الاتجاه، تغيَّرتْ سرعتـك الجويـة. إنهُ درسٌ قيِّـم. فنحن نرى من خلالِ النظـراتِ الخاطفةِ أكثر مما نرى من خلال التحديق والتثبيت.

أستـأنف سـيري عـلى امتـدادِ الشـاطئِ الرمـليِّ لبركـة والـدن. تُحـذر اللافتـات من المنحدراتِ الشـديدةِ وظروفِ السـباحةِ الخطرة. صحيحٌ أنَّ والدن ليسـتْ بركةً مثالية، ولكنَّ الجمال لا يتوقف على الكمالِ أو حتى على الفائدة. فقد كان ثورو يرى الجمال في عيوبِ الطبيعةِ ذاتها. وبينما كان يتأمل والـدن في فـترة ما بعد الظهيرةِ الهادئةِ من شـهرِ سـبتمبر، لاحظَ أنَّ سـطح الماء كان أملس تمامًا، باسـتثناء بعضِ الذراتِ التي تُلطخ صفاءه. وفي حين كان سـيرى الآخرون في ذلك عيوبًا، رأى ثورو شيئًا «نقيًا وجميلًا، كعيوبِ الزجـاجِ تمامًـا». وفي كتـاب «والـدن»، يصف لقـاءه بجثةِ حصـانٍ تتعفن بالقرب من كوخه، وكيفَ أنَّها لم تكنْ مُقززةً في نظره، بل مُطَمئنةً على نحوٍ غريب، بل وجميلة حتى. لقد كانت حكمة الطبيعةِ تتجلى في أبهى صورها.

***

ظللتُ أُفكر في نصيحةِ ثورو لي بأنْ أجد «والدن» الخاصة بي. لم أُعجب ببركـة والـدن الحقيقيـة. فقد كانـت تعجُّ بالبعـوضِ والسـياح، وتفتقر إلى

تكييفِ الهواءِ والقهوة. ولكن أين أجد «والدن» الخاصة بي؟

في اليومِ التالي، طرحتُ هذا السؤال على جيف كرامر، أمين المجموعاتِ في مشروع غابات والدن. كان جيف رجلًا رياضيًا، برأسٍ حليقٍ ولحيةٍ مُهذبة، وقد اعتنقَ فكر ثورو في وقتٍ متأخرٍ من حياته. كان يعمل في مكتبةٍ بوسطنِ العامة في وظيفةٍ مُريحة، ثمَّ تركها فجأةً وانتقل للعيش في كونكورد.

لقد استحقَّ جيف مكانته بين مُحبي ثورو. وأنا أثقُ به تمامًا. كما أنّني أُعجب به كثيرًا، خاصةً عندما يكشف عن اقتباسِ ثورو المُفضلِ لديه (وهذا من رجلٍ قام بتحريرِ كتابِ «اقتباسات ثورو»). والاقتباس هو: «إذا لم أكنْ أنا، فمن لي أنْ أكون؟»

أرغبُ حقًا في أنْ أكون أنا، ولكن أفضل، وأقلَّ ميلًا إلى الكآبة. أنا ثورويٌّ، بعيونٍ ثورويةٍ مُتبصرة. أريدُ أنْ أتعلم كيف أرى، وأين أرى. فبالنسبة لي -أنا الذيْ أرى المكان جزءًا منْ ذاتي- لا ينفصل هذان الأمران أبدًا. كيف أرى هو أينَ أرى. وأينَ أرى هو كيفَ أرى.

يُفكر جيف قائلًا: «دعنا نرَ ... يُمكنك أنْ تعبر الجسر الشمالي، وتشق طريقكَ عبر الغابةِ على اليسار، و...».

- «غابة؟ تقصدُ أشجارًا وحشرات؟»

- «نعم».

- «ألديكَ اقتراحاتٌ أخرى؟»

- «يُمكنك أنْ تذهبَ إلى جسرِ النهرِ الجنوبي، وتستأجر قاربَ كانو».

- «ألديك اقتراحاتٌ أخرى؟»

- «سليبي هولو مكانٌ ينعمُ بالهدوءِ التام».

- «تقصد المقبرة؟»

- «نعم».

- «أي شيء آخر؟»

- «ممم... يُمكنك أنْ تذهب إلى ستاربكس».

- «أكمل..أنا أُصغي إليك».

- «وخذ معك كتاب (والدن)، وربما بعض الصفحاتِ من يومياتِهِ، وتأمل».

- «ستاربكس؟ أتتحدثُ بجدية؟»

- «نعم. كلماتُ ثورو هي ما تهم. لقد ألهمته كلُّ هذه الأرض التي تُحيط بنا. لقد ساعدتْ هذه الأرضُ في تشكيل شخصية ثورو، ولكنها لنْ تُشكل شخصيتك».

راقَ لي هذا الاقتراح. ففي زمن ثورو، كانت كونكورد تضمُّ مقهىً أيضًا، وكان ثورو من رواده الدائمين. وفضلًا عن ذلك، إذا كانت حكمة ثورو قابلةً للتنقل والانتشار، كما هي حال كلِّ حكمةٍ حقيقية، فمن المؤكد أنها ستكون نافعةً بنفسِ القدرِ سواءً احتسينا مشروبًا باهظ الثمن، أم عشنا حياةً قاسيةً في أحضان الطبيعة. فلتذهب والدن إلى الجحيم. أنا ذاهبٌ إلى ستاربكس.

***

استيقظتُ في الصباحِ الباكر، وأعددتُ حقيبةً تحمل أدواتي الثوروية: كتاب «والدن»، ومقالته «المشي»، ومجموعة رسائلٍ كان يُرسلها إلى باحثٍ روحيٍّ يُدعى ويليام بليك، ومختاراتٍ من يومياتهِ (لقد أوشكتُ على الانتهاءِ من قراءتها). ثمَّ انطلقتُ في تجوالٍ هادئٍ إلى مقهى ستاربكس الوحيد في كونكورد.

يحملُ المكانُ طابعًا «كونكورديًا» لائقًا، بإضاءةٍ أكثر خفوتًا من المعتاد، وأثاثٍ أكثر رُقيًا. إلا أنَّهُ يظلُّ ستاربكس، تمامًا كما تظلُّ والدن بركةً عادية.

طلبتُ قهوةً تقليديةً، وجلست في مقعدٍ جلديٍّ وثير، وفتحتُ كتاب هنري. «الجمال يكمن حيث يُدركه المرء»، هكذا يقول لي. أهنا، في ستاربكس؟ نظرتُ حولي، فلم أجدْ أيَّ جمالٍ يُذكر. أول ما تبادر إلى ذهني هو أنْ أُلقي باللائمةِ على المكان حولي: أي «والدن» الخاصة بي.

هذا صحيح، ولكن، مرةً أخرى، تستجيب الحاسة الخاطئة. ينطلقُ ردُّ فعلي السمعيُّ، فأسمع الجمالَ في كلِّ مكان: الهمهمة الرقيقة لمكيفِ الهواء، وجلجلة مكعبات الثلج ذات الإيقاع الموسيقي، وضحكات الباريستا المكتومة، وأصوات الصفيرِ الصادرة عن صناديق دفع الحساب، وفي الأفقِ البعيدِ، أصواتُ صفاراتِ الإنذار.

أتّبع نصيحة ثورو: «كلُّ الحواسِ في سكون، باستثناءِ الحاسة التي تُوظفُها»، وأُركز بصري فقط. والمدهش أنني بدأتُ أرى. رأيتُ أبًا شابًا، نظارته الشمسية مُستقرةً على جبينه، وذراعاه القويتان تتأرجحانِ وهو يحمل ابنه الرضيع. وعند موضع الحليبِ والسكر، لاحظتُ كيف يتراقص الناس مع بعضهم البعض. خطوةٌ إلى الأمام، وخطوةٌ إلى الخلف،

حيث تسمع عبارات مثل «عفوًا، أوه، أنا آسف، سامحني على اندفاعي، لا، سامحني أنت». ولاحظتُ كيف ينتظر الناس طلباتهم من مسافاتٍ متفاوتة. بعضهمْ يتزاحم حول الباريستا، بينما يمنحه البعض الآخر مساحة. وبعضهم يقفُ ثابتًا، بينما يتململ البعض الآخر.

أُلقي نظرات خاطفة على كل شيء. أرى الأب ذا العضلات المفتولة مرةً أخرى. لقد وضع ابنه على الطاولة وأخذ يهزُّه ذهابًا وإيابًا. تُراودني الشكوك حول مدى حكمة هذا التصرف. أرى فريق فتيات لكرة القاعدة، يرتدينَ زيًا موحدًا بألوان الأزرق والأبيض والبرتقالي، يُصافحن مدربهنَّ بحماس. أرى الرجل الجالس بجانبي، يقرأُ مونتين. لقد لمح أنني أقرأُ ثورو، فأومأ برأسِهِ مُعربًا عن موافقته، بتكتمٍ شديدٍ بالطبع. فكونكورد هي بمثابة عربة الهدوء في نيو إنجلاند.

تمضي الدقائق، ثمَّ الساعات. يرحل الأب ذو العضلات المفتولة. ويتبعه فريق فتياتِ كرةِ القاعدة، والرجل الذي كان يقرأ مونتين. ومع ذلك، ما زلت هنا، أُلقي بنظراتٍ خاطفة. أُجرب تقنياتٍ ثورويةً أخرى. أُغير منظوري، فأقف بجوارِ البابِ لبرهةٍ من الوقت، وأتجوَّل ببطءٍ نحو بار القهوة، وأميل رأسي جانبًا. تُراودني فكرة قلب رأسي بين ساقي، ولكنني أتراجع عن تنفيذها. فحتى هنا، في مدينةِ ثورو، يُعدُّ ذلك ضربًا من الجنونِ المطلق.

بعد مرورِ ساعات، يعود الرجل الذي كان يقرأُ مونتين. يقعُ بصرهُ عليَّ وأنا جالسٌ في الكرسيِّ ذاته، وأقرأُ الكتبَ نفسها، فيقول لي: «لقدْ قضيتَ هنا وقتًا أطول بكثيرٍ مما يجب».

أجبته، وأنـا أرفـعُ رأسي قائـلًا: «في الواقـع، لم يمضِ وقـتٌ طويلٌ بما يكفـي». وهذا صحيح. فأنا بحاجـةٍ إلى المزيد من الوقت. ورغم أنني أرى هنا بوضوحٍ أكبر، في «والدن» الخاصة بي، إلا أنني لم أصل إلى ذلك الكشفِ البصريِّ الذي حققهُ ثورو، ذلك «التوسعِ الفريدِ» الذي تحدث عنه. أشعرُ بخيبـةِ أملٍ بعض الشيء، ولكني أجد عزائـيَ في كلمات هنري ديفيد ثورو (ومَـن غـيره؟). فالرؤية لا تتطلب الوقتَ فحسـب، بل المسـافةَ أيضًا، كما يُخبرني. «لا يُمكنكَ أنْ ترى شيئًا بوضوحٍ حتى تبتعدَ عنهُ».

الفصل الخامس

كيف تستمع مثل شوبنهاور

الساعة 2:32 بعد الظهر. على متنِ قطار دويتشه بان، رقم 151، في طريقه من هامبورغ إلى فرانكفورت.

تُصدر القطارات أصواتًا بشرية. إذ تُصدر القاطرات شخيرًا وصفيرًا، وتتجشأ في بعض الأحيان. وتُصدر عربات القطار أنينًا وصريرًا واحتجاجًا.

إنَّ دويتشه بان، أي السكك الحديدية الألمانية، تخفت هذه الأصوات. فلا حاجة لعربةٍ صامتة. فهذا أمرٌ مفروغٌ منه. كلُّ شيءٍ في قطاري يوحي بالاحترام والتقدير. ليس فقط الجو الهادئ، بل أيضًا الألواح الخشبية التي تُغطي جدران العربات، والقهوة المُقدمة في أكوابٍ خزفيةٍ حقيقية، لا في أكوابٍ من الستايروفوم.

أرتشفُ قهوتي، وأتأمل الريف الألماني الهادئ. يمرُّ قطارٌ مُتجهٌ في الاتجاه المعاكس، وتخترق صافرته السكون. يرتفع صوت الصفير حدةً كلما اقترب القطار، ثمَّ ينخفض مع مُروره. أم هل هذا ما يبدو؟

لم تتغير حدةُ الصفيرِ في الحقيقة. إنه وهمٌ سمعيٌّ يُعرف بتأثير دوبلر. لقد تواطأتْ حركة القطارِ مع دماغي المُستجيب ليُخيِّل إليَّ أنَّ حدة الصفير قد تبدلت. لقد أخطأت في إدراك الواقع.

ماذا لو كانت الحياة بأسرها على هذا المنوال؟ ماذا لو كان العالم سرابًا؟ قبل حوالي 2400 عامٍ طرحَ أفلاطون هذا السؤال بعينه. ففي «أسطورة

الكهف»، يدعونا إلى تخيل سجناء مُقيدين بالسلاسلِ داخل كهفٍ، وجوهُهم مُتجهةٌ نحو جدارٍ حجري. لقد قضوا حياتَهم داخل هذا الكهف منذ الولادة وهم عاجزون عن الحركةِ، وبالتالي لا يستطيعون رؤية بعضِهم بعضًا أو حتى رؤية أنفسهم. كلُّ ما يُبصرونه هو ظلالٌ منعكسة على الجدار. وهم غافلون عن كونهم ينظرون إلى ظلال. فالظلال هي الواقع الوحيد الذي يعرفونه.

ويُشير أفلاطون إلى أنَّ الفلسفة تُمكِّننا من الإفلاتِ من عالمِ الظلالِ واكتشاف مصدرِها: النور. ونحن لا نُبصر النورَ دائمًا. بل نسمعه أحيانًا.

***

أستيقظُ على سكونٍ غير متوقع. لقد أنهكني طول رحلة القطار، فأميل إلى البقاء تحت الأغطيةِ، على طريقة ماركوس. لكنني أستجمع إرادتي بصعوبةٍ وأنهض قاصدًا الإفطار. وبعد ذلك، أسير، كما فعل روسو، مُنتبهًا لكلِّ خطوةٍ أخطوها، لأكتشف شوارع فرانكفورتَ خاليةً في هذا اليوم الذي هو يوم عمل عادي. فأعود أدراجي سريعًا إلى الفندق وأبدأ في طرحِ الأسئلة، على غرار سقراط.

«أينَ ذهبَ الجميع؟»

يُجيب موظف الاستقبال: «عطلةٌ وطنية، ألم تكنْ تعلم؟» أكادُ أسمع ثورو يقرعني قائلًا: «انظر. تأمل. استبصرِ العالم بعين طفلٍ وعقلٍ حكيم. افتحْ عينيكَ يا هذا!»

لا بدَّ لي من إعادة ترتيبِ أفكاري. فوجهتي التي قصدتها، وهي أرشيف

شوبنهاور، مُغلقة، لكن لا ريبَ أنَّ مؤسساتٍ أخرى ستكون مُتاحة.

لكـن يبدو أنَّ الأمـر ليس كذلـك. فالأوروبيون يأخـذون الإجازاتِ بمنتهى الجدية. مـررتُ بمتاجر ومقاهٍ مُغلقة، ولا بدَّ أنني قطعتُ ميلًا قبل أنْ أعثر على مقهىً مفتوح، حالةً شـاذة. ومقهـىً جيدٌ أيضًا، بدليلِ حبوبِ البنِّ المُستجلبة منْ أماكن نائيةٍ وتعبيراتِ الباريستا الجادة والاحترافية.

أطلـبُ قهـوة سـومطرة المُقطرة، والتي تُحـضَّر بعنايةٍ فائقـةٍ بالتفاصيل لا توجـد إلا في جراحـات الأعصـاب وحفلات الزفـاف. وعندما أطلب الحليب، يضمُّ الباريستا شفتيهِ ويُشير -بتحفظٍ بالغٍ، بالطبع- إلى أنَّ إضافةَ الحليـبِ إلى هذا المشروب الفاخر المُحمَّص بعناية، غـيرِ الحمضيِّ بطبيعته، والمُتوازن حدَّ الكمال، سيُعدُّ إهانةً لكلِّ ما هو خيرٌ وجميلٌ في هذا العالم.

أقول له: «نعم بالطبعِ، لقد أغفلتُ ذلك».

أنتظـرُ حتـى ينـصرف، ليُلقن زبونًا آخر درسًـا عـلى ما يبـدو، قبل أنْ أضيف لمسـة من الحليب. أجد طاولةً في الخـارج وأشرع في قراءة الصفحةِ الأولى من مجموعةِ مقالات آرثر شوبنهاور.

يحلُّ الظلام، ويبدو أنهُ سيُقيم طويلًا. يتسرَّب التشاؤم إلى كلِّ صفحةٍ، وكلِّ كلمة، تمامًا كما تتسرَّب نفحة الشوكولاتة إلى قهوتي، لكنه أكثر مرارة. لا يُحـاول شـوبنهاور إخفـاءَ عبوسـه وكآبته. بـل إنهما حـاضران بجلاءٍ في عناوين مقالاته: «عن معاناةِ العالم» و «عن الانتحار»، على سبيل المثال.

لا تُلقوا باللائمة على الفلسفة بسبب تشاؤمه. فقد تجلَّتْ نظرته الكئيبة في سـنٍّ مُبكـرة، قبل زمـنٍ طويلٍ من أنْ يقـرأ أفلاطون أو ديـكارت. ففي

سـنِّ السابعة عشرة، وبينما كان يجول أوروبا مع والديه، خلُصَ إلى أنه: «لا يُمكـن أنْ يكونَ هذا العالم صُنعَ كائنٍ مطلـق الخير، بل هو بالأحرى صُنع شيطانٍ اسـتدعى الكائنات إلى الوجود، لكيْ يتشفَّى بمنظرِ عذابها». وبعد بضع سـنوات، وعندما شرع في مسيرته الفلسـفية، كتب إلى أحد أصدقائه يقول: «الحياةُ عملٌ شقيٌّ. وقد عزمتُ على قضاءِ حياتي في محاولةِ فهمها».

لم يَلِنْ تشـاؤم شوبنهاور مع تقدم العمر. بل ازداد ضراوةً، ليُصبحَ ثقبًا أسود من اليأسِ المُطبق. «اليومُ سيِّئ، وغدًا سيكونُ أسوأ، وهكذا دواليكَ، حتى يحلَّ الأسوأُ على الإطلاقِ في نهايةِ المطاف»، كما كتب. إننا جميعًا نندفع برعونةٍ نحو «غرقٍ شـاملٍ، محتومٍ، لا خلاصَ منه». أضع الكتابَ وأتنهد. يبـدو أنَّ النهـار سـيكون طويـلًا. أطلـبُ فنجانًا آخـرَ من قهوة سـومطرة وأستمرُّ في القراءةِ بعزيمة.

«إننا نعيشُ في أسوأِ العوالمِ المُمكنة»، كما يُخبرني فيلسوف التشاؤم. ليس هناك ما هو أسـوأ من ذلـك. و«الحياةُ تكونُ في أبهـجِ حالاتِها عندما يكون إدراكنا لها في أدنى مستوياته»، كما يقول.

أتوقفُ قليلًا لأستنشق الهواء، وأبحثُ عن بصيصِ نور. لكن لا شيء. أكادُ أقسـم أنني أستشـعر ظلَّ شـوبنهاور القاتم مُحيًّا فوقـي. أُركِّزُ بصري وأُبصر امرأةً مُسـنةً ترتدي سروالًا مُترهلًا مُجعَّدًا وتفتقد من الأسـنانِ أكثر مما لديها. يبدو أنها مُشردةٌ بوضوح، أو تكاد تكون كذلك. تُشير إلى الكرسيِّ الآخـر على طاولتي وتتحدث بكلماتٍ ألمانيـة. ومهما قالتْ، فإنَّ حديثها لا يشـتمل على أيٍّ من الكلـمات الألمانيةِ الأربعِ التي أعرفها. وبمسـاعدة من فطنتـي السريعة، أسـتنتجُ أنها طلبتِ اسـتعارةَ الكرسي، فأقول، مُسـتعملًا

كلمتينِ من كلماتي الألمانيةِ الأربع «نعم، تفضلي Ja, bitte».

إنَّ بنـاءَ الافتراضات بلغتـك الأمّ أمرٌ غير حكيم. أمَّا بناء الافتراضات بلغةٍ أجنبيةٍ لا تُتقنها فهو محضُ حماقة. لم تطلب المرأة اسـتعارةَ الكرسي، بل سألتْ عما إذا كان بإمكانها الجلوس عليه والتحدث معي، بلِ الإسهاب في الحديـثِ إليَّ. لوقـتٍ طويل. وظلت تتحدث وتتحـدث، وأنا أُومئ برأسي مرارًا وتكرارًا، وأُلقي بـ «نعم نعم» بين الفينةِ والأخرى.

إنـهُ حديـثٌ مـن جانبٍ واحـد. ألتقط بضعـة كلمات فقط. إنهـا «أوما oma»، أي جدة (كلمتي الألمانية الثالثة). أما الباقي فغموضٌ مُطبق.

آمل أنْ تسـتنفد قواها لكنها لا تُظهر أيَّ تباطؤ. تُرى ماذا كان سـيفعل سقراط؟ لا شكَّ أنه كان سيُحاورها، ولكنْ بأيِّ طريقة؟

يُقدم لها النادل قهوةً ..مجانًا على ما يبدو. فتُعرب عن امتنانها بفيضٍ من المشـاعر. فالامتنان لغةٌ عالميـة، يُعبَّر عنها بالعيونِ، وبكلِّ الجسـدِ، أكثر مما يُعبَّر عنها بالكلمات.

لم يُنكر شـوبنهاور، فيلسـوف التشـاؤم، إمكانية الامتنـانِ والتعاطف. نحن نُدرك العالمَ ككياناتٍ منفصلة، لكن شـوبنهاور اعتقدَ، مُرددًا أصداءَ الحكـماء الشرقيـين، أنَّ هـذا الإدراك وهـمٌ. فالعـالم واحـدٌ. وعندمـا نُعين شـخصًا آخر، فإننا نُعين أنفسـنا. ونشـعر بـألمِ الآخرين كما نشـعر بالألم في إصبعنا. ليسَ كشيءٍ دخيل، بل كجزءٍ منَّا.

لا تزال زائرتي تتحدث، حتى وهي تحتسي قهوتها. أُقرر أنْ أُنصت. قد لا أفهم، لكن بوسعي الإنصات والاستماع.

كان الاستماع أمرًا جوهريًا بالنسبةِ لشوبنهاور. الاستماع إلى الموسيقى، تلك «اللغةِ العالميةِ للقلب»، كما أسماها. وأنواعٌ أخرى من الاستماع كذلك. الاستماع إلى حدسك، متجاوزًا جلبةَ وضجيجَ العالم. الاستماع إلى أصواتٍ أخرى، تتحدث لغات أجنبية، فربَّما تكمن الحكمة حيث لا تتوقع. ونعم، الاستماع إلى أولئك الذين يُعانون. فعلى الرغم من كراهيتِهِ للبشرِ وعبوسهِ المُزمن، كان شوبنهاور يقـدِّر التعاطف، وإنْ كان يُظهـره للحيواناتِ أكثر من بني جنسه.

الاستماع فعل تعاطفٍ، وفعل محبة. فحينَ نستمع، فإننا نُعير قلبًا أيضًا. فالاستماع الجيد، كالرؤيةِ الجيدةِ، صنعةٌ، وككلِّ الصنائعِ، يُمكن اكتسابها.

يبدو أنَّ المرأةَ تُثمِّن استماعي لها، بدليل الابتسامة التي ارتسمتْ على فمِها الخالي من الأسنان. وفي نهاية المطافِ نهضتْ لتنصرف. تبادلنا الوداع قائلين «تشوس tschüss»، أي وداعًا، وهي الكلمة الألمانية الرابعة التي أعرفها.

***

لم يكـنْ شوبنهاور أولَ -ولا آخر- فيلسوفٍ متشائم، لكنَّه كان في مرتبةٍ فريدةٍ بذاته. وما يميز شوبنهاور ليس عبوسه وكآبته، بل الصرحُ الفلسفيُّ، أوْ ميتافيزيقا الشقاءِ، التي شيدها لتفسيرِ ذلك. لقد ظهرَ العديد من الفلاسفةِ المتشائمين، لكنْ لم يوجد سوى فيلسوف تشاؤمٍ حقيقيٍّ واحد.

كلُّ ذلك مُفصَّلٌ في عمله الضخم، «العالم إرادةً وتمثلاً»، وهو عنوانٌ لا يقع في غرامه إلا فيلسوف. وقد أنجزه بينما كان لا يزال في العقدِ الثالثِ

من عمره، وكان كما قال: «ناتجَ فكرةٍ واحدة». استلزمتْ تلك الفكرة ألفًا ومائةً وستًا وخمسين صفحةً لشرحها وتفصيلها. وأنا ألتمس العذرَ لآرثر في إسهابِهِ. فهي فكرةٌ عظيمةٌ حقًا. أما الجملة الافتتاحية فهي مُدهشةٌ بحق: «العالمُ هو تصوري».

ليسَ هذا غرور شوبنهاور الذي يتحدث، بل فلسفته. فهو لا يُشير إلى أنه خالق العالم، بل إلى أننا جميعًا نُشيِّد الواقع في عقولنا. فعالمه هوَ تصوره، وعالمكَ هو تصورك.

كان شوبنهاور مثاليًا. وبالمفهوم الفلسفيِّ، ليس المثاليُّ شخصًا ذا مُثلٍ عُليا. بل هو مَن يؤمن بأنَّ كلَّ ما نُدركه هو تمثيلٌ ذهنيٌّ للعالم، لا العالم ذاته. فالأشياء المادية لا وجود لها إلا حين نُدركها. ومن ثمّ فـ«العالمُ هو تصوري».

أُدرك أنَّ هذا المفهوم يبدو غريبًا، بل وربما مُضلِّلًا، لكنه ليس صعب الإدراك إلى هذا الحدِّ، في اعتقادي. يستعين نايجل واربورتون، وهو فيلسوفٌ مُعاصر، بتشبيه قاعة سينما عملاقة، حيث يجلس كلُّ شخصٍ في غرفة عرضٍ مُنفصلة، يشاهدون الفيلم نفسه. يقول واربورتون: «لا نستطيع المُغادرة لأنه لا يوجد شيءٌ في الخارج. فالأفلام هي واقعنا. وعندما لا يُشاهد أحدٌ الشاشة، ينطفئ ضوءُ جهاز العرض لكنه يستمر في تشغيل الأفلام».

لا يعتقد المُثاليون بأنَّ عقولنا وحدها هي الموجودة (وهذا ما يُعرف بمذهب «وحدة الأنا»). بل يقولون إنَّ العالم موجودٌ، لكن كبناءٍ ذهنيٍّ، وفقط حينَ ندركه. ولاستخدام تشبيهٍ آخر، فكِّر في مصباحِ ثلاجتك. فكلما

فتحتَ الباب، أضاء. وقد تستنتج أنه مُضاءٌ دائمًا، لكنَّ هذا سيكون خطأً. فأنت لا تعلم ما يحدث حين ينغلق الباب. وبالمثل، نحن لا ندري ما الذي يوجد وراء حدود قدرات عقولنا الإدراكية.

في كلِّ يومٍ، وبينما نُمارس حياتنا، نُجرب هذا العالمَ المُشيَّد ذهنيًا، أو الظاهريَّ. إنه حقيقيٌّ؛ كحقيقةِ سطحِ البحيرةِ الصافي. ولكن تمامًا كما أنَّ هذا السطحَ الخارجي ليس هو البحيرة بأكملها، فإنَّ العالم الظاهريَّ لا يُمثل سوى جزء ضئيل من الحقيقة. فهو قاصرٌ عن إدراكِ الأعماق.

تلك الأعماق، كما يرى المثاليون أمثال إيمانويل كانط، تقع وراءَ حدودِ الإدراكِ الحسيِّ، لكنها حقيقيةٌ تمامًا كحقيقة قاعِ البحيرةِ الغائبِ عنِ الأنظار. بل هي في الحقيقةِ أشدُّ واقعيةً من الظواهرِ الحسيةِ الزائلةِ التي نُعايشها عادةً. وقد أطلق الفلاسفة على هذا الواقعِ الخفيِّ أسماءً شتى. فقد سمَّاه كانط «النومينون». وأطلقَ عليه أفلاطونُ «عالمَ المُثلِ المُطلقة». أمَّا الفلاسفة الهنود فيُطلقونَ عليه اسمَ «براهمان». أسماءٌ مُختلفةٌ لكنَ الفكرة واحدة: مستوىً من الوجودِ يظلُّ مُستترًا عنَّا بينما نُسرع إلى أعمالنا، وننغمسُ في مُشاهدةِ حلقاتِ نتفليكس تباعًا، وبوجهٍ عام، نُزاول شؤون حياتنا في عالمِ الأشباح.

لقد تبنَّى شوبنهاور مفهوم العالم المتجاوز لهذا العالم، لكنه أضاف إليه لمسته الفريدةَ والمثيرة للاهتمام، والقاتمة بطبيعة الحال. فقد رأى شوبنهاور، خلافًا لكانط، أنَّ «النومينونَ» كيانٌ واحدٌ مُتَّحد، وبوسعنا الوصول إليه، وإنْ كانَ ذلك بطريقةٍ غير مباشرة. إنهُ يتغلغل في جميعِ البشرِ والحيوانات، وحتى الجمادات. إنه عديمُ الغايةِ وساعٍ دائمًا، وهو شريرٌ بلا هوادةٍ.

أطلقَ شوبنهاور على هذه القوةِ اسم «الإرادة». أرى أنه اسمٌ غير مُوفَّق. فبكلمة «الإرادة»، لا يقصد شوبنهاور قوة العزيمة، بل نوعًا من القوةِ أو الطاقة. شيءٌ كالجاذبية، لكنه ليس حميدًا مثلها. وقد كتبَ يقول:

«شهواتها جامحةٌ لا حدود لها، ومطالبها نَهِمةٌ لا تنضب، وكلُّ شهوةٍ تُنجب أخرى. لا يُمكن لأيِّ إشباعٍ مُحتملٍ في هذا العالم أنْ يكفي لإرواءِ ظمئها، أو أنْ يضعَ حدًا نهائيًا لمطالبها، أو أنْ يملأَ الهُوَّةَ السحيقةَ التي لا قعرَ لها في قلبِها».

هناك ملاحظتانِ اثنتان. أولاهما، تبدو «الإرادة» شبيهةً إلى حدٍّ بعيدٍ بصديقتي الجامعية. وثانيتهما، يبدو الأمر أصعب في الفهم الآن.

الإرادةُ هي سعيٌ دائمٌ لا ينقطع. الإرادةُ هي شهوةٌ لا تعرف الشبع. هي الجنس الذي لا يبلغ النشوة قط. الإرادة هي ما يدفعك لطلبِ كأسٍ ثالثةٍ من الويسكي بعد أنْ اكتفيتَ بكأسين. الإرادة هي ذلك الطنين المُلحُّ في رأسك الذي، وإنْ خفَّتَ حدَّته أحيانًا، لا يَخبو أبدًا، حتى بعد الكأس الرابعة.

بل إنَّها تزداد سوءًا. فالإرادة مُقدرٌ لها أنْ تُلحق الأذى بذاتها. يقول شوبنهاور: « لا بدَّ للإرادة أنْ تقتات على ذاتِها، إذْ لا شيءَ موجودٌ سواها، وهي إرادةٌ نَهِمَة». فحين يغرز أسدٌ أنيابه في غزالٍ، إنما يغرز أنيابه في جلده هو.

ذاتَ يومٍ، بلغَ شوبنهاور، وهو عالم حيواناتٍ هاوٍ، نبأُ جنسٍ جديدٍ من النملِ اكتُشِف حديثًا في أستراليا. فنمل «ميرميسيا»، أو نمل البلدغ الأسترالي، يتمتعُ بسمعةٍ يستحقُّها عن ضراوته. فهو يمسك بفريسته بفكيه

القويـين، ثمَّ يلدغها مرارًا وتكرارًا بسـمٍّ قاتل. وعندمـا يُقطَع نمل البلدغ إلى نصفين، ينخرط رأسـه العاضُّ في قتالٍ عنيفٍ مع ذيله اللاسـع. ويُشـير شـوبنهاور قائلًا: «قد تسـتمرُّ المعركةُ نصفَ سـاعةٍ حتى يمـوت النمل أو يحمله نملٌ آخر».

ليـس الخبث أو حبُّ إيذاءِ الذاتِ ما يدفع النملة إلى التهامِ نفسـها، بل هي الإرادة. فما النملة بأكثرَ قدرةٍ على مقاومةِ الإرادةِ، كما رأى شوبنهاور، من قدرةِ كوبِ القهوةِ الذي أمسـك به الآن عـلى مُقاومةِ الجاذبيةِ لو أفلتُّ قبضتي. وكما هي حال نملةِ البلدغ، فنحن مؤلفو قسـوتنا وقُرّائها، ضحايا وجُناة، مُقدَّرٌ لنا أنْ نستنزف ذواتنا، ببطءٍ، بعد معاناةٍ طويلة.

لكـن لا تيـأس، إذ يخبرنا فيلسـوف التشـاؤم أنَّ بوسـعنا الإفلات من الثقـب الأسـود الذي هو الإرادة عن طريق «نفضِ غبـارِ العالمِ عنّا». وثمة طريقتـانِ لفعـلِ ذلـك. الخيـار الأول: عيش حياةٍ ناسكة، بالصـومِ لأيامٍ متاليـة، والتأمـلِ لسـاعاتٍ طِـوال، والبقاء بتـولًا. أتجاوز هـذا إلى الخيارِ الثاني: الفن. هذا أفضل بكثير. فالفنُّ ليسَ مُمتعًا فحسـب، كما يرى. بل هو مُحررٌ للروح. إنهُ يُقدم لنا هدنةً من السعيِّ الدائم والمعاناةِ المستمرةِ التي هي جوهر الإرادة.

تُحقـق الفنـون هذا الإنجـاز عن طريقِ تحريرنـا منْ ذواتِنـا. فعند إبداعِ عمـلٍ فنـيٍّ أو تذوقهِ، نفقد الإحسـاسَ بالانفصالِ الذي يرى شـوبنهاور، وكذلـك بـوذا، أنه يكمن في صميـم كلِّ عذاب. يقول شـوبنهاور إنَّ الفنَّ «يزيل الغشاوة». ويتلاشى وهم الفردية و «بالتالي لا نعد قادرينَ على فصلِ المُـدرك عن الإدراكِ، بل يصبح الاثنانِ واحدًا، لأنَّ الوعي بأكمله قد امتلأ

وانشغل بصورةٍ إدراكيةٍ واحدة».

هـذا الاندماج بين الذاتِ والموضوعِ يحدث، كما يُبيِّن شـوبنهاور، دونَ معونـةِ العقـلِ أو القائمين على الفن. فالمتعة الجمالية لا تقتصر على متحفٍ فنـيٍّ أو قاعـةِ حفلاتٍ موسـيقية. بل قد تتجلى في أيِّ مكان. فبينما تسير في شـارعٍ ألفته، تُبصر شـيئًا ما؛ شـيئًا عاديًا كصندوق بريدٍ، أو صنبورِ إطفاءٍ، أشياء لطالما رأيتها من قبل. لكنَّك هذه المرة تراها بنظرةٍ مختلفة، كما يوضح الفيلسوف برايان ماجي: «يبدو الأمرُ وكأنَّ الزمنَ قد توقفَ، ولم يعدْ سوى ذلـك الشيءِ موجـودًا، قائمًا أمامنا مُتحررًا من أيِّ صلةٍ بأيِّ شيءٍ آخر؛ فهو ببساطةٍ قائمًا بذاته، بكاملِ ماهيته وفرادته».

خـلال هـذه اللحظـات الجمالية، لا نكـون مُضطربين، لكننـا لا نكون سُـعداءَ أيضًا. تتلاشى تلك الفروق (سـعيدٌ، حزينٌ). لقد نفضنا عنَّا غبارَ العـالمِ، ومعه تلـك الثنائيات الزائفة. إذ نُصبح مرآةً لِموضوع الفنِّ، ما يُطلق عليه شوبنهاور «العينَ النقيةَ للعالم».

لكـنْ هناك فـخٌّ، بطبيعة الحـال. فهـذه اللحظة الجمالية هشـة وسريعة الـزوال. وفي اللحظة التـي نُدركها فيها، تعـود الإرادة إلى وعينا و «ينقضي السحر».

***

لم ينـلْ شـوبنهاورُ تقديـرًا يُذكر في حياته، وحتى بعـد مماته، لم يحظَ بأيِّ تقديـر. لا يوجد متحفٌ باسـم شـوبنهاور. ومُقتنيات الفيلسـوفِ مودعةٌ في جامعـةٍ محليـة، بعيدًا عن الأنظار. وقد راسـلتُ أمينَ المتحف عبر البريدِ الإلكترونيِّ وأوضحتُ له اهتمامي بابنِ فرانكفورت المنسي.

بعد بضعةِ أيام، تلقيتُ ردًا من شخصٍ يُدعى ستيفن روبر. إنه مُهذبٌ وبشوشٌ، وينتابني انطباعٌ جليٌّ بأنّه مُندهشٌ إلى حدٍّ كبير. فقلّما يطرق الزوارُ بابَ آرثر هذه الأيام.

في صباحِ اليومِ التالي، وقد كانَ ماطرًا وكئيبًا على النحوِ المُلائم تمامًا، مشيتُ بضعةَ مبانٍ قصيرةٍ إلى الجامعة. ودخلتُ مبنىً رتيبًا وسرعانَ ما تهتُ فيه. فاقتربتُ من شابةٍ تقف خلف المنضدة.

قلتُ: «شوبنهاور؟» أو بالأحرى، استفهمتُ، وكأنَّ الاسم في حدِّ ذاته يُشكلُ سؤالًا ميتافيزيقيًا. أومأتْ بجمودٍ وكآبة. فمجرد ذكرِ فيلسوفِ التشاؤم كدَّرَ صفوَ مزاجها، أو هكذا أتوهم. ويصعب التمييز بين ألمانيٍّ مُكفهرٍّ وآخر مُبتسم. لا شكَّ أنَّ هناك تغيراتٍ طفيفةً في عضلاتِ الوجهِ وحركة العينين، لكنها تقعُ خارج نطاق إدراكِ شخصٍ أجنبي مثلي.

ضغطتُ على الجرسِ الطنان، وبعد لحظاتٍ قليلة، يظهر رجلٌ نحيلٌ، لطيفٌ، خجول ذو شاربٍ خفيفٍ وجبينٍ بدأ ينحسر فيه الشعر، وعينين زرقاوين صافيتين، وبشرةٍ ورديةٍ تُذكرني بحمرة الأطفال، يُدعى ستيفن روبر.

خطونا إلى غرفةٍ واسعة. تعبقُ برائحةِ الكتبِ العتيقة والمُطهِّرات. وبينما كنا نسير، طالعنا شوبنهاور من على الجدران. ففي كلِّ شبرٍ مُربعٍ تتربع صورةٌ أو اثنتانِ، لشوبنهاور في مُختلفِ أطوارِ حياتِه، من فتىً يافعٍ في الخامسة عشرة من عمره في هامبورغ إلى حكيم السبعين في فرانكفورت.

بالنسبة لرجلٍ صرَّح بجرأةٍ قائلًا «العالمُ هو تصوري»، فقد شعرَ آرثر شوبنهاور بعدمِ ارتياحٍ غريبٍ فيه. وكما كان روسو، فقد اعتبر نفسه بلا

مـأوى، حتى وهو في بيتهِ. وقد بات -كمنبوذ فلسـفيٍّ- برهانًا حيًا على أنَّ المصير الوحيد الأشدَّ سوءًا من أنْ تُنتقدَ هو أنْ تُتجاهل. ففي معظم حياته، بقيـتْ كتبـه مُهملةً لا يقرأها أحد، وأفكاره غـير محُببة. وقد أخفق في الفوزِ بجائزةِ الفلسـفةِ الدنماركيةِ حتى عندما كان المشارك الوحيد. ولم ينلْ قسطًا يسيرًا من التقديرِ إلا في السنواتِ القليلةِ الأخيرةِ من حياتهِ.

وفي إحـدى المفارقاتِ العديدةِ التي صبغت حياته، عاشَ شـوبنهاور، الـذي أثّـرتْ أفـكاره الفلسـفية في فكر فرويـد، طفولـةً فرويديـةً بامتياز. فمشـاكل الأمِّ تُفسر الكثير. كانت جوانا شـوبنهاور ذات طموحاتٍ عاليةٍ -أدبيةٍ واجتماعيةٍ- ولم تكنْ تربية طفلٍ صغيرٍ لتندرج ضمن تلك الخطط. وسرعـانَ ما ملَّـتْ مـن «اللعبِ بدُميتي الجديدة»، كما عبَّرتْ هي عن ذلك، وقضـتْ بقيـة طفولة آرثر بالتناوب بين تجاهله والاسـتياء منـه. لقد كانت «أمًا سيئة للغاية»، كما كتبَ شوبنهاور لاحقًا.

ولم يكنْ والد شـوبنهاور، وهو تاجرٌ مُوفَّق، بأحسـن حالٍ منها بكثير. ففي إحدى الرسـائل، يحثُّ ابنه على تحسـين خطِّه بكتابـة الأحرفِ الكبيرةِ عـلى الوجـه الصحيـحِ وتقليـلِ تلـك الزخـارفِ المُنمَّقـة المُبالـغ فيها. وفي مناسـبة أخرى، كانـت هيئة آرثر الفتى هـي التي أثارتْ غضـب أبيه. فقد كتـبَ يقـولُ: «تتوقعُ والدتك، كـما أتوقع أنا، ألا تحتـاجَ إلى تذكيرك بالمشيِّ باسـتقامةٍ كغيرك من الأشخاصِ المهذبين جيدًا»، مُضيفًا، بلمسةٍ من قسوةِ الأبوةِ، «وهي تُرسل لكَ محبتها».

أعدَّ شوبنهاور الأبُّ ابنه لتولِّي زمام أعمال العائلة. بل إنه اختار له اسم «آرثر» لأنه بدا اسـمًا عالميًا. لكنَّ مهارات آرثر الاجتماعية كانت قاصرةً، مما

أثار استياءَ والده الشديد. وقد قالَ مُستاءً في إحدى رسائله: «ليتَك تعلَّمتَ كيف تجعل نفسك محبوبًا لدى الناس».

لكن لم يتعلم آرثر ذلكَ قط. بل استعدى تقريبًا كلَّ من لقيه. كانَ بمقدورهِ أنْ يكونَ فاتنًا متى شاء، لكنه نادرًا ما أرادَ ذلك. وظلَّ عازبًا طوالَ حياتِهِ، وباستثناءِ صداقةٍ وجيزةٍ مع جوته، لم يكنْ له رفقاء حقيقيون عدا كلبه المحبوبَ، الذي سمَّاهُ «أتمن»، وهي الكلمة السنسكريتية التي تعني الروح. وقد أظهرَ شوبنهاور وُدًّا بالغًا تجاه «أتمن» لم يستطعْ أبدًا أنْ يُديه تجاه البشر. كان يُعاتب كلبه بمحبةٍ كلما أساء التصرُّف قائلًا: «أنتَ يا سيدي...».

ويستشهد شوبنهاور بحيوانٍ آخرَ -هو الشيهم- لتفسيرِ العلاقاتِ الإنسانية. تخيَّلْ جماعةً من الشياهمِ مُلتفةً حول بعضها البعضِ في يومٍ شتويٍّ قارس. تقف مُتقاربةً، تمتصُّ دفءَ أجسامِ بعضها، خشيةَ أنْ تتجمَّد حتى الموت. لكنْ إذا اقتربتْ أكثر من اللازم، وخزتْها الأشواك. يقول شوبنهاور: «تتقاذف بينَ شرينِ»، إذ تقترب وتتباعد، مرارًا وتكرارًا، حتى تكتشفَ «المسافةَ المُثلى التي تستطيع عندها تحمل بعضِها البعضِ على أحسنِ وجه».

ومعضلة الشيهم، كما باتتْ تُعرف الآن، هي معضلتنا نحن أيضًا. فنحن بحاجةٍ إلى الآخرين للبقاءِ على قيدِ الحياةِ، لكنَّ الآخرين قد يؤذوننا. وتتطلب العلاقات تعديلاتٍ مُستمرةً في المسار، وحتى أمهر الملاحين تُدميهم الأشواك بين الحينِ والآخر.

***

يمدُّ ستيفن روبر يده داخل صندوقٍ مستطيلٍ كبيرٍ ويستخرج شوكةً وملعقةً صدئتين. كان شوبنهاور يحملها، بالإضافةِ إلى كأسٍ للشرب، كلما تناول الطعامَ في الخارج. إذ لم يكنْ يثق بنظافةِ المطاعمِ، ولا بالكثيرِ من الأشياءِ الأخرى. وكان يتجنب الحلاقين، خشيةَ أنْ يذبحوا عنقه. وقد عانى من القلقِ ونوباتِ الهلعِ المُتقطِّعة.

يمدُّ ستيفن يده إلى صندوقٍ آخر ويستخرج شيئًا أسطوانيًا. إنه مزمارٌ من العاج. هديةٌ من شوبنهاور الأبِ إلى ابنه. ألتقطه وأتفحصه. يتمتع بثقلٍ مُرضٍ، وصلابةٍ محسوسة، فضلًا عن تلك الصفةِ المُريبة الغامضةِ التي تلتصق بمقتنيات الراحلين. ولمسه يبدو كتدخلٍ سافر، وانتهاكٍ للخصوصية. أكاد أسمع شوبنهاور الغاضب ينفجر في وجهي قائلًا: «أبعدْ مخالبك الدنيئةَ عن مزماري!»

كان المزمار رفيقَ شوبنهاور طوال سنين رشده، في الأوقاتِ العصيبةِ والأشدِّ وطأة. ففي كلِّ يومٍ، قبيل الظهيرة تمامًا، كان يجلس ويعزف بحُبٍّ وشغف (con amore). كان شوبنهاور يُحب موتسارت لكنه كان يعشق روسيني. وقد قام بترتيبِ جميعِ مؤلفاتِ روسيني الموسيقية خصيصًا للمزمار.

لقد دفعَ عزف شوبنهاور البهيج على المزمارِ مُعجبه الذي انقلبَ ناقدًا، فريدريك نيتشه، إلى التساؤلِ عن تشاؤمه. كيف لشخصٍ يعزف على المزمارِ كلَّ يومٍ، وبكلِّ هذه السعادة، وكلِّ هذا الشغف، أنْ يكون متشائمًا؟ لكن لم يرَ شوبنهاور أيَّ تناقضٍ في ذلك. فالعالم يعاني حقًا، إنه لخطأٌ فادح، لكن ثمةَ فترات استراحة. وبارقات فرح.

ولا توجد بارقة فرحٍ أبهج من الفن. فالفنُّ -الفنُّ الجيد- وفق اعتقاد شوبنهاور ليسَ تعبيرًا عن عاطفةٍ. فالفنان لا ينقل إحساسًا، بل بالأحرى، لونًا من ألوانِ المعرفة. ونافذةً تُطلُّ على الجوهرِ الحقيقيِّ للواقع. إنها معرفةٌ تسمو على «مجردِ المفاهيم»، وبالتالي تعلو على الكلمات.

الفنّ الرفيع يسمو أيضًا على العواطفِ الجامحة. فكل ما يزيد الرغبةَ يُضاعف المعاناة. وكل ما يُقلل من الرغبةِ -أو يُضعف الإرادةَ، بتعبير شوبنهاور- يُخفف من وطأةِ العذاب. فحين نتأمل عملًا فنيًا، لا تتملكنا أي شهوة. ولهذا السبب لا يُعد التصوير العاريُّ فنًا. بل هو النقيض المُطلق للفن. فالغاية الوحيدة للتصويرِ العاري هي إثارة الرغبة. وإذا أخفق في ذلك، عُدَّ فاشلًا. أما الفنُّ فيرمي إلى هدفٍ أسمى. فإذا كان ردُّ فعلنا الوحيد تجاه لوحةٍ صامتةٍ لإناءٍ من الكرز هو الجوع، فقد أخطأ الفنان الهدف.

وضَع شوبنهاور تسلسلًا هرميًا للجماليات. فالعمارة تحتل الدرجةَ السفلى، بينما يحتل المسرح (وخاصةً التراجيديا، بطبيعةِ الحال) القمة. أما الموسيقى فلا تظهر على هذا السلم. إنها تصنيفٌ قائمٌ بذاتهِ.

الفنون الأخرى تنطق بأشباحٍ عابرةٍ فحسب، كما يرى شوبنهاور. أما الموسيقى فتتحدث عن «الكُنه»، عن الشيءِ في ذاته، ولذا فهي «تُعبر عن الجوهرِ الدفينِ لكلِّ حياةٍ ووجود». وقد تتضمن صورة الجنة، حتى بنسختِها الدنيويةِ، لوحاتٍ وتماثيل أو لا تتضمن. لكننا نُسلِّم تسليمًا تامًا بوجودِ الموسيقى فيها.

فبينما اللغة من صناعة البشر، فإنَّ الموسيقى قائمةٌ بذاتها مُستقلةٌ عن

الفكرِ الإنسـاني، كالجاذبيـةِ أوِ العواصف الرعدية. فلـو دَوَّى بُوقٌ في غابةٍ خاليةٍ ولم يَسمعهُ أحدٌ، فسيظل صوته يدوي. وقد قال شوبنهاور ذات مرةٍ إنَّ الموسيقى ستظل موجودةً حتى لو لم يكنْ للعالمِ وجود.

الموسـيقى ذات طابـعٍ شـخصيٍّ لا يضاهيها فيه سـائر الفنـون. فقد لا تكـون لك لوحـةٌ مُفضلة، لكنَّك غالبًا ما تمتلك أغنيـةً عزيزة. وابنتي ذات الثلاثـة عشر ربيعًا تُجرب أنواعًا موسـيقيةً مختلفة، فتكتشـف ما تستحسـنه وما لا تستسـيغه. إنها لا تُكوِّن «هويتها الموسـيقية»، بل هويتها الشخصية. فالموسيقى التي ننتقي الاستماع إليها تُفصح عنَّا أكثرَ مما تفصح عنا الملابس التي نرتديها أو السيارات التي نقودها أو النبيذ الذي نشربه.

تلامسـنا الموسـيقى حـين يعجـز كل شيءٍ آخـر. إنَّهـا بصيص نـورٍ في العتمـة. يـروي ويليام سـتيرون في مُذكراته عن الكآبة، التـي تحمل عنوان «ظـلامٌ مرئيّ»، كيف كان يفكر في الانتحارِ ثم سـمع مقطعًا موسـيقيًا من مؤلفات برامز، يقول: «ذلك الصوت، الذي كنت تجاهه فاقد الحسِّ مُتبلدًا لأشهرٍ طِوال -كما أكون تجاه سائرِ الموسيقى بل وسائرِ اللذات- قد اخترقَ قلبـي كخنجـرٍ، وفي سـيلٍ من الذكريـات الومضيـة تذكـرتُ كلَّ الأفراحِ التي شـهدها البيت: الأطفال الذين هرعـوا عبرَ الغرفاتِ، والاحتفالاتِ، والحبِّ والعمل».

والموسـيقى علاجٌ ودواء. فقد أظهرتْ عدة دراسـاتٍ أنَّ الاسـتماع إلى الموسـيقى يُسرِّع التعافيَ الإدراكيَّ بعد الجلطـة الدماغية. كما أبدى المرضى في حالاتِ الوعيِ الحَدِّي، أو حتى في حالاتِ الغيبوبةِ، نشـاطًا دماغيًا أكثر عافيةً عند الاستماعِ إلى أغنيةٍ مُفضلة.

أُقـرُّ بمنافـعِ الموسـيقى عقليًا، لكن يعـزُّ عليَّ الارتقـاء إلى معرفةٍ أعمقَ بهـا. فأنا أعاني من ضربٍ من الفتورِ الموسـيقي. ففي فـترةِ المراهقةِ، لم أكنْ أجمـع الألبوماتِ أو أُعـد أشرطةً مختلطة. ولم أحضر حفلاتٍ موسـيقيةً إلا نادرًا، وتحت إلحاحٍ من الأصدقاءِ فحسـب. وحتـى يومنا هذا، تظلُّ أنواعٌ كاملةٌ من الموسيقى غريبةً عنّي. لست مُعارضًا للموسيقى. فإذا ما عُزفتْ، استمتعت بها، وإنْ لم يكنْ بقدرِ استمتاعي بكأسٍ فاخرٍ من الويسكي أو حقيبةٍ أنيقة. ولطالما بدا لي هذا النقص في تقديرِ الموسيقى غريبًا، بالنظرِ إلى شغفي بالصوتِ والكلمةِ المنطوقة.

ثمة نُكتة قديمة نُحبُّ أنْ نُرددها في الإذاعة الوطنية العامة.

«لماذا الراديو خيرٌ من التلفزيون؟»

«لأنَّ الصورَ فيه أجمل».

ثمةَ شيءٌ فطري في الحكاية الشفهية. فنحن البشر ننصت إلى القصصِ لفترةٍ أطول بكثيرٍ من قراءتِنا لها. فالصوتُ جوهريٌّ. ويتفوق الكلام المكتوب في نقلِ المعلوماتِ، بينما يسمو الكلام المنطوق في إيصال المعنى. فالكلام المكتوب صامت. أما الكلام المنطوق فحيٌّ وحميميّ. وأنْ تسمعَ شخصًا يتحدث هو أنْ تعرفه حقَّ المعرفة. وهذا يُفسر الشعبيةَ الجارفةَ للإذاعة الوطنية العامة، والمدوناتِ الصوتيةِ (البودكاست)، والكتب المسموعة. كما يُعلل إصرارَ والدتي على المكالماتِ الهاتفيةِ، لا الرسائلِ الإلكترونيةِ، في كلِّ يوم اثنين.

خلال عملي كمراسلٍ أجنبيٍّ في الإذاعة الوطنية العامة، تعمَّقتُ في إدراك النسيجِ الثريِّ والمتنوعِ للأصوات، من نداءِ الباعةِ الجائلينَ في شوارعِ

دلهي بنغماتِهم المميزة، إلى صخبِ قاعاتِ الباتشـينكو في طوكيو. لكن أكثر مـا أثار فضـولي هو صوت الكلمـة المنطوقة. فالصوت البـشري هو أعظم كاشـفٍ للكذبِ في الطبيعة، وسرعان ما أدركـتُ كيف أحدد مدى صدقِ المتحـدثِ في غضـونِ ثـوانٍ معدودة. أما الساسـة فهم الأقـل صدقًا، ليس فقـط بسـببِ مفرداتِهم الركيكـةِ الخاليةِ من الجـرأة، بل وأيضًا بسـببِ نبرةِ أصواتِهـم. فهي حذرةٌ وزائفـة. حتى الطفل الصغير يسـتطيع تمييزَ صوتِ شخصٍ يُروِّج لسلعةٍ ما. بل والطفل على وجهِ الخصوص.

لماذا يعجز لسـاني عن ترجمةِ هذا الإحسـاسِ الفطريِّ بالصوتِ إلى عالم الموسـيقى؟ لعلِّي أجهل الكثير عن عالمِ الأنغام، أو ربما المعرفة الضئيلة التي أمتلكهـا هـي ما يُعيقنـي، ويحول بيني وبين سـماعِ هذه اللغـة الكونيةِ التي تُخاطب الوجدان.

صديقي جون ليسـتر مُولَعٌ بالموسـيقى الكلاسـيكية والفلسفة الألمانية عـلى حدٍّ سـواء. وفضلًا عن ذلك، فهـو يقيم في بغداد، حيـث يعمل لدى وكالـةٍ للإغاثة. ولأسـبابٍ أمنيةٍ، يُـلازم جون فندقه لأيـامٍ مُتتالية. ولدى جون متسعٌ من الوقت. إنه المراسل الأمثل.

أُشـغِّل حاسوبي المحمول وأسأل جون عمّا إذا كانتْ معرفته بالموسيقى تُثري استمتاعه بها أم تُعيقه. وكيف لي أنْ أتعلَّم تذوُّق الموسيقى وتقديرها؟ ثمَّ أضغط على زرِّ الإرسال..

بعـد بضع سـاعاتٍ، تصلني رسـالةٌ مُطوَّلـةٌ في صندوق بريـدي الوارد. ألقـي نظرةً سريعةً على بريدِ جون الإلكتروني، الذي يمتدُّ لصفحاتٍ عديدة، وأشعر بامتنانٍ صامتٍ لعلمه الغزير ولوقت الفراغ الكثيرِ الذي يملكه.

«هذه كُلُّها أسئلةٌ عويصةٌ»، كتبَ جون، ثمَّ انبرى يُعالجها وكأنها لم تكنْ كذلك البتَّة. فمعرفة الموسيقى، كما يرى، تُثري متعتك بها. «فقد تُكسبك بصائرَ مُحددةً في الموسيقى قد لا تنالها لولاها، وقد تحول بينك وبينَ أنْ يأسِرَك الجمال الصوتي فترى الموسيقى مجرد تجربةٍ جماليةٍ فحسب».

ليس للموسيقى موطنٌ واحد. إنّها «تحومُ بين عالمين». (أكاد أسمع شوبنهاور يتمتم موافقًا). والأنواع المختلفة من الموسيقى -يُردف جون- تستلزم ضروبًا مُتباينةً من الاستماع والإصغاء. ففاغنر يسيرٌ. «موسيقاهُ حسيةٌ إلى حدِّ النشوةِ المُخدِّرة». أما بيتهوفن و مالر ووبرامس فأكثر تعقيدًا. «تشعر وكأنك تُحاول أنْ تفهم ما يُريد شخصٌ آخرُ أنْ يُبلِّغَك به مباشرةً. ففاغنر يُحدِّثُك عن شيءٍ ما. أما بيتهوفن و مالر و وبرامس فيُحادثونك أنتَ شخصيًا. هذا هو الفارق».

وثمة سببٌ آخر، أكثر واقعيةً، لمعرفة شيءٍ عن البنيةِ الموسيقية، كما يُبيِّن جون. إنّها تُروض الأذنَ وتُدربها. فأنت تعرف ما الذي تصغي إليه، لذا تقل احتمالية شرود الذهن.

لقد أمعنَ شوبنهاور التفكير في العقلِ الشاردِ. فنحن ننظر إلى العالمِ بنظرةٍ حسابيةٍ نفعيةٍ، كما قال. فسمسار البورصة في أمستردام المُستميت لإتمامِ صفقةٍ ما يغفل عن العالمِ المحيطِ به؛ ولا يُبصر لاعب الشطرنجِ قطعَ الشطرنجِ الصينيةِ الأنيقة؛ ولا يرى الجنرال المناظر الطبيعية الخلابة وهو يُعد خطته للمعركة.

يجب أنْ تكون لنا علاقة مختلفة مع الموسيقى، أقلُّ نفعيةً. يجب أنْ نختبرها بمنظورٍ مُنزَّهٍ عن الغرض. مُنزَّهٍ لكن ليس غير مكترث. فثمة فرقٌ

بين الأمرين. أنْ تكون غير مُكترثٍ بمقطوعة موسيقيةٍ هو أنْ تكون لا مباليًا تجاهها. أما أنْ تكون مُنزَّهًا عن الغرضِ فهو ألا تحمل أيَّ توقعاتٍ، وألا تفرض أيَّ مطالب على الموسيقى، لكن تظلَّ مُنفتحًا على إمكانيةِ الانتشاءِ الجمالي. قد يقول البوذي إننا لسنا مرتبطين بالموسيقى، لكننا لسنا منفصلين عنها أيضًا. وقد يقول العارف المسيحي إننا نحافظ على «حيادٍ مُقدَّسٍ» تجاهها. والفكرة واحدة. فالاستماع والإصغاء الحقيقيُّ يستلزم أنْ نُرجئ إصدار الأحكام. فحين نصغي هكذا، أي نسمع دون أنْ نُطلق أحكامًا، كما يقول شوبنهاورُ، فإننا «نشعر بالسعادة حقًا».

قرأتُ ذلك فذهلت. إنها المرة الأولى التي أرى فيها شوبنهاور يستخدمُ كلمة «سعادة». أخيرًا وجدتُ وميض نورٍ.

الموسيقى ليست ما أظنُّها، كما يُنبئني شوبنهاور. إنّها لا تنقل العاطفةَ. بل تنقل الجوهر، الوعاءَ الحاضن للعواطف، دون المحتوى. فحين نصغي إلى الموسيقى، لا نُدرك حزنًا مُعينًا أو فرحًا مُحددًا، بل الحزن ذاته والفرح ذاته، أو «الخلاصة المنتزعة من صميمِ هذهِ المشاعر»، كما يقول شوبنهاور. فالحزن في حدِّ ذاته ليسَ مؤلمًا. إنّما هو الحزن على شيءٍ يوجع. ولهذا نستمتع بمشاهدة فيلمٍ مُبكٍ أو الاستماعِ إلى أغنيةٍ ليونارد كوهين. وبكوننا أقلَّ انغماسًا في الدراما، فإننا نختبر العاطفة عينها، مُتحررةً من قيودِ السياق، ونستطيعُ أنْ نُقدِّرَ الجمالَ الكامنَ في الحزن.

يرى شوبنهاور أنَّ الألحان البطيئة هي الأشدُّ حزنًا وجمالًا. ويُطلق عليها اسمَ «نُواحٍ مختلج». وتعدُّ أغنية Adagio for Strings لصامويل باربر مثالًا جليًا على ذلك. فأنا أستمع إليه كلما اعتراني الحزن. وليس هذا

الفعل ضربًا من ضروبِ الانغماس في هموم الذات، أو تقلبًا في أوحالِ بؤسي، بل أظنه شيئًا أسمى. فالموسيقى تُجاري مزاجي، وتُضفي عليه مصداقيةً، لكنها تتيح لي أيضًا الانفصال عن منبعِ حزني. فأستطيع أنْ أتذوق مرارةَ الحزنِ دون أن أبتلعه، أو أن يبتلعني. بل أستطيع أنْ أستمتعَ بتلك المرارة.

***

أُرجِّحُ أنَّ شوبنهاورَ استدعى سوء الحظ ليُبرهن على تشاؤمِهِ. فثمة نهرٌ من المازوخية يجري في حياتِهِ. ففي برلين، خلال فترةٍ وجيزةٍ قضاها أستاذًا، أصرَّ على جدولة محاضراته في التوقيتِ ذاتِهِ الذي كان يحاضر فيه خصمه اللدود، فريدريك هيجل، ذلك «الدجال الكريه البليد والكاتب الذي لا يُضاهَى في تدوينِ السخافات» كما يقول. كان هيجل نجمًا لامعًا في سماءِ الفلسفةِ، بينما كان شوبنهاور مغمورًا. وكما كان مُتوقعًا، لم يجتذبْ شوبنهاور إلا في حدود خمسة طلاب. ولمْ يُدرِّسْ مجددًا قط.

سوف يُفاجأ شوبنهاور -بل سيغضب أشدَّ الغضب- لو رأى مقتنياته مُودعةً في مؤسسةٍ تعليمية. لقد ازدرى الأوساطَ الأكاديمية، بما فيها من قوانين جامدةٍ و«فلاسفةٍ مُتخنِّثين». وقد آثرَ حياةَ الفيلسوف المُتوحِّش، وبفضل ميراث أبيه، استطاعَ تحمُّل نفقاتها. فلم يكن هناك حاجة لتشكيل العدسات في دكانِ بصرياتٍ كسبينوزا، أو تدريسِ طلابِ المرحلةِ الجامعيةِ الأولى ككانط.

أُشاطر شوبنهاورَ كآبته لكنْ لا أوافقه على تشاؤمه. فثمة إشكالٌ جوهريٌّ في عبوسه: إنّه يستلزم معرفةً تامةً، وهو أمرٌ يعجز البشر عن

امتلاكهِ. قد نُضمر شكًا في أننا نعيش في «أسوأ العوالمِ المُمكنةِ»، لكن هل ندرك ذلكَ يقينًا؟ فالنظرة التشاؤمية تتطلب يقينًا أفتقر إليه، ولهذا فأنا ممتن.

تأمل حكايةَ المزارع الصيني. ففي أحد الأيام، فرَّ جواده. وفي تلك الأمسيةِ، توقف الجيران ليُبدوا تعاطفهم.

فقالوا: «يؤسفنا سماع نبأِ فرارِ جوادك. إنّه لأمرٌ مؤسفٌ حقًا».

فأجابَ المُزارع: «ربّما. وربّما لا».

وفي اليومِ التالي عادَ الجواد، مُصطحبًا معه سبعةَ خيولٍ جامحة.

فقال الجيران: «يا لهُ من حظٍّ سعيدٍ حقًا! الآن لديك ثمانية خيول. ويا له من مُنعطفٍ رائعٍ للأحداث!»

قالَ المُزارع: «ربّما، وربّما لا». وفي اليوم التالي كان ابن المُزارع يُدرِّب أحدَ هذه الخيول حين سقط وانكسرتْ ساقه.

قال الجيران: «يا للعجبِ، إنّهُ لأمرٌ سيئٌ للغاية!».

قالَ المُزارع: «ربّما، وربّما لا». وفي اليومِ التالي، قَدِم ضباط التجنيدِ إلى القرية لاستقطاب الشبانِ للجيش، لكنهم رفضوا ابن المُزارع بسبب كسرِ ساقه.

فقال جميع الجيرانِ: «أليسَ هذا رائعًا!»

فقال المزارع: «ربّما، وربّما لا».

نحن نحيا حياةً ذات رؤيةٍ مُقربةٍ في عالمٍ ذي زاويةٍ واسعة. فنحنُ لا نُبصر الصورة الكلية أبدًا. والردُّ الوحيد الرشيد هو أنْ نتبنى، كما فعلَ

المزارع الصينيُّ، فلسفة «الربّما-ثية».

***

الفلاسـفة الجيدون مستمعون بارعون. إذ يُصغون إلى أصواتٍ عديدةٍ، مهـما بدتْ غريبـةً، فالحكمة قـد تختبئُ حيـث لا تتوقع. وقـد وجدَها آرثر شوبنهاور مُستترةً في نصٍّ عتيقٍ وغريب.

كان العـام هـو 1813. وكان شـوبنهاور لا يزال على وئـامٍ مع والدتِه، فانضـمَّ إلى أحـد صالوناتها الأدبيـة الدوريـة. وكان من بينِ الحضـورِ عالِمٌ يُدعـى فريدريـش ماير. وكان تخصصه، الذي كان جديـدًا ومُثيرًا للريبةِ في ذلك الحينِ، هو الفلسـفة الشرقية. وقد أرى لشـوبنهاور مجلةً خفيَّةَ الشهرة تُدعى «الآسيوية»، وأخبره عن نصٍّ هنديٍّ يُعرف باسم «الأوبنشاد». وقد أُسرَّ شوبنهاور به على الفور.

نحن اليوم نُسـلِّم تسـليمًا بـأنَّ الفلسـفات والأديان الشرقيـة هي منبع حكمةٍ عظيمةٍ، يشـهد على ذلك أيُّ ارتيادٍ لمكتبةٍ، لكنَّ الأمر لم يكنْ كذلك في زمـن شـوبنهاور. فقـد كانـتِ البوذيـة والهندوسـية مجهولتـين تقريبًا في الغـرب. ولقد اسـتغرق الأمر ثلاثـة عقودٍ أخرى قبل أن تصل نسـخةٌ من «بهاغافـاد غيتا» إلى كوخِ ثورو في والدن. ولم يكنِ الأكاديميون يعرفون إلا النزر اليسير عن الفلسفةِ الشرقيةِ، واستخفُّوا بما عرفوه. وقد قال السياسي البريطـاني تومـاس ماكولي قولًا شـائنًا مفـادهُ أنَّ كلَّ آداب الهنـد والجزيرة العربية «تُعادل رفًا واحدًا منْ رفوفِ مكتبةٍ أوروبيةٍ جيدة».

لكـن شـوبنهاور كان مُختلفًـا. لقد انكبَّ عـلى هذه التعاليـم ينهل منها بنهـمٍ، وقد أسرتْـه «تصوراتها الفائقـة للبشر». لقد كان مُتعطشًـا. وفي كلِّ

مساءٍ، دون تخلُّفٍ قط، كان يقرأ مقاطعَ عديدةً من «الأوبنشاد». وقد كانت، كما قال، «القراءة الأجدى والأسمى التي يُمكن للمرءِ أنْ يظفر بها في هذا العالم؛ لقد كانتْ سلوى حياتي وستكون سلوى مماتي».

وفي وقتٍ لاحقٍ، درسَ البوذية، مُعلنًا إياها أعظم الأديانِ قاطبةً. وقد احتفظ بتمثالٍ لبوذا في غرفةِ مكتبه بفرانكفورت. ويُطلق بعض كُتّاب السيرة على شوبنهاور لقب «بوذا فرانكفورت»، لكنه لم يكنْ ناسكًا. وبينما اكتسب فهمًا عميقًا ونادرًا في ذلك الحينِ للبوذيةِ، إلا أنه لمْ يُمارس ما كان يُعلمه. فلم يتأمل. ولم ينبذْ مُتع الدنيا. بل استمتع بالمأكولاتِ الفاخرةِ والملابسِ الباهظة وظلَّ نشطًا جنسيًا طوال حياتهِ، وقد أشار ذات مرةٍ إلى أنَّ «الأعضاء الجنسية هي المركزُ الحقيقيُّ للعالم».

يذهب البعض إلى أنَّ الفلسفة الغربية قاصرة البصرِ، عمياء عن حكمةِ الآخرين. إنّها نادٍ حصريٌّ مُتصلِّبٌ من رجالٍ بيضٍ أمواتٍ، وبيضٍ فحسب. وثمة بعض الصِّحةِ في هذا الاتهام، لكن أمعِن النظرَ في نسيجِ الفلسفةِ الغربيةِ لتُبصر خيوطًا شرقيةً تجري في ثناياه. فبالعودة إلى زمنِ أبيقور، في عام 350 قبل الميلادِ، كان الشرق والغرب يتحاورانِ، حتى وإنْ لم يُصغيا دائمًا إلى بعضهما البعض. وبعد قرونٍ، استُؤنف الحوار. ولم يكنْ ثورو وشوبنهاور وحدهما، بل وغيرهما أيضًا. فقد كان نيتشه وهايدغر ووِيليام جيمس مُلمِّين إلمامًا وثيقًا بحكمة الهند والصين. وقدْ تسربتْ هذه الحكمةُ إلى صميمِ فلسفتهم.

***

بدأتُ أميل إلى شوبنهاور. فأمير الظلامِ، وفيلسوف التشاؤم، أستاذٌ

مُتمكنٌ من أسـاليب الكتابة، ومُمتع القراءةِ أيّما متعة. وكتابته واضحةٌ حيّةٌ، وشاعريةٌ. إنّهُ أكثر الفلاسفةِ الألمانِ سلاسةً في القراءة (وإنْ كان هذا معيارًا مُنخفضًا، لكن شـوبنهاور يتجاوزه بيُسرٍ). فلا يوجد فيلسـوف، كما يقولُ الفيلسـوف برايـان ماجي، «أكثرُ حضـورًا مع المرء منه، إذ تشـعر بحضورٍ ملموس حينَ تقرأُ له».

صحيـحٌ أنّـهُ كان روحًـا مُثخنةً بالجـراح، ربما أكثـرَ من سـائرِ الناسِ، لكنَّ هذا اختلافٌ في المقدار، لا في الجوهر. فكلنا يحمل في داخله شـيئًا من شوبنهاور. وكلنا مُصابٌ بجراح. إنّما يختلف حجم الجرح وشكله.

ليس شـوبنهاور رجلًا يسْـهل اسـتلطافه –بل «شـخصٌ بغيضٌ»، كما يصفـه أحـدُ كُتّـابِ سـيرتهِ – لكنه رجـلٌ يسـهل إجلاله. فهو مُحـب للفن والموسـيقى، وقد وضع إحـدى أعمقِ وأجملِ نظرياتِ الجمال في الفلسـفةِ، وألهـم أجيالًا من الفنانين والأدبـاء. وقد احتفظ تولسـتوي وفاغنر بصورٍ للفيلسـوف في غرفتـي دراسـتهما. وتعلـم الكاتـب الأرجنتينـي خورخي لويس بورخيس اللغة الألمانيةَ ليتمكن من قراءةِ شوبنهاور بلغته الأصلية. ويُحـب الكوميديـون شـوبنهاور، ممَّا يُؤكد الشـكوك حول العتمـةِ الكامنةِ وراء الفكاهة.

وبينما سعى فلاسـفةٌ آخرون إلى تفسيرِ العالمِ الخارجيِّ، كان شوبنهاور أكثر اكتراثًا بعالمنا الداخليِّ. فلا سبيل لنا إلى معرفة العالمِ ما لم نعرف أنفسنا أولًا. وتبـدو هـذه الحقيقة لي بديهيـةً إلى حدٍّ بعيد. فلـماذا يغفل عنها الكثير مـن الفلاسـفة وهم أذكياءُ في سـائر الأمور؟ أظنُّ أنَّ السـبب يعـودُ جزئيًا إلى سـهولة اسـتقصاءِ العالم الخارجيِّ. فنحن كالسـكرانِ الذي يبحث عن

مفاتيحه في زقاقٍ مُضاء.

يسأله عابر سبيلٍ: «أأضعتها هنا؟»

فيجيبُ: «لا. لقد أضعتها هناك»

ويُشير إلى ساحةِ انتظارٍ مظلمة.

- «فلماذا تبحث هنا إذن؟»

- «لأنّ النور ساطعٌ هنا».

لكـن شـوبنهاور لم يكـنْ كذلك. لقد بحـث حيث الظـلامُ دامسٌ. قد تُخالفـه في نظرتـه القاتمة أو ميتافيزيقـاه الكئيبة، لكنك لا تسـتطيع أنْ تعيبه على أنصافِ الحلولِ. إنه مخلصٌ تمامًا ومُنخرط بكُلِّيته. إنه فيلسوفٌ بطولي.

***

كلُّ وَلَـعٍ يُشـير إلى نفورٍ مُعـادِلٍ ومُضادٍّ، وكلُّ شـغفٍ إلى ضيقٍ مُتمِّم. وهكـذا كان الأمـر مع شـوبنهاور. فحبه العارم للموسـيقى أنجـبَ كُرهًا مُوازيًا للضوضاء.

«لقد كان الدق والطرق والقعقعة على مدار حياتي عذابًا يوميًا بالنسـبة إليَّ»، كـما دوَّن في مقالتـه «عـن الضوضاء والضجيج». وقـد كره على وجه الخصوصِ «الفرقعة الحادة المفاجئة» لسـوطٍ يُلهـب خاصرة حصانٍ، وهو صـوت «يُجمِّد الدمـاغ، ويُمزِّقُ خيـط التأمل، ويقضي عـلى كلِّ الأفكار». وأتساءل عما إذا كانَ شوبنهاور، مُحب الحيوانات، يستشعر ألم الحصان.

في الليلِ، كان ينتفض لأدنى حفيفٍ ويمد يدَّه إلى المسـدس المُعبأِ الذي

كان يُلازمـه دائـمًا بجانب فراشـه. وفي فرانكفورت، راسـل مدير المسرحِ، يحثه على اتخاذِ إجراءٍ بشـأن هذا الضجيج، سـواء من خلال ضبط الحشودِ، أو تركيبِ مواد مُبطَّنةٍ على الأبواب والمقاعد ذات المفصلات، أو أيِّ شيءٍ. «إنَّ أربـاب الفنـون والجمهـورَ سـيكونون شـاكرينَ لك على تحسـينِ هذهِ الأوضاعِ»، كما كتب.

كانتِ الضوضاءُ بالنسـبة لشـوبنهاور أكثر من مجرد مضايقة. بل كانتْ مِقياسًـا للشخصية. فقد كان يعتقد أنَّ تسـامح المرءِ مع الضوضاءِ يتناسب عكسـيًا مع ذكائه. «لذلك، فحين أسـمع نباح الكلابِ الجامحِ لساعاتٍ في فناءِ منزلٍ ما، أعرف ما ينبغي أن أعتقده بشأن قاطنيهِ».

أتفق مع شـوبنهاور تمامًا. فسلسـلة أفكاري واهية، سرعان ما تنحرف عن مسـارها. حتى صوت ساعةٍ تدق قادر على إفسادِ تركيزي. ناهيك عن مُجفف شعرِ زوجتي، ذلك الوغد الصغير الخبيث الذي عُرِف عنه أنه يُخرِّب يومًا بأكمله. ولا تدعني أبدأُ الحديثَ عنْ نافخات التنظيف!

تكشـف الأبحـاث الحديثـة عن الأثر الخفـي للضوضاء على سـلامتنا الجسـدية والنفسية. فبحسـب دراسةٍ نُشرت في «دورية سـاوثرن ميديكال جورنال»، يُمكن أنْ يفضي التلوث السـمعي إلى «القلق والضغط العصبيِّ والتوتـرِ والغثيـانِ والصـداع والتقلبـات العاطفيـة والضعـفِ الجنـسيِّ والتغـيرات المزاجيـة وتفاقم الخلافـات الاجتماعية والعُصاب والهسـتيريا والذهـان». كما توصلتْ دراسـةٌ أخـرى إلى أنَّ دويَّ الطائـرات وهي تقلع وتهبـط يـؤدي إلى ارتفـاعِ حـادٌ في ضغط الدمِ وتسـارعٍ في نبضـاتِ القلب وإفراز هرموناتِ التوتر حتى في غمرةِ النومِ العميق».

لربما وجد شوبنهاور تأكيدًا لقناعاته في هذه الدراسات، لكنه لنْ يجد فيها متعةً تُذكر، فهي تعجز عن تفسيرِ نوعٍ آخر من الضوضاء، أشدّ خُبثًا: الضوضاء الذهنية. فالضوضاء الذهنية لا تزعج فحسب، بل تُغطّي وتُخفي. ففي بيئةٍ صاخبةٍ، نفقد الإشارة، ونضل سبيلنا. وقبل حوالي مائةٍ وخمسين عامًا من ظهورِ البريدِ الإلكترونيِّ، أقلق صندوق الواردِ المُكتظُّ شوبنهاور.

وفي مقالته «عن التأليفِ»، يستشرف شوبنهاور الصخب المربك للعقلِ الذي تُجسّده وسائل التواصلِ الاجتماعيِّ، حيث يغرق صوتُ الحقِّ في ضجيجِ المستجدات. «فليس ثمة خطأٌ أكبر من تخيلِ أنَّ الأحدثَ كتابةً هو دائمًا الأصح؛ وأنَّ ما يُكتب لاحقًا هو تحسينٌ لما سُطِّرَ سابقًا؛ وأنَّ كلَّ تغييرٍ يعني تقدمًا».

ونحن نرتكب هذا الخطأ في كلِّ مرةٍ ننقر فيها بلا وعيٍّ، كجرذ مختبرٍ يشد عتلةً، طمعًا في مكافأةٍ ما. وماهية هذه المكافأة أمر نجهله، لكن ذلك لا يهم. فشأننا شأن قراء شوبنهاور المتعطشين، نخلط بين الجديد والجيد، وبين المستحدث والقيم.

أنا مُذنب بهذا الأمر. فأنا أدقق وأعيد التدقيق باستمرارٍ في مؤشراتي الحيويةِ الرقميةِ. وبينما أُسطِّر هذه الفقرة، تفقدتُ بريدي الإلكتروني (لا جديد)، وفتحتُ حسابي على فيسبوك (عيد ميلادِ بولين، يجب أن أتذكر أنْ أُرسل لها تهنئةً)، وقدَّمتُ مزايدةً على حقيبة ظهرِ جلديةٍ أنيقةٍ على موقع «إيباي eBay»، وتفقدتُ بريدي الإلكترونيَّ مرةً أخرى (لا جديد حتى الآن)، وطلبتُ كميةً مُقلقةً من القهوةِ، ورفعتُ قيمة مزايدتي على تلك

الحقيبةِ، وتفقدتُ بريدي الإلكتروني للمرةِ الأخيرةِ (لا جديد أيضًا).

كانتِ الموسـوعة هي شبكة الإنترنت في عصرِ شوبنهاور، وكانتْ فاتنةً بالقدر نفسه تقريبًا. فلماذا يُجهد المرء ذهنه في حلِّ معضلةٍ ما بينما الحل مُتاح بيُسرٍ في كتابٍ؟ لأنَّ -كما يُجيب شـوبنهاور- «الحلَّ يكون أثمن مئة مرةٍ لو توصلـت إليـهِ بجهدِك الفكريِّ الخـاصِّ». فكثيرًا مـا كان الناس، كما قال، يلجـأون إلى الكتاب بدلًا منْ مُلازمة أفكارهـم. و«ينبغي ألا تقرأ إلا حين تنضب ينابيع أفكارك الذاتية».

اسـتبدلْ كلمـة «انقرْ» بـ«اقرأ» لتتضح لك ورطتنـا. فنحن نخلط بين المعلومـات والبيانات، وبـين المعلومات والمعرفة، وبـين المعرفة والحكمةِ. وقـد أقلـقَ هذا الميل شـوبنهاور. ففي كلّ مكانٍ كان يـرى الناس يتهافتون عـلى المعلومات، مُعتبريـن إياها إدراكًا. و«لا يخطرُ ببالهـمْ»، كما كتب، «أنَّ المعلومات ليست سـوى وسيلةٍ للوصولِ إلى الإدراك ولا تملك قيمةً تُذكر أو لا قيمـة لهـا في ذاتهـا». بل سـأذهب أبعـد من ذلـك. فهـذا الفيض منَ البياناتِ -الضوضاءُ حقًا- له قيمة سـلبية ويُقلِّلُ من إمكانية الإدراك. فبما أننا مُشتتون بالضوضاء، لا نصغي إلى الموسيقى.

***

أسـير عائـدًا إلى فندقـي، بعـد أنْ تركـت سـتيفن روبـر ومحفوظـات شوبنهاور الحزينة يُصارعان قَدرَهما في «أسوأ العوالمِ الممكنةِ».

أتمشى مُسترخيًا على امتداد جاداتِ فرانكفورت المُشجرة، والهواء ناعم لين. إنّها أمسـية لطيفة، من صنفِ الأمسـياتِ التي كان يُفضلها شوبنهاور لنزهاتـه اليومية بعـد الظهيرة. أصغـي إلى أصوات الشـارع، رنينٍ جرمانيٍّ

مُبهـم، وإلى صـوتي الداخلي. وأُفزع حينَ أكتشـف أنّه هو الآخر مُشـوَّش. لقد كان شـوبنهاور مُحقًا. املأْ رأسـك بأفكارِ الآخرين لتحلَّ محلَّ أفكارك أنت. أُدوِّن ملاحظةً ذهنيةً لإخراجِ هذه الأصوات غير المدعوة.

عنـد عـودتي إلى غرفتي، أُقرر، سـواءً بدافعِ السـأم أو العـادةِ أو مزيجٍ غريـبٍ منهـما أن أتصفـح الإنترنـت. أظل أتصفـح وأنقر بـلا وعيٍ، حين يخطر ببالي فجأةً أنّ الإنترنت هو إرادة شـوبنهاور وقد تجسَّـدت في العصر الرقمـيِّ. وكالإرادة تمامًا، فالإنترنت كائنٌ في كلِّ مكانٍ، وعديم الغاية. إنّه يسـعى دائمًا، ولا يشـبع أبدًا. إنّه يلتهم كلَّ شيءٍ، بما في ذلك أثمن مواردنا: الوقت. إنّه يُوهم بالسـعادة لكنه لا يُقدِّم سـوى المعاناة. وكما هي الحال مع الإرادةِ، فـإنَّ الإنترنت يتيح سـبيلين للإفلاتِ من قبضتهِ: سـبيل الناسـكِ وسبيل المُتذوق للجمالِ. التأمل أو الموسيقى.

أختارُ الموسيقى. روسيني، بطبيعة الحال. أملأُ حوضًا من الماءِ الساخنِ وأسـكب قليلًا من شراب سكوتش. أحتسي رشـفةً من الشعيرِ الأحاديِّ، وأُغمـض عينـيَّ، وأسـتمع. أتتبع اللحن بالطريقـة التي لا بُـدَّ أنْ يُتابع بها الـدالاي لامـا الأخبار، مُنزَّهًا عـنِ الغرضِ لكن ليس بلا اكـتراث. مُنتبهًا لكن غير مُتفاعلٍ. أدع الموسيقى تغمرني، دافئةً ومُهدئةً كدفءِ ماء الحوض. صوتٌ بلا كلماتٍ. عاطفةٌ بلا مضمونٍ. إشارةٌ بلا ضوضاء.

أُدركُ أنَّ هـذا هو ما كان يراه شـوبنهاور في الموسـيقى: ليس مهربًا من العالمِ بل انغماسًا في عالمٍ آخر، أكثر ثراءً.

الجزء الثاني

الظهيرة

الفصل السادس

كيف تستمتع مثل أبيقور

الساعة 7:35 مساءً. مكانٌ ما في مونتانا. على متنِ قطارِ «إمباير بيلدر» التابع لشركة «أمتراك»، في رحلته من شيكاغو إلى بورتلاند بولاية أوريغون.

نسافر فرارًا من استبدادِ العادة. لكننا نتيه دون نظامٍ، وبعد يومينِ على متن قطار «أمتراك»، أصبو إلى ذلك النظام تحديدًا. أقرأ، وأتفكَّر. أقرأ عن التفكير وأتفكَّر في القراءة. أُعيد ترتيبَ حجرتي الصغيرةِ، أنقل الأمتعةَ من ركنٍ إلى آخرَ ثمَ أُعيدها إلى الركنِ ثانيةً. لساعاتٍ، أُثبِّت نفسي في مُؤخّرةِ القطارِ، وأُحدِّقُ عبر نافذةٍ ضئيلةٍ، وأُشاهد العالم وهو يتقهقر، كفيلمٍ أوشك على الانتهاء لكنَّهُ لا ينتهي أبدًا. وأنتظر غالبًا صوت «أمتراك» المُبهج، صوتَ الآنسةِ أوليفر، وهي تدعوني إلى عربة الطعام.

لا شيء يُجسِّد النظام كالغذاء. فالوجبات هي الأعمدة التي تُقيم اليوم منتصبًا. وبدونها، ينهار الزمن على ذاته وتتزايد الجاذبية بصورةٍ هائلةٍ، كما في الثقبِ الأسودِ. هذه حقيقةٌ علميةٌ.

تناول الطعام في أثناء السكون مُستساغٌ بما يكفي، لكنَّ متعتي تتضاعف بصورةٍ هائلةٍ حين أكون في حركةٍ. ثمة شيءٌ مُترفٌ على نحوٍ بديعٍ في الجمعِ بين تناول الطعام والتنقُّل. على الأقلِّ كان الأمر كذلك في سالفِ العهد.

في عام 1868، دشَّن جورج بولمان أول عربة طعامٍ. وأطلق عليها اسم

«دلمونيكو»، تيمنًا بالمطعم النيويوركيّ الشهير. وهكذا وجد تناول الطعام الفاخر طريقه إلى قضبانِ السككِ الحديدية.

عرضتِ القائمة -المطبوعة على الحرير- عشرات الخيارات، من بينها المحار وطبق ريربيت الويلزي. وكلها مُقدَّمة على أطباقٍ صينيةٍ فاخرةٍ، بطبيعة الحال، وتُزينها زجاجةٌ من نبيذ شاتو مارجو أو ربما كروغ فوار.

سطَّر مراسلٌ لصحيفة نيويورك تايمز بعباراتٍ متلهفة وصفًا لرحلته عام 1869 على متن قطار بولمان من أوماها إلى سان فرانسيسكو. لقد هامَ بشريحةِ لحمِ الظباء وتغنَّى بسمك السلمون المرقط من جداولِ الجبالِ (المطهوِّ بصلصةٍ «لاذعةٍ لا تُباع»). وكل هذا مُقدَّم، كما يُشير، على «موائدَ مُغطاةٍ ببياضاتٍ ناصعةِ البياض».

أتأمل طعامي في قطارِ «أمتراك» وأتحسَّر على فواتِ العصر الذهبيِّ لتناول الطعامِ في السككِ الحديديةِ منذ قرنٍ كاملٍ. بياضاتي ليستْ ناصعة البياض. وأطباقي الصينية ليستْ فاخرةً. ولا توجد قوارير من كروغ الفوارِ، مع أنَّ مشروبي من دايت كولا ينتج فقاعاتٍ طفيفةً، إنصافًا للحقِّ. وطبقي الرئيسي -زعموا أنه جمبري مشوي على أرزِ بيلاف- لا يجعلني أهيم. إنَّه صالح للأكل، نعم، لكنَّه ليس فاخرًا.

***

كلُّ الفلاسفةِ، شأنهم شأن المراهقين، يُساء فهمهم. وهذا جزءٌ من طبيعة الفلسفة. ولا أحد يُساء فهمه، أو تُشوَّه سمعته بظلمٍ أكثر من فيلسوف المتعة العظيم، أبيقور.

وُلد أبيقور عام 341 قبل الميلاد، في جزيرةِ ساموس، واتجهَ إلى الفلسفةِ في ريعانِ الشبابِ، وللأسبابِ المألوفةِ: كثرة التساؤلات وارتيابٍ عميقٍ في الإجابات التي كان يُقدِّمها له الكبار. وقد درس عظماء الفلاسفة خصوصًا هيراقليطس وديموقريطس. وسرعان ما استقطب تلاميذه الخاصين، الذين انجذبوا إلى أسلوبه التعليمي الآسر والمُيسَّر. وكثيرًا ما كان يستعمل لغةً جريئة وصادمةً. فعلى غرارِ سقراط، كان أبيقور مُمارسًا للحكمة الجنونية. فقد رأى أن الناس في حاجةٍ إلى أنْ يفيقوا من سباتهم، وبأي وسيلةٍ تُجدي.

طافَ أبيقور أرجاءَ العالم الإغريقيِّ، وأقام فترةً وجيزةً في كولوفون (تركيا حاليًا) وفي جزيرة ليسبوس، قبل أنْ يستقرَّ في أثينا، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. وهُناك ابتاعَ بيتًا خارج أسوار المدينة. وكان البيت مُحاطًا بسورٍ ضخمٍ، ويضمُّ بستانًا يانعًا. إنه مكانٌ مثاليٌّ، كما ارتأى، لتأسيسِ مدرسةٍ وجماعةٍ. وسرعان ما ذاعَ صيته، وأصبح يُعرف ببساطةٍ باسم «كيبوس»، أي «الحديقة» أو «البستان».

تتناغم الحدائق والفلسفة على نحوٍ جيِّدٍ. قال فولتير ذات مرة، وهو محبوب عصر التنوير الفرنسي، «علينا أنْ نُعمِّر حديقتنا». ووافقه الرأي الكاتب والبستاني الإنجليزي من القرن السابع عشر، جون إيفلين، مُضيفًا أنَّ «هواء الحدائقِ وروحها» يُفضي إلى «الحماس الفلسفي».

أهوى تلك العبارة. العالم في حاجةٍ إلى مزيدٍ من المتحمسين للفلسفة. ليس طلابًا لها، ولا خبراء بها -حاشا لله- بل متحمسين، بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى. والحدائق، المنعزلة عن ضجيجِ العالمِ، تُفضي إلى مثلِ

ذلك الحماس الفلسفي.

الحدائق تستلزم رعايةً. وكذلك أفكارنا. فالشخص الذي يُفكّر ليس فيلسوفًا، تمامًا كما أنَّ الشخص الذي يتجوَّل في فناء منزله الخلفيِّ ليس بستانيًا. وكلا المسعيين -البستنة والفلسفة- يستدعيان التزامًا مُنضبطًا من راشدٍ، مُقترنًا بدهشة طفل.

يمثل كلا المسعيين محاولةً لابتكارِ نظامٍ من فوضى، لا لفرضه عليها، مع الإبقاءِ على لمحة جموح، على طريقة ثورو، وقليلٍ من الغموض أيضًا. يتعاون البستاني مع الطبيعة، ويُزيِّنها، كما قال فولتير. ويؤدِّي البستاني دوره، بالزراعة والتجريف وتقليم الأعشاب، لكنَّ مصير بستانه يكمن، في نهاية المطافِ، في مكانٍ آخر. فهو يرتكز على العملياتِ الطبيعيةِ التي تتجلَّى داخل أسوار البستانِ وكذلك سحرها. والفلسفة تنطوي على سحرها الخاصِّ، شريطة أنْ تُؤدِّي العمل الشاقَّ.

***

الأماكن ذات أهميةٍ. فهي خزائن للأفكار. ولهذا السبب أرتحل، ولهذا أنا هنا الآن، في أثينا، أتقصَّى آثارَ أبيقور وبستانه. ولنْ يكون الأمر يسيرًا. فعُلماء الآثار، بكلِّ ما لديهم من أدواتٍ وذكاءٍ، لم يُحدِّدوا بعد موقعه بدقةٍ. ومع ذلك، لا يُخمِد ذلك حماسي الفلسفي. فلا يلزمك أن تعرف ما تبحث عنه كي تجده. فالعزيمة والحماسة خير دليلٍ.

بعد بضعِ منعطفاتٍ خاطئة، أهتدي إلى أول معلمٍ لي: «الديبيلون»، أو البوابة المزدوجة. لقد كانت ذات يومٍ المدخل الرئيسيَّ إلى أثينا، وأكبر بوابةٍ في العالم القديم. وقد حولت القرون البوابة إلى جدارٍ حجريٍّ مُنخفضٍ

لا يختلـف، فيما أُقـدِّر، عن ذلك الجدار في فيلادلفيـا حيث جلس جاكوب نيدلمان وإلياس وعايشا الأسئلة.

في العصورِ القديمة، كانت أسـوار المدينـةِ تفصل بين عالمين. والخروج مـن أسـوارِ المدينـةِ كان بمثابةِ إعـلانٍ، ومغامـرةٍ، كما أدرك روسـو جيدًا. واليـوم، يقع الحـي الموجود خـارج البوابـة المزدوجة في فضاءٍ وسـيطٍ منْ نوعٍ ما: مرحلة عابرة مُحاصرة بين ماضيها الخشـن ومستقبلها الذي يتحوَّل سريعًـا إلى حـيٍّ مُترفٍ. وتـتراص ورش تصليح السـياراتِ جنبًا إلى جنبٍ مع المقاهي الأنيقةِ. وأتوقف لأُصغي، مسـتحضرًا روح شوبنهاور. ينبعث مـن المرائـب الإيقـاع الرتيب للمطـارق؛ ومـن المقاهي، موسـيقى البوب وضحكات مُتقطِّعة. ولا يزال الناس يسـعون وراءَ البهجةِ والسـعادة تمامًا كما كانوا يفعلونَ في عهدِ أبيقور، بل وقبل ذلك بزمنٍ مديدٍ.

أتوقَّف عند فسـحةٍ صغيرةٍ بين مبنيين خرسـانيين لم يكتسـبا بعد طابعًا عصريًـا. وألمح بضع نباتاتٍ ضئيلةٍ تنبثق من الخرسـانةِ. ليس بسـتانًا، على وجه الدقة، ولكنَّه قريبٌ من ذلك. وأحاول أنْ أتصوَّر المشـهد قبل حوالي ألفينِ وخمسمائةِ عامٍ.

كانـت الشـوارعُ آنـذاك مُكتظةً. أسـتطيع أنْ أتصـور فتاةً يافعةً وسـط الجموع. اسمها ثيميستا، كما تُخبِرنا كتب التاريخِ. وبصفتها أنثى، فإنَّ الحياة عسـيرةٌ حتى في أزهى الأوقاتِ. وهذه ليستْ أزهى الأوقات. لم يعدْ شيء يبدو يقينيًا بعد الآنِ. لقد قلَبَ موت الإسكندر العالم رأسًا على عقبٍ. لقد هوى النظام القديم ولم يقمْ نظام جديد مقامه بعد.

أسـتطيع أنْ أتصوَّرَ ثيميسـتا وهـي تغامر بالخروج من بوابـاتِ المدينة،

مُخاطرةً، حين تلمح مجمعًا مُحاطًا بأسوارٍ. وعلى أحد الجوانب نقشٌ غريبٌ: «أيها الغريب، سيطيب لك المقام هنا. هنا الخير الأسمى هو المتعة».

يثير هذا فضول ثيميستا. يبدو هذا أكثر إغراءً من أكاديمية أفلاطون، غير البعيدة من هنا التي عُلِقت عليها لافتةٌ أشدُّ شؤمًا تستقبل الزائرين: «لا يدخل هذا المكان جاهل بالهندسة». تتخطَّى العتبة لتجد ليسَ بستانًا فحسب، بل مزرعةً صغيرةً، وجوًا ودودًا.

لم يكن اختيار أبيقور لبستانٍ مُسوَّرٍ، في موضعٍ ناءٍ نسبيًا، ضربة حظٍّ. ففي قطيعةٍ حادةٍ مع الرواقيين وسائر المدارس الفلسفية، حثَّ أتباعه على اجتناب «سجنِ شؤونِ التجارة والسياسة». فقد كان يرى أنَّ الروابط السياسية تُقلِّل من اكتفائك الذاتيِّ، وتُفضي إلى الاستعانة بمصادر خارجيةٍ لسعادتك. وكان شعاره «عِش في الخفاءِ». وكان هذا الانزواء مثيرًا للجدل آنذاك كما هو اليوم. فالذين ينسحبون من العالم دومًا موضع ريبةٍ. ونحن نستهزئ بالمنعزلِ بقدر ما نستشعره تهديدًا.

وقد خالف أبيقور التقاليد في جوانب أخرى أيضًا. ففي حينِ أنَّ معظم المدارس كانت تقبل مواطني أثينا الذكور فحسب، رحَّب أبيقور بالعبيد المُعتَقين والنساء، مثل ثيميستا، التي أهدى إليها عدَّة مؤلفاتٍ.

وليس من المستغربِ أنَّ مجتمعًا مُسوَّرًا يستقبل أناسًا غير مرحب بهم عادةً، ويدعو إلى حياةٍ مُكرَّسةٍ للمتعة، قد أثار الشبهات. وتناقلت الألسن أخبار حفلات العربدة والولائم الباذخة.

وقيل إنَّ أبيقور كان يتقيأ مرتينِ في اليومِ بسبب الإسراف في الطعام، و«ظلَّ أعوامًا عديدةً عاجزًا عنِ النهوض من كرسيه».

لكن كانتِ الشائعات محض افتراءٍ. فقد كانت حديقة أبيقور أقرب إلى الدير منها إلى بيتِ البغاء. وكانت الحياة فيها جماعيةً، مع قليلٍ من الخصوصية. وكان أبيقور يقول: «لا تأتِ في حياتك فعلًا تخشى أنْ يعرفه جارك». ولم يُبدِ قلةٌ من أتباعه اعتراضًا على هذا النهي. فلم يكنْ لديهم ما يخفونه.

***

كان أبيقور -شأنه شأن غيره ممَّن صادفتهم في رحلتي- فيلسوفًا للجسدِ والعقلِ على السواءِ. وكان يعتقد أنَّ الجسد يحوي أسمى الحكم.

كان أبيقور تجريبيًا. وكان يرى أنَّنا ندرك العالم عبر حواسنا وفقط حواسنا. قد لا تكون الحواس مثالية، لكن لا يوجد مصدرٌ موثوقٌ آخر للمعرفة، وكل من يُنبئك بخلافِ ذلك إمَّا مُتوهمٌ أو بائعٌ لسلعة.

صقل أبيقور حواسه الخاصَّة. وكان مُراقبًا فطنًا للسلوك البشريِّ. وتفحَّص أثينا، ورأى في كلِّ مكانٍ أناسًا يملكون ما يكفي: ما يكفي من الطعامِ، ما يكفي من المالِ، وبالتأكيد ما يكفي من الثقافةِ. فلِمَ لم يكونوا سعداء؟

تعامل أبيقورُ مع هذا اللغزِ تعامل طبيبٍ يُداوي مريضًا ذا أعراضٍ غير مُعلَّلةٍ. وقال إنَّ الفلسفة ينبغي أنْ تُصرف كدواءٍ للروحِ. وتُعرف المبادىء الأربعة الأولى من مبادئه الرئيسة باسمِ «الترافارماكوس»، أي «العلاجِ الرباعيِّ». وشأن الدواء، ينبغي تناول الفلسفة على فتراتٍ منتظمةٍ، وبجرعاتٍ مُحدَّدةٍ. وشأن الدواء أيضًا، ثمة آثار جانبية مُحتملة: دوارٌ، وتشوشٌ، وأحيانًا نوبات هوسٍ.

لم يكـنِ النهج الطبي محض مصادفة. لقد عاش أبيقور في أوجِ الفلسـفةِ العلاجيـة. وفي ذلـك العصر، الـذي يُعرف بالعصرِ الهلنسـتيِّ، كان الناس ينتقون المدرسـة الفلسـفية بنفس الحماسـة والتفكـير المتأنيِّ اللذيـن ينتقون بهما اليوم الزوج أو اشـتراك الإنترنت. وكانتِ المخاطر جسـيمةً. فلم يكنِ الأمر خيارًا أكاديميًا، كأنْ تُفاضل بين برينستون وستانفورد. بل كانَ خيارًا مصيريًا يُشكِّل شخصيتَك، ومنْ ثمَّ مصيرك.

كانـتِ المدارس مزيجًا من جامعةٍ، ونادٍ صحـيٍّ، وندوةٍ للتنمية الذاتية، وفي حالـة أبيقـور، جماعةٍ هيبيَّـةٍ. وكان المعلمـون يُركِّزون عـلى الأخلاقِ. وكانـتِ الأخلاق -المُشـتقَّة من الكلمة اليونانية التي تعني «الشـخصية»- دراسـةً للحياةِ الطيبةِ: السعادة (اليودايمونيا eudaimonia). ورأى بعضُ الفلاسفة أنَّ الآلهة وقلة من المحظوظين هم من يستطيعون بلوغ هذه المرتبةِ السـاميةِ من السـعادةِ. أما أبيقور فكان يرى أنَّ أيَّ إنسـانٍ يقدر على ذلك. «تأملـوا في هذه التعاليم ليلَ نهارَ، وسـتحيون كآلهـةٍ بين البشر»، هكذا قال لتلاميذه.

وعندما تفحَّص أبيقور الجسـد السـياسيَّ العليل لأثينا، قدَّم تشـخيصًا يسـيرًا: نحن نخشـى ما ليس بمُؤذٍ، ونشـتهي ما ليس بـضروريٍّ. فما أكثر شيء نخشـاه؟ تسـاءل. الآلهةَ والمـوتَ. (يبدو أنَّ الضرائـب لم تكنْ مصدر قلـقٍ كبـيرٍ في الأزمنة القديمـة!). وكان لديه جوابٌ لكليهـما. فالآلهة، على حـدِّ قوله، موجودةٌ، ولكنَّها غير مباليةٍ بشـؤونِ البـشر. ولِمَ يجب أن تهتمَّ؟ إنَّها مشـغولةٌ جـدًا بكونها آلهةً. وبالنسـبة لأبيقور، كانتِ الآلهـة كالنجومِ. يعيشون حياةً يُحسدون عليها، خاليةً من الهموم.

أمّا بالنسبة للموت، فيحثّنا أبيقور على الاسترخاء. نعم، الموت قد يكون مُوجعًا، كما يُقر أبيقور، لكنَّ هذا الوجع محدودٌ في ذاته. فلنْ يدوم إلى الأبد. إمَّا أنْ يهدأ، أو تموت. وفي كلتا الحالتين، لا مَخافة من شيءٍ.

أرى هذه الفكرة، شأنَ الكثيرِ من فلسفةِ أبيقور، سليمةً في التنظير، ولكنَّها تُثير الإشكال في التطبيقِ. أنا لا أخشى الآلهة، لكنَّ احتمال العدم يُفزعني. وأظنُّ أنه سيظل كذلك دومًا.

يقول أبيقور: استرخِ وتنعَّم. وقد نادى بالمتعة باعتبارها «مبدأ الحياةِ السعيدةِ ومنتهاها»، وأردف مُستفزًا: «لا أدري كيف أتصوَّر الخيرَ إنْ نحَّيتُ لذةَ المذاق، وإنْ نحَّيتُ المتعة الجنسية، وإنْ نحَّيتُ لذةَ السمع، وإنْ نحَّيتُ المشاعرَ العذبة التي تُثيرها رؤيةُ منظرٍ بديعٍ».

ولا عجب أنْ طال أبيقور الكثير من القدحِ. فالمتعة موضع ريبةٍ. وهي تكمن في الظلالِ، خلف الأبوابِ المُوصدة. وحين نتحدث عن ملذاتٍ «خفيةٍ» أو «سرية»، فإنَّنا نُقر بالخجل أو الخزي الملازمِ لهذه الغريزة الإنسانية الأصيلة.

كان أبيقور يرى خلافَ ذلك. وكان يعتبر المتعة الخير الأسمى. وكل شيءٍ آخر -الشهرة والمال وحتى الفضيلة- لم يكن له قيمة إلا بقدر ما يُعزِّز المتعة. وكتب بأسلوبه المُستفزِّ المعهودِ: «أبصق على الشرفِ وعلى الذين يُعجبون بهِ عبثًا». فالمتعة بالنسبة له هي الشيء الوحيد الذي نرغب فيه لذاته. وكل شيءٍ آخر، حتى الفلسفة، ما هو إلا وسيلةٌ لتلك الغايةِ الوحيدة.

ويرى أبيقور أنَّ أسبقيةَ المتعة أمرٌ بديهيٌّ. فما الذي يستجيب له الطفل؟

المتعـة والألم. لسـت بحاجـةٍ إلى أنْ تعلمه أنَّ النار حارقـةٌ والحلوى لذيذةٌ؛ فهو يعرف ذلك. فالسعي إلى المتعة وتجنب الألمِ طبيعيٌّ وتلقائيٌّ كالتنفس.

عـرَّف أبيقـور المتعـة تعريفًـا يختلـف عـن تعريـفِ معظمنا لهـا. فنحنُ نتصـوَّر المتعة حضورًا، وهو ما يُسـميه علماء النفـس «التأثير الإيجابيَّ». أمَّا أبيقـور، فقد عـرَّف المتعة غيابًا. وقد أطلق اليونانيون على هذه الحالة اسـم «أتاراكسيا»، والتي تعني حرفيًا «انعدامَ الاضطراب». فهي غياب القلق لا حضور أيِّ شيءٍ يُؤدِّي إلى الإشـباع. والمتعة ليسـتْ نقيضَ الألمِ، بل غيابه. ولم يكن أبيقور من دعاة اللذة، بل كان من دعاة السكينة.

يُبدي بعض علماء النفس استـياءً من تركيـزِ أبيقور الحصريِّ تقريبًا على تخفيف الألم. وتشـمئز مجلة «دراسات السعادة» قائلةً: «السعادة قطعًا شيءٌ آخـر غـير مجرد غيـاب الألم برمته». وقبل قـراءة أبيقور، كنـت لأوافق على ذلـك. أمَّا الآن، فلسـت متأكدًا تمـام التأكد. إذا ما كنـت صادقًا مع نفسي، لأدركـتُ أنَّ مـا أشـتهيه أكثر من غيره ليس الشـهرة ولا الثـروة، بل راحةَ البـالِ، «المتعة الخالصـة للوجود». ويـكادُ يكون مسـتحيلًا أن أصفَ هذه الحالة بعباراتٍ أخرى غير عبارات الغياب.

تجنب الألم نصيحةٌ صائبةٌ -وأنا أؤيدها كل التأييد- لكن أليست أساسًا واهيًـا على نحوٍ مُزرٍ لفلسـفةٍ ما؟ ليس إنْ كنتَ تتألم، كـما كان يرى أبيقور. تخيَّل أنَّك سـقطتَ من فرسٍ وكسرتَ سـاقك. يُسـتدعى الطبيب، ويُقدِّمُ لك على الفور وعاءً من العنبِ. فأين الخلل؟ أليسَ العنب ممتعًا؟

يرى أبيقور أنَّ هذا الموقف العبثيَّ هو الذي نجد فيه أنفسنا في الغالب. فنحن نضع ملذاتٍ تافهةً فوق جبلٍ من الألمِ، ونتساءل: لِمَ لا نكون سعداءَ؟

فمنَّا مَن يُعاني من صدمةِ الألم الجسديِّ الحادةِ، ومنَّا مَن يُعاني من وجعِ الألمِ النفسي المُضني، أو من ألمِ القلبِ المكسورِ الذي يُودي بنا إلى الرغبة في الموت، ولكنَّ الألم هو الألم، ويجب علينا أنْ نُعالجه إنْ أردنا بلوغ الرضا. «إنَّنا نولدُ مرةً واحدةً فقط، ولا يُسمح بالثانية»، هكذا قال أبيقور. ويرى أبيقور أنَّ كلَّ حياةٍ بشريةٍ هي نتاجُ الصدفةِ السعيدةِ، وانحرافٌ في الحركةِ الذريةِ، ومعجزةٌ من نوعٍ ما. أفلا يجب علينا أنْ نحتفل بذلك؟

***

أرحل عن موقعِ ما قد يكون حديقة أبيقور أو لا، وأعتصم بظلالِ مقهىً مُغرٍ. وأطلب بيرة «ميثوس»، وأتأمل ملذات أبيقور العديدة. فهو لم يكتف بالاحتفاء بالمتعة، بل قام بتشريحها، مُبتكرًا تصنيفًا شاملًا للرغبة.

في قمةِ السلم كانت الرغبات «الطبيعية والضرورية». ككوبِ ماءٍ، مثلًا، بعد رحلةٍ عبر الصحراءِ. وتليها الرغبات «الطبيعية غير الضرورية». ككوبِ نبيذِ مائدةٍ بسيطٍ بعد شرب الماءِ بعد رحلةٍ عبر الصحراء. وأخيرًا، في قاعدةِ الهرم، تقع الرغبات التي لا هي طبيعيةٌ ولا ضروريةٌ، والتي يُسميها أبيقور الرغبات «الفارغة». كزجاجة شمبانيا باهظة الثمن بعد احتساءِ نبيذ المائدة بعد شرب الماء بعد رحلةٍ عبر الصحراءِ. هذه الرغبات الفارغة هي التي تُسبِّب معظم المعاناة، حسبما كان يرى أبيقور، لصعوبة تحقيقها. «لأنْ ترقدَ على فراشٍ من قشٍّ وتكون آمنًا خيرٌ لك من أنْ تمتلكَ أريكةً ذهبيةً ومائدةً مترفةً، وتكونَ مُضطربَ الذهنِ».

أحتسي رشفةً من بيرة -طبيعيةٍ غيرِ ضروريةٍ- وأجري جردًا صامتًا لرغباتي المتنوعة. ولا يروق لي ما أجد. إذ أُكرِّس طاقةً -أكثرَ مما ينبغي،

وأنا أدرك ذلك- لمطاردةِ السراب. أُكرِّس طاقةً جمةً للحقائب. فأنا أهوى الحقائب (حقائب الكتب تحديدًا التي تُعلّق على أحد الكتفين، ولكن أيضًا حقائب الظهرِ والحقائب الجلدية)، وشأن كلِّ هوىً، فهذا الهوى يستبدُّ بي. وإذا ما ألقى أبيقور نظرةً على مجموعتي الهائلةِ من الحقائب، لاعتبرها، في أحسن الأحوال، رغبةً طبيعيةً غير ضروريةٍ. أجل، نحن بحاجةٍ إلى شيءٍ لحملِ أغراضِنا، ولكنَّنا لا نحتاج إلى أربعٍ وخمسين حقيبةً من مختلف الأنواع والتكوينات الجلدية والقماشية. فحقيبة ظهرٍ بسيطةٍ تكفي.

ولا يقتصر الأمر على وجودِ أنواعٍ مختلفةٍ من الملذات، كما يرى أبيقور، بل إنَّها تعمل بسرعاتٍ متباينةٍ. وهنا يُفرِّق بين الملذات الثابتة والحركية. ففعل إرواءِ ظمأنا بكوبِ ماءٍ باردٍ متعةٌ حركيةٌ. أمَّا شعور الارتواء -زوال الظمأ- الذي نختبره فيما بعد، فهو متعةٌ ثابتةٌ. أو بعبارة أخرى، الشرب متعةٌ حركيةٌ، والارتواءُ متعةٌ ثابتةٌ.

نحن عادةً ما نرى الملذات الحركية هي الأكثر إشباعًا، ولكنَّ أبيقور لم يكنْ يرى الأمور على هذا النحوِ. فالملذات الثابتة هي الأفضل، لأنَّنا نطلبها لذاتها. فهي غاياتٌ لا وسائل. «أجدُ في جسديَ لذةً كاملةً حين أعيشُ على الخبزِ والماء، وأبصقُ على ملذاتِ العيشِ الرغيدِ، لا منْ أجلِها هيَ، بلْ لما يتبعُها منْ متاعبَ» هكذا يقول.

فما هي تحديدًا المتاعب التي تعقب، على سبيل المثال، وجبةً من خمسةِ أطباقٍ في مطعم «فرينش لوندري»؟ إنَّ أبيقور يتحدث عن الأحاسيس الجسدية -عسرِ الهضمِ، صداعِ الكحولِ- ولكن يتحدث أيضًا في الغالب عن نوعٍ آخر خبيثٍ من الألمِ: ألم الحرمان. لقد استمتعت بـ «تيرين سمك

السلمون البري» -وكانت المتعة حقيقيةً- ولكنَّها الآن قد زالتْ، وأنت تتوق إليها من جديدٍ. لقد أوكلت سعادتك إلى «تيرين سمك السلمون» وإلى الصياد الذي اصطاده، والمطعم الذي يُقدِّمه، والمديرِ الذي يقتطع من راتبِك حتى تتمكن من تحمُّل تكاليفه. لقد أصبحت الآن مُدمنًا على «تيرين سمك السلمون»، وسعادتك رهنٌ بجرعاتٍ منتظمةٍ من هذه الأشياء. وكل ذلك لأنَّك ظننت خطأ أن تلك الرغبة -غير الضرورية- ضرورية.

لكن لا تبتئسْ، يقول أبيقور. فالطبيعة ترعاك. لقد يسَّرتْ لك الرغبات الضرورية، وعسَّرتْ عليك الرغباتِ غير الضرورية. فالتفاح ينمو على الأشجار، أما سياراتُ «تسلا» فلا. والرغبة هي نظام تحديد المواقع العالميّ (GPS) الذي وهبته الطبيعة لك، الذي يُرشدك إلى أسمى الملذات ويُبعدك عن الملذات الفارغة.

يُقال أنَّنا نعيش في عصرٍ ذهبيٍّ للمتعة. وهناك خياراتٌ فاتنةٌ لا حصر لها تقع على بُعد نقرةِ زرٍّ: طعامٌ فاخرٌ، مراتبُ رغويةٌ، علاقاتٌ جنسيةٌ ساخنة، أدواتٌ وفيرةٌ. ويرى أبيقور أنَّها جميعًا خداعات للمتعة. وشأن أيِّ خداعٍ جيدٍ، تبدو حقيقيةً، فنُصوِّب نحوها طلقات رغباتنا. وإذا ما أخفقنا في إصابة الهدفِ، ألقينا باللوم على أنفسِنا لضعف التصويبِ، وأعدنا المحاولة.

«كُفَّ عن التصويبِ على هذه الخدع الزائفة»، هكذا ينصحنا أبيقور. بل والأجدر أنْ تتوقف عن الرمايةِ بالكليةِ. يقول: «ليس ما نملكه بل ما نتلذذ به هو ما يُشكِّل ثراءنا»، مُشيرًا إلى أنَّه، بالعقلية السليمة، حتى قليل من الجبنِ يُمكن أنْ يُحوِّل وجبةً بسيطةً إلى مأدبةٍ فاخرةٍ.

يرى أبيقور أنَّ المتعة، بعد حدٍّ مُعينٍ، لا يُمكن زيادتها -تمامًا كما أنَّ

السماء الصافية تمامًا بالفعل لا يُمكن أنْ تزداد صفاء- بل تتنوع فحسب. فزوج الأحذيةِ الجديد أو الساعة الذكية يُمثلانِ متعةً مُتنوعةً، لا مُتعةً متزايدةً. ومع ذلك، فإنَّ ثقافتنا الاستهلاكية برمَّتها تقوم على افتراضٍ مفادهُ أنَّ المتعة المتنوعة تُعادل المتعةَ المتزايدة. وهذه المعادلة الخاطئة تُسبب معاناةً لا طائل منها.

ولا يقتصر الأمر على أنَّ تنوع المتعة أقل أهميةً ممَّا نظن، بل وكذلك مدَّتها. فلذة تدليك لمدة عشرينَ دقيقةً ليست بالضرورةِ ضعف لذة تدليكٍ لمدةِ عشرِ دقائق. ولا يمكنك مضاعفة السكينةِ. فإمَّا أنْ تكون في سلامٍ أو لا تكون.

***

قدْ لا تبدو هذه الفلسفة ممتعةً للغاية، لكنَّها كانت كذلك. فقد عاش الأبيقوريون، المُتحصِّنون خلف أسوار الحديقة، حياةً بسيطةً لكنَّها كانت تتخلَّلها ولائمُ فاخرة. وكانوا يعلمون أنَّ الترف يُستمتع به على أفضلِ وجهٍ على فتراتٍ مُتقطِّعةٍ، ورحَّبوا بكلِّ خيرٍ صادف طريقهم. والأبيقورية هي فلسفة القبول، وقريبه الوثيق، الامتنان. فحين نتقبَّل شيئًا ما -نتقبله حقًا- لا يسعنا إلا أنْ نشعر بالامتنان.

لقد التقيتُ مؤخرًا بعالِم نفسٍ شابٌ يُدعى روب، وأظنُّ أنَّه يُجسِّد الروح الأبيقورية، حتى وإنْ لم يكنْ يعلم بذلك. وقد قضيتُ أنا وروب ثلاثة أيامٍ في التجوُّل سيرًا على الأقدام في البرية الساحرةِ التي هي جنوب ولاية يوتا، وذلك في إطار تجربةٍ حول الفوائد الصحية للطبيعة. (وكنتُ أنا فأر التجربة).

في أحدِ الأيام، لفتتْ انتباهي قنينة ماءِ روبٍ، أنيقةٌ ومريحةٌ، فأثارت في نفسي نشوةً تُضاهي نشوةَ الحقائبِ تقريبًا.

سألتُه: «من أين اشتريتَها؟»

أجاب: «لم أشترها، لقد جاءتني ببساطة».

الكثيرُ من الأشياء يأتي لروب. ليسَ فقط قناني الماءِ بل أيضًا أكوابُ القهوةِ، والمصابيح الكاشفة، وأشياء أخرى. وبعد رحلتنا، تبادلنا أنا وروب عناوين البريدِ الإلكترونيِّ، وأخبرني: «لقد جاءني كوبُ قهوةٍ جديدٌ قبل حوالي ساعةٍ بينما كنت أعبر الحرم الجامعيَّ؛ إنَّهُ فاخرٌ إلى حدٍّ ما وظهر في صندوقي البريدي الخاصِّ لسببٍ عصيٍّ على الفهم. لقد وضعته في مكتبي جنبًا إلى جنبٍ مع خمسةِ أكوابٍ أخرى، وثماني قناني ماءٍ، وخلاط بروتينٍ، ومصباحين للرأسِ، وكلها جاءتني هكذا أيضًا. وإذا لم يهدأْ هذا السيل قريبًا، فسأتمكن من التقاعد مبكرًا وأكتفي بفتح متجرٍ للهدايا».

إنَّ موقف روب هو جوهر الأبيقورية. فإذا ما أتاك الخير، فلتنعمْ به. ولا تسعَ إليه. فالأشياء الطيبة تأتي إلى الذين لا يتوقعونَ أنْ تأتيهمُ الأشياء الطيبة. إنَّ روب لا يُبدد طاقته في البحثِ عن هذهِ الزخارفِ التافهة. بل إنَّها ببساطةٍ تأتيه. وحين تفعل ذلك، يكون شاكرًا.

***

في القرون التي أعقبتْ وفاة أبيقور، انتشرتْ حدائق الأبيقوريين في أرجاءِ مناطق البحرِ الأبيضِ المتوسط. وقد استقطبتْ أعدادًا كبيرةً من الأتباعِ المُخلصين، وعلى خلافِ المدارس الأخرى، كانتْ مُعدلات

التسربِ فيها منخفضةً. الكثيرون دخلوا الحديقةَ؛ والقليلون فرُّوا منها.

أمَّا مَن كانوا خارج أسوارِ الحديقةِ، فقد ألقوا بالحجارة عليها. ووصف المُعلِّم الرواقيُّ إبيكتيتوس أبيقور بأنَّه «وغدٌ بذيءُ اللسان». لقد هدَّدتِ الأبيقورية، بأخلاقِها القائمةِ على مبدأ اللذة، مدارس الفلسفة الأخرى، ولا سيما الديانة الجديدة الشائعة: المسيحية. وفي نهاية المطاف، انتصرتِ الكنيسة. ولعدةِ قرونٍ، كادتِ الأبيقورية أنْ تختفي تمامًا.

ثمَّ، في عامِ 1417، عثر عالمٌ جَسورٌ يُدعى بوجيو براشيوليني، وهو يُفتِّش جنوب أوروبا بحثًا عن كنوزٍ ضائعةٍ من العصور القديمة، على النسخة الوحيدة الباقية من كتاب «في طبيعةِ الأشياءِ»، وهو مؤلَّفٌ أبيقوريٌّ للشاعر الرومانيِّ لوكريتيوس. وفي عام 1473، غدا أحد أوائل الكتب التي طُبعت على المطبعةِ الميكانيكيةِ التي اختُرعتْ حديثًا.

لقدْ وجدتْ أفكار أبيقور -بشأنِ اللذةِ والبساطةِ والحياةِ الطيبةِ- جمهورًا جديدًا مُستقبلًا، منْ فرنسا إلى المستعمراتِ الأمريكية. وفي عام 1819، صرَّح توماس جيفرسون المُتقاعد قائلًا: «وأنا أيضًا أبيقوريٌّ». وفي رسالةٍ إلى صديقٍ، يتوسع قائلًا: «أعتبر المبادئَ الأصيلة (لا المنسوبة زورًا) لأبيقور مُشتملةً على كلِّ ما هو عقلانيٌّ في الفلسفةِ الأخلاقيةِ التي خلَّفتْها لنا اليونانُ وروما».

كان جيفرسون أقلَّ إلمامًا بتعاليم بوذا، لكن أوجه التشابهِ مع أبيقور لافتةٌ للنظرِ. فقد رأى كلا الرجلينِ أن الرغبة هي أصل كلِّ المعاناة. وحدَّدَ كلاهما الهدوء بوصفه الهدف الأسمى لممارستها. ورأى كلاهما الحاجة إلى مجتمعٍ من المفكرين ذوي العقولِ المُتقاربةِ: الحديقةُ بالنسبة لأبيقور،

والسَّنْغا بالنسبة لبوذا. ويبدو أنَّ كلا الرجلين كان يُحب الرقم أربعة. فكان لدى بوذا الحقائق النبيلة الأربع، ولدى أبيقور العلاج الرباعي.

قد تكون أوجه التشابه تلك أكثر من مُجرد صدفةٍ. فقد سافر اثنانِ من أوائلِ المؤثرين في فكرِ أبيقور، وهما ديموقريطس وبيرون، إلى الهند والتقيا بمدارس بوذيةٍ هناك. ولعلَّ أبيقور قدْ اطَّلع على تعاليم بوذا. أو ربّما وصل الرجلانِ، سالكين طرقًا مُختلفةً، إلى الوجهةِ نفسها.

***

اليوم، انتقلت الحديقة، شأنَ كلِّ شيءٍ آخر تقريبًا، إلى العالم الرقميِّ. وهناك وجدت توم ميرل. لمْ أكنْ أبحث عن توم. لقدْ صادفته.

توم أبيقوريٌّ أصيلٌ -يلتزم بمبادئِ الفيلسوفِ الأصليةِ- يعيش في مدينة نابا الصغيرة ذاتِ النزعة الأبيقورية في كاليفورنيا، حيث الكلمة مُرادفة للانغماس في فنِّ الطهي. فكيف يُوفِّق بين هذين الوجودين، الكبير والصغير؟ هذا هو السؤال الأول الذي أدوِّنه في مُذكِّرتي. لكن الأسئلة أشبه بحلوى إم آند إمز (M&M's)، أوْ بالحقائبِ: فمن المستحيل أنْ يكون لديك سؤالٌ واحدٌ فقط. وما هي إلا فترةٌ وجيزةٌ حتى أكون قد ملأت اثنتي عشرة صفحةً في مُذكِّرتي. وربما لم يكن ليوافق أبيقور، رسول الحياة البسيطة، على هذا.

أدركتُ أنَّ جميعَ أسئلتي تتلخص في هذا: كيف لرجلٍ يونانيٍّ ميتٍ، يميل إلى اللعن والبصق، عاش في حديقةٍ ودعا إلى حياةٍ من البساطة الجذرية، أنْ يكون ذا أهميةٍ في عالمِ اليوم المعقد، ذي التقنية العالية؟

لقد قطعتُ نصفَ الكرة الأرضية سفرًا، من أثينا إلى نابا، كيْ ألتقي بتوم لتناولِ غداءٍ مبكرٍ. وقد تركت له حرية اختيار المكانِ، ويعود ذلك جزئيًا إلى أنَّها بلدته، ولكنْ في الغالب لأنني ينتابني فضولٌ لأعرف إلى أيِّ اتجاهٍ يميل، النزعة الأبيقورية المخففة للمدينة أمِ الأبيقورية الأصيلة . وقد اقترح أنْ نلتقي في مركزِ المدينةِ، ثمَّ نسير إلى المطعم.

يبلغ توم من العمرِ ثلاثةً وسبعين عامًا لكنه يبدو أصغر بعشر سنين. ويرتدي نظاراتٍ شمسيةً داكنةً، لا يخلعها قط، حتى في الظلِّ، وقميصًا حريريًا مُزخرفًا بقناني نبيذٍ مُلوَّنةٍ. ويبدو مرتاحًا بوضوحٍ في بشرته السمراءِ. تعجبني طاقته وبينما نسير، أتبادل معه حديثًا عابرًا، وأسأله عن الحياة في نابا.

يُحب توم العيش هنا، لكنه يسأم من الاهتمام المبالغ فيه بالذات، والعدد الهائل من الأشخاص الأنيقين والغياب التام للشخصية الخام غير المصقولة.

يُوجِّهُنا توم إلى مقهىً صغيرٍ. وقائمة الطعام بسيطة وغير مكلفةٍ. أبيقوريٌّ أصيلٌ. أطلب شطيرةً تُدعى «إضرامُ النارِ في الغابةِ»، وقد أثار فضولي احتمال وجود جبنة أواكساكا، وذكَّرني بشيءٍ قرأته عن ثورو. فقد أشعل هو وصديق له عن طريقِ الخطأِ قطعةً كبيرةً من غابةِ والدن، ممَّا أثار استياءهما الشديد.

«هلْ تودُّ شيئًا لتشربه مع ما طلبته؟» تسأل المرأة التي تتلقى طلبنا.

أنظر إلى ساعتي: الحادية عشرة صباحًا. أسألها: «هل ما زال الوقت مبكرًا لتناول النبيذ؟»

تبادل توم والمرأةُ نظرةً تقول «ها هو سائح». ففي نابا، لا يكون الوقت مبكرًا أبدًا، ولا متأخرًا أبدًا، لتناول النبيذ.

أطلبُ نبيذ بينو نوارٍ أوصى به توم. نستقر على طاولةٍ في الخارج، والشمسُ دافئةٌ، والسماء زرقاء كاليفورنيةٌ صافيةٌ لا تشوبها شائبة.

وبينما ننتظر طعامنا، انغمست في سؤالي الذي -وبينما لم أُعرْه انتباهًا- تكاثرَ مرةً أخرى إلى عدة أسئلة.

أسأل توم: «كيف عثرت على أبيقور، أمْ أنَّ أبيقور عثر عليكَ؟»

يشرح توم أنَّه كان دائمًا «شخصًا مُولعًا بالأفكار». وقد مارس الفلسفة كطالبٍ جامعيٍّ، لكن لم يكنْ ذلك إلا لاحقًا، كطالب دراساتٍ عليا، عندما تعمَّق فيها. كان ذلك في فترة الستينيات، وهو ما يبدو وقتًا جيدًا لتكونَ شخصًا مُولعًا بالأفكار.

قرأ توم سبينوزا وكانط وغيرهما لكنَّه انجذب إلى أبيقور وتركيزه على اللذة. «بالنسبةِ لي، اللذةُ شاملةٌ للغاية بلْ أكثرُ من السعادةِ»، هكذا يُخبرني، بين رشفاتٍ من النبيذ.

لا يُفوِّت توم أبدًا فرصةً لتصحيحِ الاعتقادِ الشائعِ بشأن أبيقور. فلم يكنِ الفيلسوف من هواة الطعام، وسوف يُفزعه أنْ يجد موقعًا إلكترونيًا للطهي يحمل اسمه. لقد قدَّرَ الحياة البسيطة، معتقدًا أنَّ أبسط الملذات، كأسهلِ الثمارِ التي يُمكن الوصول إليها، غالبًا ما تكونُ الأكثرَ إشباعًا.

أتساءل بصوتٍ عالٍ كيفَ يُوفِّق توم بين فكرة العيش البسيط وواقع الإقامة في نابا، وهي بقعة حتى الثمار البسيطة فيها عبارة عن عنبٍ مُعتنىً

به عنايةٌ فائقةٌ ومُقدَّرٍ له أنْ يُعبَّأَ في زجاجة ميرلوتٍ بقيمة 200 دولارٍ، وقد يُكلِّف منزلٌ مُتواضع مليون دولارٍ بكلِّ سهولةٍ.

يُقرّ توم أنّ الأمر ليس بالهيّن، لكنَّه ممكن. عليك أنْ تُجري الحسابات.

تُذكرني الحسابات بالرياضيات فأزمجر. فبالنسبة لي، الرياضيات والهندسة تقعانِ في نفس مرتبةِ الآلهة والموت في قسم الخوف. وما كنتُ لأخطو قدمًا في أكاديميةِ أفلاطون، مع شرط القبولِ الصارمِ الخاصِّ به المتعلق بالتمكن من الرياضيات.

يُوضِّح توم لي أنّ كلّ الملذاتِ خير، وكلُّ الآلام شرٌّ، لكن هذا لا يعني أنّه ينبغي علينا دائمًا أنْ نختار اللذة على الألم. فبعض الملذات قدْ تُؤدِّي إلى ألمٍ في المستقبل وبالتالي ينبغي تجنُّبها. فألمُ سرطانِ الرئةِ يفوق لذة التدخين. وبالمثل، فإنَّ بعض الآلامِ تُؤدِّي إلى لذةٍ في المستقبلِ وبالتالي ينبغي تحملها. كألمِ الذهابِ إلى النادي الرياضيِّ، على سبيلِ المثال.

وعلى الرغمِ من غرابة الأمر، يمكننا أنْ نصل إلى المتعة بالعقل، كما علمنا أبيقور. فإذا كنَّا تعساء، فليس ذلك لأنَّنا كسالى أو ناقصين. لقد أخطأنا ببساطةٍ في الحساب. لقد أخفقنا في استخدام الحصافةِ، أو «التعقُّلِ الرصينِ»، عند تقييم اللذة والألم.

يُجري توم الحساباتِ باستمرارٍ، «يتفحَّص لذَّته»، كما يُعبِّر عن ذلك. هل تفوق منفعة لذةٍ مُعيَّنةٍ الألمَ الناجم عنها؟

قبل أيامٍ قليلةٍ يخبرني توم أنه لاحظ أنَّ مسرحيةً كان يأمل في مشاهدتها ستُعرض في سان فرانسيسكو. فهل ينبغي له الذهاب؟ من ناحية هناك

متعة مشاهدةِ العرض، لكنّه وازن ذلك مقابل ألمِ سعرِ التذكرةِ وعذاب حركةِ المرورِ على الطرقِ السريعة في كاليفورنيا. وفي نهاية المطافِ، قرّر توم أنَّ نعمْ، في هذه الحالة تفوَّقت المتعة على الألمِ. فاشترى التذاكر.

يقول: «نادرًا ما تكون الأشياءُ ملذاتٍ خالصةً، ولهذا السبب هذه الفلسفة مثالية بالنسبة لي. فأنا شخصٌ مترددٌ للغاية».

وأنا أيضًا يُربكني الاختيار. والغريب في الأمرِ أنَّ القرارات الكبيرة في الحياةِ -أيُّ مهنةٍ ينبغي أنْ أسلك؟- ليستْ هي التي تُحيرني بلِ القرارات الصغيرة: هل أطلب القهوة الغواتيمالية أم السومطرية؟ أُدرك أنَّ جذر تردُّدي هو الخوف. الخوف من اتخاذِ القرارِ الخاطئ. اختيارُ الجيدِ بدلًا من الأفضل.

وبينما نتجرَّع أنا وتوم نبيذ بينو نوارٍ، بدأت أرى جاذبية الأبيقوريةِ. ومع ذلك، لا يزال شيءٌ ما يُلحُّ: الأتاراكسيا، أي غياب الاضطراب العقليّ والنفسي الذي اعتبره أبيقور الخير الأسمى. يبدو وكأنَّهُ شكلٌ سلبيٌّ من اللذة. فما الخطب في إشباعِ الرغباتِ بنشاطٍ؟ أسأل توم.

«تأمّل هذهِ البطاطس المقلية»، يقول، مُلوِّحًا بواحدةٍ في الهواءِ كما لو كانتْ عصًا سحريةً.

أنظر له ليكمل وأنا لست متأكدًا إلى أين يمضي بهذا.

فيردف: «إذا انتابتك رغبةٌ في البطاطس المقليةِ، فإنَّها تبدأُ بألمٍ. غياب الشيء. اشتهاءٌ. بحثٌ. حكَّةٌ.

- «إذًا، اللذةُ هي حكُّ الحكَّة؟»

- «صحيحٌ، لكنَّها ليست شيئًا تبلغه أبدًا لأنَّه ستكون هناك دائمًا آلامٌ أخرى، وحكَّاتٌ أخرى عليك أن تحكَّها».

يبدو هذا مُريعًا، هذه الدورة السرمدية من الحكَّةِ والحكِّ. لقد بدأتُ أشعر بالحكَّة لمجرَّد التفكير في الأمر. فنحن نتذوَّقُ الكافيار وهو شهي ومُمتعٌ، وهذا جيِّدٌ، لكنَّنا بعد ذلك نشتهي الكافيار مرَّةً أخرى، وهذا إشكاليٌّ. ولنْ يكون مذاق الكافيارِ جيِّدًا أبدًا بقدر ألم الاشتهاء. فما بدأ كلذَّةٍ ينتهي كألمٍ. والحلُّ الوحيد هو تقليل تلك الرغباتِ.

حتمًا، ينعطف الحديث نحو النبيذ. أتصوَّر أنَّ توم، لكونه من سكانِ نابا، لا بُدَّ وأنَّه مُتعصِّبٌ بعض الشيء للنبيذ. لكنْ يتبيَّن أنني مُخطئ. فهو يشرب نبيذ «تو بك تشك»، الذي تنتجه شركة تشارلز شو ويُباع بدولارين للزجاجة ويُباع منه الكثير.

أسأله: «حقًّا يا توم؟ تشرب تلك الأشياءُ الرخيصةُ؟»

يقول: «إنَّهُ جيد. إن إنفاق خمسةٍ وثلاثين دولارًا على شيءٍ يُستهلك ويُبتلع ثمَّ يزول، لهو جنونٌ. ثمة سبب لنجاح شركة تشارلز شو. فنبيذ «تو بك تشك» جيد. إنَّهُ ما أُسمِّيه «خمرًا جيدًا بما فيه الكفاية».

أكرر عبارته متعجبًا: «جيدٌ بما فيه الكفاية؟»

«نعم. إنَّه يترك لك وقتًا للأجزاء الأكثر أهميةً في الحياة. وعلاوةً على ذلك، لا شيءَ يكفي الرجل الذي يرى الكافي ليس كافيًا»، يقولُ توم، مُستلهمًا أبيقور.

فأتوقَّفُ في منتصف الرشفة بينما يداهمني سؤال: فكمْ هو الكافي؟ نادرًا

مـا توقَّفتُ لأطرح هذا السـؤال. لطالما افترضتُ أنَّ الإجابـة هي «أكثرُ ممَّا أملكـه الآن». لكنْ يتبـيَّن أنَّ «الأكثر» هدفٌ مُتحرِّكٌ. يُسـمِّيه علماءُ النفسِ «آلة ركض اللذة». وتُفسِّر هذه السـمة المتجـذرة في الطبيعة البشرية لماذا لا يكـون طعم صحن الكريم بروليـه الثالث جيِّدًا كالأول أو الثاني، وتُفسِّر لمـاذا تبدأ السـيارة الجديدة التي أسـعدتنا في تجربـةِ القيـادة في أن تبدو مملة بعد شـهرٍ من قيادتها. فنحن نتأقلم مع الملذاتِ الجديدةِ، ممَّا يجعلها ليسـتْ جديدةً ولا مُمتعةً تمامًا.

إنَّنـا عُرضة بشـكلٍ خـاصٍّ لما أُسـمِّيه «نزعة القليل الإضـافيّ». إذ نرى أننـا لسـنا بحاجـةٍ إلى الكثـير الإضـافي -المزيـد من المـال، أو النجـاح، أو الأصدقاء- لكي نكون سُـعداءَ، بل قليلٌ إضـافيٌّ فقط. وحين نحصل على هذا القليل الإضافيِّ، نُعيد الكرّة ونرى أنَّنا بحاجةٍ إلى... قليلٍ إضافيٍّ فقط. إنَّنا لا نعرف كم هو الكافي.

«الجيدُ بما فيه الكفاية» لا يعني أنَّك تستسـلم أو تُقلِّل من معاييرك، ولا هـو يتعلَّق بتقديم الأعـذار. بل «الجيد بما فيه الكفايـة» يُمثِّل موقف امتنانٍ عميـقٍ تجـاه أيِّ شيءٍ يحدث لـك. فليس فقط الكمال عـدو الجيد، بل الجيد عـدوُّ الجيد بـما فيه الكفايـة أيضًا. ولكن إذا تمسَّـكت بفكرة «الجيـدِ بما فيه الكفايةِ» لوقتٍ كافٍ، فسيحدثُ شيءٌ غير مُتوقَّعٍ: سيتلاشى «الكافي»، كما يتلاشى جلدُ الأفعى، وسيتبقى لك شيءٌ نقيٌّ وقويٌّ: الجيد.

***

لقـد اعتبر أبيقـور الصداقة واحدةً من أعظمِ ملـذات الحياة. «فمن بين جميع الأشـياءِ التي تُسهم في حياةٍ سـعيدةٍ، لا شيء أكثر أهميةً، وأكثر إثمارًا،

مـن الصداقةِ»، على حـدّ تعبيره. كما أضاف أنَّ الأصدقـاء ضروريون أثناء الوجبات، كتلك التي نستمتع بها أنا وتوم. فالأكل والشرب بدون صديقٍ هو «أنْ تبتلعَ كاللَّيث والذئب».

ويبـدو أنَّ تأكيـد أبيقور عـلى الصداقة يُناقض مبـدأه القائم على أولوية اللـذة. فالصداقـة الحقيقية، بعد كلِّ شيءٍ، تعني أحيانًـا وضع لذةِ الصديقِ فوق لذَّتك. أفلا يُخِلُّ ذلك بحسـاب اللـذة؟ من منظور أبيقور لا، لا يخل. فالصداقـة، إذا أُخِـذتْ ككلٍّ، تُخفِّـف الألم وتُعـزِّز اللـذة. وأي ألمٍ يرتبـط بالصداقة يقابله زيادةٌ في ملذَّاتها.

ينقـدح في ذهني فجـأةً أنني وتوم نعيش لحظةً أبيقوريةً. وجبةٌ بسـيطةٌ، مصحوبـةٌ بنبيـذٍ جيدٍ بما فيه الكفاية. رفاهية الصداقـةِ والوقتِ. لذةُ انعدامِ الألم، الأتاراكسـيا. أُسـجِّل حالتي الذهنية المُريحة لكنني لا أسـتغرق فيها، خشيةَ أن أقع فريسةً لمفارقة اللذة. فالسعادة عندما نفكر فيها تضيع.

وبينـما نُـودِّع بعضَنا بعضًا، أسـأل تـوم عـمّا إذا كان بإمكانـهِ أنْ يُوصي بمقهًـى. وآملُ أنْ يقترح مكانًا محليًا فريـدًا حيث يصنع الموظفون المُتفانون كلَّ كوبٍ بحبٍّ. مكانًا خاصًا.

يقول: «هنالك ستاربكس في نهاية الطريق».

أشـعرُ بخيبـةِ أمـلٍ، لكـن أتوقـف وأسـأل نفسي: «مـاذا كان سـيفعل أبيقور؟» كان سيذهب إلى ستاربكس، بالطبع. لذلك أفعل ذلك.

سـتارباكس ليس مختلفًا. والباريستا ليسوا شـغوفين بشكلٍ خاصٍّ. إنَّهُ ليس شيئًا استثنائيًا. لكنَّه جيدٌ بما فيه الكفاية... بعبارةٍ أخرى، مثاليٌّ.

الفصل السابع

كيف تنتبه مثل سيمون فايل

الساعة 8:24 صباحًا، محطة قطار واي، المملكة المتحدة، في انتظار الصعودِ إلى قطارِ ساوث إيسترن ليمتد المتجهِ إلى آشفورد. إجمالي وقت السفر: سبع دقائق. إجمالي وقتِ الانتظار: تسع دقائق.

الصباحُ باكرٌ، والمحطةُ آسرةٌ. فالمبنى الخشبي البسيط، الذي لا يعدو كونه كوخًا مُنمَّقًا، يفيضُ بجوٍّ من دفءِ الرفقة الهادئة. أرى لوحةَ إعلاناتٍ صغيرةٍ تُخبرني بأنَّ نادي الكتاب المحليِّ سيجتمع الخميس المقبل وسيكون لطيفًا لو أحضرت سلطة البطاطس أو ربما بعض الكعكِ الإسكتلنديِّ. ولافتةٌ قريبةٌ تُعلن أنَّ واي «منطقةُ جمالٍ طبيعيٍّ أخاذٍ». وهي كذلك حقًا. مروجٌ لا نهاية لها وتلالٌ مُتموِّجةٌ، خضراءُ زمرديةٌ.

أجلس في غرفةِ الانتظارِ الصغيرة وأدع العبثَ الرائعَ لهذا المصطلح يستقرُّ في ذهني. «غرفةُ الانتظارِ». غرفةٌ بُنيتْ لغرضٍ وحيدٍ هو الانخراط في اللا نشاط المتمثل في الانتظار. أتمايل على كعبيَّ. أُلقي نظرةً على ساعتي. ثماني دقائق أخرى. أتفحَّص المكتبة الصغيرة، وهي في الواقع مجرد بضعة رفوفٍ من الكتبِ الورقيةِ المُستعملة.

أرمقُ لوحة المغادرة الصغيرة. سبع دقائق إضافية. أتململ. أروح وأجيء في قلق. أتحسّس تذكرتي: من واي إلى أشفورد، رحلة ذهاب و عودة.

ألقي نظرة ثانية على لوحة المغادرة. ست دقائق. أتنهّد. ماذا أفعل بجزء مـن الزمـن كهذا؟ إنه أقصر من اللازم لإنجـاز أي شيء ذي جدوى، ومع ذلك فهو أطول مما يمكن تجاهله. أعلم، ست دقائق لا شيء. لكنها تتراكم. قـرأتُ في صحيفة الديلي تلغراف أن البريطاني العادي يقضي أكثر من ستة أشهر من حياته واقفًا في طوابير الانتظار.

وسـتة أشهر ليسـت مجرد نقطة في عمر المرء. ستة أشهر هي معظم فترة الحمل. سـتة أشـهر هي عمر زواج قصير، أو غرام عابر طويل. ستة أشهر هـي شريحـة لا بأس بها مـن العمر. وهـذا ليس إلا الوقت الـذي يُقضَى في الوقـوف بانتظـار الأدوار. لكننا ننتظر أيضًا غليان قـدر من الماء، وأن يرانا الطبيـب، وأن يـرد ممثل خدمة العملاء أخـيرًا، وأن يغفو طفل صغير، وأن ينقشع زحام مروري، وأن تعود ابنتنا التي لم تتأخر هكذا قط إلى المنزل عبر الباب الأمامي، وأن تتجمد مكعبات الثلج، وأن تذوب مكعبات الثلج.

سـت دقائـق. لو تسـنّى لي المزيـد من الوقـت، لقضيته في القـراءة. فقد حملـتُ معي بعض المطبوعات الملائمة لرحلتـي القصيرة بالقطار. مجموعة مـن قصائـد الهايكو ومقالة سـينيكا «عن قـصر الحياة». وبعـد حوالي ألفي عام، ردد فيريس بيولر، في يوم إجازته، صدى مقولة سينيكا: «الحياة تمضي سريعًا. فإن لم تتوقف وتتأمل حولك بين الفينة والأخرى، فقد تفوتك».

تُولّد السرعة نفاد الصبر. وتتناقص قدرتنا على الانتظار مع تزايد وتيرة الحيـاة. لماذا اتصال الإنترنت بطيء إلى هـذا الحد؟ أين البيتزا خاصتي؟ إن نفاد الصبر هو جشعٌ للمستقبل. أما الصبر فهو موقف كريم تجاه الوقت.

تتضخـم النقطـة في الأفـق تدريجيًـا حتى تدنو قاطرة سـاوث إيسـترن

أخيرًا من محطة واي الضئيلة، فأصعد على متنها بخفة ورشـاقة. أستوي في مقعدي بجانب النافذة، وأهمّ بالنظر إلى سـاعتي بيد أنني أتوقف. وعوضًا عن ذلك، أطلّ من النافذة، وأرتقب.

يتسـارع القطار، وكل ثانية تمرّ تدنيني شـيئًا فشـيئًا من أشفورد، المثوى الأخير لفيلسوفة اسـتغرقت كثيرًا في تأملات الانتظار، والتي، وفي واحدة مـن تلـك المفارقـات الحزينة التـي يبـدو أنها تطال الفلاسـفة بشـكل غير متناسب، لم يُسعفها الوقت كثيرًا هي نفسها.

***

الفلسـفةُ لا تداهن. بل تتحدّى. تفرض متطلباتها. والفلاسـفة الأفذاذ هم الأشـد تطلبًا. سقراط يطالبنا بمسـاءلة الافتراضات، لاسيما تلك التي نتبناها. ويطالبنا ماركوس أوريليوس بإجلال واجباتنا.

أما دعوة سيمون فايل فأبسط، ولكنها ليست أقل صعوبة. فهي تطالبنا بالانتباه. وليس أي نوع من الانتباه وحسـب. فمفهوم فايل للانتباه يختلف عن أي مفهوم قد صادفته من قبل.

أتأمـل صـورة بالأبيض والأسـود لسـيمون فايـل. أخمّن أنّهـا في أوائل العشرينات. يلفت نظري أولًا شـعرها الأسـود الفاحـم، الذي يبدو كثيفًا وغير مُروّض، ثم نظارتها التي تكاد تكون مضحكة بضخامتها. «إنّها شعر ونظارات»، هذا ما خطر لي.

ثـم تلفـتُ نظـري عيناها. داكنتـان وثابتتـان، تشـعّان في آن واحد دفئًا وحكمة شرسـة خارقـة للطبيعة. إنّها عيـون مجروحة. عيون جـادة. عيون

ثوروية (نسبة إلى الفيلسوف هنري ديفيد ثورو). وقد علّق عليها الجميع. استذكر أحد الأصدقاء «نظرتها الثاقبة عبر نظارتها السميكة». وصُدم آخر كيف «في حضورها كان كل ‹الكذب› مستحيلًا... فنظرتها التي تُعرّي كلّ شيء، كانت تسيطر على مَن تنظر إليه وتُشلّه».

ترتدي ملابس فضفاضة غير جذابة، وهو ما يتّسق مع إهمالها التام للأزياء طوال حياتها. كانت ترتدي ثيابًا بالية، سوداء اللون دائمًا، وأحذية مسطحة الكعب. «متسولة حقيقية»، هكذا وصفها أحد الأصدقاء، أو «ناسكة من القرون الوسطى»، كما قال آخر.

لم ترغب فيلسوفة الانتباه أن يُسلّط عليها أي اهتمام أو تحظى بأي انتباه. كانت ترغب في أن تَرى لا أن تُرى. وسواء كانت تستقل قطارًا أو تعمل في أرض مصنع، كانت غايتها التخفي («الاندماج في الحشد والتلاشي بينهم، حتى يظهروا على طبيعتهم»، كما قالت). ومع ذلك، كانت دائمًا ما تبرز. وكيف لا وهي مُثقفة؟ خجولة؟ يهودية؟

وُلدت فايل في باريس عام 1909، لعائلة شديدة العلمانية والثقافة. ومنذ نعومة أظفارها، وجدت عزاءها ومصدر إلهامها في الكتب. وببلوغها الرابعة عشرة، كانت تحفظ عن ظهر قلب جزءًا كبيرًا من كتاب «خواطر» لبليز باسكال. قرأت أعمالًا مختلفة باللغة السنسكريتية والآشورية-البابلية. («يا لها من لغة سهلة حد السخافة!» هكذا همست لصديقها). وكانت تستطيع أن تمضي أيامًا متواصلة دون طعام أو نوم.

وبينما تفوقت في دراستها، لم تُعِر المعرفة قيمة لذاتها قط، فقد قالت: «الهدف الجاد الوحيد للعمل الدراسي هو صقل الانتباه». هذه الكلمة

الواحدة -الانتباه- ستتملكها لاحقًا. كانت هي الرباط الذي يجمع شتات فلسفتها، وحياتها، في كيان واحد.

***

إنَّ القدرة على الانتباه، إلى جانب القدرة على المشي منتصبين وفتح برطمانات المخلل، هي جوهر ما يجعلنا كائنات بشرية. فكل اكتشاف علمي باهر، وكل تحفة فنية عظيمة، وكل لفتة كريمة، تُرد أصولها إلى لحظة من الانتباه الخالص، غير المنحاز.

إنّ للانتباه شأنًا عظيمًا، بل إنَّه ما يُشكّل حياتنا ويصوغ معالمها أكثر من أي شيء آخر. يقول الفيلسوف الأمريكي ويليام جيمس: «في لحظة ما، يكون واقعنا هو ما ننتبه إليه». فالشيء لا يوجد بالنسبة لنا إلا إذا وجهنا إليه انتباهنا. وهذه ليست مجرد استعارة بلاغية، بل هي حقيقة واقعة. فكما تكشف لنا العديد من الدراسات، إننا حقًا لا نرى ذلك الذي لا نولي له انتباهنا.

إنّ جودة انتباهنا هي ما يحدد جودة حياتنا. فأنت، في جوهرك، لست سوى ما تختار أن توجه إليه انتباهك، والأهم من ذلك، الكيفية التي توجه بها هذا الانتباه. حين تنظر إلى الوراء وتسترجع شريط حياتك، أي الذكريات هي التي تتقافز إلى السطح؟ لعلها تكون حدثًا جللًا، كيوم زفافك، أو ربَّما تكون شيئًا بسيطًا، كذلك الحوار اللطيف غير المتوقع مع الشخص الذي كان يقف خلفك في ذلك الطابور الطويل إلى حد يبعث على السخرية في مكتب البريد. ولكن الأرجح، في كلّ الأحوال، أنّها ستكون تلك اللحظات التي كنت فيها في أقصى درجات انتباهك وحضورك

الذهنـي. فحياتنـا، في نهايـة المطاف، ليسـت أقل ولا أكثر مـن مجموع أكثر لحظاتنا اسـتغراقًا وانغماسًـا تامًا. وكما قالت الفيلسوفة سيمون فايل: «إنّ أسمى درجات الوجد والنشوة، لهي الانتباه في تمام كماله وحضوره».

في غضـون هـذه اللحظـات النـادرة، نلـج حالـة ذهنية -بـل حالة من حالات الكينونة- تسـميها سـيمون فايل «الانتباه الأقصى»، ويطلق عليها عالم النفس ميهاي تشيكسينتميهاي اسم «التدفق» أو «الانسياب» (flow). وحين تكون في حالة التدفق هذه، فإنَّك تتجرد من كل أثر للوعي بالذات، وتختبر إدراكًا متغيرًا للزمن، وإحساسًا معززًا بالواقع، حتى ليبدو كل شيء من حولك أكثر واقعية من الواقع نفسه. وعلى النقيض من الكثير من أمور الحيـاة الأخرى، فإن التدفق هو «حالة مجزية في حد ذاتها لدرجة أنَّها تُطلب وتُبتغى لذاتها لا لشيء آخر»، كما يقول تشيكسينتميهاي.

والأشـخاص المنغمسـون في حالة التدفق ليسوا مسـتغرقين في ذواتهم، ذلـك أنَّه لا تعود هناك «ذات» لينغمسـوا فيها. فـلا يعود هناك عازف، بل موسـيقى فقـط. ولا يعود هنـاك راقص، بل رقـص فقط. وهـذا ما يصفه بحّار شـغوف وهو يروي تجربته مع حالة التدفق: «ينسى المرء نفسه، ينسى كل شيء، ولا يعود يرى سـوى تلاعب القارب مع البحر، ومداعبة البحر حول القارب، تاركًا جانبًا كل ما ليس ضروريًا لهذه اللعبة الممتعة».

وليس عليك أن تُبحر في المحيط الأطلسي أو أن تتسـلق قمة إيفرسـت لكي تختبر حالة التدفق هذه. فكل ما تحتاجه هو أن تنتبه.

***

ونظرًا لهذه الأهمية القصوى للانتباه، قد يظن المرء أن الفلاسفة سيكبون

عليه درسًا وبحثًا، ويتناولونه من كل جانب. ولكنهم، ويا للعجب، لم يولوا الانتباه إلا أقل القليل من انتباههم. لعلهم وجدوا الموضوع أشد وضوحًا مما يستدعي البحث، أو أشد غموضًا مما يسمح بالتحليل. أو لعلهم ببساطة كانوا مشتتين للغاية.

على مر القرون، لم يجلس سوى عدد قليل من الفلاسفة بهدوء لوقت كافٍ ليدلوا بدلوهم في هذا الشأن. فرينيه ديكارت، أبو الفلسفة الحديثة، قد رأى في الانتباه نوعًا من «عصا الاستكشاف الفكرية»، أداة تُمكّننا من التمييز بين الأفكار المشكوك فيها وتلك الأفكار «الواضحة» التي لا يرقى إليها شك. فالفيلسوف الذي اشتهر بمقولته «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، قد قال أيضًا، بكلمات أخرى أو بما معناه: «أنا أنتبه، إذن أنا قادر على تجاوز الشك». وهي عبارة أعترف أنها ليست بنفس الرنين والجاذبية، ولكنها على الأرجح أكثر دقة وصوابًا.

ومع اقتراب القرن العشرين من بدايته، كان موضوع الانتباه، وللسخرية، يعيش حالة من الفوضى العارمة والتشظي الفكري. حتى إنَّ بعض المفكرين قد خلصوا (وما زال بعضهم على هذا الرأي) إلى أنَّ الانتباه لا وجود له أصلًا. وكما كتب الفيلسوف البريطاني فرانسيس برادلي: «لا وجود لفعل أولي للانتباه، ولا وجود لفعل محدد للانتباه، بل لا وجود لنوع واحد من فعل الانتباه على الإطلاق».

«هراء!» هكذا صاح ويليام جيمس، وهو يقتحم خضم هذه الفوضى الفكرية قائلًا: «الكل يعرف ما هو الانتباه. إنَّه استحواذ الذهن، في صورة واضحة جلية وحية، على واحد من بين ما يبدو عدة أشياء أو سلاسل

فكرية ممكنة في آن واحد». وقد تنبأ جيمس بمخاطر تعدد المهام، فحذر من أن الانتباه لا يتطلب منا فقط التركيز على بعض جوانب الواقع، بل يتطلب أيضًا أن نتجاهل عمدًا جوانب أخرى.

أما تصورنا الحالي للانتباه، فيعود إلى عام 1958. ففي ذلك العام، طرح عالم النفس البريطاني دونالد برودبنت ما أسماه «نموذج المرشِّح» أو «نموذج التصفية» للانتباه (والذي يُعرف أيضًا بـ«نموذج عنق الزجاجة»). فالعالم، كما يرى، يغمر حواسنا بفيض جارف من البيانات، تمامًا كخرطوم إطفاء الحرائق. وبما أنَّ قدرة أدمغتنا على معالجة كل هذه البيانات محدودة، فإنَّها توظف الانتباه كوسيلة لترتيب أولويات كل تلك المعلومات، وللتحكم في «خرطوم الإطفاء» هذا والسيطرة عليه.

إنَّها لنظرية آسرة، نظرية تبدو للوهلة الأولى منطقية ومقبولة حدسيًا. فنحن نفترض أن الانتباه يشبه حسابًا بنكيًا نسحب منه باستمرار، أو قرصًا صلبًا ذا سعة تخزين محدودة. وكلنا قد اختبرنا ذلك الشعور بأن يغمرنا فيضٌ من المعلومات، فيرهقنا ويثقل كاهلنا، فلا يعود هناك شيء يرسخ في أذهاننا أو يعلق بذاكرتنا. وقد أظهرت العديد من الدراسات أننا نبالغ في تقدير قدرتنا على القيام بمهام متعددة في آن واحد.

غير أنَّ التاريخ حافلٌ بسير أولئك الذين فاقت قدرتهم على الانتباه كل ما هو مألوف أو معتاد. فنابليون وتشرشل، على سبيل المثال، كانا يستطيعان التعامل مع مهام ومحادثات متعددة في الوقت ذاته ببراعة وسلاسة منقطعة النظير. ويخلص آلان ألبورت، وهو عالم نفس تجريبي في جامعة أكسفورد، إلى أن قدرتنا على الانتباه ليست محدودة بطبيعتها، فيقول: «لم يتم تحديد أي

حد أعلى من هذا القبيل، لا بشكل عام ولا ضمن مجالات معالجة محددة». وكما يُذكرنا جان جاك روسو، فإنَّ ما نعتبره غالبًا أمرًا طبيعيًا، أو «هكذا هي طبيعة الأشياء»، لا يكون في حقيقة الأمر سوى «هكذا هي طبيعة الأشياء هنا والآن». مجرد حقيقة جزئية تتنكر في هيئة حقيقة كونية شاملة.

***

لقد كانت سيمون فايل طفلة معتلة الصحة، وحين شبت عن الطوق أضحت شابة يافعة لم يفارقها السقم. ففي الثالثة عشرة من عمرها، بدأت تعاني من نوبات صداع حادة ومُنهِكة، ظلت تعذبها بلا هوادة طوال حياتها. وفي بعض الأحيان، كان الألم يبلغ من الشدة مبلغًا يجعلها تحشر رأسها في كومة من الوسائد علها تجد بعض الراحة. ولم تكن شهيتها الضئيلة، التي تشبه شهية الطير، لتساعد في الأمر؛ فقد كانت تمضي أيامًا طوالًا دون أن يطعم فمها طعام، ولعلها كانت تعاني من مرض فقدان الشهية العصبي.

نشأت فايل في كنف عائلة مهووسة بالخوف من الجراثيم. (ومما زاد الطين بلة أن أحد علماء البكتيريا كان صديقًا مقربًا للعائلة). فقد كانت والدتها تصر على أن يغسل أطفالها أيديهم عدة مرات يوميًا، وأن يفتحوا الأبواب بمرافقهم، وألا يُقبّلوا أحدًا على الإطلاق. وليس من المستغرب إذن أن تكبر سيمون لتصبح بالغة تجفل وترتاع لمجرد التفكير في أي تلامس جسدي. حتى إنَّها ذات مرة قد ذيّلت رسالة إلى أحد أصدقائها بهذه العبارة: «مع قبلاتي الودودة والخالية من أي جراثيم».

ورغم ما كانت عليه من ذكاء فذ وعبقرية نادرة، فقد شعرت فايل دائمًا بأنَّها تعيش في ظل أخيها الطفل المعجزة، أندريه، ذلك الذي سيصبح فيما

بعد واحدًا من أعظم علماء الرياضيات في أوروبا. ومن الواضح أن والديها كانا يتمنيان لو أن القدر قد رزقهما بابن عبقري ثانٍ؛ فقد كانا يشيران إليها أحيانًا بوصف «ابننا رقم اثنين».

ومنذ نعومة أظفارها، كانت سيمون فايل تشعر بآلام الآخرين وكأنَّها آلامها هي، وتكابد محنهم كما لو كانت محنتها الخاصة. ففي السادسة من عمرها، وحين كانت رحى الحرب العالمية الأولى تستعر، أعلنت أنَّها ستهجر السكّر وتتخلى عنه لأن «الجنود المساكين على الجبهة لا يجدونه». ولاحقًا، حين شبت عن الطوق، رفضت أن تدفئ شقتها، تعاطفًا مع العمال الذين لا يستطيعون تحمل تكلفة وقود التدفئة. وأصرت على النوم على الأرضيات الصلبة. وعملت لفترة في أحد الكروم في جني العنب، ثم في مصنع، حيث كانت تؤدي أكثر أعمال خطوط التجميع مللاً ورتابة. وقد كتبت في ذلك قائلة: «لقد تغلغلت محنة الآخرين في لحمي ودمي».

وذات يوم، انفجرت فايل باكية حين سمعت بأخبار مجاعة في الصين. وقد أثار هذا الموقف إعجابًا عميقًا لدى زميلتها الفيلسوفة سيمون دي بوفوار، التي استحضرت تلك الذكرى قائلة: «لقد حسدتها على امتلاكها قلبًا يمكنه أن يخفق نابضًا عبر العالم بأسره». وقد التقت «السيمونتان»، وهما عملاقتان من عمالقة الفلسفة الفرنسية في القرن العشرين، في فناء جامعة السوربون عام 1928، في وقت كان فيه عالم الفلسفة، وما زال إلى حد ما، بمثابة «نادٍ للرجال» أو حكر عليهم. ولم تنسجما قط.

ويساعدنا هذا التعاطف الجذري الذي اتسمت به فايل في فهم آرائها الجذرية حول الانتباه. فهي لم تراه مجرد آلية نفسية، أو تكنيك يمكن

اكتسـابه. بل كان الانتباه في نظرها فضيلـة أخلاقية، لا تختلف في جوهرها عن الشـجاعة أو العدالة، وتتطلب ذات الدافع المتجرد عن الأنانية والمنزه عـن الغرض. فلا تنتبه لكي تكون أكثـر إنتاجية، أو عاملًا أفضل، أو أبًا أو أمًـا أفضل. بل انتبه لأنَّه المسـار الأخلاقي القويم، ولأنَّـه الشيء الصواب الذي ينبغي فعله.

إنّ للانتبـاه، في أقـصى درجات كثافته وأسـمى تجليات سـخائه، اسـمًا آخـر، هو: الحـب. فالانتباه هو الحب، والحب هو الانتبـاه. إنَّهما، في حقيقة الأمـر، شيءٌ واحـد لا يتجزأ. وتكتب سـيمون فايل في هـذا الصدد قائلة: «إنّ أولئـك الذيـن أنهكهم الشـقاء لا يحتاجـون إلى أي شيء في هذا العالم، سـوى أناس قادرين عـلى أن يمنحوهـم انتباههم». فعندما نمنح شـخصًا مـا انتباهنا، بشـكل كامـل وتـام، ودون أن نتوقع أي مكافـأة أو نرتجي أي جـزاء، نكون عندئذٍ فقط نمارس ذلك «الشـكل الأنقى والأندر من الكرم والعطاء». ولهذا السـبب تحديدًا، فإنَّ سـحب الانتباه من قِبَل أب أو أم أو حبيب يترك في النفس لذعة لا تضاهيها لذعة. فنحن ندرك في قرارة أنفسنا أن سحب الانتباه ليس في جوهره إلا سحبًا للحب ذاته.

وفي نهاية المطاف، فإنَّ انتباهنا هو كل ما نملك حقًا أن نمنحه للآخرين. أمـا ما عدا ذلك -من مال، أو ثناء، أو نصيحة- فليس سـوى بدائل هزيلة رديئة. بل إنَّ الوقت ذاته هو الآخر بديل هزيل. فأن تمنح شخصًا ما وقتك ولكن ليس انتباهك، لهو أقسـى أشـكال الخـداع والتزييف على الإطلاق. والأطفال يعرفون هذه الحقيقة بغريزتهم؛ فهم يستطيعون أن يشموا رائحة الانتباه الزائف، وأن يميزوا زيفه ولو من على بعد أميال.

إنَّ الانتباه الخالص ليس بالأمر الهين، وهذا ما تقرّ به سيمون فايل، إذ تقول: «إنَّ القدرة على أن يمنح المرء انتباهه لشخص يتألم لهي أمر نادر جدًا وشاق للغاية؛ إنَّها تكاد تكون معجزة؛ بل هي معجزة حقًا». فنزوعنا الأول حين نواجَه بمعاناة الآخرين هو أن ندير ظهورنا ونشيح بوجوهنا. نختلق الأعذار. نقول إننا مشغولون. وأنا شخصيًا، أعرف عن نفسي أني أعبر الشارع أحيانًا لأتجنب أولئك المتطوعين الجادين الذين يجمعون التبرعات لقضية نبيلة لا يرقى إليها الشَّك. فما أن ألمح أحدهم، وفي يده لوح الأوراق، وعلى وجهه ابتسامة مضيئة، حتى أنكمش على نفسي خجلًا، لا من بخلي، بل من عجزي الانتباهي، من عدم قدرتي على أن أحدق في عين المعاناة مباشرة.

ولا يتطلب الأمر الكثير، كما تقول فايل. فسؤال بسيط من بضع كلمات يمكنه أن يلين قلبًا قاسيًا، وأن يغير حياة بأكملها: «ما الذي تمر به الآن؟» وهذه الكلمات، كما ترى فايل، تكتسب قوتها الهائلة من أنَّها تعترف بالمتألم، «ليس فقط كرقم في مجموعة، أو كعينة من تلك الفئة الاجتماعية الموسومة بـ«البائسين»، بل كإنسان، مثلنا تمامًا، قد وسمته المحنة في يوم من الأيام بسمتها الخاصة التي لا تمحى».

هناك تقاطع طرق مزدحم بالقرب من منزلي في سيلفر سبرينغ بولاية ماريلاند، يقف فيه رجل أمريكي من أصل أفريقي طاعن في السن يدعى «تشيب» في معظم الأيام، وخاصة أيام الأحد، على تلك الجزيرة المرورية في المنتصف. يسند جسده النحيل على عكاز، وفي إحدى يديه كوب ورقي، وفي الأخرى لافتة من الورق المقوى، كتب عليها ببساطة: «تشيب». لا

قصة يرويها. ولا طلب يلح فيه. مجرد اسمه.

أنـا أرى «تشـيب» الآن، ولكني لفترة طويلة من الزمـن لم أكن أراه. لم أره حقًـا، إلى أن أشـارت إليه ابنتي، وكانت في العـاشرة من عمرها آنذاك. والآن، كلـما مررنـا بذلك التقاطـع، تصيح ببهجة قائلة: «ها هو تشـيب!» وتصر عليّ أن أعطيه دولارًا أو اثنين.

إنَّ الانتبـاه الحقيقي لا يسـتلزم مجرد ملاحظة الآخـر، بل الاعتراف به وتكريمـه. ولا يتجـلى هذا الأمر في أي مكان بجـلاء أكثر مما يتجلى في عالم الطـب. فطبيـب الطوارئ المنهك من العمل قد يلاحـظ أنَّ مريضًا ما يتألم، فيعالج الألم وسببه الكامن، ولكنه قد لا يمنح المريض أبدًا انتباهه الحقيقي. فيشعر المريض، بوعي أو بغير وعي، بأنَّه قد غُبن حقه وخُدع.

والدتي ليست سعيدة بطبيب القلب الذي يتابع حالتها. فهو من الناحية الفنية، طبيب بارع ومقتدر، وقد تخرج من أفضل الكليات. ولكنه يفتقر إلى القدرة على الانتباه. وقد قالت لي ذات يوم: «ينتابني شعور بأني لو سقطت ميتـة أمامه لما اكترث أو حرك سـاكنًا». وهـي الآن تبحث عن طبيب قلب جديد. طبيب أكثر انتباهًا.

***

هـا أنا ذا أقف في محطة سـانت بانكراس بلندن. يـا له من مكان مهيب! كلـه زجاج ونـور ووعود بالمسـتقبل. لقد بُنيت هذه المحطة، شـأنها شـأن العديد مـن المحطات الكبرى، وفي الأذهان غايتان متمايزتان: غاية وظيفية عملية، وغاية جمالية فنية. وكما يقول الفرنسـيون: «نصفها مصنع، ونصفها قـصر» (*Mi-usine, mi-palais*). فبعـد النجـاح الباهـر الـذي حققـه

معرض قصر الكريستال في لندن عام 1851، شرعت المدن في بناء القاعة الرئيسية لمحطات السكك الحديدية من الزجاج والصلب، بينما كانت تشيد واجهاتها الأمامية من الحجر المنحوت والمصقول.

وكانت النتيجة صرحًا ذا وجهين، كمثل «يانوس» إله البوابات الروماني، مفارقة معمارية لا تملك إلا أن تدفعك إلى التفكير. فلا عجب إذن أن يقول الفيلسوف فيتجنشتاين: إنّ المكان الوحيد الذي يمكن للمرء أن يعالج فيه المشكلات الفلسفية بحق هو محطة القطار. فمحطة القطار هي فلسفة متجسدة في الحجر والصلب. إنّ ولاءات المحطة المزدوجة، للفن من جهة وللتجارة من جهة أخرى، تذكرنا بأنّه من الضروري أحيانًا أن نمسك في عقولنا بفكرتين متناقضتين في آن واحد. فالمحطة مصنع، والمحطة قصر. وكلتا العبارتين صحيحة، ولا تنفي إحداهما الأخرى.

أمّا محطتي المفضلة على الإطلاق، فهي محطة أنتويرب المركزية. فإذا كانت محطات القطار كاتدرائيات العصر الحديث، فإن محطة أنتويرب هي كاتدرائية القديس بطرس. بسقوفها الشاهقة التي تكاد تلامس السماء، ورخامها المصقول اللامع، تثير هذه المحطة في نفسي ذلك الشعور ذاته بالجلال والسمو الذي اختبرته في مبانٍ عظيمة أخرى، ذلك الإحساس الفريد بأنّك تتضاءل وتتعاظم في اللحظة ذاتها. إنّ محطة القطار هي المكان الذي أكون فيه في أقصى درجات انتباهي وحضوري.

أنا أعشق كل محطات القطار، حتى تلك التي لا حظ لها من جمال. ولا أظن أنّ هناك محطة أبشع من محطة بنسلفانيا في نيويورك، ذلك الكهف الذي تعج به الجرذان، والمكون من قاعات قذرة منخفضة الأسقف.

ولكن، بصفتي دارسًا لغرائب الطبائع البشرية، لا أملك إلا أن أقف مشدوهًا أمام ذلك الطقس العجيب المتبع في الصعود إلى القطارات هناك. فمسؤولو المحطة لا يعلنون عن رقم الرصيف الذي سيغادر منه القطار إلا قبل دقائق معدودة من موعد انطلاقه. وإلى أن تحين تلك اللحظة، يقفُ الركابُ في قلقٍ وترقب، متشبثين ببطاقات صعودهم وبأكواب قهوتهم. يحاولُ بعضهم أن يخمن البوابة، فيراهن عليها بكل ما يملك، شأنه شأن لاعب الروليت الذي يراهن بكل شيء على خانة واحدة بعينها. بينما يقف آخرون في استعراض بائس لما يُعرف بـ«العجز المكتسب»، يحدقون في الأرض وقد اعتلت وجوههم علامات اليأس والأسى.

إنَّ محطاتِ السكك الحديدية، حتى السيئة منها، لتنبض بالحياة على نحو لا تجده في المطارات، حتى الجيدة منها. إنَّها ساحات حقيقية لتدريب الانتباه وصقله. وقد كان هذا شأنها منذ البداية. فهناك لوحة، رُسمت عام 1862، تُجسّد ببراعة تلك الحيوية التي تضج بها محطة القطار. تحمل اللوحة اسمًا بسيطًا هو «محطة السكك الحديدية»، وهي من إبداع الفنان ويليام فريث، وتصور مشهدًا، أو بالأحرى مشاهد، صاخبة محمومة، تتكشف فصولها على رصيف المحطة. فهناك حمّالون، شبان موردو الوجوه، يجرون حقائب سفر ضخمة إلى القطارات. وهناك راكب يعدل طوق أحد كلبيه. وموكب زفاف، مكتمل بوصيفات العروس، يستعد للصعود. ومحققان من شرطة سكوتلاند يارد يلقيان القبض على مجرم فار. ورجل ملتحٍ يرتدي معطفًا من الفرو، وهو نبيل من البندقية فيما يبدو، يساوم على أجرة سيارة الأجرة.

وأنـا أتأملُ اللوحة، يتجزأ انتباهي. يتشـظى إلى ألـف قطعة. أهذه هي طبيعة الانتباه إذن؟ أهو كقط بري شـارد، أو كلبؤة سـفانا متوحشـة، لا بد مـن «الإمسـاك به» و«القبض عليه»، لا من قِبلنـا نحن، بل من قِبل عوامل خارجية، كمحققي شرطة سـكوتلاند يارد وهم يكبّلون مجرمًا هاربًا؟ لعل الأمر كذلك، ولعله ليس كذلك.

إنَّ محطة سـانت بانكراس اليوم لتخلو من النبلاء القادمين من البندقية أو وصيفـات العروس الفيكتوريات. غير أنَّ تيارات الطاقة لا تزال تنبض بقـوة في صالـة المغـادرة، وتتدفق عبر أكشـاك التذاكر والمقاهـي. فلا شيء ثابت في محطة القطار. الكل في حركة دائبة، والجميع في سعي دائم.

الجميـع إلا أنـا. فقد غرسـتُ نفـسي في مقهى صغـير، وطلبت فنجان إسبريسـو مبالغًـا في سـعره، ووجـدت لي مقعـدًا يطـل عـلى هـذا المشـهد الصاخب، أراقب منه وأتأمل.

أمد يدي إلى حقيبتي، وهي تحفة فنية جميلة من القماش المشمع والجلد، وأسـتخرج منها مجموعة من كتابات سيمون فايل. أقلب الصفحات حتى أصل إلى مقالتها «تأملات في الاسـتخدام القويم للدراسات المدرسية بغية بلـوغ محبـة الله». يا له من عنوان مثير للفضول! لقد كانت فايل شـخصية روحانيـة بعمق، وإنْ كان عـلى نحو لا يتبع الأعـراف والتقاليد، وكثيرًا ما صاغـت أفكارهـا في قوالب دينية. وقد وجدت أعمالهـا صدى عميقًا لدى البابا بولس السادس. ولكن لا حاجة بك أن تكون بابا أو حتى متدينًا على الإطـلاق لتُقدّر حكمة فايل حق قدرها. فشـخص بقامـة ألبير كامو، وهو مَن هو في عدم إيمانه، قد وصفها بأنّها «الروح العظيمة الوحيدة في زماننا».

بل إنّه قضى ساعة كاملة يتأمل في شقتها بباريس قبل أن يستقل الطائرة إلى ستوكهولم ليتسلم جائزة نوبل في الأدب.

المقالة قصيرة، لا تتجاوز ثماني صفحات، ولكن قراءتها تستغرق مني وقتًا طويلًا. أبدأ ثم أتوقف، ثم أعود لأبدأ من جديد. وفي كل قراءة، يتكشف لي طيفٌ جديد من ظلال المعنى، تمامًا كبلورة كريستال تتلألأ بألوان مختلفة، بحسب زاوية سقوط الضوء عليها. إنّها مقالة آسرة، متطلبة، لا تتركك في حالك. تبدأ فايل بأن تخبرني أني لا أعرف شيئًا. فالانتباه ليس هو ما أظنه.

الانتباه ليس هو التركيز. فالتركيز يمكن أن يُفرَض قسرًا وإكراهًا – «ركزوا أيها الطلاب!»– أما الانتباه فلا سبيل إلى فرضه. راقب ما يحدث لجسدك حين تركز. يشتد فكك، وتضيق عيناك، ويتقطب جبينك. لقد وجدت فايل هذا الضرب من الجهد العضلي أمرًا سخيفًا ومثيرًا للشفقة.

التركيز يُضيّق ويقبض. أمّا الانتباه فيبُسط ويوسّع. التركيز يُرهق ويُنهك. أمّا الانتباه فيجدد الحيوية. التركيز هو تفكير موجّه، أمّا الانتباه فهو تفكير مُعلّق. «وقبل كل شيء»، تكتب فايل، «ينبغي لفكرنا أن يكون فارغًا، مترقبًا، لا يسعى إلى أي شيء، بل مستعدًا لأن يتلقى ذلك الشيء الذي سينفذ إليه في حقيقته العارية». وإذا لم تكن هذه العبارة محيرة بما فيه الكفاية، فإنَّ فايل تمضي إلى أبعد من ذلك، فتعلن أن «كل الأخطاء إنّما تنشأ عن نقص في السلبية والقدرة على التلقي».

حقًا؟ أليس فرط السلبية هو ما يفسد الأمور ويشوشها؟ هذا بالتأكيد ما تعلمنا إياه ثقافتنا. فنحن نفترض أنَّ الشخص الفاعل والنشط هو

المنتبه، وأنَّ الشخص السلبي هو على نحو ما غافل لا يدري شيئًا.

«كلا»، تقول سيمون فايل. فالانتباه ليس فعلًا نؤديه بقدر ما هو قبول نرتضيه ونرضى به. إنَّه أشبه باليوجا منه برفع الأثقال. وقد أطلقت عليه اسم «الجهد السلبي». فالانتباه الحقيقي، كما كانت تعتقد، هو ضرب من ضروب الانتظار المترقب. بل إنَّ الأمرين بالنسبة لفايل، الانتظار والانتباه، سيان تقريبًا. «إننا لا نحصل على أثمن الهدايا بالبحث عنها والسعي وراءها، بل بانتظارها بصبر وأناة». فنقيض الانتباه إذن ليس هو التشتت، بل هو نفاد الصبر.

لا تبحث عن الحلول. انتظرها. فكلما فتشت في ثنايا دماغك عن الكلمة «الصحيحة»، ازدادت مراوغة لك وابتعدت عنك. ولكن، انتظرها بصبر، وستأتيك. في نهاية المطاف.

إنَّ السرعة هي العدو اللدود للانتباه. فمن بين جميع أشكال الإهانة التي شهدتها سيمون فايل على أرض المصنع، كان أعظمها في نظرها هو ذلك الانتهاك الصارخ لانتباه العمال. فالحزام الناقل كان يتحرك بسرعة «لا تتوافق مع أي نوع آخر من الانتباه، إذ إنَّها تستنزف الروح من كل شيء عدا الانشغال المحموم بالسرعة».

نحن لا نولي انتباهنا إلا لما نعتبره جديرًا به. وعلى مستوى ما، فإنَّ هذا «الفرز الذهني» ضروري، خشية أن تتحول حياتنا، على حد تعبير ويليام جيمس، إلى «فوضى صاخبة مربكة». ولكن هذا الأمر له ثمنه. فمن خلال هذا الفرز المتسرع والمندفع، نجازف بأن نتغاضى عن جواهر ثمينة دون أن نراها.

وتمامًا كما نتسرع غالبًا في إصدار الأحكام، فإننا نتسرع أيضًا في توجيه انتباهنا. فنحن نتشبث بشيء ما أو بفكرة ما بسرعة مفرطة، وندفع الثمن غاليًا: ومضة جمال خاطفة، أو لفتة لطف عابرة، تمر دون أن نلحظها. ولهذا السبب، كما تقول فايل، من المهم أن نحافظ على حالة من «عدم المعرفة»، ومن «عدم التفكير»، لأطول فترة ممكنة. وهذا يتطلب صبرًا، وهو سلعة كانت نادرة في زمن فايل، وأضحت اليوم أشد ندرة وأعز منالًا.

لقد أولت سيمون فايل انتباهًا بالغًا لأمور يعتبرها معظمنا تافهة لا تستحق الذكر. خط اليد، على سبيل المثال. تروي صديقتها وكاتبة سيرتها، سيمون بيترمان، أنَّ فايل، وهي لا تزال في المدرسة الثانوية، قد قررت أن تُصلح «خطها المهمل، الذي يكاد يكون غير مبالٍ، المكتوب بخربشات متلاحقة». وقد عملت على ذلك بلا كلل أو ملل، وبانتباه قل نظيره، رغم نوبات الصداع التي كانت تداهمها ويديها اللتين كثيرًا ما كانتا تتورمان وتؤلمانها. وشيئًا فشيئًا، أصبحت خربشاتها تلك «أقل جمودًا وتصلبًا، وأكثر ليونة وانسيابية، حتى بلغت في نهاية المطاف ذلك الخط النقي الجميل الذي ميز كتابتها في سنواتها الأخيرة».

الصبر فضيلة. وهو أيضًا مفيد لك، كما تُظهِر أحدث الأبحاث العلمية. فالدراسات تجد أنَّ الأشخاص الصبورين هم أسعد حالًا وأوفر صحة من أولئك الذين ينفد صبرهم بسرعة. كما أنَّ الأشخاص الصبورين أكثر ميلًا إلى التصرف بعقلانية، ويمتلكون مهارات أفضل في التكيف مع الصعاب.

ولكن كلمة «الصبر» لا توحي لنا بالكثير من البهجة أو المرح. فالكلمة الإنجليزية «patience الصبر» تأتي من الكلمة اللاتينية ***patiens***، وهي

تعني المعاناة، والتحمل، والجَلد. أمَّا الكلمة العبرية المقابلة، «سافلانوت» (סבלנות)، فهي أكثر إشراقًا وبهجة بعض الشيء؛ إذ إنَّها تحمل معنيي الصبر والتسامح معًا. التسامح مع ماذا؟ مع المعاناة، نعم، ولكنها تعني أيضًا التسامح مع تلك الأجزاء المرفوضة من ذواتنا. فالأشخاص الذين ينفد صبرهم بسرعة مع الآخرين، نادرًا ما يكونون صبورين مع أنفسهم.

أنا لستُ شخصًا صبورًا بطبعي. فعقلي عقلٌ نفعي، أشبه ما يكون بعقل المرتزقة. إنَّه يريد شيئًا ما دائمًا، وفي العادة يريده شيئًا «كبيرًا»: الفكرة الكبرى، الفرصة الكبرى، بل وحتى وجبة الإفطار الكبرى. وشأني في ذلك شأن مدمن كحولٍ متخفٍ لا يرتاب في أمره أحد، فإنني أستطيع أن أخفي نفاد صبري عن الآخرين. في العادة. ولكن في بعض الأحيان، تنفذ أبصار الناس من خلالي فتكشف حقيقتي. تمامًا كما فعل ذلك «المسيح الهولندي» الذي قابلته في القدس.

كنت أعمل آنذاك على إعداد قصة للإذاعة الوطنية العامة عن «متلازمة القدس»، وهي داء يصيب بعض زوار الأراضي المقدسة؛ إذ يصلون وهم في كامل قواهم العقلية، ولكن سرعان ما يقتنعون بأنَّهم النبي إيليا أو إليعازر أو شخصية أخرى من شخصيات الكتاب المقدس. وهو أمر أكثر شيوعًا مما قد تظن.

كنت قد سمعت عن نُزُل في البلدة القديمة بالقدس يجتذب، لسبب ما، الأشخاص الذين يعانون من متلازمة القدس، فقصدته، وهناك، كما توقعت تمامًا، التقيت بالمسيح الهولندي. كان رجلًا أصلع في منتصف العمر، عادي المظهر لا يلفت النظر، وقد أخذ يشرح لي، بهدوء تام كما لو

كان يذيع نشرة الطقس لذلك اليوم، أن المسيح قادم قريبًا. ثم قال: «وهو رجل هولندي، مثلي تمامًا».

كانت تلك هي اللحظة. لقد حصلت عليها. كان ذلك هو المقطع الصوتي الذي أيقنت أني سأستخدمه في قصتي. واصلتُ الاستماع والتسجيل ولكن عقلي كان قد انسحب من الحوار تمامًا؛ لقد ظفر بفريسته وانتهى الأمر. استشعر المسيح الهولندي عدم انتباهي، فتوقف فجأة عن الكلام، وحدق في وجهي. ثم قال ببطء، وبنبرة اتهام لا تخطئها الأذن: «أنت... رجل قليل الصبر».

لقد جمدتني كلماته في مكاني. كان على حق. لم أكن أراه كإنسان مثلي، أو حتى كمسيح محتمل، بل كمجرد مقطع صوتي جاهز للاستخدام. كغذاء لأنَّاي المتعطشة، وجزء في قصة كنت آمل أن تجلب لي الثناء والتقدير. كنت قد حصلت على ما أريده منه، وفيما كان يعنيني الأمر، فإنَّ صفقتنا قد انتهت. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة له. فأنا على يقين تام بأنَّه لم ينظر إلى الأمر على أنَّه صفقة على الإطلاق. فمن منظوره هو، كنا منخرطين في حوار، في تبادل متبادل للاهتمام، وكنت أنا الطرف البخيل الذي شحّ بانتباهه.

إنَّ كل الخلافات لا تنبع من سوء فهم في حد ذاته، بل مما يمكن تسميته خطأ في التصنيف. فالأمر لا يقتصر على أنَّ الطرفين يريان المشكلة ذاتها بشكل مختلف، بل إنَّهما، في حقيقة الأمر، يريان مشكلتين مختلفتين تمامًا. فحيث يرى شخص ما أسلوبًا غير فعال في تحميل غسالة الصحون، أسلوبًا لا يحقق أقصى استفادة من قدرة التنظيف الفائقة للجهاز عالي الأداء، يرى

شـخص آخر في الأمر طعنـة في صميم كفاءته، وبالتـالي، امتهانًا لرجولته. وهكذا تبدأ الحروب، وهكذا تندلع نوبات الغضب الهستيرية.

لقـد لدغتنـي كلـمات المسـيح الهولنـدي في الصميـم، لأني حتـى تلك اللحظـة كنت أزهو بنفسي وأفخر بقدرتي على الانتباه. كنت أظنني، بعينين مدربتين وأذنين مرهفتين، ذلك الصحفي الذي يترقب دائمًا تلك الشخصية الآسرة، أو ذلـك المقطع الصوتي المشـحون بالعاطفة، أو ذلك الجزء الرنان مـن الصـوت المحيـط الذي مـن شـأنه أن يضفي نسـيجًا صوتيًـا غنيًا على قصتـي. كنت أركز، نعـم، ولكني لم أكن أنتبه. كنت أعـرف ما أبحث عنه قبل أن أجده. كنت أسيرًا لرغبتي الخاصة، وغارقًا في تحقيق غايتي. وهذا، دائمًا وأبدًا، أمر محفوف بالخطر.

لقد حذرت سيمون فايل من ذلك النوع من نفاد الصبر «المرتزق» الذي أبديته أنا في القدس، ومن نوع آخر أيضًا. ألا وهو نفاد الصبر الفكري، ذلك الـذي يولد من رحم انعدام الأمان، ويدفع صاحبه إلى التشـبث بالأفكار، حتى السيئة منها، تمامًا كما يتشبث الغريق ولو بحد السيف. فكل أخطائنا، كـما تقـول فايل، «تنبع من حقيقة أنَّ العقل قد تشـبث بفكرة ما على عجل، وإذ يُسد طريقه قبل الأوان، فإنَّه لا يعود منفتحًا على الحقيقة».

ونحن نرى هـذه الديناميكية تعمل اليوم في أولئك المتلهفين لاصطياد «الفكـرة الكبرى»، تلـك التي يأملون أن تحولهم من مجرد «مفكر» إلى «قائد فكري» يُشـار إليـه بالبنان. فهـؤلاء يهتمون بتغليف الأفـكار وتقديمها في قوالـب براقـة أكثر من اهتمامهـم بتأملها وتقليبها عـلى وجوهها، فيطلقون «فكرتهم الكبرى» هذه إلى العالم قبل أن تنضج وتستوي على عودها.

إنَّ قـادة الفكـر الطامحـين هؤلاء لا يريـدون أن ينهضـوا بذلك العبء الثقيـل الذي يتطلبه الانتبـاه. فالانتباه ليس صعبًـا بالطريقة التي تكون بها رياضة الجودو أو رمي السـهام صعبة، بل هـو صعب بالطريقة التي يكون بهـا التأمـل، أو تربيـة الأبناء، صعبـة. إنَّه صعـب بالطريقة التـي يكون بها انتظـار القطار صعبًـا. فالانتباه ليس مهارة نكتسـبها، كالحياكـة أو المبارزة بالسـيف، بل هو حالة ذهنيـة، وتوجُّهٌ في الوجود. فنحـن لا نتعلم الانتباه بقدر ما «نتحول صوبه» ونلتفت إليه. وهذا التحول المحوري لا يحدث إلا حين نتوقف لحظة، كما فعل سقراط، ونخرج من سجن أفكارنا ورؤوسنا. وتطلق سيمون فايل على هذه الحالة اسم «الإلغاء الخلّاق».

أمّـا أنـا، فأفضـل مصطلـح إيريـس مـردوك: «التجـرد مـن الأنـا» (*unselfing*). إذ تصـف الروائيـة والفيلسـوفة البريطانيـة إحـدى هـذه اللحظـات من التجـرد من الأنا، فتقول إنَّها كانت تنظر من نافذتها، تشـعر بالقلق والاسـتياء بسبب إهانة متوهمة تعرضت لها في وقت سابق من ذلك اليوم، حين لمحت طائر عوسـق يحوم في الهـواء. وتقول: «في لحظة واحدة، تغير كل شيء. لقد اختفت تلك الذات الكئيبة المستغرقة في همومها، المعتدة بكرامتهـا المجروحـة. لم يعد هناك الآن شيء سـوى طائر العوسـق. وحين عدتُ للتفكير في الأمر الآخر، بدا لي أقل أهمية بكثير».

إنَّ كل غفلة وعدم انتباه هي، في جوهرها، شـكل من أشـكال الأنانية. فنحن نقرر حينئذٍ أنَّ كلَّ ما يحدث داخل رؤوسـنا هو أكثر إثارة للاهتمام، وأعظم أهمية، مما يحدث في بقية الكون. ولهذا السبب، فإنَّ النرجسيين قليلو الانتبـاه إلى هذا الحـد. فانتباههم محبوس في قنينة، راكد وآسـن. إنَّ الانتباه

هـو دم حياتنا الـذي يجري في عروقنـا. وهو بحاجة إلى أن يـدور ويتدفق. واكتناز الانتباه هو قتله.

***

أحيانًا، تكشف لنا النهايات عن حقيقة الأمور أكثر مما تفعل البدايات. وأظن أنَّ هذا هو الحال مع سيمون فايل. فالأشهر الأخيرة من حياتها كانت أشـبه ما تكون بشريط سـينمائي يُعرض مُسرّعًا سريع، تتلاحق فيه المشاهد وتتسارع الأحداث. كان هناك ذلك الإنتاج الفكري الفذ والبطولي، وذلك اللطـف الـذي منحته للآخريـن وتلقته منهم، ثـم الانهيار، وتلـك النهاية الحتمية التي يكتنفها الغموض.

لقـد تكشـفت فصول هـذه الملحمة كلهـا في إنجلـترا، في أوج احتدام الحـرب العالميـة الثانية. وقد اسـتولى عليّ هـوس بتلك الأيـام التي قضتها فايل في لندن، بتلك المدينة التي أحبتها، وبالأناس الذين التقتهم، وبعلامة الاستفهام الكبرى التي لا تزال تحوم حول موتها.

إنَّ حيـاة سـيمون فايل لم تُقَس بملاعق القهوة، بـل بتذاكر القطارات. ففي يونيو من عام 1940، اسـتقلت هي ووالداها آخر قطار يغادر باريس، متقدمـين بخطـوة واحـدة عـلى جحافـل قـوات هتلـر. وعملـت لفترة في تدريـس الفلسـفة لعـمال السـكك الحديدية. ثـم قضت أخصب سـنوات عمرها في لندن، حيث كانت تمضي وقتها في القراءة والتفكير وهي تسـتقل قطار الأنفاق.

وهـذا هو المـكان الذي أنـا فيه الآن أيضًـا، على متن «الخـط المركزي» (Central Line) لقطـار الأنفـاق، على وجه التحديـد، في المحطةِ الأخيرةِ

من رحلتي التي بدأت في سانت بانكراس. وفي جيبي تلك الخريطة العبقرية لقطار الأنفاق. إنَّها انتصار حقيقي للبساطة، ويعودُ تاريخها إلى عام 1931. ففي ذلك العام، قررَ هاري بيك، وهو رسامٌ كانَ يعملُ في مكتبِ إشارات مترو الأنفاق، أن يولي انتباهه للأمرِ. كانَ بيك يعلمُ أنَّ الخريطة القديمة كانتْ معيبةً؛ فقد كانَتْ ترسمُ خطوطَ مترو الأنفاق فوق خريطة طرق المدينة، وهو ما كان يربك الناس، كما كانت تظهر المسافات بين المحطات بمقياس رسم دقيق، وهو ما زاد من إرباكهم. فلم يكن أحد يهتم بمدى بعد المحطات عن بعضها البعض، أو بأسماء الشوارع التي تمتد فوق رؤوسهم. كل ما كانوا يريدونه هو أن يعرفوا كيف ينتقلون من محطة إلى أخرى، وأين يمكنهم تغيير الخطوط. ولكنهم وجدوا أنفسهم عالقين في شراك ذلك الفخ المعرفي الذي حذر منه شرلوك هولمز حين قال: «إنَّ ما هو حيوي وجوهري، قد غطى عليه وأخفاه ما هو غير ذي صلة وتافه».

قامَ بيك، عاملًا في وقت فراغه، بابتكار خريطة جديدة، صممها على غرار رسم تخطيطي لدائرة كهربائية. لقد جعلت خريطة بيك الواقع يبدو أكثر أناقة وبساطة مما هو عليه حقًا، فبدت المحطات متساوية البُعد، والخطوط تلتقي في زوايا أنيقة بزاوية 45 أو 90 درجة. وقد أسرت خريطة بيك هذه ألباب الجمهور، ولا تزال على حالها دون تغيير جوهري حتى يومنا هذا. لقد نجح بيك لأنَّه أولى الأمر انتباهه. لقد فكر كمسافر، لا كمجرد مهندس.

عندَ كلِّ محطةٍ، تزفرُ عربة المترو بعض الركاب، وتشهقُ آخرين. إلى الداخلِ، إلى الخارجِ. إلى الداخلِ، إلى الخارجِ. ثم يرنُّ ذلك الإعلان المسجل

بلهجـة إنجليزية مرحـة ومبهجة: «يرجى الانتبـاه إلى الفجوة». إنَّ ركوبَ قطـار الأنفاق لهو طريقة رائعة لممارسـة الانتباه وصقله. فهناك عرض دوار لا ينتهي من البشر الذين يمكنك أن تتأملهم: سياح متسعوا الأعين دهشةً، ومصرفيون ضيقو الأعين تركيزًا، ومتسولون غائضو الأعين لا يكاد يراهم أحد. والهواء مشـبع بشـذرات لغوية متناثرة: صيغة مصدر فرنسية، واسم مفعول إيطـالي، وصيغة تعجب أمريكية. قد نقولُ إنَّ أشـياء كثيرة تتنافس عـلى جذب انتباهـك، ولكن هذا ليس صحيحًا تمامًا. فالأمر ليس منافسـة بقدر ما هو تعاون جامح، أو قل سيمفونية فوضوية متناغمة.

أُوجّـه انتباهي، كما لو كنت أُسـلط كشـافًا ضوئيًا، وأسـلطه على المرأة الجالسة أمامي مباشرة. ترتدي بنطالاً مزينًا بنقوش الأزهار، وقد ارتسمت على وجهها نظرة تركيز شـديد وهي تكـدح في حل لغز كلمات متقاطعة في تلك الصحيفة الشـعبية التي تطفو على حجرها. تهزُ رأسـها بإيقاع منتظم، بينما تلوحُ بقلمها في الهواء كعصا مايسترو يقود أوركسترا، أو ربَّما، كإصبع بطاطـس مقليـة. إنَّها تركّز، نعـم، ولكن هل هي تنتبه حقًـا؟ «كلا»، هكذا كانتْ سيمون فايل لتقول، «إنَّها لا تنتبه»

حـين يصـلُ القطـار إلى محطتـي، هولانـد بـارك، أنتبـه إلى الفجوة بين الرصيـف والقطـار، ثم أتجـه نحو المخـرج. لا أكاد أسـير بقدر مـا أركب موجـة، تجرفنـي معها الجمـوع المتدافعة. أحـاول أن أنتبـه، ولكن سرعتي تحـول دون ذلك. فالسرعة هـي العدو اللدود للانتباه. وحين أخطو خارج المحطـة، يباغتني ضوء الشـمس السـاطع فأرمش بعيني لأتجنبـه، وأكافح لأستعيد إحساسي بالاتجاه وأستجمع شتات نفسي.

إنَّ الانتقالَ من حياةٍ ما تحت الأرضِ إلى حياةٍ فوقها لهو أمرٌ شائكٌ دائمًا. هناك تلك اللحظة من التوهان، من عدم معرفة أين أنت، والغريب، مَن أنت أيضًا: أأنت ذلك الكائن الأرضي المحترم، أم ذلك القاطن المريب من سكان العالم السفلي؟ وينظر إليك الغرباء، أو هكذا يخيل إليك، يفحصونك بنظراتهم من رأسك حتى أخمص قدميك، غير متأكدين مما إذا كنت تنتمي إلى هنا، إلى عالم النور.

وفي سعي حثيث مني لأؤكد «أوراق اعتمادي السطحية»، أبدأ في السير. إلى أين بالضبط؟ لا أدري، ولكن الدفعة إلى الأمام ضرورية في هذه اللحظات. الحي الذي أسيرُ فيه، وهو ليس ببعيد عن نوتينغ هيل، يفيضُ بذلكَ الدفء اللندني الحميم. أمرّ بمقاهٍ يمكنك أن تقضي فيها يومًا بأكمله تحتسي فنجانَ قَهوةٍ واحدًا، وبمكتباتٍ اختيرتْ كنوزها بعنايةٍ فائقةٍ وحبٍّ ظاهرٍ، وهي مكتباتٌ تتحدى بعنادٍ قوانين الاقتصاد بمجرد استمرار وجودها. وهناكَ رجلٌ باكستانيٌّ يبيعُ الزُّهورَ.

أنعطفُ عند زاوية شارع بورتلاند، وأسيرُ بضعَ ياردات حتى أصلَ إلى المنزلِ رقم 31. طبقة طلاء أبيض حديثة تُزين الباب الأمامي. وفيما عدا ذلك، لا يكاد المنزل يتميز عن سائر المنازل المتلاصقة في هذا المربع السكني. لا لافتة تشير إليه، ولا لوحة تذكارية منقوشة. يبدو أن قائمة معجبي سيمون فايل لا تشمل القائمين على حفظ المواقع التاريخية في لندن. ولا يمكنني القول إنَّ هذا قد فاجأني. فتلك التي أطلق عليها أحد كتاب سيرتها اسم «فيلسوفة الهوامش والمفارقات»، لم تتوقع الشهرة قط، ولم تسع إليها يومًا.

كانَتْ فايلُ تسكنُ في الطابقِ الثاني، الذي استأجرته من سيدةٍ تدعى فرانسيس، وهي معلمةٌ مدرسة أرملة لديها طفلان صغيران. وقد أحبت فايل الولدين، فكانتْ تساعدُ الأصغرَ، جون، في واجباته المدرسية. وكان هو بدوره ينكمشُ بجوارِ البابِ الأمامي، منتظرًا عودة «الآنسة سيمون».

أحبّتْ فايلُ غرفتها الصغيرة، بإطلالتها على أغصانِ الشجرِ نهارًا وعلى النجوم ليلًا. وأحبت لندن أيضًا، وأحبت البريطانيين، بما فيهم من دعابة ولطف. «وخاصة اللطف»، كما كتبت في رسالة إلى والديها اللذين كانا قد التمسا ملجأً في نيويورك. «إنَّ أعصابَ الناسِ هنا متوترة، ولكنهم يسيطرون عليها بدافع من احترام الذات، ومن لطف حقيقي تجاه الآخرين... إنني لأحبُّ هذه المدينة بجراحها حبًا رقيقًا وحنونًا».

«روحٌ جريحةٌ في مدينةٍ جريحة»، هكذا أفكر في نفسي، وأنا أراقبُ زوجين شابين يرنان جرس الباب المجاور للمنزل رقم 31، وفي يدهما زجاجة نبيذ.

كانَتْ وظيفةُ سيمون فايل اليوميةُ في حركةِ «فرنسا الحرة»، وهي مجموعةٌ غيرَ متجانسةٍ من المنفيين الفرنسيين الذين كانوا يعملون على تحريرِ وطنهم من الاحتلال النازي. وقد اكتسبت فايل سمعة بأنَّها عاملةٌ دؤوبةٌ لا تعرفُ الكللَ، وحالمةٌ لا تكفُّ عن نسجِ الأحلامِ. تقولُ صديقتها سيمون بيترمان: «لقد كانت تغلي بالأفكار». ومن بين خططها الخيالية، فكرة الهبوط بالمظلة في فرنسا المحتلة وقيادة فرقة تمريض على خطِّ الجبهةِ الأماميِّ، تتألف من «نساء يجمعن بين الحنان الرقيق والعزيمة الباردة الصارمة». وقد كدحت في العمل على تفاصيلِ خطَّتها هذه، حتى إنها اشترت خوذة مظليين ودليلًا للطيران. غير أنَّ الجميع لم يشاركها حماستها

تلك. حتى إنَّ شارل ديغول قد صاح متهكمًا حين قرأ عن إحدى خططها: «لكنها مجنونة!». ولم تتحقق أي من خططها هذه على الإطلاق.

وحين لم تكن تحلم، كانت تكتب، وتكتب، وتكتب. ففي غضون أربعة أشهر فقط، أنتجتْ ما يناهزُ ثمانمئةِ صفحةٍ مخطوطةٍ، فضلًا عن عددٍ لا يُحصى من الرسائل. ونادرًا ما كانت تنام أكثر من ثلاثِ ساعاتٍ في الليلةِ، وكثيرًا ما كانتْ تواصلُ العملَ حتّى بزوغِ الفجرِ. وقد أثر هذا الإيقاع المحموم سلبًا على صحتها الواهنة أصلًا. فأصبحت تأكل أقل، وتسعل أكثر، وازدادت نوبات الصداع سوءًا. وبدأت تخشى أن تفقد صوابها وتنزلق إلى هوة الجنون.

وفي الخامس عشر من أبريل عام 1943، لم تحضر إلى عملها. وقد أسرع أحد أصدقائها إلى المنزل رقم 31 في شارع بورتلاند قلقًا عليها. فوجدَ سيمون فايلَ ملقاةً على الأرضِ، فاقدةً للوعي. وقد نُقلت على عجل إلى مستشفى ميدلسكس، حيث شخص الأطباء حالتها بأنّها تعاني من مرضِ السلِ.

كانَتْ ضعيفةً للغاية، بالكاد تقوى على رفعِ ملعقةً، ولكنها بطريقة ما واصلت القراءة والكتابة. أصرّ الأطباء على أن تخففَ من وطأةِ عملها وأن تبطئ من إيقاعه، ولكنها تجاهلتهم تمامًا. تقول صديقتها بيترمان: «إنَّ ثباتَ خطِّ يدها، حتّى في رسائلها الأخيرةِ، لأمرٌ مدهشٌ، ويتطلبُ فعلًا إراديًا خارقًا للعادةِ».

لم تحب سيمون فايل ذلك المنظر الكئيب الذي كانت تطل عليه نافذة غرفتها في المستشفى، فقد كان يبعث على الحزن في نفسها. وقد وافق الأطباء

على أنَّ هواءَ الريفِ النقي سيساعدها على التعافي، وفي أغسطس من عام 1943، نُقلت إلى مصحةٍ في بلدةِ آشفورد الريفية الهادئة. وقد أشرفتْ بنفسها على حزم كتبها الأثيرة إلى نفسها: كتب أفلاطون، والقديس يوحنا الصليبي، والبهجافاد جيتا.

وفي المصحةِ، ظلتْ صافيةَ الذِّهن، وعيناها الجادتان تحملان ذات البريق وتلك النظرة الفاحصة السابرة للأغوار التي لم تفارقهما قط. غير أنَّ صحتها الجسديّة أخذت في التدهور، ولا شكَّ أنَّ رفضها تناول أي طعام حقيقي قد فاقم من الأمر. لم تخبر والديها أبدًا بحقيقة مرضها، في فعل لا أدري أكان دافعه المراوغة أم الشفقة. وقد أنهت رسالتها الأخيرة إليهما بعبارة «إلى اللقاء يا أحبائي. مع أكوام وأكوام من الحب». وفي مساء الرابع والعشرين من أغسطس، وبعد فترة وجيزة من استقبالها لزميل جاء لزيارتها، دخلت في غيبوبة. وبعد خمس ساعات، فارقت سيمون فايل الحياة. كانت في الرابعة والثلاثين من عمرها.

وخلصَ الطبيبُ المعالجُ إلى أنَّ سببَ الوفاةِ كانَ «قصورًا في القلبِ ناتجًا عن تدهورِ الجسدِ بسببِ الجوعِ». وقد لَفَتَ هذا التَّقريرُ انتباهَ عددٍ قليلٍ من الصُّحُفِ المَحلِّيَّةِ. فجاءَ أحدُ العناوينِ الرَّئيسيّةِ يقولُ: «أستاذةٌ فرنسيةٌ تُجوّعُ نفسها حتّى الموتِ». وكتبَ آخرُ: «وفاةٌ بسببِ الجوعِ». ومنذُ ذلكَ الحينِ، وهذا التَّشخيصُ الطّبيُّ محلُّ نزاعٍ وجدلٍ. فالبعضُ يقولُ إنَّ فايل قدِ انتحرتْ، بينما يصرُّ آخرونَ على أنَّها لم تفعلْ.

لم يحضر جنازتها سوى سبعة أشخاص، معظمهم من الأصدقاء والزملاء في حركة فرنسا الحرة. أمّا الكاهن، الذي كان من المقرر أن يترأس

مراسم الدفن، فلم يحضر أبدًا. لقد فاته القطار، وهي هفوة انتباه كانت سيمون فايل، على ما عُرف عنها من رحابة صدر وسعة قلب، ستغفرها له بالتأكيد.

***

تنتهي رحلة القطار التي تستغرق سبع دقائق من «واي» إلى «آشفورد» كلمح البصر. لا أستطيع أن أخبركم بما رأيت أو سمعت أو فكرت فيه. فانتباهي يحتاج إلى أكثر من سبع دقائق ليبدأ بالعمل ويتصل بالواقع. وقبل أن أعي ما يحدث، نكون قد دخلنا محطة آشفورد. أخرج من المحطة، وبعد أن أسير بضعة مربعات سكنية، أجد نفسي في الشارع الرئيسي. إنَّه ممرٌّ بهيجٌ للمشاةِ، تصطفُ على جانبيه المقاهي ومتاجر السلع المستعملة.

وبينما أواصل السير، مستمتعًا بظهور الشمس النادر، ألمحُ رجلًا يولي اهتمامًا شديدًا لشيء ما على الرصيف. وحين أقترب منه رويدًا رويدًا، أرى أنَّ في يده فرشاة وأنَّه يمشط كلبًا. «يا له من منظرٍ لطيف»، أقولُ في نفسي.

أنظر عن كثب، وبانتباه أشد، فأرى أنَّه ليس كلبًا حقيقيًا. إنَّه كلبٌ من الرملِ. كلبٌ مصنوعٌ من الرملِ. لقد صاغ الرجل انحناءة ذيله، وطيات اللحم فوق خطمه، والتجاعيد في رقبته، ببراعة فائقة لدرجة أنني أخطأته وظننته كلبًا حقيقيًا.

أسأله: «كم من الوقت استغرق منك هذا؟» يا له من سؤال سخيف، أدركت ذلك لاحقًا. فالانتباه لا يُقاس بالدقائق أو الساعات. (وكما قالت سيمون فايل: «خمس عشرة دقيقة من الانتباه الخالص خير من ثماني ساعات من الانتباه الكسول المشتت».) كان بإمكاني أن أسألَ الرجل أسئلةً أخرى،

أكثر جوهرية وأعمق دلالة. كيف استطاع أن يعزل نفسه عن كل مصادر الإلهاء من حوله ويركز على كلبه الرملي؟ كيف ثابر حين لطخت الريح مخلبًا، أو حين انهارت أذن بفعل الرمال المتحركة؟ ولكني لم أسأل هذه الأسئلة. فسبر أغوار كمية الانتباه أسهل من سبر أغوار جودته. إننا دائمًا نقيس ما هو أسهل قياسًا، لا ما هو أهم وأجدر بالقياس.

أسير بمحاذاة طريق كانتربري، الذي، رغم اسمه الأسطوري، ليس سوى شريان مرور مزدحم تسرع فيه الشاحنات محدثة ضجيجًا. أصل إلى تقاطع طرق، فألمح لافتة: «شارع سيمون فايل». أمَّا الوصف الموجود على اللوحة المجاورة، فموجز إيجازًا مهينًا، يصفها بأنَّها «كاتبة وفيلسوفة فرنسية توفيت في مصحة غروفنر».

أتسلق تلة صغيرة، ثم ألج مقبرة بايبروك. أرى امرأة وأمها الطاعنة في السن تصلان. لقد أحضرتا معهما زهورًا ومعلقة ذات أجراس رنانة، علقتاها على شجرة قريبة.

تقول الابنة: «جميل، أليس كذلك؟». لا أدري إن كانت تشير إلى رنين الأجراس الموسيقي، أم إلى الزهور، أم إلى السماء اللازوردية الصافية، أم ربما إلى تلك القدرة العجيبة على أن يجد المرء بهجته في أكثر الأماكن غير المتوقعة، حتى في مقبرة، إذا ما أولى انتباهًا كافيًا. لا يهم. فجودة انتباهنا، لا موضوعه، هي ما يُعتد به حقًّا.

يصلُ رجلٌ مهندمٌ أنيقٌ يحملُ المزيدَ من الزّهورِ. أفترض أنّه الأب. يجلسون جميعًا على الأرض أمام شاهد قبر، ويستمتعون بنزهة عفوية.

هناك قصة ما هنا، وأعلم أنَّها ليست قصة سعيدة. ولكنني لم أدرك

مـدى حزنها إلا لاحقًا، حين غادروا، واقتربت أنا مـن القبر. عندئذٍ فقط، لاحظـت كم هـو صغير، وكيف أنَّ شـاهد القبر قد صُمم على شـكل دب دمية. إنَّ الكثير من الأشـياء المادية يمكنها أن تثير فينا مشـاعر قوية، ولكن لا شيء، لا شيء عـلى الإطـلاق، يمزق القلب إربًا بسرعة وبشـكل كامل، أكثر من شاهد قبر على هيئة دبدوب.

أجد قبر سـيمون فايل دون أن أبحث عنه. فبينما كنت أتجول في أرجاء المقبرة، رفعت بصري، فإذا بها هناك أمامي.

قطعـة الأرض مُعتنـى بهـا جيـدًا، وإن كنـت ألمـح بضع زهـور ذابلة، وإصيصًا بلاسـتيكيًا صغيرًا قد أطاحت به الريح. وشـاهد قبرها بسيط، لا يكاد يتميز عن غيره من الشواهد، إلا أنَّ التواريخ عليه مكتوبة بالفرنسية: 3 فبراير 1909، 24 أغسطس 1943.

عـلى الأرض، تسـتقر صـورة لفايـل داخل إطـار. إنَّها نفـس الصورة التي رأيتها من قبل. نفس الشَّـعر الأشـعث، والنَّظارة الضَّخمة، والعينين العارفتين بكل شيء. ولكن هناك شيئًا آخر، شيئًا لم ألحظه من قبل: انحناءة طفيفـة في الشَّـفتين ترسـم مـا يشـبه ابتسـامة خفيفة. مـا الذي يفسر شِـبه الابتسامة هذه؟ أتساءل. لعل المصور قد ألقى نكتة، أو لعل فايل كانت قد تلقت للتو خبر قبولها في «مدرسة المعلمين العليا» المرموقة بباريس.

ولكـن، هناك تفسـير آخر ممكن. لعـل المصور قد التقط هـذه الصورة لسيمون فايل في لحظة من الانتباه الأقصى، في حالة من «التدفق» والانغماس التـام، فـكان ردُّ فعلها، وهـو ردُّ الفعل الطبيعي، بـل والوحيد حقًا في مثل هـذه الحالة، هو أن تنسـى للحظة نوبات الصداع المعذبـة، والأخ العبقري

الذي عاشت في ظله، والحرب القادمة التي تخيم بظلالها، وأن تبتسم.

***

إننا نفقد الأشياء فجأة، ولكننا نختبر الفقدان تدريجيًا. فالأمر يستغرق وقتًا حتى تتقبل أنَّ مفاتيح سيارتك أو محفظتك أو حتى قلبك لم تعد مجرد ضائعة في غير مكانها، بل إنَّها قد عبرت ذلك الخط غير المرئي، وإن لم يكن أقل انحدارًا وخطورة، الذي يفصل بين الأشياء التي نمتلكها والأشياء التي امتلكناها يومًا ما. إنَّ العدم ليرعبنا، ويستغرق وعينا وقتًا طويلًا حتى يسجل حقيقة وقوعه.

«الفقد» كلمة قصيرة، ولكنها منذرة بالشر. إنَّها «نابليون الأسماء». وما لم تتبعها كلمة «الوزن»، فإنَّها تكاد تكون دائمًا سلبية. ولهذا السبب، فإننا لا نكتفي بأن نختبر الفقد، بل إننا نكابده ونعاني منه. وحين يكافح شخص ما، في عمل أو في حب، يُقال عنه إنَّه «ضائع» أو «تائه». وحين يتتبع المؤرخون مسار أمة أو حياة، فإنَّهم يحددون نقطة زمنية معينة، يقولون بعدها إن «كل شيء قد ضاع».

تأتي الخسارات بأحجام مختلفة، ولكن ليس بينها ما هو صغير. فهي تبدأ من الحجم المتوسط، ثم تتصاعد من هناك. كما تأتي بنكهات مختلفة أيضًا. فبعض الخسارات مؤلم، وبعضها مدمر، وبعضها الآخر مجرد إزعاج عابر. والقليل منها يكتسي حلة من السخرية اللاذعة. كأن تفقد دفتر ملاحظاتك بينما تكتب فصلًا عن أهمية الانتباه، على سبيل المثال.

لقد أحببت دفتر الملاحظات ذاك. ولا أزال أذكر اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليه لأول مرة. كان ذلك في متجر أدوات مكتبية صغير وأنيق

في مدينـة بالتيمور، في يوم ربيعي دافـئ. لقد أسرتني جمالياته النقية وألوانه الهادئـة، وغلافه المتـين، ذلك الغلاف الصلب الذي يبعـث على الطمأنينة، وصفحاتـه الناعمة الملمس، المزدانة لا بشريـط واحد، بل بثلاثة -ثلاثة!- من تلك الشرائط الصغيرة التي تحفظ لك مكانك.

إنَّ ردّة فعـلي لفقدان دفتر الملاحظات هذا غير متناسـبة على الإطلاق. أعـرف هـذا بعقلي، ولكـن أن تعرف شـيئًا بعقلك فقط هـو ألا تعرفه على الإطلاق. آخذ نفسًا عميقًا، وأتفحص ردّة فعلي. من أين تنبع؟ لقد فقدت أشياء من قبـل ولم أتفاعل بهـذه الطريقة. ففي الجامعـة، أضعت ذات مرة أسـبوعًا كامـلًا من عمـري وبالكاد شـعرت بـشيء أو اكترثت. لـماذا إذن أدخلنـي فقـدان دفتر الملاحظـات هـذا في دوامة من الاضطـراب وفقدان التوازن؟

لأنّـه لم يكن مجرد دفـتر ملاحظات. فالأفكار التـي نودعها على الورق إنّما تمثل سـجلًا لعقولنا في أصفى لحظـات انتباهها. وهـذه اللحظات من الاستغراق التام هي أشياء هشّة، ككلب الرمل ذلك الذي رأيته في الشارع الرئيسي، وما أن تُفقد، يسـتحيل اسـتعادتها تقريبًا. فاستعادة ماسة مفقودة أسـهل من اسـتعادة فكـرة ضائعـة. ولهذا السـبب، يجب علـيّ -يجب عليّ حتمًا!- أن أجد دفتر ملاحظاتي، وأن أستعيد الماضي.

إن أضمـن طريقـة لتزيد من ولعك بشيء مـا، أي شيء، هي أن تفقده. ومـع كل محاولة بحث تبوء بالفشـل، لم يكن دفتر الملاحظات المفقود يزداد تفوقًـا في جماله فحسـب، بـل كان يزداد أيضًـا براعة في روعتـه التحريرية. فبحلـول اليـوم الثاني من بحثـي، كنت قد أيقنـت أنَّ الأفـكار التي حوتها

دفتيـه، والتـي سـجلتها خلال رحلتـي إلى إنجلـترا، لا مثيل لهـا في الفطنة والأصالـة. وبحلـول اليـوم الرابـع، أعلنـت أن دفتر الملاحظـات ذاك هو «أثمـن دفتر ملاحظات في العالم. على الإطلاق». أثمن من مخطوطة ليستر لدافنشي، وأغلى من دفاتر هيمنغواي.

أبحث في الأماكن الواضحة (الخزائن، رفوف الكتب) وفي تلك الأقل وضوحًـا أيضًـا (الثلاجة، صنـدوق فضلات القطـط). لا شيء. أضاعف جهـودي. أقتفي خطـواتي عائدًا. أنظر في درج المكتـب ذاته، ثلاث، أربع، خمس مرات.

يثير سـلوكي هذا قلـق الكلب، ويفزع القطة التـي آثرت، بحكمة، أن تختبـئ وتتوارى عن الأنظار. أمَّا ابنتي، فتعلن أنَّ المشـهد برمته هو «حرفيًا أكثر شيء مزعج في العالم».

ليـس غيـاب دفتر الملاحظات وحـده هو ما يوجعني، بـل فعل فقدانه ذاته، وما تقوله هفوة الانتباه تلك عني. لا تقول شيئًا جيدًا، هذا ما خلصت إليه. (فهناك كلمة تُطلق على أولئك الذين يفقدون أشياءهم بشكل مزمن: إنَّهـم «الخاسرون». ويا له من نعتٍ هو الأكثر إدانة وتجريحًا على الإطلاق!) لقـد فقدت كاتبة المذكرات ماري كار دفـتر ملاحظاتها مؤخرًا، ولكن كان لديهـا مـن الحس التحريـري الجيد ما جعلهـا تفقده على متن قـارب يقوده يوناني فاتن يدعى ديونيسوس، صاحب «ذلك القلب المتحرر من كلّ قيد، الغارق في التيكيلا». أمَّا أنا، فقد أضعت دفتري في المطبخ، بينما كنت أضع علـب البيتزا المجمدة في أماكنها. لا تيكيلا في قصتي. ولا ديونيسـوس. لا شيء سوى الندم واحتقار الذات.

وعندما تملأني الحيرة، ألتفت إلى سيمون فايل. إنّها أوقات عصيبة تستدعي حلولاً يائسة، هكذا أقول لنفسي، وأنا أفتح أحد كتبها. تنظر هي إلى مأزقي هذا، وتقدم تشخيصًا بسيطًا: أنا في الحقيقة لا أريد أن أجد دفتر ملاحظاتي. أنا أريد أن «أمتلكه». إنني مستهلكٌ تمامًا بالرغبة، والرغبة لا تتوافق مع الانتباه. فإن ترغب في شيء يعني أنّك تريد شيئًا منه، وهذا ما يحجب رؤيتنا ويغشي أبصارنا.

إننا نعتقد أنَّ المشكلة تكمن في «موضوع» رغبتنا، بينما هي في حقيقة الأمر تكمن في «الذات»؛ في «الأنا». قد يبدو لك أنّك حين تتوق إلى شيء ما فإنك توليه انتباهك، ولكن هذا وهمٌ وخداع. فأنت مستغرقٌ في رغبتك في الشيء، لا في الشيء ذاته. فمدمن الهيروين لا يتوق إلى مادة الهيروين في حد ذاتها، بل يتوق إلى «تجربة» الحصول على الهيروين، وإلى تلك «الراحة» المصاحبة للتخلص من ألم عدم الحصول عليه. فالحرية من الاضطراب الذهني، أي «الأتاراكسيا» أو طمأنينة النفس، هي ما يريده حقًا.

أعود إلى سيمون. «فأي شيء يمكن أن يكون أشد غباءً من أن نشد عضلاتنا ونطبق على فكوكنا حين يتعلق الأمر بالفضيلة، أو بالشعر، أو بحل مشكلة ما؟ إنَّ الانتباه لشيء مختلف تمامًا».

أرخي عضلاتي، وأقلب الصفحة.

«إنَّ العلة دائمًا تكمن في أننا أردنا أن نكون مفرطين في نشاطنا؛ أردنا أن نقوم بعملية بحث».

تربكني هذه العبارة. وتزعجني أيضًا. بالطبع أريد أن أقوم بعملية بحث يا سيمون! فكيف عساني أن أجد دفتر ملاحظاتي إلا بالبحث عنه؟

آخـذ نفسًـا عميقًا وأواصل القـراءة. من المهم، كما تسـتطرد فايل، «أن نتراجع قليلًا أمام الشيء الذي نسـعى إليـه. فالطريقة غير المباشرة وحدها هي الفعالة. إننا لا ننجز شيئًا على الإطلاق إذا لم نتراجع أولًا».

أتراجع إذن، وأنسـحب إلى قبو المنزل وإلى شاشـة التلفاز الكبيرة التي تغرينـي وتناديني كما لو كانت شـحنة من الأفيـون. ليس هذا جيـدًا. لقد تراجعـت أكثر من اللازم. لقد استسـلمت للإذعان والقبول السـلبي. إنه يأس متنكر في ثوب الرضا.

مشـكلتي، كما تقول سـيمون فايل، هي أنني قد قرنـت الفعل بالنتائج وربطتهـما بنـير واحد. ولكن الحياة لا تسـير عـلى هذا النحـو، ولا الانتباه كذلـك. فالحيـاة القائمة عـلى الانتباه هي حيـاة محفوفة بالمخاطـر. نتائجها غـير مضمونـة. فنحن لا ندري إلى أين سـيقودنا انتباهنا، هـذا إن قادنا إلى أي مـكان عـلى الإطلاق. والانتبـاه الخالص، ذلك النوع الـذي دعت إليه فايل، هو انتباه نقي، غير ملوث بالدوافع الخارجية كالسعي لإثارة إعجاب الأصدقاء أو تحقيق تقدم مهني. فالشخص الذي يولي انتباهه الكامل لشيء مـا – أي شيء – إنَّـما يحـرز تقدمًا حقيقيًا، «حتى لـو لم يُثمر جهده أي ثمرة مرئية»، كما تقول فايل.

إنَّهـا عـلى حق، أعلم ذلك، ولكننـا نعيش في عالم يحتفـي بالثمار المرئية. وكلـما كانـت الثمار أظهر للعيـان وأكثر غزارة، كان ذلـك أفضل. فهل من الممكـن حقًـا أن يحيا المرء كما عاشـت سـيمون فايل، مسـتغرقًا في اللحظة الراهنة، ولكنه غير مبالٍ بالمكافآت المسـتقبلية؟ هل يمكنني أن أربي ابنتي، بحب وانتباه، وألا أكترث ما إذا كانت سـتختار أن تكون جَرّاحة أعصاب

مرموقة أم مجرد نادلة في مقهى؟ هل يمكنني أن أدخل مسابقة في الكتابة وألا أهتم ما إذا كنت سأفوز أم لا؟ هل يمكنني حقًا أن أتخلى عن دفتر ملاحظاتي، وأن أدعه يذهب؟

أوقف هذا الجنون للحظة، وأحاول أن أكتسب ذرة من المنظور الصحيح. لقد فقدت دفتر ملاحظات. ليس بالأمر الجلل. فهمنغواي قد فقد مجموعة كاملة من القصص القصيرة. أو، لكي أكون أكثر دقة، فإن زوجة هيمنغواي، هادلي ريتشاردسون، هي التي فقدت مجموعة كاملة من قصص هيمنغواي القصيرة. كان ذلك في عام 1922، وهي في طريقها من باريس إلى سويسرا لتلتقي بزوجها. كانت قد صعدت لتوها إلى القطار في محطة غار دي ليون، ولكن كان أمامها بضع دقائق قبل أن يتحرك، فقررت أن تشتري زجاجة مياه معدنية. وحين عادت إلى القطار، كانت الحقيبة -ومخطوطة هيمنغواي- قد اختفت.

يُعرف هيمنغواي بأسلوبه البسيط، ولكن هذا الفقد كان أشد من أن يحتمله حتى هو. لقد أصابته كآبة شديدة ودخل في حالة من الحزن واليأس. ولكنه في النهاية، ثابر إرنست وصمد، وأصبح هيمنغواي الذي نعرفه.

وقبل ذلك ببضع سنوات، كان ضابط بريطاني شاب يدعى ت. إ. لورنس يغير القطارات في مدينة ريدينغ بإنجلترا، حين فقد مخطوطة مذكراته، «أعمدة الحكمة السبعة». كانت مكتوبة بخط اليد، وكانت نسخته الوحيدة.

لقد نجا لورنس من الثورة العربية عام 1916 ومن معركة العقبة، وقطع الصحراء على ظهر جمله، ولكن تلك المخطوطة المفقودة كادت أن

تقضي عليه. وفي نهاية المطاف، استجمع قواه، واعتكف في غرفة غير مدفأة في حي وستمنستر بلندن، وأعاد كتابة الكتاب بأكمله من ذاكرته.

أقـرأ هـذه الحكايات عن المخطوطـات المفقودة، وأسـتحضر في ذهني كلـمات سـيمون فايـل: «إننـا لا نحصل عـلى أثمـن الهدايا بالبحـث عنها والسـعي وراءها، بل بانتظارها بصبر وأناة». إنها على حق. لا بد لي من أن أنتظر.

لو كان هذا الكتاب فيلمًا من إخراج سـتيفن سـبيلبرغ، لكانت هذه هي اللحظة التي أجد فيها بمعجزة دفتر ملاحظاتي المفقود، وأدرك أنه كان تحت أنفي طوال الوقت. ولكن، ويا للأسف، هذا الكتاب ليس فيلمًا لسبيلبرغ. فالحقيقة هي أنني لم أعثر على دفتر ملاحظاتي ذاك قط. ولن أعرف أبدًا أي حكمة كان قد حواها بين دفتيه، أو ما الذي فاتني بفقده. لذا، تركته وشأنه. تخليت عنه.

هـل هـذا تقـدم؟ لعـل الأمـر كذلـك، ولكـن «التقـدم» ليسـت كلمة اسـتخدمتها سـيمون فايل كثيرًا. فلا يوجد تقدم يجب إحرازه، ولا جوائز ينبغي الفوز بها. ليس هناك سوى الانتظار.

وهكـذا، فإنني أنتظر، طائعًا مختـارًا، وبصبر يفوق كل ما كنت أتصوره ممكنًا، فالانتظار هو مكافأة في حد ذاته.

الفصل الثامن

كيف تقاتل مثل غاندي

الساعة 11:02 صباحًا. دار بارودا، المقر الرئيس لخطوط السكك الحديدية الشمالية في الهند. محاولة للحصول على تذكرة على متن «قطار اليوغا السريع»، من نيودلهي إلى أحمد آباد. احتمالات النجاح: ليست جيدة.

منذ اللحظة الأولى التي سمعت فيها عن «قطار اليوغا السريع»، أدركت أنه يتوجب عليّ أن أستقله، وكنت على أتم الاستعداد لأن أبذل جهودًا مضنية، وأن ألوي نفسي في كل اتجاه، حتى أحصل على تذكرة. ولكي أكون واضحًا: فإن ممارستي لليوغا هي نظرية بحتة. غير أن اسم «اليوغا السريع» قد استهواني؛ فهو يوحي بوجود مسار سريع مختصر نحو الاستنارة. ثم هناك وجهة القطار: أحمد آباد، تلك المدينة التي أسس فيها بطلي الفيلسوف، المهاتما غاندي، أول «أشرم» (مكان للخلوة والتأمل) له على الأراضي الهندية، ومنها أطلق «مسيرة الملح» الشهيرة، تلك اللحظة المحورية في الكفاح من أجل استقلال الهند.

إنّ رحلة قطار الألف ميل تبدأ بحجز. والحصول على هذا الحجز على متن خطوط السكك الحديدية الهندية هو عملية كانت، منذ إنشائها عام 1853، ولا تزال، تعني تحمل طوابير جهنمية لا تنتهي، والإبحار في متاهة بيروقراطية لا قرار لها. وفي العصر الرقمي، هاجر هذا الجحيم إلى شبكة الإنترنت. لقد استغرقني الأمر ثلاث ساعات كاملة لإنشاء حساب، فقط لأكتشف أنّ «قطار اليوغا السريع» محجوز بالكامل. أضفت اسمي إلى

قائمـة الانتظار، وقمت بتنزيل تطبيـق لتتبع تقدمي في القائمة. وسرعان ما قفز ترتيبي من الرقم 15 إلى 8، ثم إلى الرقم 1. يا له من أمر مبشر بالخير!

يستشـير صديقي كايلاش وكيل سـفر فيقول له: «لا توجد مشـكلة». وصديـق له يعمـل في خطوط السـكك الحديديـة الهندية يقـول أيضًا: «لا توجد مشـكلة». والاسـتنتاج الواضح مـن كل هذا: هناك مشـكلة كبيرة. ففـي الهند، لا شيء نهائي حتى يصبح نهائيًا، ولا حتى حينها. كل نهاية هي بداية جديدة، وكل خاتمة تحتوي في طياتها على عبارة «يُتبع» مضمرة.

صحيح أنَّ احتلال المرتبة الأولى في القائمة يبدو أمرًا مثيرًا للإعجاب، أدرك ذلـك. ولكن هذه هي الهند، البلد الذي ابتكر مفهوم الصفر، والذي هـو على علاقـة وطيدة بمفهـوم اللانهاية. فما هـو الرقم في نهايـة المطاف؟ إنَّـه «مايا»، مجـرد وهم. وكما لاحظ الرواقيّون الأقدمـون، إذا كنت تغرق، فـلا يهـم ما إذا كنت على عمق مئة قدم تحت المـاء أم على عمق قدم واحدة. فالغرق هو الغرق. وقائمة الانتظار هي قائمة الانتظار.

يسـألني كايـلاش: «لم لا تسـافر جـوًا إلى أحمـد آبـاد؟» فالطائرة أسرع وأسهل من القطار، وليست أغلى إلا بفارق طفيف.

إنَّه على حق، ولكنني لا أسـتطيعُ أن أسـافرَ جوًا. فغاندي لم يسافر جوًا قط. ولا مرة واحدة. لقد كان يسـتقل القطارات، وهكذا سـأفعل أنا. كان غاندي يؤمن إيمانًا راسـخًا بأن الوسـائل أهم من الغايات. فالعبرة ليسـت في أن تفوز أو تخسر، بل في الكيفية التي تقاتل وتكافح بها. وليسـت العبرة في وجهتك، بل في كيفية وصولك إليها. لن أسـافر جوًا. سأسـتقل قطارًا. سأستقل «قطار اليوغا السريع».

أقرر في نفسي أنَّ الموقف يتطلب إجراءات جذرية، وتدابير «تناظرية» غير رقمية. وقبل أن يمضي وقت طويل، أجد نفسي في مكتب أحد مسؤولي السكك الحديدية، شخص يدعى السيد سينغ، وهو رجل مهندم أنيق، أصلع، يرتدي نظارة ذات إطار سلكي، وقد ارتسمت على وجهه تعابير متجهمة. أشرح له مأزقي على عجل. هل يمكنه أن يساعد؟

إنَّه سؤال بلاغي لا أنتظر له جوابًا. فأنا أعلم أن السيد سينغ يمكنه أن يساعد. ففي الهند، تتناسب السلطة طرديًا مع مساحة المكتب. ومن الواضح أن السيد سينغ رجل ذو سلطة ونفوذ. ففي مكتبه، أحصيت ما لا يقل عن ثلاث ردهات جلوس منفصلة؛ أما السقف فيكاد يلامس السماء. وبجرة قلم منه، أو بنقرة واحدة على لوحة مفاتيحه، يمكنه أن يؤمّن لي مقعدًا على متن «قطار اليوغا السريع».

يقول السيد سينغ: «الأمر معقد»، كما لو كنا نناقش حساب التكامل والتفاضل، لا مجرد حجز تذكرة قطار. ثم يمضي في شرحه، فيوضح أنَّ عددًا معينًا من المقاعد محجوز لكبار الشخصيات. ثم يضيف قائلاً: «ولكبار الشخصيات المهمين جدًا أيضًا».

تتملكني رغبة عارمة في اللجوء إلى العنف، ولكني أتمالك نفسي وأكبح جماحها. فغاندي لم يكن ليوافق على ذلك. لقد قال إن العنف يؤذي مرتكبه كما يؤذي ضحيته، وأنا لا أريد أن أؤذي نفسي، ليس بعد على الأقل.

أجرب استخدام السحر الناعم بدلًا من ذلك. فأشرح له افتتاني الذي لازمني مدى الحياة بـ«غاندي-جي»، مستخدمًا لاحقة التبجيل والاحترام، وأعبر له عن مدى إيماني بأن أفكار غاندي لا تزال حية وذات

أهمية بالغة في يومنا هذا.

يزداد الألم ارتسامًا على وجه السيد سينغ. أستطيع أن أراه وهو يزن خياراته في قرارة نفسه: فإمّا أن يجازف بخذلان أجنبي، وهو ضيف في بلاده (ضيف يبدي اهتمامًا شديدًا بغاندي-جي، لا أقل!)، وإما أن يجازف بإثارة حفيظة عضو في البرلمان أو شخصية أخرى نافذة متعجرفة.

لم تكن لدي أي فرصة على الإطلاق. يقول لي: اذهب إلى مكتب الحصص المخصصة للأجانب في محطة قطار نيودلهي. ثم يؤكد لي قائلًا: هناك يمكنهم مساعدتك. لكن كلانا يعلم أنهم لا يستطيعون.

أشكر السيد سينغ على وقته، وأسير في الردهة لأخرج إلى ذلك المزيج الكثيف من الجسيمات العالقة الذي يُحَسب هواءً في نيودلهي. لقد انتهى سعيي للحصول على مقعد على متن «قطار اليوغا السريع». أو، لأصوغ الأمر بالعبارة الهندية، لقد بدأ لتوه.

***

أسير بصحبة صديقي كايلاش إلى محطة مترو الأنفاق. يقولُ لي: إنَّ الهواءَ منعشٌ اليومَ، مع أنَّ الانتعاشَ أمرٌ نسبيٌّ في هذه المدينةِ، التي تُعد واحدة من أكثر مدن العالم تلوثًا. فجودة الهواء لا تزال في «النطاق الخطر»، وإن كانت أقل خطورة بقليل مما كانت عليه بالأمس.

نمر برجلين يكنسان الشارع بمكانس من الخيزران، فيثيران سحابة من الغبار، كما لو كانت دلهي بحاجة إلى مزيد من ذلك.

يقول كايلاش: «من الأفضل أن تضع كمامتك».

أمـد يـدي إلى جيبي وأتحسـس ذلك القنـاع القماشي الواهي، الأسـود والرمـادي، الـذي أكد لي البائـع أنّه سـيحمي رئتي. لقد كلفنـي ما يعادل دولارًا ونصف الدولار. انتابني شعورٌ بالشَّكِّ.

لو كان غاندي حيًا، لأصابه الهلع ولكنه ما كان ليتفاجأ من هذه الحالة المؤسفة التي وصل إليها هواء الهند المزعوم. فقبل أكثر من قرن من الزمان، حـذّر من مخاطـر التصنيع. وقال: إنَّ مسـتقبل الهند يكمـن في قراها، لا في مدنهـا. ومن منظور اقتصادي بـارد، كان مخطئًا. فمدن الهند اليوم مزدهرة، وقراها فقيرة. غير أنَّك تستطيع أن تتنفس في القرى.

نمـرُّ بمجموعـةٍ صغيرةٍ تَفـترِشُ بطَّانيةً، على الرصيـف مباشرة. هناك فتـاة، لا يتجـاوز عمرها سـت سـنوات، تنظـر في كتاب. حافيـة القدمين، تغطيهـا طبقـة مـن الغبـار والقذارة. وشـابان يافعـان يشـيران إلى الكتاب ويتحدثان معها باللغة الهندية.

يشرحُ لي كايلاش قائلًا: «هؤلاء معلمون متطوعون». فالفتاة متسولة، لم تطأ قدماها عتبة مدرسـة قط، لذا يأتي هؤلاء المتطوعون بالمدرسـة إليها. لو كان غاندي حيًا، لوافق على هذا الفعل المتجرد عن الأنانية ولباركه. هذا هو شأن الهند دائمًا. فتمامًا حين تكون على وشك أن تفقد الأمل فيها، تتعثر في لطف غير متوقع وكرم لم يكن في الحسبان، فيُستعاد إيمانك من جديد.

نخطـو إلى داخـل إحدى محطات مترو دلهي. أشـعر وكأننـي ألج عالمًا آخـر. كل شيء هنـا لامع وجديـد ونظيف. يقـول كايلاش في فخـر: «إنَّه شريـان حيـاة دلهـي». نهـمُّ بالصعـود إلى عربة قطـار على وشـك المغادرة، ولكنني أتردد. إنَّها مزدحمة بشكل فظيع. هل ننتظر العربة التالية؟

يقول كايلاش: «كلا، فالعربة التالية ستكون مزدحمة بالقدر ذاته. إنّها أوقات الذروة». أشير إلى أنَّ اليوم هو الأحد. يقول كايلاش: «الهند»، كما لو أنَّ هذه الكلمة وحدها تفسر كل شيء، وهي بالفعل تفعل.

نحشر أنفسنا في الداخل، فأسمع تلك الكلمات المرحة التي لم أسمعها منذ كنت في لندن: «يرجى الانتباه إلى الفجوة». غير أنَّ الفجوات في الهند أوسع وأشد غدرًا، وتتطلب يقظة ذهنية وانتباهًا من نوع خاص.

***

لم يكنِ المهاتما غاندي شخصًا ذا موقف ملتبس تجاه الكثير من الأمور، إلا القطارات. فحين سألته امرأتان أمريكيتان عما إذا كان صحيحًا أنَّه يعارض السكك الحديدية، أجاب: «الأمر كذلك، وليس كذلك».

فمن ناحية، رأى غاندي في السكك الحديدية مجرد أداة أخرى تُبقي بها بريطانيا الهند تحت سيطرتها وقبضتها الحديدية. وشأنه شأن فلاسفة آخرين صادفتهم في قراءاتي، كان حذرًا من السرعة المفرطة. وقد تساءل قائلًا: «هل أصبح العالم أفضل حالًا بوجود أدوات الانتقال السريعة هذه؟ وكيف لهذه الأدوات أن تدفع بالتقدم الروحي للإنسان قُدُمًا؟ ألا تعيقه في نهاية المطاف وتضع العراقيل في طريقه؟». ولكنه من ناحية أخرى، كانت رحلاته بالقطار، التي كانت دائمًا تقريبًا في عربات الدرجة الثالثة، هي التي مكنته من أن يجوب الهند طولًا وعرضًا، وأن يلامس حياة الناس، وأن يحشد الجماهير من حوله.

وهناك رحلة قطار واحدة غيرت حياة غاندي، بل وغيرت مجرى التاريخ. كان ذلك في عام 1893. وكان غاندي قد وصل إلى جنوب أفريقيا

قبل أسبوع واحد فقط. أرسلته شركة المحاماة التي يعمل بها من ديربان إلى بريتوريا ليتولى قضية هامة. وقد حجزوا له تذكرة درجة أولى في رحلة ليلية. وحين وصل القطار إلى محطة ماريتسبورغ، دخل راكب أبيض إلى المقصورة، وألقى نظرة واحدة على غاندي، ثم استدعى مسؤول القطار، الذي أصر على أن ينتقل غاندي إلى عربة الدرجة الثالثة.

قال غاندي: «ولكني أحمل تذكرة درجة أولى». أجابه مسئول القطار: «لا يهم ذلك». ممنوع صعود «السود». رفض غاندي مغادرة مقصورته، فأخرجه شرطي من القطار.

كانت ليلة قارسة البرد. وكان معطف غاندي في أمتعته، ولكن كبرياءه منعه من أن يطلبه. وهكذا، ظل يرتجف من شدة البرد، غارقًا في تأملاته. هل يعود أدراجه إلى الهند، أم يبقى في جنوب أفريقيا ويحارب الظلم الذي ذاق مرارته لتوه؟

وبحلول الفجر، كان قد وجد جوابه: «سيكون من الجبن أن أعود هاربًا إلى الهند دون أن أفي بالتزامي. فالمشقة التي تعرضت لها كانت سطحية، لا تعدو كونها عرضًا من أعراض ذلك الداء العضال، داء التمييز على أساس اللون. ويجب عليّ أن أحاول، ما أمكن، أن أستأصل هذا الداء من جذوره، وأن أكابد المشاق في سبيل ذلك». في تلك اللحظة، اختار غاندي طريقه، وهو طريق ظل عليه لبقية أيامه، رغم ما اعترضه من عثرات، وما واجهه من انحرافات، وما شهده من اصطدامات عرضية.

وبعد عقود من الزمان، حين طلب المبشر الإنجيلي الأمريكي جون موت من غاندي أن يصف له أكثر التجارب إبداعًا في حياته، أشار غاندي

إلى حادثة القطار تلك في جنوب أفريقيا. وإنَّ في مساواته بين لحظة من العزم الهادئ وبين فعل الإبداع، لدلالة عميقة. فقد لاحظ بعض كُتَّاب سيرته افتقاره للاهتمام بالفنون؛ فنادرًا ما كان يقرأ رواية، أو يذهب إلى المسرح، أو يزور معرضًا فنيًا. لم يكن يمتلك تلك العين التي تُبصر الجمال عند ثورو، أو تلك الأذن التي تتذوق الموسيقى عند شوبنهاور. وفي لندن، التحق بدرس لتعلم الرقص، ولكنه سرعان ما اكتشف أنه لا يملك أي إحساس بالإيقاع.

غير أنَّه من الخطأ أن نستنتج أنَّ غاندي لم يكن مبدعًا. لقد كان كذلك، ولكن ليس بالطريقة المعتادة. كانت ريشة غاندي هي عزيمته، ولوحته التي يرسم عليها هي قلب الإنسان. وقد قال ذات مرة: «إنَّ الجمال الحقيقي هو أن تفعل الخير في مواجهة الشر». فكل عنف يمثل قصورًا في المخيلة، أمَّا اللاعنف فيتطلب إبداعًا. وكان غاندي دائمًا يبحث عن طرق جديدة ومبتكرة للكفاح والمقاومة.

***

نخرج من محطة مترو الأنفاق، وسرعان ما نضل طريقنا. يسأل كايلاش سائق عربة «ريكشا» عن الاتجاهات، ولكنه يمضي غير راضٍ عن الإجابة. نسير بضع ياردات أخرى، فنجد شرطيًا. يضع كمامة، تبدو من النوع الجاد، ذات فتحات تهوية. كمامتي ليس بها فتحات تهوية. أنهمك في حساب حجم الضرر الذي يلحق برئتي، بينما يسأل كايلاش الشرطي عن الاتجاهات.

يقترح الشرطي اتجاهًا معاكسًا تمامًا لما أشار به سائق الريكشا. يسأل

كايلاش -الذي لم يطمئن بعد- شخصًا ثالثًا عن الاتجاهات. ثم يشرح لي قائلًا: «أنا لا أسأل شخصًا واحدًا أبدًا، بل دائمًا ما أسأل شخصين أو ثلاثة». إن الحياة في الهند تتطلب «تثليثًا» مستمرًا للمعلومات. وغاندي، وهو المجرب العظيم الذي كان، قد عرف هذا الأمر أفضل من معظم الناس.

ندخل رحاب دار بيرلا القديمة، وهي أقرب ما يكون إلى بيت ومستقر بالنسبة لغاندي كثير الترحال. كانت الدار -وهي أشبه بمجمع سكني كبير- ملكًا لصديقه، الصناعي الثري ج. د. بيرلا.

تهبط عليّ سكينة مألوفة. لقد أتيتُ إلى هنا مرات عديدة من قبل، وإن كنت أجد صعوبة في العثور على المكان في كل مرة. ينجذب قلبي إلى هذا المكان، تمامًا كما ينجذب إلى غاندي، لأسباب أعجز عن تحديدها أو التعبير عنها. أحب مساحة العشب الشاسعة، والعلامات الحجرية البيضاء المنحوتة على هيئة قدمين، قدمي غاندي، وتلك الشرفات الفسيحة التي يمكنني أن أتخيل فيها «المهاتما»، ذلك الشاب الذي بلغ الثامنة والسبعين من عمره، يرتدي قبعته الكبيرة من القش و«الدوتي» الأبيض، منكبًا على رسالة يكتبها، أو يداعب أحد أحفاده، أو يساعد في قيادة تلك السفينة المهتزة التي كانت هي الهند الوليدة.

هناك أماكن تكتسب قداستها من إنجازات فوق بشرية -كشجرة البودي التي بلغ تحتها بوذا الاستنارة، على سبيل المثال- بينما هناك أماكن أخرى تكتسب قداستها بفعل أعمال عنف مروعة مثل: غيتيسبيرغ، ونورماندي. ودار بيرلا تندرج تحت هذه الفئة الأخيرة. فهنا خطا غاندي

خطوته الأخيرة، وهنا لفظ أنفاسه الأخيرة.

في آخر يوم من أيام حياته، استيقظ المهاتما غاندي في الثالثة والنصف صباحًا، كما كانت عادته دائمًا. نظّف أسنانه، مستخدمًا عود سواك بسيطًا، شأنه في ذلك شأن معظم الهنود. كان صباحًا باردًا من صباحات شهر يناير. لفته قريبته الشابة ومساعدته، مانو، بشال، مُغطيةً كتفيه البارزتي العظام. شرب كوبًا من الليمون والعسل، ثم تبعه بحصته اليومية من عصير البرتقال. كان نظامه الغذائي بسيطًا وصحيًا. فقد كان يريد أن يعيش حياة طويلة -حتى سن المئة والخمسة والعشرين، كما قال- وكان يريد أن يطهر نفسه. فالكفاح لا يكون فعالًا إلا بفعالية المكافح ذاته. وكما قال هو: «كيف لعود ثقاب رطب أن يشعل جذع شجرة؟»

***

كثيرًا ما يرافقني صديقي كايلاش إلى دار بيرلا. هو، كما قلت، صديق، ولكن الحال لم يكن دائمًا كذلك. فلفترة من الزمن، كان كايلاش خادمي.

أدرك أنَّ هذه الكلمات تبدو قاسية على الآذان الغربية، ولكنها الحقيقة؛ فـ«خادم» هي الكلمة التي كان الآخرون ينادون بها كايلاش، والتي كان هو ينادي بها نفسه.

التقينا قبل سنوات عديدة، في عام 1993. كنت قد وصلت لتوّي إلى الهند، كمراسل للإذاعة الوطنية العامة في دلهي. كان كل شيء فيها محمومًا وفجًا. كنت بحاجة إلى مكان أعيش فيه، ولكن الشقق التي رأيتها كانت إمّا باهظة الثمن، أو صاخبة للغاية، أو عرضة لهجوم صراصير طائرة بحجم الطيور الصغيرة. وأخيرًا، وجدت شقة ذات أبواب خشبية ثقيلة

وشرفة تطل على شارع لطيف. المالك، وهو رجل متغطرس تنبت من أذنه اليسرى خصلات من الشعر الأسود الخشن، أخذ يشير إلى مزايا الشقة، بما في ذلك المراحيض ذات الطراز الغربي، وتكييف الهواء، ثم أضاف، كأمر طبيعي لا يثير الدهشة، «وخادم».

وبعد بضعة أيام، صعد الخادم إلى الطابق العلوي بخطوات سريعة وأعلن عن استعداده للعمل. كان نحيلًا، نحافة تثير القلق، ذا بشرة بلون خشب الماهوغني وملامح حادة. كان اسمه كايلاش، وكان في الحادية عشرة من عمره. كنت مستعدًا للاختلافات الثقافية في الهند، ولكن ليس لهذا. بدأت بالنزول على الدرج لمواجهة المالك، لكن كايلاش أوقفني. ابقَ، قال لي، أو بالأحرى، أشار إليّ بذلك؛ فهو لم يكن يتحدث كلمة إنجليزية واحدة. بررت لنفسي الأمر قائلًا إن كايلاش، وهو يتيم، إن لم يعمل لديّ، فسيعمل لدى شخص آخر، ومَن يدري كيف سيعامله ذلك الشخص؟ بدا لي أنَّ التخلي عن كايلاش هو ضرب من التهرب الجبان من المسؤولية.

وهكذا، كان كايلاش يصعد الدرج كل ظهيرة ويطرق بابي. والحق يقال، لم يكن منظفًا بارعًا على الإطلاق، فلم يكن يزيل الغبار والأوساخ، بل كان يعيد ترتيبها في أماكنها فحسب. ولكنه كان طيبًا بطبعه، صادقًا، ثم تبين أنَّه ساحر في التعامل مع أجهزة الكمبيوتر المحمولة والطابعات متقلبة المزاج.

اكتسب كايلاش اللغة الإنجليزية من خلال استراق السمع إليّ وإلى زوجتي. وسرعان ما أخذ يردد كالببغاء تعابير عامية. ومع مرور الوقت، قصّ علينا حكايته: كيف مات والداه قبل سنوات، وكم كان يعشق لعبة

الكريكت، وكيف كان المالك يضربه إذا لم يطبخ خبز الشباتي كما ينبغي.

لست متأكدًا متى بالضبط قررنا أن نساعده، ولكن جلب معلم خاص لـه لم يكلفنا الكثير، وسرعان ما وجد كايلاش نفسه يتعلم لأول مرة منذ سنوات. ولاحقًا، حين انتقلنا إلى شقة أخرى، انتقل كايلاش معنا. كان، من الناحية الرسمية، لا يزال موظفًا لدينا، ولكنه في مرحلة ما بدأ يشير إلينا على أننا والداه. وقد جعلني هذا الأمر أشعر بشيء من عدم الارتياح، غير أنَّه لم يكن هناك مفر من الإقرار بأدوارنا الجديدة هذه.

لطالما تخيلت أنَّ علاقتي بكايلاش ستتبع مسارًا خطيًا، أشبه بسيناريو فيلم سينمائي محبوك: فتى هندي يتيم، يجمعه لقاء قدري بأمريكي كبير القلب؛ يكافح الفتى ليتغلب على مصاعب شبابه؛ ثم يثابر وينجح، ويبقى ممتنًا إلى الأبد لمساعدة ذلك الأمريكي كبير القلب. ولكن، بعد أكثر من عقد من مغادرتي للهند، كنا أنا وكايلاش لا نزال عالقين في الفصل الثاني من هذه المسرحية.

فبفضل تحويلاتي المالية ربع السنوية، كان كايلاش يعيش في شقة صغيرة في دلهي، شديدة البرودة في الشتاء وشديدة الحر في الصيف. وكان رفيقه الرئيسي كلبًا من فصيلة البوميرينيان اسمه «حسد». وحين أخبرني أنَّه قد رفض وظيفة لتقديم الشاي، وهي فرصة كان سيغتنمها دون تردد قبل أن يلتقيني، شعرت بالغضب ولكني لم أتفاجأ. لقد رفعت سقف توقعاته، وهو أمر محفوف بالخطر في بلد يضم أكثر من مليار نفس قلقة ومتململة.

كان أصدقائي الهنود يراقبون المشهد من على الهامش، متشككين في جهودي. قالوا لي، كما لو كان هذا مرضًا عقليًا: «أنت تفكر كأمريكي».

وأضافوا: «كايلاش من طبقة أدنى، ومن طائفة (هندوسية) أدنى. لن يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك. واجه الحقائق».

«إنهم على حق»، قلت لنفسي، مُحاولًا أن أتصالح مع إمكانية أن أظل أنا وهذا اليتيم الهندي مقيدين معًا مدى الحياة. ولكني مع ذلك، لم أستطع أن أنفض عني تلك الفكرة الساذجة بأن كايلاش سيغدو يومًا ما حرًا، وأن يبني لنفسه حياة من صنعه هو.

وقد فعل. لقد ثبت أنَّ مسار حياته كان أكثر وعورة وتعرجًا من النسخة الهوليوودية التي رسمتها في مخيلتي، ولكن النهاية كانت سعيدة بالقدر ذاته. يعيش كايلاش الآن في حي مقترن بالطبقة الوسطى. وهو زوج، وأب. ومالك عقار أيضًا؛ فهو يمتلك مبنى من طابقين، يعيش هو وعائلته في طابقه العلوي. وفي الطابق الأرضي، افتتح متجرًا صغيرًا للأدوات المكتبية أسماه «إيها»، على اسم ابنته. يبيع فيه دفاتر الملاحظات والأقلام، ومحافظ عليها صورة غاندي. لم أعد أنا وكايلاش مقيدين برباط مالي. فالرباط الذي يجمعنا الآن مصنوع من مادة أمتن وأبقى.

في هذا اليوم من أيام ديسمبر، الدافئ على غير العادة، نسير تحت رواق معمّد من الرخام الأبيض، يفضي بنا إلى المكان الذي لفظ فيه غاندي أنفاسه الأخيرة.

يعرف كايلاش هوسي بغاندي. وهو يرى في ذلك أمرًا مؤثرًا، وأظن أنّه يراه غريبًا بعض الشيء أيضًا. فمعظم الهنود يعرفون غاندي بنفس الطريقة التي يعرف بها معظم الأمريكيين جورج واشنطن: شخصية أبوية ضبابية الملامح، يُنطق اسمها بتبجيل واحترام، وتزين صورتها النقود في محافظهم.

نتوقف لبرهة، نلتقط أنفاسنا في ظلال المكان ونستشعر جماله الهادئ، فيستدير كايلاش ويسألني: «لماذا تحب غاندي-جي إلى هذا الحد؟»

لا أدري كيف أجيب. أعترف بأنَّ اهتمامي بغاندي لا يبدو منطقيًا للوهلة الأولى. فأنا لست هنديًا، ولست ناسكًا أو زاهدًا. صحيح أنني أمارس اللاعنف، ولكن بشكل غير متسق، وبنبرات لا تخلو من عدوانية سلبية. لقد كان غاندي قائدًا لشعبه، أما أنا فلا أقود أحدًا، ولا حتى كلبي باركر، الذي لا يستجيب إلا لسلطة أعلى: سلطة الطعام. إنَّ ممتلكات غاندي الدنيوية، وقت وفاته، كان يمكن أن تسعها حقيبة كتف صغيرة، أمَّا ممتلكاتي فتتطلب مساحة أكبر بكثير، وما زلت أتسوق. ورغم كل ذلك، فقد خاطبني غاندي، وأنا أصغيت.

وخلال السنوات الثلاث التي عشتها في الهند، تسرب غاندي إلى دماغي شيئًا فشيئًا. وكيف له ألا يفعل؟ فصورته، إن لم تكن أفكاره، كانت في كل مكان: على أوراق النقد، وفي المباني الحكومية. حتى مكاتب شركة الهاتف كانت تعرض صورة لغاندي وهو يستخدم هاتفًا، وسماعة الهاتف الضخمة تجعل رأسه الصغير يبدو قزمًا بجانبها.

لقد كان المهاتما غاندي أشياء كثيرة: محاميًا، ونباتيًا، و«سادهو» (زاهدًا هنديًا)، ومجرِّبًا، وكاتبًا، وأبًا لأمة، وصديقًا للجميع، لا عدو له، وعاملًا يدويًا، وراقصًا فاشلًا، وحامل نقالة في الحروب، ومتأملًا، و«ذبابة خيل» (بالمعنى السقراطي، أي ناقدًا مزعجًا يحفز على التفكير)، ومعلمًا، وطالبًا، وسجينًا سابقًا، ورحالة، وخياطًا، وضابطًا للوقت، ومهيجًا للجماهير. ولكنه، قبل كل شيء وفوق كل اعتبار، كان مقاتلًا. لقد حارب غاندي

البريطانيين، وحارب التعصب الأعمى، بين الأجانب وبين أبناء شعبه. وكافح لكي يُسمع صوته. غير أن معركته الكبرى كانت معركة تغيير الطريقة التي نقاتل بها.

أجل، لقد تخيل غاندي في نهاية المطاف عالمًا خاليًا من العنف، ولكنه كان واقعيًا بما يكفي ليعرف أنَّ هذا من غير المرجح أن يحدث قريبًا. وفي غضون ذلك، يتعين علينا أن نتعلم كيف نقاتل بشكل أفضل.

فكر في هذين الزوجين اللذين يتباهيان بأنَّهما «لا يتشاجران أبدًا». حين تسمع بخبر طلاقهما، فإنَّك لا تتفاجأ. فالشّجار، إذا تم على النحو الصحيح، يكون مثمرًا وبناءً. إذ يمكن لكلا الطرفين أن يصلا ليس فقط إلى حل يرضي الجميع، بل إلى ما هو أبعد من ذلك: إلى حل لم يكن أي منهما ليجده لو لم يتشاجرا في المقام الأول. تخيل مباراة كرة قدم تنتهي بالتعادل، ولكن مع ميدان أكثر اخضرارًا وصحة مما كان عليه قبل بدء المباراة. لم يرى غاندي في القتال شرًا لا بد منه، بل خيرًا لا بد منه. شريطة أن نحسن القتال.

حين التقى الصحفي وكاتب السّير الأمريكي لويس فيشر بغاندي في «الأشرم» الخاص به، فوجئ حين وجد أمامه رجلًا ذا بنية جيدة، عريض الصدر، ذا «ساقين طويلتين نحيلتين لكن لا تخلوان من العضلات البارزة»، وبدا أطول بكثير من قامته التي لم تتجاوز الخمسة أقدام والخمس بوصات. وقد كتب فيشر عنه قائلًا: «كان يبدو رجوليًا للغاية، ويمتلك تلك القوة الرجولية الفولاذية في الجسد وفي الإرادة».

لقد كان غاندي مهووسًا بالرجولة. فكلمات مثل «الرجولة» و«القوة»

و«الشـجاعة» تتردد كثـيرًا في كتاباته. حتى شـكواه من السـكك الحديدية الهندية كانت مصاغـة بمصطلحـات «سـلب الرجولـة». إذ يقـول: «إنَّ احتمالنا لمشـاق السفر بالسكك الحديدية في استكانة ووداعة لهو علامة على افتقارنا للرجولة».

لقد آمن غاندي بأنَّ البريطانيين قد سلبوا الهند رجولتها، وكان مصممًا على أن «يعيد إليها رجولتها»، وإن كان يقصد نوعًا مختلفًا تمامًا من الرجولة: رجولة تستمد قوتها لا من العنف، بل من نقيضه.

لقـد اعتبر غاندي أنَّ إطاعة القوانين الجائـرة «أمر لا ينم عن رجولة». فـلا بد مـن مقاومة هذه القوانـين، وبقوة عظيمة. قوة لاعنفيـة. وهذا، كما قـال، يتطلـب شـجاعة حقيقيـة. وقد تسـاءل قائـلًا: «برأيكم أيـن تكمن الشجاعة؟ في أن تنسف الآخرين إلى أشلاء وأنت تقف خلف مدفع، أم في أن تقترب من فوهة المدفع بوجه باسـم لتتناثر أنت لأشـلاء؟ صدقوني، إنَّ رجلًا خاليًا من الشـجاعة والرجولة لا يمكن أبدًا أن يكون مقاومًا سـلميًا صامدًا».

لقد كان غاندي يمقت العنف أشد المقت، ولكن كان هناك شيء يمقته أكثـر: الجبـن. فإذا خُيّر بـين الاثنين، لفضل العنف. «فالجبـان»، كما يقول: «أقل من أن يكون رجلًا». ومن هنا يتجلى هدف غاندي الحقيقي: استعادة رجولـة أمتـه المفقودة، ولكـن بشروطها الخاصة هي. افعـل ذلك، كما كان يؤمن، وستتبعك الحرية.

***

أمَّا أنا، فلسـت بمقاتل. أتجنب المواجهات الجسدية. والشجار الوحيد

بالأيدي الذي خضته في حياتي كان في السابعة عشرة من عمري، في الساعة الثانية صباحًا، في موقف سيارات مطعم «هاورد جونسون» في إحدى ضواحي بالتيمور، وانتهى بكسرٍ في أنفي. بل إني لأتهرب من المواجهات اليومية الأكثر اعتيادية أيضًا: كأن أتصل بشركة طيران لتغيير رحلة، أو بمطعم لأبلغهم بأنني سأتأخر بضع دقائق عن حجزي في الساعة الثامنة مساءً، وهل يمكنهم لطفًا، إن لم يكن في ذلك إزعاج كبير، أنَّ يحجزوا لي الطاولة؟

أُدرك أنَّ معظم الناس، الناس العاديين، لا يعتبرون هذه الأنواع من التفاعلات اليومية «تصادمية». أمَّا أنا فأفعل، وأتجنبها كلما أمكن ذلك. وينطبق الشيء ذاته على المواجهات (أو المواجهات المتوقعة) التي أتجنبها مع المحررين، والعائلة، والجيران، وزملائي من ركاب مترو الأنفاق. لست متأكدًا أين ومتى اكتسبت استراتيجية التجنب هذه، ولكنها لم تخدمني قط. فبتجنبي للمواجهات الصغيرة اليوم، أهيئ نفسي لمواجهات أكبر بكثير غدًا. كنت آمل أن يريني خبير عالمي في فن المواجهة مثل غاندي، طريقًا آخر.

بعد فترة وجيزة من انتقالي إلى الهند، بدأت أقرأ لغاندي، وعن غاندي. وسرعان ما تحولت حفنة من الكتب إلى ما يملأ خزانة كتب كاملة. زرت متاحف غاندي و«الأشرمات» التي أقام فيها. التحقت بمساقات جامعية عنه. اشتريت محفظة عليها صورته، وقميصًا عليه صورته، وحتى ملابس داخلية عليها صورته، وهي أقل ملابس داخلية عنفًا امتلكتها في حياتي! وذات يوم، بينما كنت في دلهي، تناولت الغداء مع حفيده راجموهان، وهو

رجل واسـع الاطلاع ولطيف، وقد أصبح هو نفسـه طاعنًا في السن الآن. وبينما كنا نقضم خبز النان ونتناول صلصة التشاتني، لمحت فيه لمحات من «المهاتما»: الطريقة التي كان بها خط فكه مائلًا بزاوية معينة، والطريقة التي كانت تبرق بها عيناه، بنظرة جانبية خفيفة لا تخلو من دهاء ومرح.

نحـن لا نُعجَب بالآلهة. قد نجلّهم أو نخشـاهم، لكننا لا نُعجَب بهم. إننا نُعجَب بالبشر الفانين، أولئك الذين هم نسخٌ أفضل من أنفسنا. لم يكن غانـدي إلهًا، ولا قديسًـا أيضًا. ففي الثانية عـشرة من عمره، سرق مالًا من والديـه وأخيه ليشـتري سـجائر. وكان يتسـلل ليأكل اللحـم (المحرم على أفـراد طائفتـه)، فيمضـغ لحـم الماعز على ضفـاف النهر بصحبـة صديق له كان، مثل غاندي، مقتنعًا بأنَّ النظام الغذائي غير النباتي هو سر قوة الرجل الإنجليزي.

وفي سـن الثالثة عـشرة، تزوج غاندي. لم يكن زوجًـا صالحًا، فقد كان يثـور في نوبـات غيرة غاضبة ضد زوجتـه، كاسـتوربا. وذات مرة، هددها بطردهـا مـن المنزل مـا لم تقم ببعض الأعـمال المنزلية. صاحـت باكية: «ألا تخجل من نفسك؟ إلى أين عساي أن أذهب؟»

لقـد كان «أبـو الأمـة» أبًا سيئًا لأبنائه. وفي السـاحة السياسـية أيضًا، ارتكب أخطاءً. وقد وصف إحدى حملاته الفاشلة بأنَّها «غلطتي الهيمالائية» (أي غلطـة بحجم جبال الهيمالايا). أمَّا عن تجاربه، فقد ذهب بعضها بعيدًا جدًّا. ففي الخامسـة والسـبعين من عمره، قرر أن يختبر نـذره بالعزوبية من خلال النوم عاريًا مع نساء شابات، بما في ذلك قريبته الشابة مانو.

ولكنـه كان رجـلًا يعـترف بنقائصـه ويتقبلها. كان رجلًا لا يخشـى أن

يغير رأيه. كان رجلًا اجتذب إليه «غريبي الأطوار، وأصحاب البدع، والمجانين»، واحتضنهم جميعًا. كان رجلًا تغلب على خجل رهيب وشك عميق في الذات، ليقود أمة بأسرها. كان رجلًا على استعداد لأن يموت، لا أن يقتل، من أجل قضية يؤمن بها. كان رجلًا تحدى إمبراطورية عظمى، وانتصر. كان رجلًا –لا إلهًا ولا قديسًا، بل رجل من لحم ودم– أرشد العالم إلى كيف يبدو القتال النبيل.

لقد كان غاندي نهمًا من الناحية الروحية، ذا شهية منفتحة على كل المذاهب. تذوق العديد من الأطايب الدينية، من المسيحية إلى الإسلام، ولكنها كانت «البهاغافاد غيتا» الهندوسية هي التي أشبعت جوعه الروحي على نحو موثوق ودائم.

وقد صادف غاندي هذه القصيدة الروحية لأول مرة بينما كان يدرس القانون في لندن. سأله بعض الثيوصوفيين الإنجليزيين (من أتباع مذهب الحكمة الإلهية) عن هذا الكتاب المقدس. اعترف محرجًا بأنه لم يقرأه. وهكذا، جلسوا معًا، يقرأون ترجمة إدوين آرنولد الإنجليزية. لقد سافر غاندي غربًا، لكي يجد الشرق.

أخذ حب غاندي لـ«أمنا الغيتا»، كما كان يسمي هذه القصيدة الروحية، ينمو ويزداد. لقد كانت مصدر إلهامه، وعزاءه الذي يلجأ إليه. «حين تساورني الشكوك»، كما كتب، «وحين تحدق خيبات الأمل في وجهي، وحين لا أرى بصيص أمل واحدًا في الأفق، ألجأ إلى البهاغافاد غيتا، فأجد فيها آية تعزيني وتواسيني؛ وعلى الفور أبدأ في الابتسام في خضم الحزن الغامر».

إنَّ قصـة «الغيتـا» بسـيطة في حبكتهـا. فالأمـير أرجونـا، وهو محارب عظيـم، يقـف عـلى أهبـة الاسـتعداد لخوض معركـة فاصلـة، ولكنـه قد خارت عزيمته وفقد أعصابه. فلم يكن قد سئم من إراقة الدماء فحسب، بـل اكتشـف أيضًـا أنَّ الجيش المقابل يضـم جنودًا من عشـيرته، فضلًا عن أصدقاء محبوبين ومعلمين مبجلين. فكيف له أن يقاتلهم؟ هنا، يتقدم الرب كريشـنا، متنكرًا في هيئة سـائق عربـة أرجونا الحربية، فيسـدي إليه النصح والإرشاد. وتتكشف فصول القصة كحوار بينهما.

أمَّـا التفسـير التقليـدي لـ«الغيتا»، فـيرى أنَّها دعـوة إلى أداء الواجب، حتى لو كان ذلك يعني اللجوء إلى العنف إذا لزم الأمر. ففي نهاية المطاف، ينجح كريشنا في إقناع أرجونا بشن الحرب على أقربائه.

لكـن غانـدي قرأها قـراءة مختلفة. فالغيتـا، كما قال، هـي قصة رمزية، تصور «ما يحدث في قلب كل إنسان اليوم». فساحة المعركة الحقيقية تكمن في الداخـل. وصراع أرجونـا ليس مع العدو الخارجي، بل مع نفسـه. فهل يستسلم لنوازعه الدنيا، أم يرتقي إلى مستوى أسمى؟ إن الغيتا، كما خلص غاندي، لهي قصيدة مقنّعة في مديح اللاعنف.

ومـن المبادئ الجوهرية الأخرى في «الغيتـا» مبدأ عدم التعلق بالنتائج. فكما يقول الرب كريشـنا، وهو تجسـيد للإله، للأمير أرجونا: «لك الحق في العمل، ولكن ليس لك أبدًا الحق في ثمرة العمل. ولا ينبغي لك أن تنخرط في فعل من أجل المكافأة، كما لا ينبغي لك أيضًا أن تتوق إلى الخمول وعدم الفعل». افصل العمل عن نتائجه، هكذا تعلمنا الغيتا. استثمر مئة بالمئة من جهدك في كل مسعى، وصفرًا بالمئة بالضبط في النتائج.

وقد لخص غاندي هذه الرؤية في كلمة واحدة: «انعدام الرغبة». وهي ليست دعوة إلى الكسل أو الخمول. فـ«الكارما يوغي» (أي من يمارس اليوغا من خلال العمل) هو شخص فاعل. إنَّها تفعل الكثير، إلا القلق بشأن النتائج.

لكن هذه ليست طريقتنا. فنحن أناس نركز على النتائج، وتوجهنا الغايات. مدربو اللياقة البدنية، ومستشارو الأعمال، والأطباء، والكليات، ومحلات التنظيف الجاف، وبرامج التعافي، وأخصائيو التغذية، والمستشارون الماليون، كل هؤلاء، وكثيرون غيرهم، يعدوننا بالنتائج. قد نشكك في قدرتهم على تحقيق هذه النتائج، ولكننا نادرًا ما نشكك في الافتراض الكامن وراء ذلك كله، وهو أنَّ التركيز على النتائج أمر جيد في حد ذاته.

أمَّا غاندي، فلم يكن موجهًا نحو النتائج، بل كان موجهًا نحو العملية ذاتها. لم يكن يهدف إلى استقلال الهند، بل إلى «هند جديرة بالاستقلال». وما أن يتحقق ذلك، فإنَّ حريتها ستأتي بشكل طبيعي، كثمرة مانجو ناضجة تسقط من شجرة. لم يكن غاندي يقاتل ليفوز، بل كان يقاتل ليخوض أفضل معركة كان قادرًا على خوضها. والمفارقة هي أنَّ هذه المقاربة التي تركز على العملية ذاتها تحقق في نهاية المطاف نتائج أفضل من تلك التي تركز على النتائج وحدها.

***

أمَّا جهودي البطولية لتأمين مقعد على متن «قطار اليوغا السريع»، فلا تزال تثبت أنَّها عقيمة. لا أزال رقم واحد على قائمة الانتظار. لا أزال

أغـرق. أحـدّث التطبيق عـلى هاتفـي. لا شيء. أضغط مرة أخـرى، ومرة أخرى، شـأني شأن أحد تلك الجرذان التي لا تكف عن سحب رافعة، على أمل الحصول على لقمة صغيرة. لكن بلا جدوى.

مـاذا كان غاندي ليفعل؟ كان سـيقاتل. وهو قد قاتـل بالفعل. فإذ راعه مـا رأى من أحوال مزرية في عربات الدرجة الثالثة، جعل من نفسـه «مصدر إزعاج تام». اشـتكى إلى خطوط السـكك الحديدية الهندية مـن دورات المياه «كريهـة المظهر»، ومن المرطبات «قذرة المنظر»، ومن ذلك الشيء الذي يُدعى شـايًا، والذي لم يكن سـوى «ماء رديء مع سـكر قذر وسـائل أبيض المظهر يُدعـى زورًا حليبًـا، وهو ما أعطـى هذا الماء مظهرًا موحـلًا عكرًا». كتب إلى المديرين، والمديرين العامين، والمديرين التنفيذيين. وكتب إلى الصحف.

لذا، أثابر، كما كان غاندي ليفعل بالتأكيد. أقفز إلى سيارة أجرة وأزحف ببـطء عـبر المدينة. إنَّ حركة المرور في دلهي كثيفـة اليوم، وهي عبارة بديهية تمامًا كقولك «الهواء ملوث اليوم» أو «مترو الأنفاق مزدحم اليوم». فهناك اتساق كئيب معين يكمن وراء عشوائية الهند الظاهرة.

أصـل إلى المحطة لأجد تلـك الفوضى المنضبطة المعتـادة، وهي فوضى يمكـن الاعتماد عليها تمامًا كحركة المرور الكثيفـة والهواء الملوث. أمر عبر نقطـة تفتيـش أمنية تـؤدي كواجب روتينـي، فيطلق جهاز كشـف المعادن صافرته. يلوح لي الحارس بالمرور. يلوح بعينيه، خشية أن يرهق نفسه.

أسـبح عكـس تيار مـن البشر، ثـم أصعد مجموعـة من السـلالم. لافتة خارج أحد المكاتب تقول: «المكتب الدولي للسـياح. حجوزات القطارات للسياح الأجانب». آخذ مقعدًا، وأنضم إلى الرحالة حاملي حقائب الظهر،

أولئك الذين بدت عليهم علامات الإرهاق ورثاثة الهيئة.

وحين يُنادَى عليّ لأتقدم إلى شباك التذاكر، أبرز استمارة قائمة الانتظار الخاصة بي كما لو كانت شهادة مدرسية ذات درجات عالية أو بطاقة يانصيب رابحة.

أقول: «أنا رقم واحد».

يرد الرجل القابع خلف الشباك: «أرى ذلك»، غير مكترث على الإطلاق. كان السيد روي رجلًا مقتضبًا، عمليًا لا يعرف الهزل. يخبرني أننا في موسم الأعياد، دون أن يضيف، بالطبع، أنَّ الهند، موطن حفنة من الديانات الكبرى وعدد لا يحصى من الديانات الصغرى، هي في موسم أعياد دائم. ثم يبلغني بأنَّ هناك تذكرة واحدة متاحة في الدرجة الثانية على متن قطار آخر، هو «قطار راجداني السريع». ويؤكد لي السيد روي قائلًا: «إنَّه قطار جيد جدًا». أنا متأكد من أنَّه كذلك. ولكنه، مع ذلك، ليس «قطار اليوغا السريع»، وقلبي معلق بقطار اليوغا السريع ذاك. يسألني السيد روي: «ماذا تريد أن تفعل يا سيد إريك؟»، وهو يشير إلى الرحالة الذين ينتظرون دورهم خلفي، كما لو كان يقول: «لست الشخص الوحيد في هذه البلاد التي تضم مليار نسمة». أجد نفسي عالقًا في حيرة من أمري. يقول السيد روي، والتهيج قد بدأ يتسرب إلى نبرة صوته: «حسنًا؟ هل تريد التذكرة؟»

«أرجوك امنحني ثانية واحدة. أنا أفكر».

«التفكير جيد جدًا يا سيد إريك، ولكن أرجوك، فكر بسرعة».

***

حين قال غاندي: «أنا لا أمثل أي حقائق جديدة»، لم يكن يتحدث من باب التواضع فحسب. فهو لم يبتكر مفهوم «الأهيمسا ahimsa»، أو اللاعنف؛ فهذا المفهوم يعود إلى آلاف السنين. ففي القرن السادس قبل الميلاد، ناشد مهافيرا، وهو قائد روحي للديانة الجاينية، أتباعه بألا «يؤذوا أي مخلوق أو كائن حي أو يسيئوا معاملته، أو يضطهدوه، أو يستعبدوه، أو يهينوه، أو يعذبوه، أو يقتلوه».

لقد عرف غاندي الجاينيين؛ فقد كانوا يترددون على منزل طفولته بانتظام، وكان أحد مرشديه الروحيين جاينيًا. كما قرأ غاندي لتولستوي عن الحب، ولثورو عن العصيان المدني. فاللاعنف لم يكن جديدًا، ولكن تطبيق غاندي له كان هو الجديد. فما كان قد اختُزل في الهند إلى مجرد قاعدة غذائية، أي النظام النباتي، «انبثق من بين يدي غاندي كسلاح -سلاح عالمي- لمحاربة الظلم»، كما يشرح حفيده راجموهان غاندي.

في البداية، أطلق غاندي على أسلوبه الجديد اسم «المقاومة السلبية»، ولكنه سرعان ما أدرك أنّه بحاجة إلى اسم آخر. فلم يكن هناك أي شيء سلبي فيها، أو فيه هو. كان غاندي دائمًا يفعل شيئًا ما: يمشي، ويصلي، ويخطط، ويعقد الاجتماعات، ويرد على المراسلات، ويغزل قماش الخادي. حتى تفكير غاندي كان له صفة حركية، تنعكس في عينيه اليقظتين ووجهه المعبر الذي كان «مرآة متلألئة»، كما قال أولئك الذين قابلوه. وحين ألحّ صحفي على غاندي ليقدم له موجزًا لفلسفته، وجد صعوبة في الإجابة قبل أن يقول: «أنا لا أصلح للكتابات الأكاديمية. فالفعل هو ميداني».

وفي نهاية المطاف، استقر غاندي على اسم جديد لنوعه المبتكر من

المقاومة اللاعنفية: «ساتياغراها». فكلمة «ساتيا» باللغة السنسكريتية تعني «الحقيقة»؛ وكلمة «أغراها» تعني «الثبات» أو «التمسك بقوة». أي «قوة الحقيقة» (أو «قوة الروح»، كما تُترجم أحيانًا). نعم، كان هذا هو ما يدور في ذهن غاندي. لم يكن في الأمر أي شيء سلبي أو رخو. لقد كانت قوة فاعلة، «أعظم قوة وأكثرها فعالية في العالم». فـ«الساتياغراهي»، أي المقاوم اللاعنفي، هو أكثر فعالية ونشاطًا حتى من الجندي المسلح وأكثر شجاعة. فأن تسحب زنادًا، كما قال غاندي، لا يتطلب شجاعة عظيمة أو ذكاءً فذًا. فالشجعان الحقيقيون وحدهم هم مَن يعانون طواعية، ليغيروا قلبًا بشريًا. لقد كان جنود غاندي، كجنود أي جيش في كل مكان، على استعداد للموت من أجل قضيتهم. ولكنهم، على عكس معظم الجنود، لم يكونوا على استعداد للقتل من أجلها.

«هذه أمور تحدث في الثورة»، هكذا يُروى أنَّ لينين قال، في معرض دفاعه عن الإعدامات الجماعية التي أمر بها. أمّا في ثورة غاندي، فلا مكان لمثل هذه الأمور. فقد كان يُفضّل أن يرى الهند باقية في أغلال بريطانيا على أن تنال استقلالها بوسائل دموية. وقال غاندي: «ما من إنسان يُسقِط آخر في حفرة، دون أن يهوي هو فيها». فحين نعامل الآخرين بوحشية، فإننا نعامل أنفسنا بوحشية. ولهذا السبب تفشل معظم الثورات في نهاية المطاف؛ إذ تخلط بين الوسائل والغايات، فتلتهم نفسها بنفسها وتأكل بنيها. أمّا بالنسبة لغاندي، فإنَّ الغايات لم تبرر أبدًا الوسائل، بل كانت الوسائل هي الغايات. «فالوسائل غير الطاهرة تفضي إلى غايات غير طاهرة. إننا نحصد بالضبط ما نزرعه». فكما لا يمكنك أن تزرع شجيرة ورد في تربة سامة، لا يمكنك أن تبني أمة مسالمة على أرض ملطخة بالدماء.

لقد كان غاندي، شأنه شأن روسو، رحالة يمشي طوال حياته. ولكنه، على عكس روسو، كانت خطواته سريعة وهادفة. كانت مشية للاحتجاج ذات العزيمة. ففي صباح أحد أيام عام 1930، انطلق غاندي وثمانون من أتباعه من «الأشرم» الخاص به في أحمد آباد، متجهين جنوبًا نحو البحر. كانوا يقطعون اثني عشر ميلًا في اليوم، وأحيانًا أكثر. وحين بلغوا الساحل، كان عدد الأتباع الثمانين قد تضخم ليصبح عدة آلاف. شاهدوه وهو يستحم في بحر العرب، ثم يغرف حفنة من الملح من الترسبات الطبيعية، في انتهاك صارخ للقانون البريطاني. لقد شكلت «مسيرة الملح» العظيمة تلك نقطة تحول على طريق الاستقلال. لقد سار غاندي ليدخل قلوب الناس المتعاطفين معه في كل مكان.

وبعد ذلك بوقت قصير، أعلن غاندي عن نيته الإغارة على مملحة داراسانا، بالقرب من بومباي. وقد شهد ويب ميلر، مراسل وكالة يونايتد برس إنترناشونال، هذه المواجهة بأم عينيه. لقد راقب أتباع غاندي وهم يقتربون من أكوام الملح في صمت. كانت الشرطة في انتظارهم.

أمرهم الضباط بالتراجع، لكنهم واصلوا التقدم. وفجأة، عند صدور الأمر، اندفع عشرات من رجال الشرطة المحليين نحو المسيرة المتقدمة، وأمطروا رؤوس المتظاهرين بالضربات بهراواتهم ذات الأطراف الفولاذية. لم يرفع واحد من المتظاهرين ذراعه لصد الضربات. تساقطوا كأقماع البولينج. «ومن حيث كنت أقف»، كتب ميلر، «سمعت صوت ارتطام الهراوات المقزز بالجماجم العارية. أولئك الذين سقطوا، هووا على الأرض ممددين، فاقدين للوعي أو يتلوون من الألم بجماجم مكسورة أو

أكتاف مهشـمة. أمَّا الناجون، فدون أن يكسروا صفوفهم، واصلوا السير بصمت وعناد، حتى سقطوا هم أيضًا».

وبينما كان يشاهد هذا المشهد المروع يتكشف أمامه، صارع ميلر مشاعر متضاربـة. «إنَّ العقل الغربي ليجد صعوبة في اسـتيعاب فكرة اللامقاومة. لقد شـعرت بإحسـاس لا يمكن تحديده من الغضب العاجز والاشمئزاز، وهو اشـمئزاز موجه تقريبًا ضد الرجال الذين كانوا يستسـلمون للضرب دون مقاومة، بقدر ما هو موجه ضد الشرطة التي كانت تلوح بالهراوات».

ومثل ميلر، قد تتسـاءل أنت أيضًا: مـا الخطب في أتباع غاندي؟ لماذا لم يردوا على الضربات؟

«لقـد فعلوا»، هكـذا كان غاندي لـيرد، «ولكن بشـكل لاعنفي». لقد واجهـوا الشرطـة بمجرد حضورهـم وبنواياهم السـلمية. فلـو أنَّهم ردوا على الضربات جسـديًا، لكانوا قد أثـاروا مزيدًا من الغضب لدى الشرطة؛ غضبًـا، سـيصبح في أذهانهـم الآن، مـبررًا. لقـد رأى غانـدي في مثل هذا التصعيد أمرًا سـخيفًا. فأي انتصار يُكتسـب بالوسـائل العنيفة هو انتصار وهمي؛ إنَّه لا يفعل شيئًا سوى تأجيل وصول الفصل الدموي التالي.

إنَّ تليين القلوب يستغرق وقتًا. والتقدم ليس دائمًا مرئيًا للعين المجردة. فبعد الإغارة على مملحة داراسـانا، وذلك الرد الوحشي الذي قوبلت به، لم يبدُ أنَّ شـيئًا قد تغير. كانت الهند لا تزال مستعمرة بريطانية. ولكن شيئًا ما كان مختلفًا. لقد فقدت بريطانيا مكانتها الأخلاقية السـامية، وفقدت معها شـهيتها لإراقـة دماء أولئـك الذين رفضـوا بثبات أن يردوا عـلى الكراهية بالكراهية.

لم ينظـر غاندي قط إلى اللاعنف على أنـه مجرد تكتيك، أو «ثوب يُلبس ويُخلع حسـب الرغبـة». إنَّه مبـدأ، قانون لا يمكـن انتهاكه، تمامًـا كقانون الجاذبيـة. وإذا كان على حق، فإننا نتوقع أن تنجح المقاومة اللاعنفية في كل مكان، وفي كل زمان، تمامًا كما تعمل الجاذبية سـواء كنت تعيش في لندن أم في طوكيـو، في القرن الثامن عـشر أم في القرن الحادي والعشرين. فهل هي كذلك حقًا، أم أنَّ غاندي كان حالة فريدة لا تتكرر، أو مجرد ضربة حظ؟

في عـام 1959، سـافر مارتن لوثر كينغ جونيـور إلى الهند والتقى بأتباع غاندي، ومن بينهم أفراد من عائلة المهاتما. وقد تركت هذه الرحلة انطباعًا عميقًـا في نفـس كينغ، وبعد بضع سـنوات، وظّف ذلـك «الحب الصارم» للمقاومـة اللاعنفيـة في حركـة الحقـوق المدنيـة. وقـد نجـح اللاعنف في أماكـن أخـرى أيضًـا: في الفلبـين في الثمانينيـات، وفي أوروبـا الشرقيـة في أوائل التسـعينيات. وفي دراسة شاملة تناولت نحو ثلاثمئة حركة لاعنفية، وجدت الباحثتان إيريكا تشينويث وماريا ستيفان أنَّ هذه الاستراتيجية قد نجحت في أكثر من نصف الحالات (وكانت ناجحة جزئيًا في ربع آخر من الحالات التي درساتاها).

ولكـن هنـاك حالـة واضحـة لم ينجـح فيهـا اللاعنف، بـل لم يكن من الممكـن له أن ينجح، وهي حالة أدولـف هتلر. ففي عامي 1939 و1940، كتب غاندي سلسـلة من الرسـائل إلى هتلر، يحثه فيها على أن يسلك طريق السـلام. وبعـد ذلـك بوقت قصـير، وفيما يُعـد بالتأكيـد واحدة مـن أكثر العبارات الخاطئة في التاريخ، قال غاندي: «لا أعتقد أنَّ السيد هتلر بالسوء الـذي يُصوَّر به». وحتى بعد الحرب العالميـة الثانية، حين أصبحت فظاعة

المحرقة (الهولوكوست) معلومة للجميع، اقترح غاندي أنَّ اليهود «كان ينبغي عليهم أن يقدموا أنفسهم لسكين الجزار. كان ينبغي عليهم أن يلقوا بأنفسهم من البحر إلى الصخور... وكان ذلك سيثير ضمير العالم وشعب ألمانيا».

فماذا عسانا أن نقول إزاء مثل هذه التعليقات المضللة والساذجة بوضوح؟ وهل كان ذلك «الفقير نصف العاري»، كما أسماه تشرشل، مجرد دجال؟

لا أعتقد ذلك. فمن الخطأ أن نرفض أفكاره لمجرد أنّها لا تنجح في كل مكان وفي كل زمان. فلعل قانون الحب عند غاندي أقل شبهًا بقانون الجاذبية، وأكثر شبهًا بقوس قزح: ظاهرة طبيعية لا تتجلى إلا أحيانًا، تحت ظروف معينة، ولكنها حين تتجلى، لا يكون في الوجود شيء أجمل منها.

***

لقد تعلمت الكثير عن قوة المقاومة اللاعنفية من كلبي، باركر. فهو، وإن كان سلالة هجينة من كلب «بيغل» وكلب «باسيت هاوند»، فإنّه غاندي الهوى مئة بالمئة. يمتلك باركر عناد المهاتما، والتزامه باللاعنف. ومثل غاندي، يعرف باركر تمامًا أين يريد أن يمشي، ومتى يريد أن يمشي هناك. فإذا ما اقترحت عليه اتجاهًا بديلًا، فإنّه يعبر عن استيائه بأن يلقي بثقله الذي لا يستهان به على قائمتيه الخلفيتين ويرفض أن يتزحزح قيد أنملة. وأحيانًا، يتمدد على بطنه، ويمد قوائمه إلى الأمام، ويشيح بعينيه عني. وهو يؤدي هذه المناورة -التي أسميها «غاندي الكامل»- في الأماكن العامة: على الأرصفة، وفي متاجر الحيوانات الأليفة، وفي وسط

الشوارع المزدحمة. إنَّه لأمر محرج للغاية.

باركر لا يعض. ولا يضرب بمخلبه. ولا ينبح أو يزمجر. إنَّه يجلس هناك فحسب، يقاوم بسلام وإصرار. فهو لن يؤذيني، ولكنه في الوقت ذاته لن يساعدني.

أمَّا ردة فعلي، فأعترف أنَّها تشبه تمامًا ردة فعل «الراج» البريطاني في الهند. أشعر بالإحباط. ثم بالغضب. إنَّ باركر، مثل غاندي، يجري تجربة، وأنا موضوع هذه التجربة. كيف سأستجيب لهذا الاستفزاز الهادئ تمامًا، والمثير للغضب في آن واحد؟ بالغضب؟ بالعنف؟ وإذا فعلت، فمتى سأدرك حماقة انفجاري هذا؟ لعل اليوم، ولعل غدًا. لا يهم. فباركر لديه كل الوقت.

لو أنَّه ثار في وجهي، لكانت التجربة أقل فائدة. فلو انشغلت بسخطي وغضبي -لقد عضضتني!- لغابت عني رؤية مسؤوليتي أنا عن الموقف، ولكان قلبي قد ازداد قسوة. إن رفض باركر الثابت للرد بالمثل أو التراجع، ليكشف لي عيانًا عن قدرتي أنا على العنف، وما أن تنكشف هذه القدرة، يصبح بمقدوري أن أرفضها عن وعي وإدراك. فنحن لا نستطيع أن نرفض إلا ما نستطيع أن نراه. وباركر، ذلك الصغير الماكر، يساعدني على أن أرى.

لم يكن يكفي، في نظر غاندي، أن نرفض العنف فحسب. بل يجب علينا أن نجد طرقًا إبداعية لنحول خصومنا إلى أصدقاء. فمعظم العنف لا ينبع من دافع لا أخلاقي، بل من قصور في المخيلة. فالشخص العنيف هو شخص كسول، غير راغب في القيام بالعمل الشاق لحل المشكلات، فيلجأ إلى توجيه لكمة، أو يمد يده إلى مسدس. كلها استجابات مبتذلة ومكررة.

لو نظر غاندي إلى مأزقي مع باركر، لحثني على التفكير بشكل إبداعي. على أن أجرّب.

وهذا ما فعلته، ويسعدني أن أقول إنَّه، بعد بضع تجارب فاشلة، تلاشت نوبـات «غاندي الكامـل» التي كانت تنتاب باركر. نعـم، لا يزال ميالًا إلى نوبـات من العناد والتمرد، ولكنها لا تدوم طويلًا، فقد اكتشـفت أنَّه، على عكس المهاتما، يمكن رشوة باركر بقطع الحلوى بنكهة اللحم المقدد.

هـل هذا غـش؟ لعل الأمر كذلك، ولكني أفضل أن أفكر فيه كشـكل من أشـكال القتال الإبداعي. فباركـر يحصل على ما يريد، وأنا أحصل على ما أريد: أن أعود إلى المنزل. حل غير كامل، ربما، ولكنه حل جيد. لقد شبّه غانـدي ذات مرة حركته اللاعنفية بـ«خط إقليـدس»، ذلك الخط الذي لا عرض له. لم يرسمه إنسان قط، ولن يرسمه أبدًا. إنَّه مستحيل. ولكن فكرة الخط ذاتها، شأنها شأن مُثُل غاندي، لها قيمة لا تُقدّر. إنَّها تُلهم.

***

أجلـس أنـا وكايلاش على مقعـد خارج دار بيرلا في صمـت. إنَّه ذلك الصمت المريح الذي يجمع بين شـخصين لهما تاريخ مشـترك؛ فلا يشعر أي منا بأنَّه مجبر على ملء الفراغ بالكلمات.

يخـبرني كايـلاش أنَّ معظم الهنود لا يقـدرون غاندي حق قـدره. إنَّهم يُقـدّرون النقـود التـي تزينها صورته. هـذا كل ما في الأمـر. «يقول الناس إنَّ غانـدي كان جبانًـا. ويعتقدون: ‹إذا كان الشـخص الآخـر أقوى مني، يجـب أن أكـون مثل غاندي. أمَّا إذا كنت أنا الأقـوى، فيمكنني أن أفعل ما أريد›. وهذا، للأسف، سوء فهم شائع. فاللاعنف عند غاندي كان سلاح

الأقوياء، لا الضعفاء.

ومـاذا عـن كايلاش؟ مـا رأيه هو في غانـدي؟ يقـول: «غاندي حكيم جدًا. إنَّه يمتلك دماغًا نظيفًا». أبتسم لكلمة «نظيف» هذه. لقد قال غاندي ذات مرة إنَّ على الهند أن «تكون الرائدة في العمل النظيف القائم على الفكر النظيف». حين قرأت تلك العبارة لأول مرة، حيرتني وأربكتني. ماذا كان يقصد؟ وكيف يمكن للفكر والعمل أن يكونا «نظيفين»؟

بالفكـر النظيـف، كان غانـدي يعنـي ذلك الفكـر الخالي مـن «العنف المسـتتر». قد نتصرف بسلام تجاه شخص ما، ولكن إذا كنا نضمر في قلوبنا أفكارًا عنيفة، فإنَّنا لسنا «أنقياء» أو «نظيفين». لقد نهى أتباعه ذات مرة عن الصيـاح بعبارة «العار، العار» في وجه من يختلفون معهم. ولو كان غاندي بيننـا اليـوم، لما نظـر بعين العطـف إلى أولئـك الذين يزعجون السياسـيين الذيـن لا يحبونهم أثناء تناولهـم وجباتهم. فهؤلاء المحتجـون قد لا يؤذون أحـدًا جسـديًا، ولكنهم لم يفعلوا سـوى أن «ارتدوا عبـاءة اللاعنف» على ظواهرهم.

أمَّا أفكاري أنا، فنظيفة كنقاء هواء دلهي تقريبًا. ففي كثير من الأحيان، أذعن لرغبات الآخرين لتجنب المواجهة، ثم أسجل استيائي بأن أغلي غيظًا في صمـت. أقاتل في الخفاء، وبشـكل غـير نظيف. أبدو وديعًـا، ولكني في داخلي عدواني. لم يكن غاندي عدوانيًا-سـلبيًا، بل كان عدوانيًا في ظاهره، مسـالمًا في باطنه. فأفعاله كانت تبدو عدوانية، أو على الأقل حازمة، ولكن ما أن تخدش السطح حتى لا تجد أي حقد أو ضغينة، بل حبًا خالصًا فقط.

في سـيرته الذاتية، يسـتحضر غانـدي تلك المرة التي كتـب فيها مذكرة

إلى أبيه، يعترف فيها بسرقته وتدخينه للسجائر وأكله للحم. ويده ترتجف، سلم غاندي أباه قصاصة الورق. استوى الأب جالسًا ليقرأ المذكرة، وبينما كان يفعل، «انسابت قطرات لؤلؤية على خديه، فبللت الورق»، كما يروي غاندي. «لقد طهرت تلك القطرات اللؤلؤية من الحب قلبي، وغسلت خطيئتي. ووحده من اختبر مثل هذا الحب يمكنه أن يعرف كنهه».

إنَّ مثل هذا الحب نادر، ونادرًا ما يوجهه المرء إلى الداخل، إلى ذاته. وبصفتي شخصًا كثيرًا ما يكون قاسيًا على نفسه، فقد وجدت في معرفتي بأنَّ غاندي هو الآخر كان يصارع نوبات من كراهية الذات، ما يبعث على الأمل ويشجع النفس. فخلال نوبات الغضب، كان أحيانًا يلكم صدره بقوة. ولكنه تجاوز هذا الإيذاء للذات، وفي أواخر حياته، نصح صديقًا له قائلًا: «لا تفقد أعصابك مع أي شخص، ولا حتى مع نفسك».

***

إنَّ معظمنا لا يخوض معارك ضد إمبراطوريات. فمعاركنا أكثر اعتيادية ويومية، ولكنها، بالنسبة لنا، لا تقل أهمية عن تلك المعارك الكبرى. ولحسن الحظ، فإنَّ فلسفة غاندي في المقاومة اللاعنفية تصلح أيضًا للشجارات الزوجية، والخلافات المكتبية، والضجات السياسية.

دعنا نتناول خلافًا بسيطًا من منظور غاندي. أنت وشريكتك تخرجان لتناول العشاء احتفالًا بمناسبة هامة. أنت تريد طعامًا هنديًا، وهي تريد طعامًا إيطاليًا. أنت تعلم علم اليقين أنَّ المطبخ الهندي هو الأفضل، بينما شريكتك على نفس القدر من اليقين بأنَّ الطعام الإيطالي هو الأشهى. هناك صراع. فما العمل؟

إنَّ أسرع الحلول هو «الانتصار القسري». يمكنك أن تجبر شريكتك على تناول العشاء معك في مطعم «أحلام بومباي» بأن تحشرها في كيس من الخيش. ولكن لهذه المقاربة جوانبها السلبية. وبدلًا من ذلك، يمكنك أن تصر على الطعام الهندي، نقطة، انتهى النقاش. ولنفترض أنَّ شريكتك قد وافقت. لقد فزت، أليس كذلك؟

كلا، لم تفعل. فهذا الهدوء المتوتر الذي يخيم على مائدة العشاء ليس سوى وهم. فما من أحد يحب أن يُجبر على الخضوع بالقوة. «فما يبدو وكأنَّه نهاية للخلاف قد يكون مجرد بداية لفصل جديد في الصراع»، كما يقول مارك لويرغنسماير، مؤلف كتاب «طريق غاندي: كتيب لحل النزاعات». وبلجوئك إلى «العنف المستتر»، فإنَّك لا تؤذي شريكتك فحسب، بل تؤذي نفسك أيضًا.

وعلى النقيض من ذلك، يمكنك أن «تسترضي» شريكتك بالموافقة على الذهاب إلى مطعم إيطالي، ولكنك ستمضي الأمسية بأكملها وأنت تغلي غيظًا في داخلك. وهذه النتيجة ليست سوى شكل آخر من أشكال العنف؛ والأسوأ من ذلك، أنَّه عنف غير صادق، عنف «غير نظيف». فأن تقاتل من أجل مبادئك خير لك من أن تتظاهر بأنَّه ليس لديك أي مبادئ على الإطلاق.

قد تقترح حلًا وسطًا، مطبخًا يابانيًا على سبيل المثال. ولكن هذا يعني أنَّ أيًا منكما لن يحصل على ما يريده حقًا، وفي غضون ذلك، فإنَّ الصراع الكامن تحت السطح سيظل يتقيح ويتفاقم. لقد كان غاندي حذرًا من مثل هذه التسويات؛ فهو كان يؤيد الأخذ والعطاء، ولكن ليس حين يتعلق

الأمر بمبادئ المرء. فالتنازل عن المبادئ هو استسلام، أو كما قال هو: «عطاء بلا أخذ». أمّا الحل الأفضل والأكثر إبداعًا، فهو ذلك الذي يحصل فيه كلا الطرفين على ما لم يكونا يعرفان أنّهما يريدانه.

كان غاندي ليقترح عليك أن تتراجع خطوة إلى الوراء. افحص موقفك، واضعًا في اعتبارك أنّك لا تملك سوى جزءًا يسيرًا من الحقيقة. فهل أنت متأكد تمامًا من أنَّ الطعام الهندي هو الأفضل؟ لعل للمطبخ الإيطالي مزايا لم يتسنَ لك أن تقدرها بعد. افحص موقفك تجاه شريكتك أيضًا. هل تراها خصمًا أم عدوًا؟ فإن كانت الثانية، فتلك هي المشكلة. «فالخصم»، كما قال غاندي، «ليس سيئًا دائمًا لمجرد أنّه يعارضك». لقد كان لغاندي خصوم كثيرون، ولكن لم يكن له أعداء. لقد سعى جاهدًا ليرى ليس فقط أفضل ما في الناس، بل خيرهم الكامن أيضًا. كان يرى الناس لا كما هم، بل كما يمكنهم أن يكونوا.

كن مبدعًا، هكذا كان غاندي لينصح. يمكنك، على سبيل المثال، أن تقدّم حجتك لصالح الطعام الهندي، مؤكدًا كيف أنّه سيكون جيدًا ليس لك وحدك، بل لشريكتك أيضًا. فلعلها لم تتناوله منذ فترة، أو لعل هناك طبقًا جديدًا في مطعم «أحلام بومباي» لم تجربه بعد. قدّم حجتك بلطف ورقة، فهدفك، كما يقول غاندي، ليس الإدانة، بل التحويل القلبي.

***

حان الآن وقت الظهيرة، وقد ازدادت شمس دلهي قوة وحرارة. أسأل كايلاش عن المشاحنات التي خاضها في حياته. فأنا على يقين من أنّه قد نال نصيبه منها. فالمتسع من المكان هو أندر سلعة في الهند. وأرواح الهند المليار

والثلاثمئة مليون -شأنهم شأن «شياهم شوبنهاور»- تحسب باستمرار المسافة المثالية التي ينبغي أن تفصل بينها وبين الآخرين. إنَّه علم غير دقيق وغير كامل. فأحيانًا، لا بد لك من أن تُوخَز.

حين كان كايلاش يرتاد المدرسة الداخلية الفرنسيسكانية التي ألحقته بها أنا وزوجتي، كان يدخل في شجارات عرضية بالأيدي مع الفتيان الآخرين بسبب زوج من الجوارب المسروقة أو قميص قطني. أمَّا الآن، وقد أصبح مالك بيت ومؤجِّرًا، فلم يعد بحاجة إلى أن يقلق بشأن الجوارب المسروقة. غير أنَّ المال لا يحررنا من الخلافات. كل ما يفعله هو أنَّه ينقلها إلى ساحات أغلى ثمنًا. وهكذا هو الحال مع كايلاش.

يخبرني عن خلاف له مع إحدى المستأجرات. لقد طلب منها أن تطفئَ النور خارج متجرها بعد أن تغلق أبوابه، ذلك أن أحد الجيران كان يتخذ من النور ذريعة ليركن سيارته هناك، سادًا بذلك مدخل «متجر إيها للأدوات المكتبية».

«قلت لها: ‹أرجوكِ أطفئي النور›، مرارًا وتكرارًا». غضبت هي، لكن كايلاش ظل هادئًا. لبرهة. وذات يوم، رآها تغادر مرة أخرى دون أن تطفئ النور. وحين طلب منها ذلك، أشارت إلى أنَّها هي، لا كايلاش، مَن يدفع فاتورة الكهرباء. صرخ في وجهها، فصرخت هي الأخرى في وجهه. لم يكن نزاعًا على طريقة غاندي.

أسأل كايلاش: «هل كان لديها حجة؟ هل كانت على حق؟» يقول: «كانت على حق، ولكنها في الوقت ذاته كانت على خطأ».

هذا، في رأيي، رد غاندي بامتياز. فكل طرف في أي صراع يمتلك

شريحة من الحقيقة، لا الفطيرة بأكملها. وبدلًا من أن نتبادل الشرائح، علينا أن نهدف إلى تكبير الفطيرة.

***

في الساعة الأخيرة من اليوم الأخير من حياته، التقى المهاتما غاندي بوزير في الحكومة الهندية الجديدة. وبعد ذلك، أحضرت له مانو العشاء: أربع عشرة أونصة من حليب الماعز، وأربع أونصات من عصير الخضروات، وثلاث برتقالات. وبينما كان يأكل، كان يغزل قماش الخادي بمغزله، أو «الشاركا». ثم انتبه إلى الوقت -كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساءً ببضع دقائق- فهب واقفًا على قدميه. لقد تأخر عن صلاته المسائية، وكان غاندي يكره التأخير.

وسار متكئًا على كتفي قريبتيه الشابتين -«عكازايّ»، كما كان يسميهما بحنان- إلى ساحة الصلاة، حيث كان عدة مئات من أنصاره في انتظاره. رفع غاندي يديه عن كتفيهما، وضمهما في تحية «الناماستي» التقليدية، محييًا الحشد.

في تلك اللَّحظة، اقترب من غاندي رجل بدين يرتدي سترة كاكية. ظنت مانو أنَّ الرجل كان ينوي أن يلمس قدمي غاندي في إظهار للتبجيل والاحترام. فقد كان ذلك يحدث كثيرًا، وكان غاندي يكرهه. إذ كان يقول: «أنا إنسان عادي. لماذا تريدون أن تلتقطوا غبار قدمي؟»

تدخلت مانو، مؤنبة الرجل لأنه يؤخر غاندي أكثر. سألته: «هل تريد أن تحرجه؟»

وردَّ الرَّجـلُ بأن دفعها بقـوةٍ لدرجة أنَّها تعثرت وسـقطت إلى الوراء، فسـقطت مـن يدها مسـبحة غانـدي وعلبـة نظارتـه. وبينما كانـت تنحني لتلتقطهـا، دوت ثلاث طلقـات نارية في تتابع سريع. مـلأ الدخان الهواء، وكما تستذكر مانو: «ساد الظلام». وسُمع غاندي، الذي كان لا يزال واقفًا ويـداه مضمومتان في تحية، وهو يتلفظ بكلـمات «هاي رام»، أي «يا إلهي»، قبل أن ينهار ساقطًا على الأرض.

إنَّ خطـوات غانـدي الأخيرة مخلدة هنا. إذ يمتـدُّ ممرٌّ من بصماتِ أقدامٍ حجريَّةٍ بيضاءَ على طول ممشـى عشـبي، وينتهي حيـث أصابته رصاصات القاتـل. أقـف أنـا وكايـلاش الآن عـلى آخر علامتـين حجريتـين. قدمان حافيتان: واحدة سمراء، وأخرى بيضاء. أشعر ببرودة الحجر على جلدي، وليسـت هـذه المـرة الأولى ولا الأخـيرة التي أتسـاءل فيها عـن سر أماكن الموت هذا، الذي أجده سلميًا وهادئًا إلى هذا الحد.

يسألني كايلاش: «هل كنت لتفعلها؟»

«أفعل ماذا؟»

«أن تعيـش مـع غاندي. هـل كنت لتنضـم إلى ‹الأشرم› الخـاص به لو أُتيحت لك الفرصة؟»

لقـد كان لغاندي ملايـين المعجبين، ولكن أتباعـه المقربين لم يتجاوزوا المئـات. فالحيـاة مع غانـدي كانت شـاقة ومتطلبـة. كان عـلى المريدين أن يلتزموا بأحد عشر نذرًا، تتراوح بين السهل (عدم السرقة)، والصعب نوعًا ما (العمل الجسـدي)، والشـاق المرهق (العفة). وكما رأينا، لم يكن غاندي دائمًا رجلاً لطيفًا، بل كان متطلبًا، وقاسـيًا في بعض الأحيان. وقد قال أحد

أتباعه: «أن تعيش مع غاندي هو أن تمشي على حد السيف». فهل أنا قادر على مثل هذا الفعل البهلواني الذي يتطلب توازنًا دقيقًا؟ أتساءل.

أقول لكايلاش: «نعم. كنت سأنضم إلى غاندي».

وبينما أسمع كلماتي، كما لو أنَّ شخصًا آخر قد نطق بها، أدرك أنَّها حقيقية. فأحيانًا لا ندرك الحقيقة حتى ننطق بها.

كنت سأنضم إلى غاندي؛ لا رغم متطلبات مثل هذه الحياة، بل بسببها. إنني أقضي وقتًا طويلًا وأصرف مالًا كثيرًا سعيًا إلى زيادة راحتي، بينما أعلم في قرارة نفسي أنَّ هذا ليس ما أحتاجه. ماذا قال أبيقور؟ «لا شيء يكفي ذلك الرجل الذي يرى أنَّ ما يكفي أقل من اللازم». عند وفاته، كانت ممتلكات غاندي الدنيوية تتألف من نظارته، ووعاء خشبي (لتناول وجباته)، وساعة جيبه، وثلاثة قرود خزفية صغيرة أتته من صديقٍ ياباني، ترمز إلى: «لا أرى شرًا، لا أسمع شرًا، لا أتكلم شرًا».

***

أستنشقُ هواءَ دلهي الثَّقيلَ، وأُلقي نظرةً من نافذةِ سيَّارة الأُجرةِ على حركة المرور، التي تبدو اليوم أشدَّ ازدحامًا من المعتاد. نحن في طريقنا إلى محطة القطار. لقد أصر كايلاش على أن يودعني، رغم أنَّ الوقت متأخر. لم أقاوم.

وبينما نحن ننتظر القطار، أمعن النظر في كايلاش. لم يعد ذلك الفتى النحيل الضئيل الذي قابلته لأول مرة قبل كل تلك السنوات. لقد امتلأ جسده، ونضج. لقد أصبح رجلًا، رجلًا صالحًا. أرى فيه لمحات من

غانـدي. الإصرار، الانفتـاح على طرق التفكير الجديـدة، الصدق الذي لا يتزعزع، الطيبة الفطرية.

لا أذكر هذه الملاحظة لكايلاش. سـيراها سـخيفة، أنا متأكد، بل وربَّما تجديـف. سـيقول «غاندي-جـي؟ أنا؟ لم يكـن هناك سـوى غاندي-جي واحد».

لعـلَّ الأمـر كذلك، ولعلَّـه ليس كذلـك. فغاندي لم يرَ نفسـه قط حالة فريـدة مـن نوعها (*sui generis*). لم يكن إلهًا أو قديسًـا. لقد كان ببسـاطة رجـلًا جـرّب طرقًا جديـدة للكفاح والقتـال، وجرّب تلك القـوة الجبارة المسماة بالحبِّ. لقد كان آينشتاين القلب.

يدخـل قطـار إلى المحطة، فتتسـارع تلك الحركة المحمومـة التي كانت تعـج بهـا أرصفـة المحطـة: حمّالـون يجـرّون حقائب سـفر بحجـم قوارب صغيرة؛ وباعة شـاي ينادون بنبرات غنائيـة، آملين في بيع كوب أو كوبين؛ وعائلات يمسـك أفرادها بأيدي بعضهم البعض خشـية أن يجرفهم سـيل البـشر المتدفق. يتباطـأ القطار حتى يتوقف. لافتة عـلى جانبه تقول: «قطار راجداني السريع».

كنت قد قررت أن أقبل عرض السيد روي للتذكرة الأخيرة المتبقية على متن «القطار الجيد». القطار الذي هو ليس «قطار اليوغا السريع». لقد كان الأمر استسلامًا، بشكل أو بآخر، انحناءة أمام الواقع. لقد خسرت المعركة. فشـلت. مثل غاندي. فحلمه بانتقال سلمي إلى هند موحدة لم يتحقق قط. وفي أيامه الأخيرة، شـعر بأنَّه تائه في «عالم متألم، تتقاذفه العواصف». وكاد اليأس أن يغرقه.

ورغم ذلك، لم يتوقَّف قطُّ عن القتال والكفاح. فحين كان الهنود يحتفلون بالاستقلال عند منتصف ليل 15 أغسطس 1947، قضى غاندي يومه صائمًا، مصليًا. وبعد ذلك بوقت قصير، جاب الأمة الوليدة طولًا وعرضًا، بالقطار وعلى قدميه، محاولًا أن يوقف النزيف. لقد حقق وسائله، وإن لم يحقق كل غاياته.

إنَّ الكيفيَّة التي تقاتل بها أهم من الشيء الذي تقاتل من أجله. ولقد قاتلت أنا قتالًا حسنًا. فقد أدركت ظلمًا وواجهته. وكافحت بإبداع و«نظافة» ضد خصم عنيد صعب المراس، ألا وهو: خطوط السكك الحديدية الهندية. لم ألجأ إلى العنف، مهما تملكتني الرغبة في ذلك. صحيح أنَّ النتائج لم تكن كما أردت، ولكن الرَّغبة ذاتها، لا النتائج، هي التي تكمن في جذور معاناتي. وعلاوة على ذلك، ستكون هناك معارك أخرى. فهناك دائمًا معارك أخرى.

يساعدني كايلاش في حمل أمتعتي على متن القطار، مذكرًا إيَّاي بأن أغلق حقائبي بإحكام خلال الرحلة الليلية. أعده بأن أفعل. نتعانق عناق الوداع قبل أن يقفز من القطار إلى الرصيف. أراقبه لثوانٍ معدودة، ثم يختفي، وقد ابتلعته ليلة دلهي الدافئة، تلك الليلة الكثيفة بتلوثها، وبشعبها: أرواح لا حصر لها في حركة دائبة، تتفاوض على مساحات ضيقة وعلاقات معقدة، تحب وتقاتل، وتقاتل وتحب، عادةً في تتابع، ولكن، بين الفينة والأخرى، في آنٍ واحد.

***

قام المهاتما غاندي برحلة قطار أخيرة. فبعد ثلاثة عشر يومًا من اغتياله،

وُضع رماده على متن قطار متجه إلى مدينة «الله أباد»، عند ملتقى ثلاثة أنهار مقدسة. مثوى غاندي الأخير.

على طول الطريق، تدافع الناس وتهافتوا ليلقوا نظرة خاطفة على القطار، والدموع تملأ أعينهم، وأيديهم مضمومة في تحية «ناماستي» أخيرة. وفي الليل، كان القرويُّون يوقدون النِّيران والمشاعل ويهتفون: «المهاتما غاندي، كي-جاي!» أي «النصر لغاندي». أمَّا القطار، الذي جُهِّز خصيصًا لهذه الرحلة، فقد تألف بأكمله من عربات الدرجة الثالثة.

الفصل التاسع

كيف تكون لطيفًا مثل كونفوشيوس

5:34 مساءً. في مكان ما في مانهاتن السفلى. على متن قطار الأنفاق «إف» بمدينة نيويورك، في طريقي إلى لا مكان.

لقد مضى وقت طويل وأنا أستقل القطار «إف»؛ أطول مما قد يُنصَح به معظم رُكَّاب المواصلات اليومية، بل وأخصائيو الصحة النفسية. لقد استقللت القطار إلى جامايكا في كوينز، وإلى كوني آيلاند في بروكلين، وإلى أماكن كثيرة بينهما. فلأسبوع كامل، كان القطار «إف» هو بيتي.

لست مجنونًا، أؤكد لكم. أنا رجل في مهمة. أنا أبحث عن اللطف والطيبة. وأعترف بأنَّ مترو أنفاق مدينة نيويورك هو مكان من غير المرجح أن تجد فيه اللطف. فالكثيرون يعتبرونه عالمًا سفليًا لا قلب له. ولهذا السبب أنا هنا. إذ أظن أنك إذا استطعت أن تجد اللطف في مترو أنفاق نيويورك، فيمكنك أن تجده في أي مكان.

أمسح محيطي بعيني ثورو وأذني شوبنهاور، مترقبًا أدنى بادرة من بوادر اللطف. يصعد ثلاثة شبان إلى العربة. من الواضح أنهم زملاء عمل. ألتقط قصاصات من حديثهم. «عليها أن تستقيل...». «كلا ينبغي أن تُطرد». لا لطف هنا.

ألمح رجلًا من أصول لاتينية يرتدي قبعة فريق «نيويورك يانكيز»، يصطدم براكب آخر دون قصد. يقول: «عفوًا». أمسح المشهد بعيني. امرأة

تحمل كلبًا أبيض صغيرًا تضمه إلى صدرها، تتعثر، ثم ترتطم بما لا يقل عن ثلاثة ركاب ككرة البينبول. تقول: «آسفة». كلاهما كان مهذبًا بالتأكيد، ولكن هل كانا لطيفين؟ فالتهذيب هو مُليّن اجتماعي، أما اللطف فهو غراء فائق القوة يجمع بين القلوب. والثقافات المهذبة ليست بالضرورة ثقافات لطيفة.

الشاب الجالس بجانبي يرتدي سترة ذات قلنسوة وبنطال جينز ممزق. سماعات الأذن مثبتة بإحكام في أذنيه، وهو منحنٍ إلى الأمام، نائم. أو هكذا أظن. وحين يقترب مراهق يبيع ألواح الحلوى لجمع المال لمدرسته، ينتفض الشاب فجأة، ويستخرج ورقة دولار من جيبه، ويسلمها للمراهق. ثم، ودون أن يضيع لحظة، يعود إلى موسيقاه وإلى انحناءته. أذكّر نفسي، مرة أخرى، بأن أشكك دائمًا في افتراضاتي.

***

رفيقي في رحلتي على متن القطار «إف» هو مجموعة كتابات غريبة غير متجانسة تُعرف باسم «المحاورات». وهي السبيل الذي من خلاله نعرف كونفوشيوس. فهو لم يكتبها، بل فعل ذلك تلاميذه، الذين استخلصوا حكمته حتى بلغوا جوهرها، ولعلهم أضافوا إليها مسحة من آرائهم الخاصة، تمامًا كما أضفى أفلاطون نكهته الخاصة على حوارات سقراط. إنَّ «المحاورات» هي خير ما يُقرأ في مترو الأنفاق؛ فهي، إذ تتألف من سلسلة من الحوارات القصيرة والأقوال الموجزة الذكية، يمكن هضمها بسهولة قطعة قطعة، بين محطة وأخرى. بل إن إيقاع الكتاب المتقطع المتشنج ليعكس إيقاع القطار «إف» ذاته. ففي لحظة، تجد كونفوشيوس يُسهب في

الحديث عن فضائل برِّ الوالدين، وفي اللحظة التالية، ينصحك بلون الرداء الذي ينبغي لك أن ترتديه.

من المغري أن تستنتج أن الكتاب يخلو من أي موضوعات موحدة أو أفكار متماسكة. ولكنه، في الحقيقة، ليس كذلك. فالقطار «إف» قد يتحرك في نوبات وتوقفات، ولكنه مع ذلك يتجه إلى مكان ما، وكذلك يفعل كونفوشيوس.

حين نصل إلى محطة «إيست برودواي» في مانهاتن، أنزل من القطار وأصعد الدَّرج، فتستقبلني واحدة من تلك الأيّام القاسية التي تأتي في أوائل الربيع ولكنها تبدو وكأنها من صميم الشتاء. أُحكم سحّاب سترتي وألف وشاحي بإحكام، ثم أتجه غربًا، باحثًا عن الرجل.

بعد بضعة مربعات سكنية، أنعطف عند زاوية، فيتضاءل حجمي أمام مجمع سكني وتجاري ضخم ذي طابع جمالي لا شخصي، سوفييتي المظهر. إن «ساحة كونفوشيوس» هذه لتمتلك كل سحر محطة حافلات عامة كئيبة. أمرُّ من أمام «مركز كونفوشيوس للرعاية النهارية الاجتماعية» و«صيدلية كونفوشيوس»، ثم أنعطف يمينًا عند «متجر كونفوشيوس للزهور»، وهناك، محشورًا بين «محلات كونفوشيوس للبصريات» و«محلات كونفوشيوس للمستلزمات الجراحية»، أجد... كونفوشيوس.

لا بدَّ أنَّ ارتفاعه يبلغ عشرة أقدام، ولكنه بطريقة ما لا يجعلني أشعر بالضآلة. يزدان التمثال بلحيته التي هي علامته الفارقة، طويلة ونحيلة، أنيقة وفوضوية في آنٍ معًا. يداه معقودتان، وعيناه حكيمتان. ومن حيث يقف، موجهًا نظره صوب شارع «باوري»، فإنَّ عيني كونفوشيوس

الحكيمتين تريان كل شيء. تريان «متجر الأختين لين للأعشاب» و«بنك أباكوس الفيدرالي للادخار». تريان «استوديو رقص الصالات» وتريان «مخبز المنّ الذهبي». وهما تريان اللطف أيضًا: في زمرة من أطفال المدارس، في الخامسة من أعمارهم، يرعاهم الكبار، بينما تهبُّ ريح باردة عبر ساحة كونفوشيوس.

أتوقف عند قاعدة التمثال، حيث كُتب نقشٌ باللغتين الصينية والإنجليزية يقول: «فصل الانسجام الأعظم». في هذا المقطع، يتخيل كونفوشيوس مدينة فاضلة يكون فيها الحكام حكماء، والمجرمون خائفين، والجميع كأسرة واحدة. لقد كانت رؤية جريئة، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أنّه في ذلك الوقت -القرن الخامس قبل الميلاد- كان اللطف فكرة مستحدثة وغريبة.

أقف هناك لوقت طويل، غافلًا عن برد الرَّبيع القارس، أتخيل في ذهني هذا العالم الكامل، وذلك الرَّجل غير الكامل الذي تصوره قبل زمن طويل، طويل جدًا.

***

لقد عاش كونفوشيوس حياة صعبة، حتى بمقاييس الفلاسفة. فقد وُلد في كنف عائلة ميسورة الحال إلى حدّ ما، ولكن حين بلغ الثالثة من عمره، توفي والده، الذي كان ضابطًا عسكريًا. فتولَّت أمه تربيته، وكافحت جاهدة لتغطية نفقاتهم. وقد ساعدها كونفوشيوس بأن شغل عددًا من الوظائف الوضيعة. وطوال ذلك الوقت، عكف على دراسة الكلاسيكيات الصينية مثل كتاب «آي تشينغ»، أو «كتاب التغيرات».

وحين نظر حوله، رأى شعبًا قد تشظّى إلى فصائل متحاربة، وحكامًا كان اهتمامهم بالمكاسب الشخصية يفوق اهتمامهم بالصالح العام. لم يكن هذا، في رأيه، أمرًا لا أخلاقيًا فحسب، بل كان أيضًا غير عملي. لقد شعر كونفوشيوس بأنَّ هناك طريقة أفضل، كما يقول الصحفي مايكل شومان في سيرته الذاتية الممتازة عنه: «فالسيوف والدروع لن تكسبك إمبراطورية؛ والضرائب الباهظة والعبودية العسكرية لن تستقطب ولاء الرعايا. إنَّ الإحسان والخلق القويم هما الطريق الصحيح والوحيد إلى السلطة والهيبة». وقد أعلن كونفوشيوس قائلًا: «لقد ضللنا «الطريق». وعلينا أن نعود إلى المسار الصحيح».

قوبلت رسالته هذه بصمتٍ يصمُّ الآذان. بل إنَّ الفساد وسوء الحكم، إنْ كانا قد تغيَّر حالهما، فقد ازدادا سوءًا. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لكونفوشيوس في هيئة فتيات راقصات، أُرسلت المئات منهنَّ من دولة مجاورة. فانشغل بهنَّ الحاكم المحلي، وتغيَّب عن بلاطه الملكي لثلاثة أيام.

قال كونفوشيوس: «لم ألتقِ بعد برجل يحب الفضيلة كما يحب الجنس»، ثم غادر في منفى دام ثلاثة عشر عامًا. سافر من ولاية إلى أخرى، عارضًا خدماته كمستشار حكيم على أي حاكم يُصغي إليه. لكن لم يصغِ إليه أحد.

عاد كونفوشيوس إلى دياره، منهكًا ولكن غير مهزوم. قرَّر أن يمتهن التدريس، ولله الحمد على ذلك. فلو أنَّه نجح في الحصول على منصب كمستشار ملكي، لربَّما ما عرفناه اليوم. لم يكن يرفض أي طالب، بغض النظر عن خلفيته أو قدرته على الدفع. كانت الرسوم الدراسية حزمة

صغيرة من الحرير أو قطعة من اللحم المقدد.

كان لكونفوشيوس حضور مهيب يبعث على الرهبة في قاعة الدرس. فـ«المعلم»، كما كان يُعرف، بدا وكأنه «متزمتٌ متحذلقٌ، شديد التدقيق لا يكلُّ في مسائل الأدب والأصول»، كما يكتب شومان. لم يكن يجلس على بساط غير مستقيم، وكان يحافظ على استقامة جلسته ووقاره، حتى حين يكون بمفرده. وحين رأى شابًا يجلس «وقد باعد بين ساقيه»، وبَّخه كونفوشيوس، واصفًا إياه بـ«الآفة»، وضربه على ساقه بعصاه ضربة خفيفة.

ولكن «المعلم» كان يمكنه أيضًا أن يكون لطيفًا، بل ومرحًا خفيف الظل. فقد كان يغني ويعزف على العود. وكان يضحك ويمزح مع أصدقائه، ويجد المتعة في أبسط تفاصيل الحياة اليومية: كأن يتوسَّد مرفقه، على سبيل المثال، وهو يأكل أرزًا خشنًا.

لقد فصلت آلاف الأميال بين كونفوشيوس وسقراط، غير أنَّ الفيلسوفين كان بينهما الكثير من القواسم المشتركة. فقد كانا شبه معاصرين؛ إذ وُلِد سقراط بعد أقل من عقد على وفاة كونفوشيوس عام 479 قبل الميلاد. وكلاهما شغل مكانة محفوفة بالمخاطر، فكان موضع إعجاب تلاميذه، وموضع ريبة النخب الحاكمة. وكلاهما اتبع أسلوبًا تعليميًا غير رسمي، يعتمد على الحوار والمحادثة. وكلاهما شكَّك في المسلمات والافتراضات السائدة. وكلاهما ثمَّن المعرفة كثيرًا، ولكنه ثمَّن الاعتراف بالجهل أكثر. ولم يكترث أيٌّ منهما بالتكهنات الميتافيزيقية. (فحين سأل طالب كونفوشيوس عن الحياة الآخرة، أجابه المعلم: «إذا كنت لا تستطيع أن تفهم الحياة، فكيف لك أن تفهم الموت؟»). وكلاهما

كان شـديد التدقيـق في أهمية التعريفات. وقد قال كونفوشيوس في ذلك: «إذا لم تكن الكلمات قويمة، فإنَّ الأحكام لا تكون واضحة».

لقـد كانـت للكلمات أهميتهـا عند كونفوشـيوس، ولكـن لم تكن هناك كلمـة أهـم مـن «ريـن» (*ren*). فقد ظهـرت هـذه الكلمـة 105 مرات في «المحـاورات»، أي أكثـر بكثـير من أي كلمـة أخرى. ولا يوجـد لها ترجمة مباشرة (فكونفوشـيوس نفسـه لم يعرّفها صراحة قط)، ولكن كلمة «رين» قد تُرجمت بشكل مختلف إلى الشفقة، والإيثار، والحب، والإحسان، والخير الحق، والفعل الكامل. أمَّا ترجمتي المفضلة فهي «رقة القلب الإنساني».

إنَّ الشـخص الـذي يتصـف بـ«الريـن» يـمارس بانتظام خمـس فضائل أساسـية، هي: الاحترام، وسمو النفس، والإخلاص، والجدية، واللطف. لم يخترع كونفوشـيوس اللطف بالطبع، ولكنـه ارتقى به ورفعه منزلة عليا: فحوّله من مجرد ترفٍ أو تساهل، إلى محور ارتكاز فلسفي، وأساس للحكم الرشيد. لقد كان أول فيلسوف يضع اللطف، والحب، على قمة الهرم. وقد قـال كونفوشـيوس، مصوغـًا بذلك «القاعـدة الذهبية» قبل المسـيح بنحو خمسمئة عام: «لا تفرض على الآخرين ما لا ترغبه لنفسك».

فاللطف عند كونفوشـيوس ليس ضعفًا أو عاطفـة رخوة. ليس لينًا أو هوانًـا. بل إنَّ اللطف عمـلي وفعال. يقول أحد الكونفوشيوسـيين: «امدد لطفك إلى الجميع، وبذلك يمكنك أن تجعل العالم كله في راحة يدك».

***

إنَّ القطـار «إف» ليـس مجـرد قطار، بل هـو ثقافة قائمة بذاتهـا، وكما هو الحـال مـع كل الثقافـات، فـإنَّ لـه قواعـده التي تحكمـه. بعضهـا مكتوب،

وبعضها الآخر مفهوم ضمنًا. أنظر حولي فأرى تلك القواعد المكتوبة في كل مكان. إيَّاك أن تتكئ على الأبواب أو تمسك بها. إيَّاك أن تمرَّ بين العربات. إيَّاك أن تأكل أو تشرب. إيَّاك أن تقف قريبًا من الأبواب وهي تغلق.

كان يمكن لكونفوشيوس أن يكتب هذه القواعد. فقد رأى قيمة عظيمة في مفهوم «لي» (*li*)، أو «السلوك الطقوسي القويم»، كما هو معبَّر عنه في النصوص الصينية الكلاسيكية مثل «كتاب الطقوس». وها هي ذي عينة صغيرة، تتناول موضوع آداب المائدة القويمة:

«لا تكوِّر الأرز على هيئة كرة؛ لا تلتهم الأطباق المختلفة التهامًا؛ لا تتجرَّع الحساء سريعًا. لا تُحدث ضجة وأنت تأكل؛ لا تقضم العظام بأسنانك؛ لا تعد السمك الذي كنت تأكله إلى الطبق؛ لا تلقِ بالعظام للكلاب؛ لا تتخاطف ما تشتهيه. لا تبسط الأرز ليبرد؛ لا تستخدم عيدان الأكل في تناول الدخن».

أقرأ ذلك وأتنهد. هذه هي صورتي عن الكونفوشيوسية: فلسفة قائمة على القواعد، يوقِّر فيها المرء والديه، ولا يشكك في السُّلطة، ويحرص دائمًا على الابتعاد عن الأبواب وهي تغلق. فلا عجب إذن أن يكون لاو-تزو، بفلسفته الدافئة المريحة القائمة على مبدأ «وو وي» (*wu wei*) أو «اللافعل»، هو معشوق جماهير «العصر الجديد»، لا كونفوشيوس. فإذا كان لاو-تزو هو «شاب ركوب الأمواج الرائع» في الفلسفة الصينية، فإنَّ كونفوشيوس هو «أستاذها البديل المتجهم».

أعترف بأنَّ عبارة «السلوك الطقوسي القويم» لا تروق لي. ولا كلمة واحدة منها. فالطقوس، في نظري، هي شيء يتمرد عليه المرء، لا شيء

يعتنقه. والاتباع الأعمى للتقاليد يتعارض تمامًا مع نداء الفلسفة الحماسي، كما صاغه كانط: «تجرأ على أن تفكر بنفسك!». ولكن، هناك ما هو أعمق في الكونفوشيوسية. أعمق بكثير. فهي لا تدعو إلى الولاء الأعمى للطقوس. فالدافع والباعث هو ما يهم. وقد قال كونفوشيوس: «طقسٌ يؤدى دون خشوع وتبجيل؛ هذا ما لا أطيق رؤيته!»

وهناك سبب لهذا التدقيق الشديد في التفاصيل، سبب يرتبط مباشرة بمفهوم «رين» (*ren*)، أي باللطف والإحسان. فاللطف ليس شيئًا يطفو حرًا في الهواء، بل هو بحاجة إلى وعاء يحتويه. وبالنسبة لكونفوشيوس، فإنَّ هذا الوعاء هو «لي» (*li*)، أيُّ السلوك الطقوسي القويم. قد لا ترى أنت قيمة في هذه الطقوس. لا بأس، يقول كونفوشيوس. سوِّ بساطك كما لو كنت تكترث، وتناول طعامك بالطريقة الموصوفة كما لو أنَّ الأمر يهم. قد تبدو هذه أمورًا دنيوية رتيبة، ولكن على هذا الأساس اليومي الاعتيادي، يقوم صرح اللطف ويرتكز.

لقد كانت غاية كونفوشيوس هي بناء الشخصية، واكتساب المهارات الأخلاقية. ولم تكن هناك مهارة أهم من «بر الوالدين» أو «التقوى الأسرية». فكل صفحة من صفحات «المحاورات» موسومة بتلك البصمة الأبوية، وبذلك الإصبع الذي يلوح ناصحًا ومؤنبًا. فالابن ملزم بتوقير أبيه، حتى لو كان ذلك يعني التستر على أفعاله السيئة. وهذه الالتزامات لا تنتهي بوفاة الوالدين؛ إذ يجب على الابن المطيع أن يواصل التصرف كما كان والداه يتمنيان.

ومع ذلك، فإنَّ كونفوشيوس يطالب بإخلاص لا يتزعزع، ولكنه ليس

إخلاصًا أعمى لا تفكير فيه. فإذا انحرف أحد الوالدين المسنين عن جادة الصواب، فعليك بكل الوسائل أن تعيده إلى المسار الصحيح، ولكن افعل ذلك بحكمة واحترام. فبر الوالدين وسيلة، لا غاية في حد ذاته. وتمامًا كما نذهب إلى صالة الألعاب الرياضية لا لنتعرق، بل لنبني أجسامنا ونقويها، فإنَّنا نمارس بر الوالدين ليس لذاته (فقط)، بل لننمي «عضلة اللطف» لدينا ونصقلها. إنَّ رعاية والد مسن لهو حمل ثقيل، وكونفوشيوس يضيف بضعة أرطال إلى هذا الحمل حين يصرُّ على أن نفعل ذلك بوجه بشوش، وبابتسامة صادقة نابعة من القلب.

إنَّ الأسرة هي ميداننا لتدريب فضيلة «رين» (*ren*) وصقلها. هي المكان الذي نتعلّم فيه كيف نحبُّ وكيف نكون محبوبين. فالقرب مهم، والأقربون أولى بالمعروف. ابدأ بمعاملة أقرب الناس إليك بلطف، ثم انطلق من هناك. فمثل حجر يُلقى في بركة ماء راكدة، ينتشر اللطف في تموجات تتسع دوائرها باستمرار، فنوسع بذلك دائرة اهتمامنا من أنفسنا، إلى أسرتنا، إلى حَيِّنا، إلى أمتنا، وصولًا إلى كل الكائنات الحية. فإذا استطعنا أن نشعر بالشفقة تجاه مخلوق واحد، فإنَّنا نستطيع أن نشعر بها تجاه جميع المخلوقات.

ولكننا، في كثير من الأحيان، نفشل في تحقيق هذه القفزة، من اللطف الأسري المحدود إلى الإحسان الإنساني الأرحب. وكثيرًا ما تظلُّ تربية الأبناء، كما عبر عن ذلك كاتبان معاصران، «جزيرة من اللطف في بحر من القسوة». إنَّنا بحاجة إلى أن نهرب من هذه الجزيرة، أو الأفضل من ذلك، أن نوسعها وندعو الآخرين للانضمام إلينا فيها.

***

«يرجى الابتعاد عن الأبواب وهي تغلق». أبتعد، مُتبعًا السلوك الطقوسي القويم. وبالقرب مني، تحتضن امرأة كوبًا ضخمًا من «دانكن دونتس»، في انتهاك واضح لقاعدة منع الأكل والشرب. ويتفوق عليها رجل لا يبعد أكثر من خمسة أقدام، فيستخرج بيتزا كاملة من حقيبة ظهره ويلتهمها بنهم.

يباغتني إعلان مسجل بمدى مباشرته: «انتباه أيُّها الركابُ: لا تضعوا محافظكم أو هواتفكم في جيوبكم الخلفية». إنَّه تذكير بأنَّ الآخرين لا يمكن الوثوق بهم، وبأنَّ اللطف لا موطن له هنا، في المدينة الكبيرة. إذا كنت تريد اللطف، اذهب إلى بلدة صغيرة، أو هكذا نظنُّ.

حين ندخل محطة «الشارع الثالث والخمسين»، تنزلق الأبواب فتُفتح، وتمتلئ العربة بصوت عازف شارع يغني أغنية جون لينون «تخيل». صوته نشاز بعض الشيء، ولكنه مؤثر رغم ذلك، أو ربما بسببه.

أدرك أنَّ هذه الأغنية ليست سوى ذلك «الانسجام الأعظم» الذي حلم به كونفوشيوس، وقد وُضعت له الألحان. فالقسوة وغلظة القلب ليستا نتيجة لنوايا شريرة، بل لقصور في المخيلة. فالشخص غير اللطيف يعجز عن أن يتخيل معاناة الآخر، ولا يستطيع أن يضع نفسه مكانه. ورغم ذلك، فالأمر يسير إن حاولت، كما يقول جون لينون، وكما يقول كونفوشيوس أيضًا: «بما أنَّك ترغب في المكانة الرفيعة، فساعد الآخرين على بلوغها، وبما أنَّك ترغب في النجاح، فساعد الآخرين على تحقيقه».

هل أثّرت تلك اللمحة الخاطفة من أغنية جون لينون في مزاج الركاب في العربة؟ هل جعلتنا أكثر ميلاً إلى «الرقة القلبية» (رين)؟ من المستحيل

بالطبع قياس ذلك كميًا، ولكنّي أودُّ أن أظنَّ ذلك. أودُّ أن أظنَّ أنَّ اللطف يولد اللطف.

أنـزل مـن القطار في محطة «شـارع كانال»، وأقـرِّرُ أن أتوقف في مطعم صينـي لتناول الغـداء. المكان مزدحم، تمامًا كالقطـار «إف»، وإن كان أقل اهتزازًا وذا رائحة أشهى.

«كـم شـخصًا؟» يصيـح المضيف بنبرة اتهـام، كما لو كنـت قد قاطعت اجتماعًا هامًا. «واحد»، أقول في حياء، وأنا أرفع إصبع السـبابة. «ستجلس مع زبائن آخرين، حسنًا؟»

لم يكنِ الأمر حسـنًا بالنسـبة لي، ولكنّي لم أقل ذلك. لا أريد أن أخيب أمل الرجل الصائح. يجلسني مع مجموعة من السياح الألمان.

إنَّ مطعـمًا صينيًـا في مدينة نيويورك ليس مكانًا للطف الواضح، شـأنه في ذلـك شـأن القطـار «إف». فالخدمة، في أفضل أحوالهـا، فظَّة ومقتضبة. والعاملـون لا يكتفـون بالصياح في وجهك، بـل يتوقعون منك أن تطلب، وتأكل، بسرعة.

ورغـم ذلـك، فـإنَّ تيـارًا من الإحسـان الجـوفي الخفي يجـري في المكان، ويتغلغـل في «الديـم سـام» و«البـوك تشـوي»، ويتخمـر في أباريـق الشـاي المعدنيـة. إنَّه لطف من ذلـك النوع الذي يوقِّر الصالح العـام. فإذا كنت على اسـتعداد لمشـاركة طاولـة، فـإنَّ الجميع يسـتفيد. وإذا أكلت بسرعـة، يمكن للآخرين المنتظرين أن يسـتمتعوا هم أيضًا بفطائر «الشـمبري شوماي». هذه القواعـد غير مكتوبة ولكنها مفهومة. إنَّها تشـكل الـ «لي» (*li*)، أيُّ السـلوك الطقوسي القويم، لمطعم صيني. إنَّها الوعاء الذي يحتوي اللطف ويحفظه.

يحقق مطعمي الصيني هذا العديد من شروط «الرين» (*ren*) الخمسة التي حددها كونفوشيوس: الاحترام، وسمو النفس، والإخلاص، والجدية، واللطف. فالعاملون يعاملونني باحترام، إلى حد ما، وهم بالتأكيد مخلصون في عملهم، وهو ما لا يمكن قوله عن مؤسسات أكثر تعجرفًا. وهم جادون، وبطريقتهم الخاصة، لطيفون. أمَّا سموُّ النَّفس وسعة الصدر؟ فليس كثيرًا، ولكن أربع فضائل من أصل خمس ليست نتيجة سيئة.

***

أعود إلى القطار «إف»، وهو يشق طريقه متلويًا عبر حي كوينز. أتفرس في وجوه الركاب من حولي وأتساءل: هل هم أناس طيِّبون؟ هل هم لطفاء؟ وهل نمتلك جميعًا فضيلة «الرين» (*ren*)، أو «الرقة القلبية»، أم أنَّها لا توجد إلا لدى قلة قليلة من الكائنات الاستثنائية، أولئك الذين يسميهم كونفوشيوس «جونزي» (*junzi*)، أي «الإنسان الأعلى»؟

إنَّ مسألة الطبيعة الإنسانية هي واحدة من أكثر المسائل الفلسفية شائكية وتعقيدًا. فبعض الفلاسفة، مثل توماس هوبز، كانوا يعتقدون أنَّ البشر أنانيون بطبعهم، وأنَّ المجتمع هو الذي يهذب هذه النزعة الوحشية فيهم. بينما اعتقد مفكرون مثل روسو أنَّ الإنسان يولد خيرًا، والمجتمع هو الذي يفسده. وذهب آخرون، مثل الفيلسوفة الوجودية الفرنسية سيمون دي بوفوار، إلى الشك في وجود طبيعة إنسانية على الإطلاق؛ فطبيعتنا، في رأيها، هي ألا تكون لنا طبيعة.

أمَّا كونفوشيوس، فقد انحاز إلى جانب القائلين بأنَّ الناس خيرون

بطبعهم، وهي فكرة وسّعها بعد قرن من الزمان فيلسوف يدعى منسيوس. قال منسيوس: «إنَّ كلَّ الناس يمتلكون قلبًا لا يطيق رؤية معاناة الآخرين»، واقترح تجربة فكرية ليوضح وجهة نظره. تخيل أنَّك تمر بقرية، لا يعنيك من أمرها شيء، حين تلمح طفلًا يترنح على حافة بئر، على وشك أن يسقط فيها. كيف تكون ردة فعلك؟

على الأرجح، كما يقول منسيوس، أنَّك ستشعر «بالهلع والشفقة». وبشكل غريزي، سترغب في المساعدة؛ لا لكي تنال رضى والدي الطفل، أو ثناء الجيران والأصدقاء، بل لأنَّك إنسان، و«الشعور بالرثاء والتعاطف هو أمر جوهري للإنسان». بل إنَّ مجرَّد سماعنا لهذه الحكاية، يجعلنا نشعر «باهتزاز في قلوبنا». فإنْ لم تشعر بذلك، كما يقول منسيوس، فأنت لست إنسانًا كاملًا. (ولكن منسيوس لا يتنبأ في أيّ موضع بأنَّ الناس سيساعدون الطفل فعلًا. فهناك فجوة كبيرة تفصل بين الشعور بالشفقة وبين إتيان الفعل، وكم من نية طيبة قد سقطت في تلك الفجوة، ولم يُسمع عنها خبر بعد ذلك أبدًا.)

إنَّ كلَّ واحد منا، كما يقول منسيوس، يمتلك ذات الخير الكامن في أعماقه. فتمامًا كما أنَّ الجبل الأجرد لا يزال قادرًا على أن يُنبت براعم صغيرة، فإنَّ حتى أقسى الناس قلبًا يحتفظ بلطف خامل في وجدانه. «فإذا مُنح الشيء الغذاء المناسب له، فما من شيء إلا وسينمو، وإذا حُرم منه، فما من شيء إلا وسيضمحل ويذوي».

إنَّ قدرتنا على اللطف تشبه قدرتنا على الكلام. فنحن جميعًا نولد بقدرة فطرية على التحدث بلغة ما، ولكن لا بُدَّ من تفعيل هذه القدرة، إمَّا على يد والدينا أو من خلال وسائل التعلم الحديثة. وبالمثل، فإنَّ لطفنا المتأصل فينا

لا بُدَّ من تحريكه واستنفاره، والسبيل إلى ذلك، كما يعتقد الكونفوشيوسيون، هو من خلال الدراسة. فالسطر الافتتاحي في «المحاورات» يتغنى بفضائل الدراسة، إذ يقول: «أليس من الممتع أن تدرس وتطبق ما تعلمته؟»

ولكن بكلمة «دراسة»، لا يعني كونفوشيوس الحفظ عن ظهر قلب أو حتى مجرد التعلم في حد ذاته، بل إنَّ في ذهنه شيئًا أعمق من ذلك بكثير: ألا وهو التهذيب الأخلاقي للذات. فما نُلقَّنه، نتعلمه. أمَّا ما نزرعه في أنفسنا ونرعاه، فإنَّنا نتمثله ونتشربه. ليس هناك ما يسمى بأفعال اللطف الصغيرة؛ فكل فعل شفقة، مهما كان ضئيلًا، هو كسقيا بذرة شجرة عملاقة. إنَّك لا تدري أبدًا أي ارتفاعات شاهقة قد تبلغها.

***

لدي سؤال لكونفوشيوس: إذا كانت الطبيعة البشرية خيرة في جوهرها، فلماذا يبدو العالم على هذا القدر من القسوة؟ فمن جنكيز خان إلى هتلر، نجد أنَّ قصة البشرية مكتوبة بالدماء. وما عليك أيُّها المعلّمُ إلا أن تشعل تلفازك أو تفتح حاسوبك المحمول، لترى أنَّ الحال لا يزال على ما هو عليه. فالأخبار كلها سيئة: هجمات إرهابية، وكوارث طبيعية، ومشاحنات سياسية. يبدو اللطف متغيبًا عن هذا العالم. أو هكذا يبدو الأمر.

لكن اللطف موجود دائمًا، سواء لاحظناه أم لم نلاحظه. وهذا هو ما أسماه عالم الحفريات الراحل من جامعة هارفارد، ستيفن جاي غولد، «اللاتناظر العظيم». إذ يقول: «إنَّ كلَّ حادثة شر مذهلة، سيقابلها عشرة آلاف فعل من أفعال اللطف». ونحن نشهد هذه الأفعال كل يوم في

شـوارعنا وفي بيوتنا، ونعـم، في مترو أنفاق نيويورك. امرأة مسـنة تتحدى يومًا باردًا من أيام نوفمبر لتطعم سـناجب الحي؛ ورجل أعمال، متأخر عن اجتماع، يتوقف ليسـاعد أمًّا عزباء في حمل مشترياتها إلى سيارتها؛ ومراهق، وفي يده لوح تزلج، يلاحظ أنَّ عداد موقف سيارات قد انتهى وقته، فيلقي فيـه ربـع دولار. وإنَّ كـون هـذه الأفعال اللطيفـة العادية نـادرًا ما تتصدر عناوين الأخبار، لا يقلل من حقيقتها أو بطولتها.

إنَّ من واجبنا، بل هي مسـؤولية تكاد تكون مقدسـة، كما يقول غولد، «أن نُسـجل هذه الأفعـال اللطيفة التـي لا تُحصى ونحتفي بهـا». وقد رأى غولـد، وهـو عـالم ذو نظـرة واقعيـة صارمـة، سـببًا عمليًا لتسـجيل الخير وتدوينـه. فاللطـف الذي يُحتفى به، هـو لطف يتضاعـف. واللطف مُعدٍ. إنَّ مشـاهدة أفعال الجمال الأخلاقي تطلق فيضًا من الاستجابات الجسدية والعاطفيـة، وتشـجعنا على أن نتصرف بلطـف أكبر، وهي ظاهـرة أكدتها العديد من الدراسات الحديثة.

لقـد اختـبرت «عـدوى اللطـف» هـذه بنفسي. فبعـد أسـبوع قضيته في اسـتقلال القطـار «إف»، مترقبًـا بيقظـة تامَّـة أفعال اللطـف من حولي، أصبحـت أنـا نفـسي أكثر لطفًا. صرت أمسـك الأبـواب للنـاس، وألتقط القمامة من الأرض، وأشـكر نادلة المقهى، وأترك لها إكرامية حين لا تكون تنظر. أدرك أنَّ هذه الأفعال الصغيرة لن تجعلني أفوز بجائزة نوبل للسلام أو ترفعنـي إلى مصاف القديسـين. ولكنها بداية. بضـع قطرات أخرى من الماء على بذرة تلك الشجرة العملاقة.

***

استقل القطار «إف» لوقت كافٍ، وستبدأ في ملاحظة بعض الأنماط. وهذا ما أفعله. فأفعال اللطف ليست ثابتة، بل لها مد وجزر. فخارج ساعات الذروة، لا أكاد ألاحظ إلا القليل منها. أمّا في ساعة الذروة، فإنني ألاحظ الكثير: شاب مفتول العضلات ينهض من مقعده ليجلس مكانه امرأة مسنة؛ وكلمة «عفوًا» هنا، و«آسف» هناك. فقلوب الناس لا تحمل من اللطف في الظهيرة أقل مما تحمله في الخامسة مساءً بالطبع. كل ما في الأمر هو أنَّ فرص إظهار اللطف تكون أقل. فاللطف يتمدد ليملأ فراغ الحاجة إليه.

وخلال ساعة الذروة، تتضخم هذه الحاجة لتصل إلى أبعاد مجرّية. وبينما نتقدم ببطء نحو بروكلين، يصعد المزيد والمزيد من الناس عند كل محطة. وبحلول محطة «يونيون سكوير»، تكون العربة قد امتلأت عن آخرها. «يستحيل أن تتسع لراكب واحد آخر»، أقول في نفسي. ولكنها تتسع.

كل شيء يحدث بسرعة أكبر: يهرع الناس إلى المقاعد بسرعة أكبر، ويمسحون المكان بأعينهم بسرعة أكبر. حتى إعلانات سائق القطار تتسارع. فتسمعه يقول في نفس واحد: «القطار-إف-المتجه-إلى-كوني-آيلاند-يرجى-الابتعاد-عن-الأبواب-وهي-تغلق».

«أهل نيويورك ليسوا وقحين»، قالت لي صديقتي آبي، وهي من مواليد نيويورك، حين أخبرتها عن خطتي للبحث عن اللطف في القطار «إف». «إنَّهم سريعون فحسب».

ولعلها قد أصابت كبد الحقيقة. أتساءل هل من الممكن أن يتصرف

المرء بلطف وبسرعة في آنٍ معًا، أم أنَّ اللطف يتطلب بطبعه تؤدة وأناة؟ فالطعام الذي يُطهى على نار هادئة أشهى من الوجبات السريعة، وكما رأينا، فإنَّ الفلسفة الجيدة تستغرق وقتًا هي الأخرى. وبينما يتهادى القطار ببطء تحت «النهر الشرقي»، أتأمل في العلاقة بين السرعة واللطف. فهل يتناقص اللطف كلما تسارعت خطانا؟ يبدو أنَّ كونفوشيوس يعتقد ذلك؛ فهو يصف الإنسان اللطيف والمحسن بأنَّه «بسيط في سلوكه وبطيء في كلامه».

لست متأكدًا تمامًا. نعم، إنَّ الأشخاص الذين يتحركون بسرعة هم أقل ميلًا لملاحظة شخص في محنة، ولكن في بعض الأحيان، تكون السرعة هي عين اللطف. فلو أنَّ منزلك يحترق، هل تفضل رجل إطفاء متباطئًا أم آخر سريع القدمين؟ ولو كنت مريضًا، هل تريد طبيب طوارئ يتهاون في عمله أم آخر يتحرك بسرعة؟ ولو أنني سقطت مغشيًا عليّ هنا والآن في القطار «إف»، مصابًا بأزمة صحية سببها الإفراط في التفكير، لأردت من زملائي الركاب أن يساعدوني على وجه السرعة، لا ببطء وتؤدة.

أخبرني صديق مؤخرًا عن موقف شهده في مترو أنفاق نيويورك، وهو موقف يماثل تمامًا هذه الحالة الطارئة. فقد سقطت امرأة بداخل عربة القطار بينما كان يدخل إحدى المحطات. وعلى الفور، وبشكل لا إرادي، هبَّ الرُّكّابُ لمساعدتها. أمسك أحدهم بالباب حتى يبقى القطار في المحطة، وأسرع آخر لينبه سائق القطار، وقام ثالث بتقديم الإسعافات الأولية. لو كان منسيوس حاضرًا، لأدرك في هذا المشهد ذلك التعاطف الفطري اللاإرادي الذي تحدث عنه. فاللطف يأتي بشكل طبيعي، أمَّا القسوة فهي التي تُكتسب وتُتعلَّم.

هل أنا لطيف؟ أتساءل. نعم، لقد أبديت «الرين» الكونفوشيوسي، أو «الرقة القلبية»، حين ساعدتُ كايلاش في الهند. ولكني لم أبحث عن كايلاش، بل هو الذي وجدني. لقد كان هو ذلك الطفل الواقف على حافة البئر. فأنا لا أستحق على ردة فعلي اللاإرادية تلك ثناءً أكثر مما أستحقه على العطاس في غرفة مليئة بالغبار. إنَّ العالم اليوم، أكثر من أي وقت مضى، لا يتطلب فقط لطفًا فطريًا لا إراديًا، بل يتطلب أيضًا نوعًا من اللطف أكثر إقدامًا وجرأة.

***

أسمعها قبل أن أراها. صوت حزين جريح، يخترقني كسكين صدئة. تقول، وهي تخاطبنا جميعًا ولا تخاطب أحدًا منا بعينه: «لقد كان لي وجه شاب. ماذا حدث؟ كان لي وجه شاب؟ لماذا؟»

ترتدي ملابس لا تعدو كونها خرقًا بالية. تقف مترنحة، وجسدها الضخم يتمايل، كما لو أنَّ عاصفة هوجاء تتقاذفه.

أنظر إلى الأسفل فأرى مصدر عدم اتزانها (أو أحد مصادره على أيّ حال). في البداية، أفترض أنَّها ترتدي حذاءً قديمًا، ولكنها ليست كذلك. إنَّها حافية القدمين. وقدماها، المتورمتان والمشوّهتان لا تبدوان كقدمي إنسان.

لوقت طويل، تظل واقفة هناك، تتمايل، لا تطلب مالًا أو أي نوع من المساعدة. وهذا هو الجزء الأسوأ: غموض الموقف. أشعر بالهلع والشفقة، ولكني لا أدري ما أفعل.

إنَّ اللطف أمر صعب. فحتى لو أردنا أن نساعد، فإنَّنا لا نعرف كيف. من الأفضل ألا نفعل شيئًا، هكذا نقول لأنفسنا. كان الرُّكّاب

الآخرون يشعرون بعدم الارتياح هم أيضًا، بتلك الطريقة النيويوركية الخفية. فالبعض تنحى جانبًا ليفسح لها الطريق، وآخرون ضاعفوا من تركيزهم في التحديق إلى الأمام مباشرة. أمَّا أنا، فقد دفنت رأسي في كتاب كونفوشيوس.

تتحرك المرأة إلى الطرف الآخر من العربة. لم أعد أراها، ولكني لا أزال أسمعها. «لقد كان لي وجه شاب».

ثم ذهبتْ. أطلق الجميع زفرة ارتياح، أو هكذا خُيل إليّ. أرفع رأسي، وأتأمل فيما حدث. ما العمل حين نواجَه بمثل هذه المعاناة؟ نعم، كان بإمكاني أن أساعد المرأة، ولكن، كما قلت، لم أدرِ من أين أبدأ. لم يدرِ أحد منا. كيف إذن يمكن لـ«عدوى اللطف» أن تتفشى وتنتشر؟ لا بد لشخص ما أن يبدأ أولًا.

إنَّ اللطف أمر صعب. إنَّه يشمل التعاطف، ولكن ذلك لا يكفي. إنَّنا بحاجة إلى «الطقس الكونفوشيوسي». فهناك سبب يجعلنا نلجأ إلى الطقوس خلال أكثر لحظات الحياة وطأة كالزواج، أو التخرج، أو الموت. فهذه الأحداث تثير فينا مشاعر جياشة قوية لدرجة أنَّنا نجازف بالانهيار والتفكّك. الطقس هو ما يمسكنا معًا ويلم شعثنا. الطقس هو الوعاء الذي يحتوي مضموننا العاطفي ويصونه. كنا نحن، ركّاب القطار «إف»، بحاجة إلى مثل هذا الوعاء حين تمايلت تلك المرأة الحزينة ودخلت عربتنا. ولكن، ويا للأسف، لم يكن هناك وعاء، لذا لم نفعل شيئًا.

قال كونفوشيوس: «الحِمل ثقيل، والطريق طويل». إنَّ اللطف أمر صعب. وكل ما هو جدير بالاهتمام هو كذلك.

الفصل العاشر

كيف تُقدّر الأشياء الصغيرة مثل سي شوناجون

11:47 صباحًا. على متن قطار الخطوط اليابانية رقم 318. في الطريق من طوكيو إلى كيوتو. السرعة: 185 ميلًا في الساعة.

لقد تعلمت أنَّ السرعة هي العدو اللدود للانتباه. فالسرعة الخاطفة تُجزّئ وعينا، وتشظيه إلى مليون قطعة صغيرة، لا تكون أيّ منها كبيرة بما يكفي لكي نمسك بها.

ولكن ماذا عن الجمال؟ هل يتناقص هو الآخر كلما تسارعت خطانا؟ أم أنَّ للسرعة جمالها الضبابي الخاص بها؟ كجناحي طائر طنان، يرفرفان ثمانين مرة في الثانية. أو كومضة برق، تنحني وتقطع السماء. أو ذلك الهفيف الهادئ لقطار «الشينكانسن» الياباني، أو القطار الطلقة، وهو ينطلق كالصاروخ من مدينة إلى أخرى.

حين صعدت إلى متن القطار الذي أنا فيه الآن، من محطة «شيناغاوا» اللامعة في طوكيو، لم أدرِ هل أشهق دهشة أم أضحك سخرية. فبمقدمته التي تشبه منقار خلد الماء المسطح، والملتصقة بجسد يشبه جسد سبّاح مشدود القوام، يبدو القطار سخيفًا.. وجميلًا أيضًا. إنَّ قطار «الشينكانسن» هو «روبن ويليامز» عالم القطارات: سخفٌ صارخ يتحدى قوانين الفيزياء علانية، ولكنه يفعل ذلك بسرعة تذهل العقول، لدرجة أنَّ كلَّ شيء يُغتفر له.

وتمامًا كما أنَّ روبن ويليامز لم يكن ينافس سائر الممثلين الكوميديين، فإنَّ قطار «الشينكانسن» لا ينافس القطارات الأخرى، بل إنَّه ينافس شركات الطيران. لقد بذلت شركة السكك الحديدية اليابانية قصارى جهدها لتحاكي في تصميمه الإحساس الذي ينتابك في مقصورة طائرة. كان يمكن لي أن أكون على متن طائرة إيرباص، مع غياب ملحوظ لأحزمة الأمان، ولتلك الإعلانات المعلبة حول ما يجب فعله في حالة الهبوط الاضطراري فوق الماء، وهو حدث غير مرجح.

وحين غادرنا محطة شيناغاوا، في الموعد المحدد تمامًا، علت أصداء السفر الجوي من حولنا: ذلك الهفيف الحاد، وقوى الجاذبية التي تضغطني برفق على مقعدي، وكل ذلك بسلاسة ونعومة، دون أيّ لمحة من ذلك الاهتزاز والخشخشة التي تعرفها القطارات العادية.

إذا سار كلُّ شيء وفقًا للخطة -وفي اليابان، يكاد كل شيء يسير دائمًا وفقًا للخطة- فسنقطع مسافة 227 ميلًا من طوكيو إلى كيوتو في غضون ساعتين وثماني دقائق فقط. نحن نطير. فقط حين ألقي نظرة من النافذة -لا إلى الأفق البعيد، بل إلى بيت قريب أو معبر للسكك الحديدية- أدرك لمحة من سرعتنا الاستثنائية. فالسرعة نسبية، وبدون نقاط مرجعية، تغدو بلا معنى.

يمرُّ مسؤولُ القطار، فينحني ويلتقط شظية من عود أكل كان أحدهم (حسنًا، كنت أنا) قد أسقطها. بالنسبة لي كانت أصغر من أن تُعتبر قمامة. ومن الواضح أنَّه كان يرى غير ذلك. لقد أخلّت قطعة الخشب الضالة تلك بالانسجام الجمالي للقطار. ففي اليابان، إمَّا أن يكون الشيء صحيحًا

تمامًا، أو أنّه ليس صحيحًا على الإطلاق.

أستخرج دفتر ملاحظاتي الأسود الصغير، ليس تلك الجوهرة التي فقدتها في إنجلترا (فتلك لا يمكن تعويضها)، بل هو طراز أكثر تواضعًا وعادية. أفك الشريط المطاطي الذي يحتوي أفكاري. أفتح صفحة جديدة، بيضاء بكرًا، حافلة بالإمكانيات، وأبدأ في وضع قائمة. أنا أحب القوائم. إنَّ وضع القوائم، في اعتقادي، لهو نشاط فلسفي عميق. لا تأخذوا كلامي هذا على علاته، بل اسألوا أفلاطون. لقد وضع قوائم. وضع قائمة بصفات الملك-الفيلسوف، وقائمة بخصال الحياة الطيبة. وقد تفوق عليه تلميذه أرسطو، فكان أرسطو هو صانع القوائم الأعظم في تاريخ الفلسفة. فحرصًا منه على فرض النظام على فوضى الواقع، ابتكر طبقات فوق طبقات من المقولات والتصنيفات الفرعية.

وبعد نحو ألفي عام، قدمت سوزان سونتاغ هذا الدفاع البليغ، والعقلاني على نحو معهود عنها، عن عادتها المزمنة في وضع القوائم، فقالت: «إنَّني أدرك القيمة، وأمنح القيمة، وأخلق القيمة، بل إنَّني لأخلق -أو أضمن- الوجود ذاته. ومن هنا، ينبع دافعي القهري لوضع «القوائم»». أمّا أمبرتو إيكو، فقد صاغ الأمر بإيجاز أكبر حين قال: «إنَّ القائمة هي أصل الثقافة».

إنَّ قوائمي، بطبيعة الحال، أقل شأنًا بكثير. فهي لا تضمن وجودًا أو تؤسس لثقافات. وقوائمي، على حد علمي، لا تدرك القيمة، ولكنها تساعدني في أن أجمع شتات أفكاري وأسيطر عليها. إنَّها تساعدني في أن أفهم العالم، وأن أفهم نفسي، وأيّ شيء يمكن أن يكون أكثر فلسفية من ذلك؟

يكمـن مفتاح وضـع القوائم الجيدة في اختيار الفئـة الصحيحة. فيجب أن تكون واسـعة بما يكفي لتشـمل مجموعة متنوعة من المدخلات، ولكنها في الوقـت ذاتـه صغيرة بـما يكفي ليسـتوعبها عقلك ويحيط بهـا. ففئة مثل «أعظم موسيقى على الإطلاق» هي أوسع من اللازم، بينما فئة مثل «أعظم مقطوعـات البولكا التي ألفها أمريكيون من أصل بولندي في شـيكاغو في ثلاثينيات القرن العشرين» هي أضيق من اللازم.

ألقـي نظرة عـلى القائمة التـي دونتها للتـو في دفتر ملاحظـاتي: «بلدان أجنبية عشـت فيها». إنَّها ليست قائمة طويلة، ثلاثة بلدان فقط، ولكنها قد شكّلت طريقة تفكيري وهويتي أكثر من أيّ قائمة أخرى. فكل بلد في هذه القائمة علمني شيئًا هامًا، وإن كان ذلك عن غير قصد. الهند علمتني كيف أجد السكينة في قلب الفوضى. إسرائيل علمتني أهمية «السافلانوت»، أي الصـبر. كلهـا دروس قيمة، ولكـن لا شيء منها يضاهي اليابـان. فاليابان علمتنـي، أنـا رجـل الكتـب، ذلـك العاشـق الذي أثقـل رأسـه بالكلمات وبصانعـي الكلـمات، كيف أخـرس عقلي المتكلـم لخمس دقائـق، وأختبر طريقـة مختلفـة في الوجـود. لقد فتحت اليابان عيني على فلسـفة الأشـياء. الأشياء الصغيرة الجميلة.

***

«كتاب الوسـادة». يا له من عنوان غريب، قلت في نفسي، حين علمت بوجـوده لأوَّل مـرَّة، قبـل نحو عقدين مـن الزمان. كنت أعيـش آنذاك في طوكيـو، أعمـل كمراسـل للإذاعـة الوطنيـة العامة. لقـد دغـدغ العنوان فضـولي. فما هو هـذا الكتاب العجيب الذي يحمل اسـم أداة ليلية، وخطته

قبل ألف عام سيدة من حاشية البلاط في كيوتو لا يكاد يعرفها أحد؟ وكيف له أن يجتذب القراء بعد انقضاء عشرة قرون؟

بدأت استقصاءاتي هناك، وانتهت هناك. فقد كنت مشغولًا بإعداد التقارير عن الاقتصاد الياباني، أو عن شيخوخة سكان البلاد، أو بالسفر بالطائرة لتغطية صراع ما يختمر على نار هادئة في إندونيسيا أو باكستان. لم يكن لدي الوقت -أو، لأكون صريحًا، لم يكن لدي الميل- لقراءة كتاب عمره ألف عام يدور حول لا شيء بعينه. ولكن الكتاب، أو فكرة الكتاب بالأحرى، ظلَّت عالقة بي، وقد نُفيت إلى ضواحي عقلي النائية، تنتظر بصبر أن تتسع لها مساحة في مركز الاهتمام المزدحم.

***

أتكوّر مع «كتاب الوسادة»، وبينما أفعل ذلك، وبشكل يلائم الوضع تمامًا، أسند رأسي على وسادة. أنا في غرفة فندق في حي شيبويا بطوكيو، وإن كانت كلمة «غرفة» في اليابان هي مسألة رأي.

تذكرني هذه الغرفة المزعومة، في طرازها ومساحتها، بمقصورة على متن سفينة. إنَّها تحفة في كفاءة استغلال المساحة، فمن المفترض أنَّها تتسع لثلاثة أشخاص، ولكن هناك شرطًا لذلك؛ إذ يجب على هذه الأجساد الثلاثة أن تظل ساكنة بلا حراك. فأيُّ حركة تتطلب ذلك النوع من التنسيق المسبق الذي لا يُطلب عادة إلا في الزيارات الرئاسية أو في العلاقات الجنسية قبل الزواج. إنَّها أقل من أن تكون غرفة، وأقرب إلى أن تكون ركنًا حميمًا.

إنَّ الأركان الحميمة لا تنال قدرها المستحق من التقدير، ليس مع الكبار على الأقل. أمَّا الأطفال، فيقدرون الركن الحميم حق قدره. إنَّهم يبحثون

عنه بغريزتهم، وإذا لم يكن هناك ركن متاح، فإنهم يخلقون واحدًا. وأذكر، حين كنت طفلًا في الخامسة من عمري تملؤني الكآبة، أنني حولت غرفة معيشتنا في بالتيمور إلى متاهة من الأركان الحميمة، وذلك بأن ربطت عشرات البطانيات والملاءات معًا، ثم ثبتها في أيّ شيء في متناول يدي: الكراسي، والأرائك، والكلب. كنت أصغر من أن أستطيع التعبير عن دوافعي، ولكني أدرك الآن ما كنت أتوق إليه: ذلك المزيج السامي من الدفء والدهشة، والانحصار والاتساع، والأمان والمغامرة، ذلك الذي لا يمنحه إلا الركن الحميم.

لا أزال أحب الأركان الحميمة. بل إنَّني أعاني (إذا صحت الكلمة) مما هو نقيض رهاب الأماكن المغلقة. فأنا أنجذب إلى المساحات الضيقة، وأزدهر فيها. ولعل هذا هو سبب ولعي باليابان. فلا أحد يتقن فن الانحصار في الأماكن الضيقة مثل اليابانيين. إنَّهم شعب الأركان الحميمة. يحشرون أنفسهم حشرًا في عربات مترو الأنفاق، وفي الحانات، وفيما يزعمون أنَّها غرف فندقية. والمدهش في الأمر أنَّهم يفعلون كل هذا دون أن يقتل بعضهم بعضًا.

أعود إلى الصفحة الأولى. يُقرأ «كتاب الوسادة» كمذكرات خاصة، ولسبب وجيه: فهو مذكرات خاصة. تكتب مؤلّفته، سي شوناجون: «إنَّني لم أكتب إلا لمسرتي الشخصية، أشياء فكرت فيها وشعرت بها بنفسي». لم تتوقع أبدًا أن يقرأ كلماتها آخرون، وهذا ما يُفَسِّرُ لماذا يجد الآخرون مثل هذه المتعة الغامرة في قراءتها. فـ«كتاب الوسادة» مكتوب بذلك الصدق العاري الذي عادة ما يُحتفظ به للمجهولين ولمن هم على فراش الموت.

وبينما أقلّب الصفحات، وأعدّل وضع وسادتي، أجد نفسي منجذبًا إلى عالم شوناجون، مفتونًا بجرأتها، وعشقها للتفاصيل، وبالطريقة التي تجد بها الجمال في أكثر الأماكن غير المتوقعة.

إنَّ العنوان، شأنه شأن الكثير مما في «كتاب الوسادة»، لغز محير. فلماذا الوسادة؟ لعل شوناجون كانت تحتفظ بالمخطوطة بجانب فراشها، كوسادة. أو لعلّها وجدت في الكلمات التي حوتها دفتيه ذلك العزاء الذي نجده نحن في وسادتنا المفضلة. لا أحد يعلم على وجه اليقين.

إنَّ «كتاب الوسادة» ليس كتابًا، على الأقل ليس بالمعنى التقليدي للكلمة. فهو لا يحتوي على خيط سردي، ولا شخصيات متكررة، ولا موضوع مهيمن. إنَّ «كتاب الوسادة» هو «بخنة» غنية من الملاحظات الكبيرة والصغيرة (في معظمها)، أو كما تصفه مترجمته إلى الإنجليزية، ميريديث ماكيني، هو «الحاف مجنون من المشاهد القصيرة والآراء والنوادر»، تلك المترجمة التي نقلت إلى الإنجليزية كتاب ماكورا نو سوشي، أيّ «كتاب الوسادة».

إنَّ هذا الكتاب الذي ليس بكتاب، مُرتب في 297 شذرة مرقمة، تتراوح في طولها من جملة واحدة إلى عدة صفحات. بعض الشذرات تروي نوادر من القصر الإمبراطوري في كيوتو، بينما الأخرى هي ببساطة قوائم تعج بالآراء الشخصية. والقوائم هي الجزء المفضل لدي. ففي شخص سي شوناجون، وجدتُ روحًا تشبهني، وحليفة في حب وضع القوائم.

إنَّ شوناجون ترفض أن تظل في مسار واحد. فهي تنحرف فجأة من الحديث عن «الأشياء الراقية والأنيقة» إلى «الأشياء التي لا قيمة لها»، ثم

تعـود مـرة أخـرى إلى «الأشـياء الرائعة حقًا». مـن المغري أن تسـتنتج أنَّها تائهة، ولكنَّها ليست كذلك. إنَّها تمارس فن «الزويهيتسو» (*zuihitsu*)، أو «اتباع حركة الريشـة». وهي تقنية أدبية يابانية، ولكنَّها ليست تقنية بالمعنى الحـرفي، وهـي تبدو لي الطريقة المثلى لكتابة كتاب ليس بكتـاب. فالكاتب الذي يمارس «الزويهيتسـو» لا يخشـى أن يتبع حدسـه، أو أن يروي فضولًا فكريًـا يؤرقه، ثم يعـود أدراجه، أو لا يعود. فالكاتب هنا لا يفرض هيكلًا على نصه، بل يسمح لهيكل ما، بأن ينبثق منه انبثاقًا.

أظنُّ أننا جميعًا بحاجة إلى قليل من «الزويهيتسو» في حياتنا، وليس فقط حـين يتعلق الأمـر بالكتابة. فكتب المسـاعدة الذاتية تنصحنـا قائلة: «ضع أهدافًـا واضحـة، ووجـه كل طاقاتك نحو بلوغهـا». ولكن هـذه المقاربة تفـترض أننـا قد حددنـا وجهتنا قبل أن نبـدأ رحلتنا. والحياة لا تسـير على هذا النحو. فأحيانًا، لا تعرف إلى أين أنت ذاهب حتى تبدأ في المسـير. لذا، تحرك. ابدأ من حيث أنت. ارسـم بفرشـاتك ضربة واحدة، وانظر إلى أين تقودك.

إنَّ سي شوناجون لا تصف العالم، بل تصف عالمها هي. فما من ملاحظة محايـدة. إنَّهـا تعـرف مـا تحبُّ ومـا لا تحـب. وهي، بذلـك، تتبنـى مذهب «المنظوريـة» (perspectivism)، تلـك النظرية الفلسـفية التي سـيطرحها نيتشه بعد قرون من زمانها. فليست هناك حقيقة واحدة، بل حقائق كثيرة. اختر واحدة، هكذا تقول شوناجون. اجعلها حقيقتك أنت.

قـد تعـترض قائلًا إن مـا نعاني منه اليـوم هو فيض مـن الآراء، لا ندرة فيهـا. فبفضل وسـائل التواصـل الاجتماعي، يمكن لأي شـخص أن يدلي

برأيه في أيِّ شيء وفي أيِّ وقتٍ. غير أنَّ هذه الآراء، في معظمها، مُوَجَّهة ومُصنَّعة بوساطات ثقيلة من الأصدقاء، و«الخبراء»، والأسوأ من ذلك كله، تلك الخوارزميات الخبيثة الغادرة. والنتيجة: أننا نرى العالم من خلال عدسة ضبابية، وقناعاتنا أضحت هشة كورق السجائر. فهل أنت تحب حقًا مطعم السوشي الجديد ذاك، أم أنَّك تظن ذلك فقط لأنَّ الناس يمنحونه تقييم خمس نجوم؟ وهل تاج محل جميل حقًا، أم أنَّ كلَّ تلك المنشورات المليئة بالانبهار على انستجرام قد أقنعتك بذلك ليس إلا؟ لقد كافحت سي شوناجون جاهدة لتضمن أن تكون عدستها التي ترى بها العالم نظيفة وصافية، وأن تكون آراؤها خاصة بها وحدها، لا صدى لآراء الآخرين.

مقابل كل شيء واحد تحبه شوناجون، هناك ثلاثة أشياء تجدها كريهة أو مزعجة أو منفرة، وهذه هي وصمتها القاضية، مثيرة للغضب الشديد. ومن بين هذه الأشياء، كما تقول: «ضيف يصل حين يكون لديك أمر عاجل لتنجزه. شخص عادي جدًا يبتسم ببلاهة وهو يثرثر ويثرثر بلا توقف. كلب يكتشف عشيقًا سريًا وهو يتسلل إلى البيت، فيشرع في النباح. البراغيث. شخص يقاطعك وأنت تتحدث، ثم يقدم هو نهاية القصة بإعجاب ذاتي وتباهٍ. (والواقع أنَّ أيَّ شخص يقاطعك، سواء كان طفلاً أم بالغًا، هو من أكثر الأشياء إثارة للغضب). الذباب. بعوضة تعلن عن وجودها بذلك الأنين الرقيق الصغير تمامًا في اللحظة التي تكون قد استسلمت فيها للنوم. والمطر الذي يهطل طوال اليوم في ليلة رأس السنة».

إنَّ شوناجون ذات رأي حاسم، ولكنَّها مرنة في آرائها. خذ على سبيل المثال أزهار شجرة الكمثرى. لقد اعتبرها اليابانيون قبيحة، واستخدموها

في الشتائم، كأن يقولوا: «وجهه كزهرة كمثرى». غير أنَّ الصينيين، كما تشير هي، كانوا يعشقونها، ولذا «فلا بدَّ أن يكون فيها شيء من الجمال في الأخير». وبالفعل، فبعد مزيد من التأمل، تخلص إلى أنَّها تمتلك قدرًا معينًا من الجمال. فإذا «ألقيت عليها نظرة متأنية متعاطفة، فقد تلاحظ أنَّه عند أطراف البتلات تمامًا هناك مسحة خفيفة من بريقٍ جميل إلى حد ما».

لقد كانت شوناجون، شأنها شأن غاندي، دقيقة وشديدة التدقيق في التفاصيل. تأمل هذه الملاحظة: «لا أطيق رؤية أناس يرتدون قميصًا أبيض اصفرّ لونه قليلًا». عادة، يزعجني هذا النوع من التدقيق المفرط إلى أبعد الحدود، ولكني مع الوقت أصبحت أقدر شوناجون وأفهمها. فهي ليست صعبة الإرضاء بقدر ما هي مرهفة الحس.

وكما فعل أبيقور من قبلها، تبتكر شوناجون تصنيفًا منهجيًا للمتعة. فهي تميز بين ما هو ممتع فحسب، وبين ما هو «أوكاشي» (*okashii*) حقًا، أي ما هو مبهج. فالبهجة، على عكس المتعة، تحتوي على عنصر المفاجأة، على قشعريرة لذة غير متوقعة. والبهجة، على عكس المتعة، لا تترك في الفم مذاقًا مرًّا. فأنت لم ترَ البهجة قادمة، ولذا فإنَّك لا تفتقدها حين تذهب.

بالنسبة لشوناجون، فإنَّ أدق التفاصيل يمكنها أن ترجح الكفة. فهي توافق على مروحة ذات ثلاث طبقات، ولكن ليس على واحدة ذات خمس طبقات («سميكة جدًا، وقاعدتها تبدو قبيحة»). ومن المبهج أن يكون هناك شعور بالثلج في الهواء، ولكن «إذا كانت السماء بدلًا من ذلك مثقلة بنذر المطر، فإنَّ ذلك يفسد صفو المناسبة بأكملها». إنَّها فلسفة «هكذا تمامًا». فالشيء إمَّا أن يكون صحيحًا تمامًا، أو أنَّه ليس صحيحًا على الإطلاق.

فمـن أخطـأ قيـد أنملة كمن أخطـأ قيد ميـل. وينبغي للثـور أن تكون على جبهتـه لطخة بيضاء صغـيرة، بينما يجب أن تكون القطط سـوداء بالكامل، «ما عدا بطنها، الذي ينبغي أن يكون أبيض ناصعًا». والعروض الموسـيقية مبهجة، ولكن فقط في الليل، «حين لا يمكنك رؤية وجوه الناس».

ليس بالضرورة أن يكون الشيء كاملًا حتى تعلن شوناجون أنَّه مبهج، ولكنـه يجب أن يكون ملائمًا. يجب أن يناسـب المـزاج، أو الفصل. يجب أن ينسـجم مع جوهـره. وهكذا فـإنَّ «الصيف يكون في أفضـل حالاته حين يكون شديد الحرارة، والشتاء حين يكون قارس البرودة بشكل موجع».

إنَّ شوناجون لتشرك كل حواسها في تجربتها للعالم، ولكنَّها تولي حاسة الشَّـم اهتمامًا خاصًا. فهي تجد بهجة في «رائحة حزام مؤخرة الثور الجلدي غـير المألوفة التـي تفوح فجأة» وفي «أخـذ قيلولة في منتصـف النهار ملتفة بكيمونـو مبطن بخفة، تنبعـث منه نفحة خفيفة من العرق». وقد عشـقت «أطـر التعطير»، وهي أدوات خشـبية مصممة لتشريـب قطعة من الملابس برائحة بخور معين، كما اسـتمتعت بـ«مباريات العطور»، وهي منافسـات شرسة لمعرفة من يستطيع مزج البخور الأكثر عبقًا ورائحة.

معظم الفلاسـفة يزدرون حاسة الشَّـم. لقد كُتبت مجلدات ضخمة عن جماليات الرؤية وفلسـفة الموسـيقى، ولكـن بالكاد نجد كلمـة واحدة عن الرائحة. (وقد نفى كانط عن هذه الحاسـة أي مكانة جمالية على الإطلاق.) ومع ذلك، فإنَّ حاسـة الشَّـم هي أعمق الحواس جـذورًا. فالرضيع الذي لا يتجاوز عمره سـتة أسـابيع يُظهر تفضيلًا قويًا لرائحة أمه على رائحة أيّ امـرأة أخرى. والرائحـة تثير الذاكـرة بطرق لا تفعلها الحـواس الأخرى.

ولكن للأسـف، فإنَّ الشَّم هو الآن «الحاسة المنبوذة». فأن تقول إنَّ شيئًا ما «له رائحة» يعني ضمنًا أنَّ رائحته كريهة. وإذا كان أمر ما مريبًا، فإنَّنا نقول «إنَّ في الأمر رائحة مريبة».

وكما علمني ثورو، فإنَّنا لا نرى إلا ما نحن مستعدون لرؤيته. ومعظمنا غير مستعد لرؤية الأشياء الصغيرة. أمَّا سي شوناجون، فلم تكن كذلك. لقد كانت تعرف أنَّ حياتنا ليست أكثر ولا أقل من مجموع مليون بهجة صغيرة. «ثلج مبشـور مـع شراب حلو، مقـدم في وعاء معدني جديد لامع. مسبحة من الكريستال. أزهار الوستيريا. ثلج على أزهار البرقوق. طفل صغير رائع الجمال يأكل الفراولة. ورقة لوتس صغيرة تطفو على سطح بركة».

لقد كانت شـوناجون، شأنها شـأن العديد من اليابانيين، آنذاك والآن، مولعـة بـ«السـاكورا»، أيّ أزهار الكرز. ومن المعروف عن هذه الأشـجار أنَّ أزهارهـا سريعـة الـزوال؛ فهي تتفتـح ليومين أو ثلاثة، ثـم تذهب. أمَّا الأزهار الأخرى -كأزهار البرقوق مثلًا – فتدوم لفترة أطول بكثير. فلماذا يبذل المرء كل هذا الجهد ليزرع شيئًا على هذا القدر من الهشاشة؟

إنَّ المفهوم البوذي «موجو» (*mujo*)، أو «الزوال واللا دوام»، يحمل في طياته بعض الإجابات. فالحياة زائلة عابرة. وكل ما نعرفه ونحبه سيتوقف عن الوجود يومًا ما، بما في ذلك نحن أنفسـنا. معظم الثقافات تخشـى هذه الحقيقة. والقليل منها يتسامح معها. أمَّا اليابانيون فيحتفون بها.

كتب الراهب البوذي من القرن الرابع عشر، يوشيدا كينكو يقول: «إنَّ أثمـن ما في الحياة هو عـدم يقينها». وهو يقترح أن نـولي اهتمامًا أكبر لتلك الأغصان التي هي على وشك أن تُزهر، أو لتلك الحديقة التي تناثرت فيها

الأزهـار الذابلة، بـدلًا من أن نركّز فقط على الأزهار وهي في أوج تفتحها. فزهـرة الكرز جميلة لا رغم قصر عمرها، بل بسـببه. وكما يقول الباحث في الثقافة اليابانية دونالد رِيتشي: «فإنَّ الجمال يكمن في الفناء ذاته».

إنَّ تقدير متـع الحياة الصغـيرة والزائلة يتطلـب «قبضة مرخـاة». فإذا أمسـكت بها بشـدة، فإنَّها تنكسر. وما قيل عن ثورو ينطبق بالقدر ذاته على شـوناجون: «إنَّه يولي الأشـياء انتباهه، ولكنه لا يتشـبث بها، ولا يتلاعب بها، ولا يحاول أن يسبر أغوارها أو يحل ألغازها».

وهذه المهارة لا تأتي إليّ بشـكل طبيعي. فقبضتي أشـد من اللازم. وأنا دائمًا أحاول أن أحلل الأشـياء وأسـبر أغوارها، وأنقب عن معانٍ خفية قد تكون موجودة أو لا تكون. أمَّا الزوال واللا دوام، فإنَّه يرعبني.

***

تحبُّ سي شـوناجون أشياء كثيرة، ولكن لا شيء يضاهي حبّها للورق. وهـي إذ تكتـب، فإنَّهـا تفعل ذلـك بأسـلوب يذكّـر بخبير نبيـذ في منطقة بورغونـدي، فتسـتحضر تلـك المرة التـي وقعت فيهـا يداهـا «على بعض ورق ميشـينوكو». كان يُعتقد أنَّ للورق والخشـب «كامـي» (*kami*) إلهيًا، أو روحًا تسـكنه. وقد صنع الحرفيون أثمن الأشـياء من الخشب: صناديق مطلية بالذهب تحتوي على لفائف السـوترا، وصناديق من خشب الصندل مُطَعمة بعرق اللؤلؤ، وحواجز مرسـومة، ومرايا، وفـراشي كتابة، ومحابر، وآلات موسـيقية، وأطقم لعبة «جو». وحتـى اليوم في اليابان، تحظى المواد اليوميـة مثل الورق والخشـب والقش بنفس القدر مـن الاهتمام والاحتفاء الذي تحظى به المواد الفاخرة، كالذهب أو الأحجار الكريمة وأحيانًا أكثر.

أشعر بحبٍّ شوناجون هذا للورق. فكلما كنت في طوكيو، أحرص على زيـارة متجـر «إيتويا» في حي غينـزا. «إيتويا» هو متجر لـلأدوات المكتبية، ولكن هذا الوصف يشـبه قولك إن «يو يو ما» مجرد عازف تشيلو: صحيح من الناحية الفنية، ولكنَّه قاصر بشـكل مؤسف. فالمتجر، الممتد على مبنيين وثمانيـة عشر طابقًا، هو قصيـدة عمودية في مديح كل ما هو «تناظري» غير رقمـي: منظـمات مواعيـد من الجلـد الإيطـالي، ودفاتر ملاحظات سـامية الجـمال، وأقلام رائعة الصنـع. الجميع هناك، من متسـوقين وموظفين على حـد سـواء، يشـتركون في هـذا العشـق للملمـوس. لا أحد يسـتعجلك. والتحسـس واللمـس أمر مشـجع عليـه. يمكنني أن أقضي سـاعات -بل أيامًا!- في إيتويا، وأنا على يقين من أنَّ شوناجون كان يمكنها ذلك أيضًا.

ليس بالضرورة أن يكون الشيء في حالة نقية لا تشـوبها شـائبة حتى تجده شوناجون مبهجًا. فالعديد من الأشياء التي تحتفي بها قديمة، بالية، بل وحتى قـذرة. فهي لا تفضـل البرك التي تحظى بعناية فائقة، بـل تفضل «ذلك النوع الـذي تُرك مهملًا لتنمو فيه أعشـاب الماء وتنتشر، حيـث تلمع بقع من ضوء القمر المنعكس بيضاء على سطح الماء هنا وهناك بين مساحات الخضرة».

يطلق اليابانيون على هذا الولع بما هو ناقص وغير مكتمل اسـم «وابي» (*wabi*). فالـوابي هو كيمونو مهترئ الأطراف، أو زهرة كرز ملقاة وحيدة عـلى الأرض، أو مجموعة «كاملة» من أعمال شكسـبير ينقصها مسرحية أو اثنتان. فإذا كنت قد اشتريت يومًا بنطال جينز ممزقًا، أو حقيبة جلدية ذات مظهر معتق، فقد انحنيت أنت أيضًا أمام فلسفة «الوابي».

***

بالنسبة لشخص على هذا القدر من السرعة في فضح الآخرين، وفي تسليط ضوء كاشف على سحرهم وعيوبهم، فإنَّ سي شوناجون لا تكشف إلا عن القليل من أمر نفسها على صفحات كتابها. لا نعرف عنها سوى الأساسيات مثل أنَّها وُلدت حوالي عام 966م، وعُينت في بلاط الإمبراطورة تيشي. كانت تفعل كل ما تريده الإمبراطورة تيشي أو تحتاجه، أو كلّ ما قد يخطر ببالها أنَّها قد تريده أو تحتاجه في المستقبل. وفي المقابل، مُنحت شوناجون مسكنًا وطعامًا في القصر الإمبراطوري في كيوتو، ومدخلًا إلى عالم من الجمال. ليس صفقة سيئة على الإطلاق.

كان عالم شوناجون محاطًا بحدود ضيقة، مقيدًا جغرافيًا بأسوار القصر الإمبراطوري والحدائق المجاورة، ومحددًا اجتماعيًا بذلك الجدار غير المرئي، وإن لم يكن أقل رهبة، الذي كان يفصل بين الطبقة الأرستقراطية وبين سائر الناس. قد تظنُّ أنَّ مثل هذا العالم المنغلق من شأنه أن يُبلّد حواس سكانه، غير أنَّه كان له الأثر المعاكس تمامًا: فقد أرهف تصوراتهم وشحذ إدراكهم. لقد عاشت شوناجون في ركن حميم. ركن حميم وجميل.

أنا الآن في سيارة أجرة، متجهًا إلى القصر الإمبراطوري. أقرر أن أسير على قدمي في المربعات السكنية القليلة الأخيرة. أودُّ أن أقول إنني أسير بيقظة وتأمل، شأني شأن روسو، ولكن ذلك سيكون كذبًا. أنا أسير بلا وعي، كأن رأسي في وادٍ وقدماي في وادٍ آخر.

أخطو إلى داخل أسوار القصر والحدائق المجاورة، التي لا تزال آسرة اليوم كما كانت في القرن العاشر. إنَّه مجمع ضخم؛ صفوف من أشجار الكرز والبرتقال تفضي إلى مجموعة من المباني المصنوعة من خشب الأرز،

تندمج بشكل طبيعي مع محيطها.

وبينما أسير، وشمس الصيف الحارقة تلفح عنقي، والعرق يبلل قميصي، أتخيل عالم سي شوناجون. لقد شبت عن الطوق خلال فترة «هيان». وكلمة «هيان» تعني «السلام». ففي تلك الفترة، أغمدت الفصائل المتحاربة سيوفها، وتناولت ريشة الخطاط. ويطلق المؤرخ إيفان موريس على هذه الفترة، التي استمرت من عام 794 إلى 1185 ميلادية، اسم «طائفة الجمال».

أحبُّ هذا التعبير. فلو انضممت يومًا إلى طائفة ما (وهو احتمال وارد دائمًا، نظرًا لميولي الطوباوية وسذاجتي الموثقة جيدًا)، فستكون هذه هي طائفتي. فما من حضارة أخرى، باستثناء إيطاليا في عصر النهضة ربما، قد أجلّت الجمال إلى هذا الحد، وبذلت كل هذا الجهد في صقله وتنميته، كما فعلت اليابان في فترة هيان. لقد كتبوا الشعر. وعزفوا الموسيقى. وأبدعوا حدائق رائعة الجمال. ومزجوا أنواع البخور بإصرار وعزيمة لا نجدها اليوم إلا في تحضير قهوة «كونا» الفاخرة أو في دوريات كرة القدم الخيالية.

لقد استبطن اليابانيون في فترة هيان النزعة الفنية في وجدانهم، وجعلوها خفيَّة غير ظاهرة، تمامًا كما تُخفى العوارض الخشبية والدعامات وغيرها من الهياكل الداعمة في مبنى جيد التصميم فلا تُرى للعيان. كانت الحياة فنًا وكان الفن حياة، وقد ارتبطا ارتباطًا وثيقًا لدرجة أصبحا معها شيئًا واحدًا لا ينفصل. لقد ثمّن يابانيو ذلك العصر التجربة الجمالية أكثر من التكهنات النظرية المجردة. فما كان يهم ليس ما تعرفه، بل كيف ترى، وكيف تسمع، ونعم، كيف تشم.

لقد أولت اليابان في فترة هيان كل الفنون قيمتها، ولكنَّها لم تقدّر

فنًّا أكثر من الشعر. فالشعر كان يطبع كل محطة هامة في الحياة ببصمته: الولادة، والتودد، بل وحتى الموت. فالرجل النبيل في فترة هيان كان يترك هذا العالم بقصيدة وداع. وكان الشاعر الجيد يستطيع أن يربح قلب حبيبة، أو أن ينال ترقية. أمَّا الشاعر الرديء، فكان يُقابل بسخرية لاذعة لا تعرف للرحمة سبيلًا.

ولم يكن يكفي أن تكتب قصيدة جميلة، بل كان عليك أن تغلفها بشكل جميل أيضًا. تخيل أنَّك تعيش في كيوتو عام 970 ميلادية وتريد أن ترسل رسالة إلى شخص ما. ماذا تفعل؟

أولًا، يجب عليك أن تختار الورق. وليس أيّ ورق يصلح. بل يجب أن يكون ذا «سمك وحجم وتصميم ولون مناسب للمزاج العاطفي الذي تود أن توحي به، وكذلك لموسم السنة، بل وحتى لطقس ذلك اليوم بعينه». ثم تعدُّ عدَّة مسودات، مجربًا تراكيب مختلفة وفُرَش كتابة متباينة. وما أن ترضى عن الكلمات وعن فن الخط، تطوي الورقة بإحدى الطرق المقبولة، ثم تعلق بها غصنًا مناسبًا أو باقة من الزهور. وأخيرًا، تستدعي «رسولاً أنيقًا وسيمًا»، وترسله إلى العنوان الصحيح، وتنتظر الرد. قد تقابل قصيدتك بالقبول، أو بالسخرية والازدراء، وهو الأسوأ على الإطلاق، بالصمت. فالتجاهل التام ليس اختراعًا من اختراعات القرن الحادي والعشرين.

حين أتعرف على هذه الطقوس الشعرية المعقدة، لا أملك إلا أن أقارنها بطقوس بريدنا الإلكتروني، إن جاز لنا أن نطلق عليها اسم «طقوس». صحيح أنني أختار نوع الخط، وربما أضيف رمزًا تعبيريًا أو اثنين، ولكن

لم يحدث قط أن شكك أحد في رائحة رسائلي الإلكترونية أو عبق رسائلي النصية. إنَّ البريد الإلكتروني مريح، ولكن الراحة ليست مجانية أبدًا. فهي تحمل دائمًا تكلفة خفية، «ضريبة راحة» تُقتطع من حميمية مفقودة وجمال مُضحى به. وبوعي أو بغير وعي، فإنَّنا ندفع هذه الضريبة عن طيب خاطر. أمَّا أهل اليابان في فترة هيان، فلم يفعلوا.

بل إنَّهم لو رأوا رسائلنا هذه الخالية من الروح، العديمة الرائحة، لَمَا اعتبروها قاصرة من الناحية الجمالية فحسب، بل لاعتبروها مشبوهة أخلاقيًا أيضًا؛ بل ولا أخلاقية. ففي اليابان، كان الجمال -ولا يزال إلى حد ما- يُعتبر فضيلة أخلاقية. فالشخص المستقيم أخلاقيًا هو شخص مرهف الحس جماليًا. والجمال هو مكون أساسي ليس فقط للحياة الطيبة، بل وللشخص الطيب أيضًا. إن جعل العالم أكثر جمالًا ولو بقليل، لهو فعل سخي متجرد عن الأنانية. إنَّه سلوك أخلاقي، لا يختلف في جوهره عن شجاعة جندي باسل، أو شفقة قاضٍ حكيم، أو كما كانت سيمون فايل تعتقد، عن ذلك القلب المحب الذي يمتلكه شخص منتبه.

من الواضح أنَّ سي شوناجون كانت كاتبة ذكية ثاقبة البصيرة، ولكن هل كانت فيلسوفة؟ طالع أيّ خلاصة عن كبار فلاسفة التاريخ، ولن تجد اسمها. وهذا أمر مفهوم؛ فهي لم تستحدث نسقًا فلسفيًا، ولا نظريات عن الكون ومكاننا فيه. ولم تُبد اهتمامًا يذكر بالأفكار المجردة في حد ذاتها. لقد كان الناس والأشياء، الأشياء الجميلة، هم ما أسر لبها واستحوذ على اهتمامها.

ولكن، إذا كانت مهمة الفيلسوف، كما يقول أحد الباحثين، هي «أن

يُبرهـن على أنَّ الأشـياء يمكـن أن تكون عـلى نحو آخر»، فإنَّ شـوناجون فيلسـوفة بكل وضوح. إنَّها ترينا العـالم، عالمها هي، وتقول، بكلمات كثيرة أو بـما معناه: انظروا إلى هذا. أليس مدهشًـا؟ صغير جدًا ولكنه جميل جدًا. وإذا كانـت مهمة الفلسـفة، كما قال نيتشـه، هي «أن تُعـزز ذائقتنا للحياة»، فإنَّ شوناجون فيلسوفة. فبعد أن تقرأ لها لبضع ساعات، تبدو الألوان أكثر حيوية، ويصبح مذاق الطعام أشهى.

هناك فلسـفة ضمنيـة كامنة في كتابات شـوناجون، مؤداها: إنَّ ما نحن عليـه يتشـكَّل إلى حـد كبير بـما نختـار أن نحيط به أنفسـنا. والأمـر خيار. فالفلسـفة تكشـف لنا عن تلك الخيارات الخفيَّة التـي نتخذها دون وعي. وإن إدراك أنَّ شـيئًا مـا هـو خيـار، لهو الخطـوة الأولى نحو اتخـاذ خيارات أفضـل. وكما قال الكاتـب الألماني هيرمان هسـه: «إنَّ الرجل الذي يقطف لأول مـرة زهـرة صغيرة ليضعهـا بالقرب منه وهو يعمـل، قد خطا خطوة نحو البهجة في الحياة».

أجلـس الآن إلى مكتبـي في فيرمونـت، أكتـب. آتي إلى هنـا كل صيف، دائمًا إلى نفس المنزل، محاطًا بنفس الأشـياء. هناك حاسوبي المحمول، بوهج مفاتيحـه المضـاءة الناعـم، الذي يكاد يكـون أثيريًا، وبصـوت النقر الممتع الـذي تحدثه أصابعي وهي تطبـع الكلمات. وهناك فنجـان قهوتي. أتذوق ثقـل الكوب المريـح في يدي، والطريقة التي يدفئ بهـا أناملي في هذا اليوم، الذي جاء باردًا على غير عادة أيام الصيف. أرفع الكوب إلى فمي، فتلامس حافته شفتي، وأتذوق القهوة، دافئة ومرة على نحو لذيذ.

ثم هناك المكتب ذاته، صلب ورصين. وفي صميم خشـبه، يكمن قصد

المصمم، ويده الموجِّهة التي توحي بأنَّ المكتب يجب أن يُستخدم لغرض معين وبطريقة معينة. هناك تاريخ للمكتب، سيرة ذاتية له، فالأشياء لها حكايات ترويها هي الأخرى. هناك ذلك الحضور الباقي للحرفي الذي صنعه، وللأناس الذين امتلكوه من قبل، وللعمال الذين حملوه إلى هنا، ولتلك المرأة اللطيفة التي تنظفه أيام الآحاد. إنَّه مجرد مكتب، نعم، ولكنَّه يختزن في طياته عوالم لا حصر لها.

أقرأ «كتاب الوسادة»، وعبر القرون، تلتقي عيناي بعيني سي شوناجون. نظرتها فولاذية حادة. إنَّها تفحصني وتقيّمني. ترى الرأس الأصلع، والتصبغات الجلدية التي تلازمني، والملابس غير المتناسقة. يمكنني أن أتخيل القوائم التي قد أظهر فيها: «أشياء تتمنى لو لم تكن موجودة». «أشياء لا يمكن حتى تصورها من فرط سوئها». صحيح أنَّها ترى أيضًا عقلًا يستمتع بمصارعة الأفكار الكبرى، ولكنها، مع ذلك، ليست معجبة، فهنا رجل يفتقر إلى الحس الجمالي.

إنَّها على حق. أنا لست رجلًا يهتم بالتفاصيل. فالاهتمام بالمظهر هو شأن البشر الأقل قدرًا. أمَّا أنا، «رجل الأفكار»، فلا وقت لدي لمثل هذه التوافه. بل إنني لأفخر فخرًا منحرفًا بإهمالي لمظهري، معتقدًا أنَّ العمق الفكري يتناسب عكسيًا مع الأناقة والترتيب. فعقلي يفضل ما هو كبير، ككاميرا عالقة على وضع التصوير العريض؛ يتغاضى عن التفاصيل، وينقب عن العظيم والكُلّي.

ويمتد هذا «التحيز للأحجام الكبيرة» ليشمل كل ركن من أركان حياتي تقريبًا. فأنا أبرع في فتح علب الطعام (أمر كبير) ولكني أنسى إغلاقها (أمر

صغير). أتذكر أن أطعم الكلب (كبير) ولكن ليس القطَّة (صغيرة). أكتب كتبًا (أمر كبير) ولكن خط يدي فظيع (أمر صغير). لم أفكر قط كثيرًا في هذا «التحيز للحجم» -فمن لديه وقت لمثل هذه التفاهات؟- حتى الآن. إنَّ عدم انتباهي للتفاصيل، كما أدرك الآن، له ثمنه. لقد أعاقني، وقيدني. وذات مرة، كاد أن يقتلني.

حين كنت لا أزال مراهقًا، تلقيت دروسًا في الطيران. وكان أدائي جيدًا. إلى حد ما.

«أنت تتقن الأمور الكبيرة ولكن ليس الصغيرة»، قال لي مدرب الطيران بعد إحدى الدروس. لم أكن متأكدًا مما إذا كان هذا مديحًا أم ذمًا. فالأمر كله يعتمد، كما أظنُّ، على مدى تقديرك للأشياء الصغيرة. هو كان يقدرها، أمَّا أنا فلم أفعل.

ذات يوم، بعد انتهاء درسنا المقرر، تحركت بالطائرة عائدًا إلى ساحة وقوف الطائرات وأطفأت المحرك. كنت أفك حزام كتفي حين قال بلامبالاة: «سأنزل هنا. لم لا تقلع بها بنفسك؟»

«ماذا تقول؟»

«أنت مستعد».

«أنا؟»

«نعم، أنت».

أوَّل رحلة طيران منفردة لي. كنت في السادسة عشرة من عمري، ولم أكن قد قدت سيارة بمفردي بعد. ابتلعت ريقي بصوت مسموع.

«بإمكانك أن تفعل هذا يا إريك»، قال صوت بدا مألوفًا بشكل لافت، فقد كان صوتي أنا. «أجل، بإمكاني أن أفعل هذا»، أجبت نفسي.

قال مدربي: «ليس لدي أدنى شك، ولكن دعني أنزل أولًا».

«أوه، نعم، بالطبع».

خـرج من الطائرة، تاركًا المقعد الأيمن فارغًا بشـكل موحش. اتصلت لاسـلكيًا بـبرج المراقبـة الأرضيـة وطلبـت الإذن بالتحـرك عـلى المـدرج استعدادًا للإقـلاع. «مفهـوم. تحـرك إلى المـدرج 14»، جـاء الـرد واضحًا ومقتضبًـا. وجهت الطائرة حتـى أصبحت على مقربة من المدرج، ثم قمت بمراجعة قائمة التحقق قبل الإقلاع.

القلابات؟ مضبوطة. الوقود؟ ممتلئ. مقياس الارتفاع؟ مضبوط.

بدا كل شيء على ما يرام. اتصلت لاسـلكيًا ببرج المراقبة، فجائني الرد: «مسموح لك بالإقلاع». دفعت ذراع الوقود إلى الأمام برفق. سرعة الهواء تتزايـد بشـكل جيد. قوة المحرك في مسـارها الصحيـح. انتظر ..ما صوت هذه الخشخشة؟

كان هناك خطأ ما. كانت أمامي ثوانٍ لأقرر ما إذا كنت سأواصل السير على المدرج أم سـألغي الإقلاع. ومع اكتسـابي للسرعة، ازدادت الخشخشة علوًا. ألقيت نظرة إلى الأعلى فرأيت أنَّ مقبض الباب كان في وضع الفتح.

اللعنـة. لقد نسـيت أن أغلق البـاب. وبيد واحدة على مقـود التحكم، مددت الأخرى وأغلقت مزلاج الباب بإحكام. وبعد ثوانٍ، كنت محلقًا في الجو. أمَّا بقية الرحلة، فقد سـارت كما ينبغي لكل الرحلات أن تسـير: بلا

أحداث تذكر. وقد أتقنت الهبوط ببراعة.

وبينما كنت أتحرك بالطائرة عائدًا إلى ساحة الوقوف، تخلى مراقب الحركة الجوية عن حياده الرسمي المعهود وأرسل رسالة سريعة: «تهانينا، يا إريك».

في ذلك المساء، وبعد أن عدت إلى المنزل، استرجعت الحادثة في ذهني. لقد كان سهوًا صغيرًا، مجرد مقبض باب، ولكنَّه سهو كان من الممكن أن يكون كارثيًا. كان مدربي على حق. لم أكن جيدًا في الأمور الصغيرة. فالأشياء الصغيرة يمكنها أن تقتلك. ويمكنها أيضًا أن تنقذك.

لم يعرف أحد هذه الحقيقة أفضل من سي شوناجون. فذات يوم، لاحظت الإمبراطورة تيشي تلك البهجة التي كانت تشعر بها شوناجون وهي تتأمل بساط «تاتامي» متقن النسج، فعلقت قائلة: «إنَّ أبسط التوافه تعزيكِ، أليس كذلك؟» لا تسجل شوناجون ردَّها، ولكني أستطيع أن أتخيل ما كانت تفكر فيه: «أجل، يا مولاتي، غير أنَّها ليست تافهة كما تظنِّين».

يبدو الحزن كحمل ثقيل، ولكنَّ لعلَّ هذا وهم. لعله أخف مما نعتقد. ولعلَّ الأمر لا يتطلب أي مناورات بطولية. لعلَّ توافه الحياة المزعومة تلك -ذلك الجمال العظيم للأشياء الصغيرة- يمكنها أن تنقذنا. لعلَّ الخلاص أقرب مما يبدو. فكل ما علينا أن نفعله هو أن نمد أيدينا ونغلق الباب.

***

هل بقي شيء اليوم من «طائفة تبجيل الجمال» التي سادت في اليابان قديمًا؟ ألقِ نظرة واحدة على ناطحات السحاب الكئيبة والأنهار المبطنة

بالخرسانة، وستخلص إلى أنَّ الجواب هو لا، لم يبقَ منها شيء. ومن وجهة النظر هذه، ستكون على حق. فاليابان الكبيرة قبيحة.

ولكنَّ، انظر إلى ما هو صغير، وسيختلف كل شيء. أشعر وكأنني طفل في العاشرة من عمره، أحدق عبر مجهر لأوَّل مرَّة، مأخوذًا بهذا العالم الخفيّ الذي كان هناك طوال الوقت. أرى «الجمال الدقيق» في كلِّ مكان: في الوهج الناعم لآلات البيع؛ وفي «الأونيغيري»، تلك المثلثات الصغيرة من الأرز والسمك، المغلفة بطريقة تحافظ على قرمشة وطزاجة أعشاب البحر حتى يحين وقت قضمها؛ وفي كأس من «الساكي» مقدَّم في صندوق خشبي متقن الصنع.

أعود إلى متن قطار «الشينكانسن»، منطلقًا كالرصاصة نحو طوكيو. أستخرج علبة «البينتو» الخاصة بي من الكيس الورقي الذي وضعه لي البائع في المحطة. الكيس مصنوع من الورق، وهو جميل. مقابضه متينة، وتصميمه الأمامي جذاب. أزيل العلبة بعناية، شاعرًا بالامتنان للطف البائع.

بعد الغداء، أتناول دفتر ملاحظاتي وأكتب، بأحرف كبيرة: «قطار اليابان الطلقة: قوائم». بداية جيدة، ولكنَّها أوسع من اللازم. أحتاج إلى أن أكون أكثر تحديدًا، أحتاج إلى أن أنظر إلى ما هو صغير. «أشياء مبهجة في قطار اليابان الطلقة». هكذا أفضل.

أشياء مبهجة في قطار اليابان الطلقة:

1. الطريقة التي ينساب بها مسؤول القطار في الممرِّ، ثم يستدير، ويواجه الركَّاب، وينحني في احترام. 2. الطريقة التي تترنح بها راكبة، شابة ترتدي

كعبًا عاليًا، ترنحًا خفيفًا وهي تسير في الممرّ، ولكنّها تستعيد توازنها برشاقة راقصة باليه. 3. ملمس كوب القهوة المصنوع من الستايروفوم، فهو من تلك الأنواع السميكة المتينة التي تشع دفئًا مريحًا، لا مؤلمًا. 4. الطريقة التي كُتب بها على الكوب، باللغة الإنجليزية، «مقهى أروما إكسبريس»، والطريقة التي صُمم بها حرف «O» في كلمة «أروما Aroma» ليبدو كحبة بن. 5. الطريقة التي يصبح بها المنظر، وأنت تقترب من طوكيو، مدنيًا بشكل متزايد ولكن بتدرج، حتى لتبدو المدينة وكأنّها لا تظهر، بل تتجسد أمامك. 6. المراحيض النظيفة التي لا تشوبها شائبة. 7. اللمحة غير المتوقعة للبحر. 8. صوت الهفيف الذي يحدثه قطار يمر في الاتجاه المعاكس، يتحرك بسرعة لدرجة أنّه لا يوجد وقت للقلق من اصطدام وشيك. 9. الطريقة التي تتجمع بها قطرات المطر على نافذتي، فتشكل جداول صغيرة وروافد، تتحرك بخفة ورشاقة وكأنَّ لها إرادة خاصة.

أشياء محبطة في ركوب قطار اليابان الطلقة:

1. تلك الرجفة المثيرة من التشويق حين تلمح جبل فوجي، لتعقبها على الفور طعنة حادة من خيبة الأمل حين تدرك أنَّ هذا ليس جبل فوجي، بل مجرد جبل آخر، لا شيء مميز فيه. 2. أن تبتهج برؤية مقعد فارغ بجانبك، فقط لتجده قد شُغل في اللحظة الأخيرة برجل يبدو كمصارع سومو متقاعد. 3. المقاعد ذات اللون الأزرق المائي، والتي عفا عليها الزمن. 4. حقيقة أنَّ كلَّ من على متن القطار صامت، لا تسمع له همسًا، رغم أنَّك لست في «عربة الهدوء».

لقد كتبت قوائمي على ورق عالي الجودة؛ ليس ورق «ميشينوكو»،

ولكنَّـه مع ذلك، ورق جيـد. خالٍ من الأحماض، وسـيدوم طويلًا. بضعة قـرون، وربّما أكثـر. ولكنَّه لن يدوم إلى الأبد. ففي نهاية المطاف، سـتتحلل قوائمـي، وسـتنضم إلى سـائر ضحايـا الـزوال والـلا دوام. هـذه الحقيقة تحزننـي، ولكنَّها لا تدمرني. إنَّه حزن شـاحنة النقل وهي تغـادر بيتًا قديمًا، وحزن حفلات التخرج من الثانوية، وحزن حفلات التقاعد. إنَّه حزن يوم من أواخر الخريف، حين تهب ريح عاصفة فتبعثر كومة من أوراق الشـجر المتساقطة، فترقص.

***

نصـل إلى طوكيـو في الموعد المحدد. جيد. فأنا عـلى موعد مع صديقتي جونكـو في حانـة، ولا أريد أن أتأخر. وهي ليسـت أيّ حانة، بل هي حانة «أوتاكو». والـ«أوتاكو» (*otaku*) هو شـخص مهـووس بشيء ما، غير أنَّه في اليابان، وهي أمة من المهووسين، تحمل الكلمة وصمة عار أقل مما تحمله في أماكـن أخرى. فأن تكون «أوتاكو» هو، في بعض الدوائر، وسـام شرف وعلامة فخر.

إنَّها حانة «أوتاكو» القطارات. حانة للمهووسين بالقطارات. وفي وسط الغرفة، يسير قطار نموذجي بدقة قطار «الشينكانسن». كان من السهل أن ينزلـق مثـل هذا الترتيب إلى هـوة الحيل المبتذلة، ولكن ليـس هنا. فالقطار -والبلـدة المصغـرة التي يمرُّ بها- يبـدوان طبيعيـين، ومبهجين «أوكاشي» (*okashii*) تمامًـا. فـما مـن تفصيلة، مهما صغـرت أو بدت تافهـة، إلا وقد أولاها ذلك الشـخص الذي صمم مدينة السـكك الحديدية الصغيرة هذه كل عنايته. اللافتات الصغيرة أمام المتاجر الصغيرة، والسـيارات الصغيرة

في موقف السيارات الصغير، والشجيرات الصغيرة التي تحف الطريق الصغير. والحانة ذاتها صغيرة أيضًا: ستة أو سبعة كراسٍ مرتبة في دائرة يتوسطها القطار. ركن حميم.

تطلب جونكو بيرة، وأطلب أنا كأسًا من ويسكي «سانتوري». يصل الويسكي الخاص بي في كأس متين ورصين، يفيض بأناقة هادئة. أمَّا نادل الحانة، وهو رجل باسم الثغر، فقد نحت مكعب ثلج واحدًا، كما لو كان هو مايكل أنجلو والثلج هو تمثال داوود.

وبينما هو يعمل، أسأله عن القطارات (وماذا غيرها؟). يشرح لي كيف أنَّه، حين كان طفلًا، كان يرى القطارات تمرُّ من نافذة غرفة نومه. معظم الأطفال يكبرون فينسون القطارات، أمَّا هو فلم يفعل. وحين كان موظفًا تعيسًا، كان يمضي وقت فراغه في رحلات قطار إلى لا مكان. «إنَّ ركوب القطار يجعلني أشعر بالهدوء والسعادة»، يشرح قائلاً. «على متن القطار، يمكنني أن أفكر في الحياة بوضوح أكبر».

أومئ برأسي وأرتشف من الويسكي الخاص بي، مستمتعًا بصلابة الكأس الرصين، وبمذاق البلوط، وبتلك الرائحة الحلوة الخفيفة، وبينما أنا كذلك، أحدق في ذلك العالم الصغير الجميل الذي يمتد أمامي.

الجزء الثالث

الغسق

الفصل الحادي عشر

كيف لا تشعر بالندم مثل نيتشه

الساعة 2:48 عصرًا. في بقعةٍ ما من جبال الألب السويسرية. على متن قطار السكك الحديدية الفيدرالية السويسرية، رقم 921، يشق طريقه من زيورخ إلى سانت موريتز.

استقرت طاولة طعامي في مكانها بصوت طقطقةٍ محكمةٍ تبعث على الرضا. جميل. وتكشف نافذتي عن مشهدٍ بديعٍ يذكرنا بقصص «هايدي»، بقممه الشاهقة وحقوله الزمردية. جميل. وبعد دقائق، داهمت خاطرةٌ غريبةٌ شرودي وتأملي: كل هذا جميل، ولكنه جميلٌ أكثر مما ينبغي.

«جميلٌ أكثر مما ينبغي»؟ أوَهذا ممكن؟ فالجميع يهوى الجمال. ونحن الأمريكيين خاصة. فنحن ننثر كلمة «جميل» (nice) في أحاديثنا كما تُنثر بهارات البابريكا. وأحيانًا نمدها في نطقنا: جميييييل. فنحن لا نشبع من الجمال أبدًا. وحين نقول بعفويةٍ وتلقائية: «أتمنى لك يومًا جميلًا»، لا نضيف أبدًا: «ولكن ليس جميلًا أكثر من اللازم». فالجمال المفرط أشبه بالجرعة الزائدة من آيس كريم «روكي رود»، أو بالحب المفرط: أمرٌ ممكنٌ من الناحية النظرية، ولكن لم يختبره بشرٌ قط.

حتى هذه اللحظة. فبعد ساعاتٍ عدة من جمالٍ متصلٍ لا هوادة فيه، أجد نفسي أتوق إلى شيءٍ من الخشونة، والصلابة، بل وحتى القذارة.

لعلَّني قد أطلت السفر حتى أصابني ما يسميه صديقٌ لي «دوار

الطريـق»، فضربـتْ في رأسي لوثةٌ من جنـون. ولعلَّني، وأنـا أتأمل القطار وهو يلج نفقًا جميلاً (فلم أكن أعلم أنَّ الأنفاق قد تكون جميلة)، قد أيقظتُ في نفسي مازوخيتي الكامنة، وأني أوشـكت أن أتحول إلى «روسـو» جديد، فأكشف عن مؤخرتي وأدعو من يمرُّ بي إلى أن يصفعني صفعةً قوية.

بيـد أنَّ هنـاك احتـمالًا آخر، خاطرةٌ طـرأت على بالي والمضيفـةُ، بكامل أناقتها وشعرها المصفف بإتقان، تدفع أمامها عربةً مثالية تفيض بالمعجنات الشـهية والقهوة المُعدة بعناية فائقة، تسـألني إن كان بوسعها أن تفعل شيئًا لتجعـل رحلتـي «أجمـل». لعـل المعانـاة، هكذا قلـت في نفسي وأنـا أتأمل سـؤالها، جوهريةٌ للحياة الطيبة. ولعل المعانـاة، على نحوٍ غريبٍ ملتوٍ، هي الأخرى جميلة.

«سيدي؟ هل أقدم لك شيئًا؟».

أجل، بوسـعكِ ذلك، هكذا قلت في نفسي. بوسعكِ أن تعامليني بشيءٍ من الخشونة، وأن تلطخيني بالوحل والطين. آذيني. اجعليني أكابد العناء، أرجوكِ.

فقبل أكثر من قرنٍ من الزمان، وفي قطارٍ سويسري آخر، راودت أفكارٌ كهذه مسافرًا آخر. لقد كان مؤلفًا موسيقيًا وشاعرًا أخفق في مسعاه، وكان في الوقـت ذاتـه نابغـةً أكاديمية آثـر أن يدير ظهـره لنجاحٍ باكـر لينعزل في الجبـال. لقد كان «ملاّحًا في سـماوات الروح»، يحتفي بالضحك والرقص، ويتخذ من عبارة «عش في خطر!» شعارًا له. ورغـم كل ذلك، فقد كان هو الآخر يتوق إلى المعاناة.

***

فيلـم «يـوم جـرذ الأرض» (Groundhog Day) هـو أحـبُّ الأفـلام إلى قلبـي، بـلا منازع. فأنا لم أشـاهده مشـاهدةً عابـرة، بل ناجيتـه مناجاة، وتشربت روحه وفلسـفته. لقد عشقته حين صدر للمرة الأولى عام 1993. عشـقته قبـل أن يغدو «ميمًا» ثقافيًـا، وقبل أن تدخل كلمـة «ميم» أصلًا في قاموس الأحاديث اليومية. وما زلت أعشقه. أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

بطـل الفيلـم مذيعٌ لأحوال الطقـس، نزقُ الطبع، متـبرمٌ من كل شيء، اسـمه «فيل كونورز». يجد نفسـه في بلدة «بونكسـوتاني» بولاية بنسلفانيا، ليغطي مهرجان «يوم جرذ الأرض» السـنوي. للمرة التي لا يعلم عددها. وهو ليس سعيدًا بهذه المهمة، فلا يدع فرصةً تمرُّ إلا وينفث سخطه في وجه فريـق عمله المخلص الـدؤوب. يُلقي «فيل» تقريره، ثم يأوي إلى فراشـه. وفي صبـاح اليوم التالي، يسـتيقظ ليجد أنَّ «يوم جـرذ الأرض» قد عاد من جديـد. ثم يعود من جديد، ومن جديد. وهكذا، يظلُّ «فيل» عالقًا في بلدة «بونكسـوتاني» العامـة، وقد قُـدِّر له أن يعيش اليوم نفسـه، ويغطي القصة ذاتها التافهة، مرَّةً تلو المرَّة. وهو يواجه محنته هذه بسلسلةٍ من الاستجابات: فيبدأ بعدم التصديق، ثـم ينغمس في الملذات، ثـم يسـتبد به الغضب، فيلجأ إلى الخـداع، فيهـوي إلى قـاع اليـأس، ليبلغ في نهايـة المطاف مرتبـة القبول والتسليم.

يُصنَّـف الفيلـم في فئـة الكوميديا الرومانسـية، ولكني أؤمـن في قرارة نفسي أنَّ «يوم جرذ الأرض» هو أعمق فيلمٍ فلسفي صُنع حتى الآن. فبينما يصـارع «فيل كونـورز» تلك النعمة التي هي في الوقـت ذاته لعنة —أعني يومـه الذي يتكرر إلى الأبـد— فإنَّه يصارع في الوقت ذاته قضايا الفلسـفة

الكبرى: ما الذي يشكل الفعل الأخلاقي؟ وهل نملك إرادةً حرَّة، أم أنَّ حياتنا قدرٌ محتوم؟ وكم فطيرة توتٍ أزرق يستطيع رجلٌ بالغ أن يلتهمها قبل أن ينفجر؟

وقد سررت، وإن لم تكن مفاجأة لي، حين علمت بمدى التطابق المذهل بين أحداث الفيلم ونظريةٍ آسرةٍ للعقل، محيرةٍ للفكر، كان قد طرحها الفيلسوف الألماني «فريدريك نيتشه» قبل أكثر من قرنٍ من الزمان. إنَّ «نيتشه» هو فتى الفلسفة الغربية الشقي، أو قل هو ذلك العبقري المارق الذي كان أذكى من أن يُتجاهل، وأبعد نظرًا من أن يُغفل. ومهما حاولنا أن نتجاهله بوصفه مجنونًا، أو معاديًا للسامية، أو ضالًا، فلم يكن «نيتشه» أيًا من هؤلاء. لقد كان، وما يزال، أكثر الفلاسفة إغواءً للعقول، وأشدهم حتميةً، وأقربهم إلى أن يكون قدرًا لا مفر منه.

***

أصل إلى «سيلس ماريا» بعد 124 عامًا من رحيل نيتشه عنها، وأدرك من فوري لِمَ أحبّها. فبيوتها التي تشبه بيوت حلوى الزنجبيل، أصيلةٌ بقدر ما هي فاتنة؛ وهواؤها، نقيٌّ قارس؛ وحيثما ألقيت ببصري، أرى جبال الألب، شامخةً نحو السماء. فإن كان هناك شيءٌ اسمه «القذارة السويسرية»، فإنّي لم أجد له أثرًا؛ فحتى صناديق القمامة كانت تلمع من فرط النظافة.

أسير بضع ياردات من فندقي إلى البيت الصغير الذي أقام فيه نيتشه. في ذلك الزمان، كان الطابق الأرضي متجرًا يبيع الشاي والتوابل وغيرها من السلع الأساسية. أمَّا نيتشه، فقد استأجر غرفةً في الطابق الثاني. وقد حُفظت الغرفة بأمانةٍ كما كانت، بأثاثها البسيط الذي كان في أيام نيتشه:

سريرٌ ضيق، ومكتبةٌ صغيرة، وسجادةٌ شرقية، ومصباح كيروسين.

فالبساطة، كما علمتني تجربتي في اليابان، لا تعني النقص أبدًا. ففي البساطة جمال، وكانت للغرفة مسحةٌ من أناقةٍ وجمالٍ يسرُّ الناظرين. وقد اختار نيتشه ورق الجدران ذاك بنفسه. فهو، شأنه في ذلك شأن الكاتبة اليابانية «سي شوناجون»، كان يجد الجمال في التفاصيل الصغيرة. وقد كتب يومًا: «نريد أن نكون شعراء حياتنا وأن نبدأ ذلك أولًا في أصغر شؤوننا وأكثرها اعتيادية».

لقد كان نيتشه يتوق إلى حياةٍ رتيبةٍ ذات نظام. فكان يستيقظ باكرًا، ويأخذ حمامًا باردًا، ثم يجلس إلى إفطارٍ أقرب إلى إفطار الرهبان: بيضٌ نيء، وشاي، وقطعة بسكويت باليانسون. وكان يقضي نهاره بين الكتابة والمشي. وفي المساء، بين السابعة والتاسعة، كان يجلس في سكونٍ تام في عتمة غرفته. إنّه لروتينٌ صارمٌ يدعو إلى الإعجاب، ولكنّه بالكاد يرقى إلى مصاف البطولة. فأين إذن -هكذا تساءلت في نفسي- ذلك الجريء المقتحم في عالم الفلسفة؟ أين ذلك «الملاّح في سماوات الروح»؟

أمّا من الناحية الجسدية، فلم يكن نيتشه بطلًا خارقًا، وتشهد على ذلك الصور الفوتوغرافية المعروضة هنا؛ فهي ترسم صورة رجلٍ ضئيل الجسد، يكاد شاربه الضخم يطغى على ملامحه. كانت له عينان واسعتان داكنتان تتركان أثرًا فيمن يراهما ولم يكن أثرهما في أحدٍ أعمق منه في «لو سالومي»، تلك الكاتبة الروسية الفاتنة، محطمة التقاليد، التي كسرت قلب نيتشه. فقد ذكرت أنَّ عينيه «لم يكن فيهما ذلك التفتيش الدائم والرمش المتقطع الذي يجعل الكثير من ضعاف البصر يبدون متطفلين دون وعي منهم».

بـل عـلى العكس، كما تقـول، فإنَّ بـصره الضعيف «قد أضفـى على ملامحه ضربًا خاصًا من السـحر، فبـدلًا من أن تعكس انطباعـات العالم الخارجي المتغـيرة، لم تكـن تعكـس إلا مـا كان يمور في أعماق نفســه». وكان شـاربه الكث، الشـبيه بشارب «بسـمارك»، يعزز ذلك الغموض الذي تعمّد نيتشه أن يحيط به نفســه. فكان يخدع الناس، فيظنونه شـخصًا آخر غير الذي كان عليه في الحقيقة.

ورغـم أنَّه كان من الفلاسـفة القلائل الذين مجّـدوا الصحة واعتبروها فضيلـة، فلم ينل منهـا إلا أقل القليل. فمنذ الثالثة عـشرة من عمره، عانى مـن صداعٍ نصفيٍّ لازمَه، إلى جانب مجموعـة من العلل الأخرى التي ابتُلي بهـا طوال حياتـه. فقد ازداد بـصره ضعفًا على مر السـنين. وكان يعاني من نوبـات تقيـؤٍ تـدوم لسـاعات. وفي بعض الأيـام، كان يُعجـزه المرض عن مغادرة فراشه.

وقـد جـرّب الكثير من العلاجـات الطِّبيَّة، وكان، على عكس تشـككه في كل شيءٍ آخر، سـهل الانقياد للدجل والمشـعوذين بشكلٍ يثير الدهشة. فوصـف له أحـد الأطباء نظامًا قائـمًا على العدم: «لا ماء، ولا حسـاء، ولا خـضروات، ولا خبـز». لا شيء البتة، إلا بعض العلقـات التي وضعها له على شحمتي أذنيه.

لقـد أحسَّ نيتشـه بظلِّ المـوت إحساسًـا عميقًا. فقد تـوفي أبوه وهو في السادسـة والثلاثين. وقال الأطباء إنَّ السبب «تلينٌ في الدماغ» (والأرجح أنَّه كان سرطانًا). فخشي نيتشه أن ينتظره مصيرٌ مشابه. وتنتشر في مراسلاته إشـاراتٌ إلى هلاكٍ وشـيك. وقد كُتبت مؤلفاته بنثرٍ يُشـعرك بعجلة رجلٍ

أيقن أنَّ أيامه معدودة.

وكان غزيـر الإنتاج بصورةٍ تـكاد تكون فوق طاقة البـشر، فنشر أربعة عـشر كتابًا من عـام 1872 إلى 1889. ولكن كتبه كلها، بلا اسـتثناء، لم تبع إلا قليلًا، حتى إنَّه دفع تكاليف طباعة بعضها بنفسه. فلم يكن العالم يومها مستعدًا بعد لسماع ما لدى «ناسك سيلس ماريا» من قول.

أمَّـا أنا، فلو كنت مكانه، لربما كنت قد استسـلمت بعـد ثالث إخفاق. ولكن ليس نيتشه. فقد ثابر، بل ولم يبطئ من سيره قط، رغم الرَّفض ورغم علل الجسد. فكيف استطاع ذلك؟ وأي سرٍّ كان يعرفه؟

يحتـوي البيـت على مكتبـةٍ صغيرة، فيها كتـبٌ من تأليف نيتشـه وكتبٌ عنه، وبضع نوتاتٍ موسـيقية، تشـهد على طموحاته الموسـيقية التي وأدها في مهدهـا. ولكـن أكثر ما يثـير فضولي هو رسـائله؛ فقد كتـب الكثير عن الطَّقس، وكان شـديد الحساسـية لأدق فروق الأرصاد الجويـة. فأينما حلَّ وارتحـل، كان يـدوّن درجات الحـرارة والضَّغط الجوي، ويسـجل كميات المطر وقطرات النَّدى. وكانت الأيَّام الغائمة تصيبه بالكآبة، فكان يتوق إلى «سماءٍ بهيجةٍ على الدوام».

وقد وجد ضالته تلك في «سـيلس ماريا». فـإن كانَ لمكانٍ أنْ ينقذ حياة إنسـان، فإنَّ «سـيلس ماريا» قد أنقذت حياة نيتشـه. نعم، لم يزل يعاني من الصداع واضطراب المعدة، ولكن نوباته تلك كانت أهون وطأةً بكثير. كما أنَّ هواء جبال الألب قد سكّن من أعصابه، فعاد يتنفس من جديد.

وهنـا، ولدت أعظم أفكاره. ففي «سـيلس ماريا» أعلـن مقولته: «لقد مـات الإلـه»، وهـي من أجرأ المقـولات في تاريخ الفلسـفة. وفي «سـيلس

ماريا» استلهم شخصية نبيّه الرَّاقص وقرينه، «زرادشت»، تلك النسخة المتخيلة من النَّبيّ الفارسيّ الذي يهبط من الجبل ليشارك البشرية حكمته. وفي «سيلس ماريا» أيضًا، ضربته فكرته الكبرى —«فكرة الأفكار»— بضراوةٍ لم يكن يظنُّها ممكنة.

كان ذلك في أغسطس من عام 1881. وكان نيتشه يسير في إحدى نزهاته المعتادة على ضفاف بحيرة «سيلفابلانا»، على ارتفاع «ستة آلاف قدمٍ فوق الإنسان والزمان». وكان قد بلغ للتو «صخرةً هرميةً عظيمة»، حين هبطت عليه «فكرة الأفكار» دون استئذان؛ زلزالٌ فكريٌّ أدى إلى إعادة النَّظر في الكون ومكانتنا فيه، وأفضى كذلك إلى فيلم سينمائي شهير من بطولة «بيل موراي» و«آندي ماكدويل». لقد ضربته الفكرة بقوةٍ وسرعة، ثم احتدمت وتمددت حتى بلغت حجمًا لا يمكن تخيله. ولم تبرد وتتجمد في هيئة كلماتٍ إلا بعد حين.

«تخيّل لو أنَّ شيطانًا تسلَّل إليك في عتمة اللَّيل السَّاكنِ، وهمسَ في أُذنك قائلًا: «هذه الحياةُ التي تحياها الآن، والتي حيَّيتها من قبل، سيُقضى عليك أن تحياها مرَّةً بعدَ مرَّةٍ بعدَ مرَّة، مرَّاتٍ لا حصر لها ولا عدّ؛ ولن يكون فيها من جديدٍ شيء، بل لا بدَّ أن يعود إليك كلُّ ألمٍ وكلُّ فرحة، وكلُّ فكرةٍ وكلُّ زفرةٍ، وكلُّ ما في حياتك من أمورٍ صغيرةٍ كانت أم كبيرة، ممَّا لا يمكن وصفه بالكلمات، وكلُّ شيءٍ سيعود بنفس التَّرتيب وبنفس التَّتابع وبنفس الهيئة سيعود هذا العنكبوت وهذا القمر السَّاري بين الأشجار، وبنفس الهيئة ستعود هذه اللَّحظة، وأعود أنا نفسي. إنَّ السَّاعة الرَّملية الأبديَّة للوجود ستُقلَب رأسًا على عقب مرَّةً بعد مرَّةٍ، ومعها ستُقلَب أنت، يا ذرَّةَ

الغبار التي لا تكاد تُرى!».

إنَّ نيتشه هنا لا يتحدث عن «تناسخ الأرواح». فأنت لا تعود بالرُّوح ذاتها في جسدٍ مختلف، بل إنَّ «أنت» بذاتك وعينك هو الذي يعود، مرَّةً تلو المرَّة. فأنت، على عكس «فيل كونورز» بطل فيلم «يوم جرذ الأرض»، لا تتذكر تكراراتك السَّابقة، ولا يمكنك، مثله، أن تعدّل من حياتك المتكرِّرة. فكل شيءٍ قد وقع من قبل، وسيقع من جديد، بنفس الطَّريقة تمامًا، إلى أبد الآبدين. كل شيء، بكل تفاصيله. حتى الصف السَّابع.

«كيف عساك تردُّ على ذلك الشيطان؟» هكذا يسأل نيتشه. «أكنت ستصرُّ على أسنانك وتلعن الشيطان الذي نطق بهذا؟ أم كنت ستنحني أمام الشيطان سجودًا وتقول له: 'أنت إله، وما سمعت في حياتي قولًا أشد قداسة من قولك هذا!'؟»

وقد أطلق نيتشه على فكرته هذه اسم «العود الأبدي للذات». لقد أخذت بمجامع قلبه، وألقت في روعه الفزع في آنٍ واحد. فعاد أدراجه ماشيًا، بل كاد يعدو عدوًا، إلى غرفته البسيطة في «سيلس ماريا»، وظلَّ للأشهر القليلة التالية، ورغم ما كان يكابده من آلامٍ مبرحةٍ في رأسه وعينيه، لا يفكر إلا فيها.

***

أستيقظ على يومٍ آخر في «سيلس ماريا». أنظف أسناني، كما فعلت بالأمس، وألطم وجهي بماءٍ بارد. وأحلق ذقني، فأجرح خدي، كما هي العادة، ثم أهوي متعثرًا إلى غرفة الإفطار، تلك الغرفة ذاتها التي كان نيتشه يتناول فيها طعامه بانتظام. فأرى المضيفة ذاتها التي رأيتها بالأمس وأول

أمس، وهـي ذاتها التي تتحمل، مرَّةً أخرى، تحيتي الألمانية الملعثمة «صباح الخير guten morgen»، وتجلسـني إلى المائدة ذاتها بجوار النَّافذة ذاتها.

وعنـد ركن البوفيه، أجد الخيارات ذاتها: كتل جبن «يارلسـبرغ» ذاتها، وقطع الكرواسـان الهشة ذاتها، وسـلطة الفواكه ذاتها المرتبة في نصف دائرةٍ مثـالي. وأطلب فنجان قهـوة، كما فعلت بالأمس وأول أمس، ثم أصب فيه القدر نفسه من الحليب، لا أزيد ولا أنقص. وحين أهمُّ بالانصراف، تقول المضيفـة: «أتمنى لـك يومًا جميـلًا»، كما قالتهـا بالأمس وأول أمـس. ومرَّةً أخرى، أقول في نفسي ولا أبوح: «أجل، ولكن ليس جميلًا أكثر مما ينبغي».

أمرُّ من أمام مكتب الاسـتقبال، مرَّةً أخرى، وألقي التحية على «لورا»، التي ترتدي اليوم، كما ارتدت بالأمس وأول أمس، سروال «الليدرهوزن» الجلدي. ثم أخطو خارجًا إلى يومٍ سـويسريٍّ مثالي، يومٍ يشبه الأمس وأول أمـس، وأنطلق في واحدٍ من دروب المـشي الجبلية القريبة. إنَّه دربٌ يختلف عن درب الأمس، وكما تقول شـخصية «بيل موراي» المتبرمة في فيلم «يوم جـرذ الأرض»: «الاختـلاف شيءٌ جيد». فأنا في مهمة. ليسـت مهمةً إلهية (فقد قتلناه، هكذا يهمس نيتشه في أذني)، بل هي مهمةٌ من لدن «زرادشت»، نبي نيتشه الرَّاقص. لقد عقدتُ العزم على أن أجد تلك الصَّخرة العظيمة، ذلك المكان الذي تخيل فيه الفيلسـوف للمرَّة الأولى فكرة «العود الأبدي». فأنـا آمـل، حين أراها وألمسـها، أن أفكـر بها فكر فيه هو في ذلـك اليوم، بل والأفضل من ذلك، أن أحسَّ بها أحسَّ به.

أسـير على طريقة «روسـو»، كأنَّنا أملك زمان العالم كله. فأجد في ذلك متعـة، لا في الإيقـاع الموسـيقي لخطواتي فحسـب، بل في تعاقب الشَّـمس

والظِّـلِّ وأنـا أدخل وأخـرج من بـين أشـجار الصَّنوبر التي تحـفُّ ببحيرة «سـيلفابلانا». وأحسُّ بالأرض تحت قدمي ناعمةً إسفنجية، كأنَّها تناجيني مناجاة.

أمشي، ثم أمشي، ثم أمشي. تأخذ سـاقاي في الألم. ورغم ذلك، أواصل السَّـير. أمشي رغم الألم، بل من أجل الألم. ولا شـكَّ أنَّ نيتشه كان ليرضى عـن فعلي هذا، ويلاحـظ أنِّي بذلك أمرّن «إرادة القـوة» في نفسي، وأتغلب عـلى عقبة، في سـبيلي لأصبح ذلـك «الإنسـان المتفـوق Übermensch»، خطوةً فخطوة.

وتراودني نفسي أن أتوقف لأقرأ شـيئًا لنيتشـه، ولكن الفيلسـوف نفسه يثنينـي عـن ذلك بقولـه: «كيف لإنسـانٍ أن يصبح مفكـرًا إن لم يقضِ على الأقل ثلث يومه دون أهواء، ودون أناس، ودون كتب؟».

لقد كان ضعف بصره نعمةً خفيَّة؛ فقد حرره من طغيان الكتاب. فحين كان يُعجِـزه النَّظـر عن القـراءة، كان يمشي. كان يمشي لسـاعاتٍ متصلة، قاطعًا مسـافاتٍ شاسعة. وقد قال: «لا تؤمن بفكرةٍ لم تولد في الهواء الطَّلق ومن رحم الحركة الحرة». فنحن نكتب بأيدينا، ولكننا نكتب جيدًا بأقدامنا.

***

يقـولُ نيتشـه: «كل حقيقةٍ ملتوية». وكذلك هي الحيـاة. فنحن لا نقوّم سرديـات حياتنـا ونضفي عليهـا الأنماط والمعـاني إلا حين ننظـر إليها من بعيد، بعد انقضائها. أمَّا في لحظة وقوعها، فما هي إلا تعرجاتٌ ومنعطفات. وفراغـاتٌ بيضـاء: تلك الفواصل في نـص الحياة التي تشـق ذواتنا الماضية شـقًا فتفصلها عن ذواتنا المسـتقبلية التي لم تزل في طـور التَّكوين. قد تبدو

هذه الفراغات البيضاء وكأنَّها حذوفاتٌ من النص، ولكنَّها ليست كذلك؛ بـل هي تحـولاتٌ صامتة لا تعبر عنهـا الكلمات، ونقاطُ تحـوّلٍ تغير عندها تيارات حياتنا مجراها.

وقـد حدث أحد «نقـاط التحول» هذه في بواكير حياة نيتشـه. فقد كان يـدرس علم اللاهـوت في جامعة «لايبزيـغ»، حين دخل ذات يـومٍ مكتبةً للكتب المستعملة. فشعر بانجذابٍ، كما يذكر، نحو كتابٍ واحدٍ بعينه: تحفة شـوبنهاور الخالدة، «العالم إرادةً وتمثـلًا». وكان من عادته أن يتردد ويطيل التَّفكير قبل شراء أي كتاب. ولكن ليس هذه المرة.

ومـا إن بلغ بيته، حتى ألقى بنفسـه على أريكته و«تـرك ذلك العبقري، الجبـار والكئيـب، يفعل فعلـه في نفسي». فأخذت نيتشـه نشـوةٌ عارمة... ورعـبٌ أشـد. وقـد كتب عن ذلـك يقول: «هنـا رأيت المـرض والصحة، والمنفـى والملجأ، والجحيم والجنة». وبعـد ذلك بوقتٍ قصير، حوّل وجهة دراسـته من علم اللاهـوت إلى الفيلولوجيا (فقه اللُّغة)، وهو علم دراسـة اللُّغـة وآدابهـا. وقد لا يبدو هـذا التَّحوُّل حدثًا جللًا، ولكنه بالنِّسـبة لابن وحفيد قساوسةٍ لوثريين، كان يمثل فعل تمردٍ خالص.

لقـد برع نيتشـه وتفوق. ففي الرَّابعة والعشرين من عمره، عُيِّن أسـتاذًا في فقه اللُّغة الكلاسـيكيِّ بجامعة «بازل» السُـويسرية. ولكن شهر العسل ذاك لم يدم طويلًا.

فكتابـه الأوَّل، «مولـد التَّراجيديـا»، قـد ضرب بالأعـراف الأكاديمية عرض الحائط؛ فلا حواشٍ سفلية، ولا نثرٌ جافٌ رصين. وقد وصفه أستاذٌ قديـم له بأنَّه «قطعـةٌ من تصوفٍ دينيٍّ ذي جماليةٍ زائفـة، يفتقر إلى العلمية،

أنتجها رجلٌ يعاني من جنون الارتياب». وهكذا خبا بريق ذلك النَّابغة؛ فليس هناك ما تمقته المؤسسة الأكاديمية أكثر من العبقري المارق.

وجاءت نقطة التَّحول الثَّانية في عام 1879. فقد تدهورت صحته، حتى إنَّه في بعض الأحيان كان بالكاد يبصر، فكان يطلب من طلابه أن يقرؤوا له. وقد باءت محاولته للحصول على كرسي الأستاذية في الفلسفة، شغفه الجديد، بالفشل. وأتخيل أن معظم الناس في مكانه كانوا ليتأقلموا مع الوضع، فيبحثون عن أطباء أفضل، ويصلحون ما فسد من علاقاتهم برؤساء الأقسام، ويتصالحون مع ذلك «القفص المريح» الذي هو الحياة الأكاديمية. فلا أحد يتخلى عن منصبٍ دائم في واحدةٍ من أعرق جامعات أوروبا.

ولكن نيتشه رحل. رتب شؤونه، وبعث برسالةٍ موجزة إلى ناشره، قال فيها: «إنِّي على شفا اليأس، ولم يكد يبقَ في نفسي بصيصٌ من أمل»، ثم وقّع الرِّسالة، بأحرفٍ إنجليزية كبيرة: «رجلٌ نصف أعمى».

وهكذا، بتلك اللَّفتة الدِّراميَّة، قايض حياة الأستاذ المستقرة بحياة «فيلسوفٍ متوحش»، متحررًا من كل انتماء، ومن كل قيد. لقد كانت خطوةً تنمُّ عن شجاعةٍ لا تصدق، أو عن حماقةٍ مطبقة. يقول الكاتب «شتيفان زفايغ»: «لعلَّ أحدًا لم يقذف بحياته السابقة بعيدًا عن نفسه، مثلما فعل نيتشه».

لقد كان نيتشه، شأنه في ذلك شأن «روسو»، جوّالًا لا يستقر في مكان. ولكنَّ على عكس «روسو»، كان لتجواله ذاك نمطٌ وإيقاع: صيفه في سويسرا، وشتاؤه في إيطاليا أو جنوب فرنسا. ولم يكن يملك من متاع

الدُّنيا إلا ثيابه التي عليه، والورق الذي يخط عليه أفكاره، وصندوقًا خشبيًا كبيرًا يحفظ فيه كل ذلك.

كان يسافر بالقطار. وكان يمقت القطارات. يمقت عرباتها التي لا تدفئة فيها. ويمقت اهتزازها المتأرجح. وكان كثيرًا ما يتقيأ، ويدفع ثمن رحلة يومٍ واحد بثلاثة أيامٍ من النَّقاهة والعناء.

وكان تغيير القطارات يصيبه بالارتباك والحيرة، حتى إنَّه كان أحيانًا يجد نفسه ماضيًا في وجهةٍ خاطئة. وذات مرَّةٍ، حين كان في زيارةٍ للموسيقار «ريتشارد فاغنر»، ترك نيتشه حقيبةً في إحدى محطات القطار، وكان بداخلها مجلدٌ ثمين من مقالات «رالف والدو إمرسون»، ونسخةٌ موقعةٌ من مؤلفها لأوبرا فاغنر «خاتم النيبلونغين». ولم يجد نيتشه في هذه الحادثة، شأنه في ذلك شأن «همنغواي» و«تي. إي. لورانس»، أي جانبٍ يمكن أن يعوض عن الخسارة. فأحيانًا، تكون الخسارة خسارةً فحسب، لا معنى لها ولا عزاء فيها.

***

لم أهتدِ بعد إلى «صخرة نيتشه الهرمية العظيمة»، فأقرِّر أن أكفَّ عن المشي وأشرع في القراءة، في فعل تمردٍ أنا على يقينٍ أنَّه كان ليفهمه. يقع بصري على مقعدٍ خشبي، فأجلس وأفتح كتاب نيتشه «العلم المَرِح»، أو كما يُترجم أحيانًا «الحكمة البهيجة». وما هي إلا بضع جملٍ حتى أدرك أنَّ نيتشه لا يخاطبني، بل يصرخ في وجهي صراخًا! فإن كان سقراط فيلسوف علامة الاستفهام، فإنَّ نيتشه هو فيلسوف علامة التَّعجب. فقد كان مغرمًا بها! حتى إنَّه كان أحيانًا يصفُّ اثنتين أو ثلاثًا منها في نهاية الجملة!!!

إنَّ قراءة نيتشــه لمتعــةٌ وعبءٌ في آنٍ معًا. هي متعــةٌ لأن نثره يضاهي نثر شوبنهاور في صفائه وبساطته المنعشة. فهو يكتب بحماسة مراهقٍ مندفع لا يعـرف الخجل، لديـه شيءٌ جوهري يريد أن يقوله للعالم. يكتب كأن حياته كلها رهن كلماته.

لقد آمن نيتشــه بأنَّ الفلسـفة ينبغي أن تكون ممتعـة. فهو كاتبٌ لعوب، وفكاهته لاذعة. وقد قال إنَّ كلَّ حقيقةٍ ينبغي أن تصاحبها ضحكةٌ واحدة على الأقل. فهو يتلاعب بالأفكار، كما يتلاعب بالأساليب الأدبية. فيكتب تارةً بالشَّـذرات الفلسـفية، وتارةً بأناشـيد الأطفـال، وتـارةً بالأغاني؛ ثم يكتـب بصوتٍ يحاكي نبرة الكتب المقدسـة على لسـان أشـهر شـخصياته، «زرادشت». وإنَّ جمله القصيرة الخاطفة لتبدو اليوم وكأنَّها قد كُتبت لتُنشر على «تويتر».

إنَّ قراءة نيتشــه لعبءٌ ثقيل، لأنَّه، شـأنه في ذلك شـأن سقراط، يطالبنا بأن نعيد النظر في معتقداتنا الرَّاسـخة، وهـذا ليس بالأمر الهين على النَّفس أبدًا. فلطالما ظنَّنت أنَّ الفلسـفة إنَّما تستمدُّ قوَّتها من العقل الصَّارم والمنطق الخالـص. ولئـن كان «روسـو» قـد أحـدث شرخًا في هـذا الاعتقـاد، فإنَّ «نيتشـه» قد هدمه من أساسه. فبين صفحاته يتخلل احتفاءٌ خافت (وكثيرًا مـا يكون صاخبًا) بكل ما هو اندفاعي ولا عقلاني. فالعواطف عند نيتشـه ليسـت إلهاءً عن سـبيل المنطـق، ولا منعطفًا فيـه، بل هي الغايـة والمنتهى. فالأخيار عنده غير عقلانيين، وأشرف الناس جميعًا هو ذاك الذي «يستسلم لاندفاعاته، وفي أفضل لحظاته، يتلاشى عقله تمامًا».

لقد احتفى «روسـو» بالقلب، أمَّا «نيتشه» فيهدف إلى ما هو أعمق منه.

إنَّه فيلسوف الأحشاء؛ ذلك المكان الذي، على حد تعبير الباحث «روبرت سولومون»، «تنمو فيه الشُّكوك ويزدهر التَّمرد، تلك الأجزاء من الجسد التي لا يسهل ترويضها بمجرد الحجج المنطقية السَّليمة أو بسلطان الأساتذة».

لم يكن نيتشه من أنصار الفكر المجرد الخالص؛ فقد كان يرى أنَّ مثل هذه التَّأملات الضَّبابية لم تلهم أحدًا قط بفعل أي شيء. وقد قال: «علينا أن نتعلَّم كيف نفكر على نحوٍ مختلف... كيف نشعر على نحوٍ مختلف». لقد كان يعاني من ضربٍ من «التَّقمص الوجداني»؛ فكان يفكّر كما يشعر معظمنا: بغريزته، وبضراوةٍ لا تخضع لسيطرته تمامًا. لم يكن نيتشه يصوغ الأفكار صياغة، بل كان يلدها ولادة.

أجدني غارقًا في كلماته المحكمة، ولعلِّي على شفا بلوغ حالة «التَّدفق»، حين أحسُّ بوجودٍ ما. فأرفع بصري لأرى فراشةً قد حطَّت على كتاب نيتشه، بجناحيها الذَّهبيَّين الضَّاربين إلى السَّمرة يرفرفان فوق الصَّفحة 207. فلا أدري ما أفعل. وتراودني نفسي أن ألتقط صورة، ولكنّي أخشى أن أُفزع الفراشة. وفضلًا عن ذلك، فإنَّ تسجيل اللَّحظة يبدو لي بديلًا بائسًا عن معايشتها حق المعايشة.

لقد حطَّت الفراشة على فقرةٍ بعنوان «عند رؤية كتابٍ عالِم». يا له من اختيارٍ موفق! هذه هي روح نيتشه الكلاسيكية. «إنَّ سؤالنا الأول عن قيمة كتابٍ، أو إنسانٍ، أو مقطوعةٍ موسيقية هو: هل بوسعه أن يمشي؟ أو خيرٌ من ذلك: هل بوسعه أن يرقص؟»

فبعض الفلاسفة يصدمك، وكثير منهم يجادلك، وقليلٌ منهم يلهمك.

أمّا نيتشه، فهو وحده من رقص. فلم يكن عنده تعبيرٌ أسمى عن الحيوية الفائضة وعن «حب القدر» (amor fati) من الرَّقص. وقد كتب يقول: «لن أؤمن إلا بإلهٍ يجيد الرَّقص». وإنَّ «زرادشت»، نبي نيتشه، يرقص رقصًا محمومًا، مفعمًا بالحياة، دون أثرٍ من خجلٍ أو وعيٍ بالذَّات.

يقول نيتشه إنَّ روح كلِّ فيلسوفٍ أصيل هي روح راقص. وليس بالضَّرورة أن يكون راقصًا ماهرًا. فقد قال: «أن ترقص رقصًا سيئًا خيرٌ من أن تمشي مشية الأعرج»، وقد كان. فهو نفسه لم يكن يقوى حتى على بضع خطواتٍ لائقة على حلبة الرَّقص. وليكن. فالفيلسوف الحق، شأنه شأن الرَّاقص الحق، مستعدٌ لأن يجعل من نفسه أضحوكة.

إنَّ فلسفة نيتشه ترقص رقصًا بارعًا. فلها إيقاع. وهي تقفز وتتمايل برشاقةٍ عبر الصفحات، بل و«تمشي على القمر» أحيانًا. وكما أنَّ الرَّقص لا غاية له من ورائه —فالرَّقص هو الغاية— فكذلك هي فلسفة نيتشه. فالرَّقص والتَّفكير عند نيتشه يمضيان نحو غايةٍ واحدة: الاحتفاء بالحياة. فهو لا يسعى لإثبات شيء، بل كل ما يريده هو أن يريك العالم، وأن يريك نفسك، بمنظورٍ مختلف.

فالفيلسوف عند نيتشه أشبه بالفنان، يناولك نظارةً ويقول: «انظر إلى العالم من خلالها. فهل ترى ما أرى؟ أليس في ذلك معجزة؟». وما نراه قد يكون حقيقيًا بالمعنى العلمي أو لا يكون، ولكن ليست تلك هي الغاية. فالفيلسوف لا ينقل حقيقة العالم، بل حقيقة الفنان أو الروائي. إنَّه منهج «الكأن»؛ فتنظر إلى العالم «كأن» هناك مستوى آخر من الحقيقة، «النومينون» أو الشَّيء في ذاته، يكمن تحت السَّطح. وتحيا حياتك «كأنَّها» ستتكرَّر إلى ما

لا نهايـة. وانظر ماذا يحدث. فهـل النَّظر إلى العالم بهذه الطَّريقة ينير دربك؟ حسـنًا. إذن فله قيمتـه. فالنَّظر إلى العالم بطريقـةٍ مختلفة —حتى وإن كانت طريقةً «خاطئة» ومختلفة، كنظرة «ثورو» من بين ساقيه— يثري حياتنا.

ترحل الفراشة، وجناحاها الذَّهبيان الضَّاربان إلى السَمرة يحملانها نحو السَّماء، فأستأنف سـيري على ضفة البحيرة. الهواء رقيقٌ قارس. وأدرك لِمَ كان نيتشـه يتوق إليه؛ فالهـواء الدافئ يبلّد الذِّهن، والهواء البارد يشـحذه. لقـد قطعـت أميالًا عدة، ورغـم ذلك، لا أثر بعد لصخرة نيتشـه العظيمة. أبحـث عنهـا في كل مكان؛ حيث يُفـترض أن تكون، وحيـث لا يُفترض. لا شيء. أعـود على أعقـابي، مرَّتين، وأنا أمقت العـودة على الأعقاب. ولا شيء بعد. وقد أخذ مني الإنهاك كل مأخذ، فتراودني نفسي أن أستسـلم... ولكن، كلا، لا بدَّ من المثابرة. فـ«إرادة القوة» عند نيتشه تقتضي ذلك. فهو لم يستسلم حين رفضه الأحباء وتجاهله القرَّاء. وأنا كذلك لن أستسلم.

***

لم يكن نيتشـه أوَّل من قال بأنَّ الكون يكرِّرُ نفسه. فقد طرح الفيلسوف اليونـاني «فيثاغـورس» فكـرةً مشـابهة قبل قرابـة 2500 عام، بـل إنَّ كتب «الفيدا» الهندية قد سـبقته إلى ذلك. ولا شـك أنَّ نيتشـه كان على علمٍ بهذه النَّظريـات؛ فقد كان، شـأنه في ذلك شـأن «ماركوس أوريليـوس»، صيادًا للحكمة، يطلق لفكره العنان في كل صوبٍ وحدب.

لقد أراد نيتشه أن يمضي بالفكرة إلى ما هو أبعد من ذلك؛ أراد أن يحوّل «العـود الأبـدي» من مجـرد أسـطورةٍ إلى علم. فلأيَّـامٍ وأسـابيع، ظلَّ يخطُّ عـلى مفكراته «براهين» ممكنة. في أحدها، يُشـبّه الكـون بزهرتي نرد؛ فليس

هنـاك إلا عددٌ محدود مـن التوافيق الممكنة، ولا بد لـك في نهاية المطاف أن تحصل عليها كلها. في لعبة «إكس-أو»، عدد التَّوافيق أكبر بكثير: 26,830 سـيناريو ممكـن. إنَّـه لعددٌ كبير، ولكنـه متناهٍ. أمَّـا في الشَّـطرنج، فإنَّ عدد السِّيناريوهات الممكنة أكبر بما لا يقاس: 10 مرفوعةً للقوة 120 (أيّ واحدٌ يليـه 120 صفرًا). إنَّه لعددٌ يذهل العقل، ولكنَّه يظلُّ متناهيًا. قد يسـتغرق الأمر زمنًا طويلًا جدًا، ولكن لا بد في النهاية أن يستنفد لاعبا شطرنج كلّ التَّوافيق الممكنة للحركات، ويلعبا كلّ سيناريو ممكن. والكون، بمعنى ما، لعبةٌ كبيرة ومعقدة. وفي النّهاية، لا بد أن يتكرَّر كلّ شيء.

بيـد أنَّ إيمان نيتشـه هـذا لم يكن إلا مجـرد افتراض؛ افتراضٌ يسـتند إلى أسـاطير قديمة، واحتـمالاتٍ إحصائية آسرة ولكنَّها مشـكوكٌ في صحتها. ولم يشعر نيتشه قط بالثّقة الكافية التي تدفعه لنشر ملاحظاته تلك. واليوم، يرفـض معظم علـماء الفيزياء فكـرة «العود الأبـدي» ويعتبرونها أقرب إلى الخيال منها إلى العلم.

ولكن هناك احتمالٌ آخر، كما يرى نيتشـه. فلعلَّ مسـألة الإثبات لا تهم أصلًا. فإنَّ غياب الدَّليل العلمي لا يقلل من وطأة «العود الأبدي» —تلك «الفرضية المسـتحيلة»— ولا من أثرها الآسر. فيقول: «إن مجرد التَّفكير في إمكانية أمرٍ ما، قد يحطمنا ويغيرنا من أساسـنا»، مشـيرًا إلى مفهوم «اللَّعنة الأبدية» في المسـيحية. فالجحيـم قد لا يكون حقيقيًـا، ولكن فكرة وجوده دافـعٌ ومحفز. ولسـنا بحاجةٍ لإثبـات «العود الأبدي» كي نتـصرف «كأنَّه» حقيقة، ثم نرى ما يحدث.

ولننظر في حالة «روبرت سولومون». ففي ستينيات القرن الماضي، كان

«طالب طبٍ تعيسًا في سنته الأولى» بجامعة ميشيغان. وبنزوةٍ عابرة، قرَّر أن يلتحق بمادةٍ دراسية بعنوان «الفلسفة في الأدب». وحين عرض الأستاذ فكرة «العود الأبدي» عند نيتشه، صُعق «سولومون» وأخذته الدَّهشة. فقد أثارت الفكرة في نفسه «زوبعةً» من المشاعر والأفكار؛ ومن الشُّكوك أيضًا. فهل يريد حقًا أن يحيا هذه الحياة التَّعيسة مرَّةً تلو الأخرى، إلى الأبد؟ لقد خُيِّل إليه أنَّ ذلك جحيمٌ تستعر نيرانه.

وبعد تلك المحاضرة، هجر «سولومون» كلية الطِّبِّ، وسلك درب الفلسفة، ليصبح في نهاية المطاف واحدًا من كبار باحثي نيتشه في العالم. وهو قرارٌ لم يندم عليه قطُّ.

إنَّ «العود الأبدي» تجربةٌ فكرية، أو قل هو «اختبارُ إجهادٍ وجودي». وحين يتعلق الأمر بلحظات الحياة الممتعة، فإنَّنا نجتاز الاختبار بيسرٍ وسهولة؛ فمن منا لا يود أن يستعيد لحظةً أكل فيها مثلجاتٍ شهية، أو سجل فيها رمية ثلاثية حاسمة مع صفارة النهاية. ويتأمل «فيل كونورز»، شخصية «بيل موراي» في فيلم «يوم جرذ الأرض»، وهو غارقٌ في يأسه من محنته في «بونكسوتاني»، فيقول: «كنت في جزر العذراء ذات مرَّة. قابلت فتاة. أكلنا جراد البحر، وشربنا بينا كولادا. وعند الغروب، مارسنا الحبّ كثعالب البحر. لقد كان يومًا رائعًا حقًا. لِمَ لم يكن بوسعي أن أعيش ذلك اليوم مرارًا وتكرارًا؟».

ولكن «العود الأبدي» لا يسير على هذا النحو. فالأمر إمَّا كلُّه أو لا شيء؛ صفقةٌ متكاملة. يقول نيتشه: إنَّ حياتك تتكرر تمامًا كما هي، «لا يختلف فيها شيء، لا إلى الأمام، ولا إلى الوراء، ولا في كل الأبدية». فلا

مجـال للتعديل. عليـك أن تحيا هذه الحيـاة من جديد، بـكل عيوبها، وبكل حواراتهـا المطولـة. إنّهـا «نسـخة المخـرج» الكاملـة. ويعلم نيتشـه أنّ هذا السّـيناريو يجعلك تتلوى ألمًا؛ فهو يعلم أنّك تود لو أنّك تسـتطيع أن تُنقّح حياتك، فتحذف بعض المشاهد، وتضيف أخرى، وتجمّل بعضها بلمساتٍ خفيفة، وتستأجر بديلًا ليؤدي عنك بعض الأدوار.

فكـم أودُّ أن أعود إلى يوم رحلتي الجويـة المنفردة الأولى، لأغلق الباب هذه المرّة قبل الإقلاع. وإني لأبذل أي شيءٍ في سبيل العودة إلى أمسيةٍ دافئة في شيكاغو. كنت أسير مع ابنتي، وكانت في السادسة من عمرها حينذاك. كان الوقت متأخرًا، وقد غلب عليها النّعاس، وأحيانًا حين يغلب النّعاس على الأطفال، تطفو على السّـطح مخاوفهم الدَّفينة. وبينما كنا نسـير، نظرت إليّ وسألت: «هل أنت أبي الحقيقي؟».

وكانت أمامي فرصةٌ، بصفتي أبًا بالتبني، لأقدم لها جوابًا يفيض بالحبِّ والطَّمأنينة. ولكني بدلًا من ذلك، ولأسـبابٍ لا أزال أجهلها حتى اليوم، أجبـت بفظاظةٍ وبرود: «بالطبع أنا هو»، هكـذا صرخت في وجهها. «لماذا تسألين مثل هذا السؤال أصلًا؟». فامتلأت عيناها بالدموع وانكسر قلبها. لقـد أفسـدتُ تلك اللحظـة. فيا ليتني أسـتطيع أن أسـتعيدها، ولكن هذه المرّة، لأجيب على سؤالها بالحبّ.

كلا، هكذا يقول نيتشه. لا تعديل. ألم تكن منتبهًا؟ إمّا أن تؤكد حياتك بكاملهـا، وبـكلِّ تفصيـلٍ فيهـا، أو لا تؤكـد شـيئًا منها عـلى الإطلاق. لا استثناءات هنا.

لا عجب إذن أن يصف نيتشـه «العود الأبـدي» بأنّه «العبء الأثقل»؛

فلا شيء في الوجود أثقل وطأةً من الأبدية. فإذا كان كل شيءٍ سيتكرّر إلى ما لا نهاية، فلن تكون هناك لحظاتٌ هينة، ولا أخرى تافهة. فكل لحظةٍ، مهما بدت ضئيلة الشأن، ستحمل نفس ثقل وجسامة اللحظات الأخرى. يقول نيتشه: «إنَّ كلَّ الأفعال عظيمةٌ وصغيرةٌ على حدٍّ سواء».

فانظر إلى «العود الأبدي» على أنَّه وقفةٌ يومية مع النَّفس، تسألها فيها: هل تحيا الحياة التي تريد أن تحياها حقًّا؟ هل أنت متيقنٌ من أنَّك تريد أن تحتسي زجاجة التكيلا تلك، ثم تكابد صداعًا أبديًا من بعدها؟ إنَّ «العود الأبدي» يطالبنا بأن ندقق في حياتنا بلا هوادةٍ أو رحمة، وأن نسأل: ما هو ذاك الشيء الجدير بالخلود؟

وإحدى السبل لاستيعاب فكرة «العود الأبدي»، هي أن تخوض ما يسميه أحد الباحثين «اختبار الزواج». تخيل أنَّك طلقت حديثًا بعد زواجٍ دام طويلًا. وأنت تعلم اليوم ما لم تكن تعلمه بالأمس، فهل كنت لتقول «نعم» مرَّةً أخرى؟

إنَّه ليس بالاختبار السيئ، ولكني قد ابتكرت اختبارًا آخر: «اختبار المراهق». ففي بيتنا، كنت أتناول العشاء مع ابنتي. وبين حديثٍ عن المشاريع العلمية وجداول مباريات كرة القدم، شرحت لها فكرة «العود الأبدي» عند نيتشه. فسألتها عن رأيها، وهل كانت لتقبل بمثل هذا الشرط؟

تعرف «سونيا» ما تحب وما لا تحب، وهي لا تحب «العود الأبدي» عند نيتشه. فما كان منها إلا أن أعلنت على الفور أنَّها «فكرة شخصٍ معادٍ للمجتمع». فلا سبيل لأن ترغب في أن تتكرّر حياتها إلى الأبد. وقالت:

«فكر في مدى البؤس الذي سيجلبه ذلك. ستكون عالقًا في حلقةٍ لا نهائية. كلّ إنسانٍ يرتكب في حياته خطأً فادحًا —أنا لم أرتكبه بعد، ولكني أعلم أنّه سيحدث— فتخيل أن تحيا ذلك الخطأ مرارًا وتكرارًا. تخيل مثلًا أنك قُتلت على يد سفاحٍ بفأس. فهل تريد أن تحيا تلك اللحظة مرَّةً تلو الأخرى؟ وماذا لو كنت مصابًا بالسرطان؟ أكنت سترغب في أن تحيا ذلك من جديد؟».

«نقطةٌ وجيهة»، قلت، قبل أن أهبَّ للدفاع عن نيتشه. «ولكن ماذا عن أفراح الحياة: الحفلات الموسيقية، والأصدقاء، وقطع الدجاج المقلية؟ ألا تعوّض هذه عن أحزانها».

«كلا»، قالتها دون أدنى تردد. «فما من حياةٍ تبلغ من الروعة هذا الحد. وليس في حياتي كلها ما قد يجعلني أرغب في أن أحيا من جديد أيّ سوءٍ قد أرتكبه في المستقبل».

فوجدت نفسي في حالةٍ لم أعتدها من قبل: الصمت. لم أجد في جعبتي ردًا.

فيبدو حقًا أنَّ كفة أحزان الحياة ترجح دائمًا على كفة أفراحها؛ فما قيمة متعة آيس كريم «روكي رود» حين تقارنها بعذاب العلاج الكيميائي وآلامه؟ أم ترى أنَّ نيتشه يعرف سرًا نجهله أنا وسونيا... وسائر البشر؟

***

فإن كان هناك من أحدٍ لديه كلّ الأسباب ليتبع مذهب شوبنهاور حتى النهاية، ويخلص إلى أننا نعيش في «أسوأ العوالم الممكنة»، فما كان ذلك

الشـخص إلا فريدريـك نيتشـه. ولكنه بدلًا مـن ذلـك، وفي أواخر حياته المليئـة بالمتاعـب، القصيرة كل القصر، يعلن امتنانـه للحياة كلها، ويضيف صائحًا من كل قلبه: «Da capo!» أي «فلنعِد الكرة من جديد!».

إنَّ المعاناة قدرٌ محتوم —ولسـت بحاجةٍ إلى فيلسوفٍ ليخبرك بذلك— ولكن «كيف» نعاني، و«فيمَ» نعاني، لهو أمرٌ أشـدُّ أهميةً ممَّا نظنُّ. فهل نكابد «المعاناة الجوهرية»، كما أسـماها نيتشه، أم نكابد شـيئًا آخر، شيئًا أدنى منها منزلة؟ وهل نكتفي باحتمال المعاناة، أم أننا نقدرها ونحتفي بها لذاتها؟

لم يكن نيتشـه مازوخيًـا يهوى الألم، بل كان يرى المعاناة مكونًا أساسيًا في الحيـاة الطيبة، وسـبيلًا إلى المعرفـة. وقد قال: «المعانـاة وحدها هي التي تفضي إلى المعرفة». فالمعاناة هي ذلك النّداء الذي لم نطلبه، ولكن لا مناص لنـا من أن نجيبه. فهـل نجيب هذا النِّداء بتخدير حواسـنا، أو باللجوء إلى الفـن والزهد كما يقترح شـوبنهاور؟ أم نجيبه بالانغماس في العالم على نحوٍ أعمـق؟ بل وبتهورٍ وجرأة؟ وقد أطلق نيتشـه على هذا الخيار الأخير اسـم «السـبيل الديونيسي»، نسـبةً إلى «ديونيسـوس» إله الخمر والمسرح والحياة عنـد الإغريق. وقد قـال: «أريد أن أتعلَّم أكثر فأكثـر كيف أرى الجمال فيما هو ضروريٌّ في الأشياء؛ وحينها سأكون واحدًا من أولئك الذين يصنعون الجـمال». لا تحـب الحيـاة رغم ما فيهـا من معانـاة، هكذا يقـول، بل أحبها بسبب تلك المعاناة ذاتها.

وفي رسالةٍ كتبها إلى أخته عام 1883، يقدم نيتشه ما أراه أصدق رواياته عـن الـدَّور الذي لعبته المعانـاة في حياته، فيقـول: «إنَّ المعنى الكامل لتلك المعاناة الجسـدية المروعـة التي كابدتها، يكمن في حقيقـةٍ واحدة، وهي أنَّها

وحدهـا التـي انتزعتنـي انتزاعًـا مـن إدراكٍ لمهمتـي في الحياة لم يكـن زائفًا فحسـب، بل كان أحط بمئة مرَّةٍ مما ينبغي. لقد كان لا بد من وسائل عنيفة كـي أعـود إلى نفسي... في فعـلٍ من أفعـال التَّغلب على الذَّات من أسـمى طراز».

وإني لأعشـق تلك العبارة على وجه الخصوص: «كي أعود إلى نفسي». فأنت لست بحاجةٍ لأن تبحث عن المعنى خارج ذاتك، هكذا يقول نيتشه. ولسـت بحاجـةٍ لأن تبحث عنه في أعماق ذاتك أيضًـا. بل انظر إلى الأعلى. «فكينونتك الحقيقية لا تقبع في أعماقك السحيقة، بل هي على ارتفاعٍ شاهقٍ فوقك لا يقاس، أو على الأقل، فوق ذلك الشيء الذي تعتبره عادةً (أناك)».

إنَّ فكرة «العود الأبدي» تعرّي أوهامنا، وتكشف زيف إنجازاتنا. فهل أتممـت صفقتك الكبرى؟ هل أنهيت كتابك؟ هل نلت الترقية؟ هنيئًا لك؛ إلا أنَّ كلَّ ذلك قد تبخر الآن، وعليك أن تبدأ من جديد. مرَّةً تلو المرَّة. إلى أبد الآبدين. فكلنا «سـيزيف»، ذلك البائس في الأسـاطير الإغريقية الذي حكمت عليه الآلهة بأن يدفع صخرةً إلى قمة جبل، لا لشيءٍ إلا ليشـاهدها تهـوي من جديـد، وهكذا إلى أبد الدهـر. وأعود بذاكـرتي إلى تلك الشرفة في «مونتكلـير» بنيو جيرسي، وإلى سـؤال صديقتـي «جينيفر»: «كيف يبدو النَّجـاح؟». وإني لأعلـم كيـف كان نيتشـه ليجيـب عـن هذا السـؤال: إنَّ النَّجاح هو القبول المطلق لقدرك. إنَّه أن تكون «سيزيف» السَّعيد.

***

لقد كان نيتشـه، شأنه في ذلك شأن الكثير من الفلاسفة، أقدر على منح الحكمة من العمل بها. فقد قال يومًا: «مُتْ في الوقت المناسب»، ولكنَّه هو

نفسه لم يفعل. لقد مات باكرًا أكثر مما ينبغي، ومتأخرًا أكثر مما ينبغي.

كان ذلـك في مدينـة «تورينـو» بإيطاليـا، عـام 1889، حـين رأى رجلًا يجلد حصانًا بالسَّـوط. فهرع نيتشه نحو الحصان، واحتضنه؛ ثم غشي عليه إثـر ذلـك. وهكذا، كان آخـر فعلٍ واعٍ لنيتشـه هو محاولـةٌ لتخفيف معاناة كائـنٍ آخـر. وحين أفـاق، كان قـد فقد عقلـه. فأخذ يوقّع رسـائله باسـم «ديونيسوس»، ويلمّح إلى أنَّه هو الإله.

فتدخـل أصدقاؤه القلقـون وأعادوه إلى دياره في ألمانيـا. وهناك، عاش عاجزًا عن كلِّ شيء، ربَّما بسبب داء الزُّهري، ولم يكن عمره يتجاوز الرَّابعة والأربعين. ولم يخطَّ بعدها حرفًا واحدًا قط. وللعقد التالي من الزمان، تولى أفـراد أسرتـه رعايته؛ أولًا أمه، ثـم بعد وفاتها، أخته. ورغـم أنَّه قد خرس لسانه، فقد كانت شهرته تذيع وتنتشر مع كلِّ عامٍ يمرُّ.

لكن للأسف، فإنَّ صورة نيتشه تلك —صورة الرَّجل المكسور الغائب عن وعيه— هي التي خُلِّدت في الصور الفوتوغرافية، وهي التي استغلتها أخته الطموحة المعادية للسامية. وقد أدى عبثها بإرثه الفكري إلى احتضان هتلر الانتهازي لفلسفة نيتشه.

وقـت انهياره ذاك، كان نيتشـه يعكف عـلى تأليف كتابٍ أسـماه «إعادة تقويـم كل القيم». وهو عنوانٌ ثقيل على السَّـمع، ولكنه يخفي وراءه فكرةً شـديدة العمـق؛ فكرةٌ لو قُدِّر لـه أن يتمها، لربَّما قدمت لنـا بصائر هامة في فكرة «العود الأبدي». فإذا كانت حياتنا —بل والكون بأسره— سـتتكرر فعلًا، فما الذي نملك السيطرة عليه؟ ليست أفعالنا، هكذا رأى نيتشه، بل موقفنا منها. لقد كانت فلسـفته، في صميمها، «تجربةً لإعادة توجيه الذات

في خضـم عالمٍ من اللايقين المطلق». فمـن طبعنا أن نفر من اللايقين فرارًا، وأن نسـعى إلى اليقـين سـعيًا. ولكـن ذلك، كما يقول نيتشـه، ليـس حقيقةً أزليـةً ثابتة لا تتبدل، بل هو مجرد «قيمة» من القيم، وأي شيءٍ نمنحه قيمةً، بوسعنا أن نعيد تقويمه.

فبوسـعنا أن نختـار أن نجـد بهجتنـا لا في اليقـين، بـل في نقيضـه. وما إن نفعـل ذلـك، حتـى تبدو لنـا الحياة —وهي الحيـاة ذاتها في عـين الناظر الخارجـي— مختلفةً كل الاختلاف. فإن أنت وجدت بهجتك في اللايقين، غـدا صخب المكتب وضجيجه مدعاةً للاحتفاء، لا سـببًا لصرير الأسـنان وكأس نبيذٍ إضافية في نهاية اليوم. وإن أنت وجدتها فيه، فإنَّ المرض نفسه، وإن ظـلَّ مؤلمًا للجسـد، لم يعد يرعب الروح. إنَّـه لتحولٌ في المنظور، خفيٌّ ولكنـه عميـق. فيبدو العالم في عينيك مختلفًا. ويقرُّ نيتشـه بـأن إعادة توجيهٍ للذات كهذه ليسـت بالأمر الهين، ولكنها ممكنة؛ وهل الفلسفة في جوهرها إلا رحلة استكشافٍ لإمكانياتٍ لم تكن النفس لتحلم بها من قبل؟

***

انتهـت رحلتـي بالفشـل. فرغـم طـول البحـث، وكثـرة العـودة على الأعقاب، لم أهتدِ إلى تلك الصخرة الهرمية. فقلت في نفسي: لا بأس، فالغد موجود. ثم اسـتدعيت إلى ذاكرتي كلمات «فيل كونورز» في فيلم «يوم جرذ الأرض»: «وماذا لو لم يكن هناك غد؟ فلم يكن هناك غدٌ اليوم».

ففي «العود الأبدي»، كل غدٍ هو اليوم، وكل يومٍ هو الغد. وسأسـلك هـذا الـدرب ذاتـه مـراتٍ لا حصر لهـا. وفي نسـخة هوليوود مـن القصة، بوسعي أن أصحح مساري، وأن أجري تعديلاتٍ، صغيرةً كانت أم كبيرة،

إلى أن أجـد الصخـرة، وأفـوز بقلب الفتاة، وينتهـي كل شيءٍ على خير. ثم تظهر شارة النّهاية.

أمَّا نسـخة نيتشـه من «العود الأبدي»، فلا مكان فيها لمثل هذه النهايات السـعيدة. نعـم، سأسـلك الدرب ذاتـه، مرَّةً تلـو الأخرى، ولكـن دون أيِّ انحرافٍ عن المسار. سأختار المقعد ذاته، وأصادف الفراشة ذاتها، وسأبحث عن صخرة نيتشه ولكن دون أن أجدها. في كل مرة. إلى أبد الآبدين.

«فهل بوسـعك أن تتقبل هذا الفشـل الأبدي؟» هكذا يسـألني نيتشـه. «بل أكثر من ذلك، هل بوسعك أن تتقبله؟ هل بوسعك أن تعشقه؟»

أمَّـا عن صخرةٍ ضائعة؛ فلا بأس، يا فريدريـك. ولكن أمَّا عن خيبات الحيـاة الكبرى —مقابلات العمل الفاشـلة، والأبـوة المتعثرة، والأصدقاء المتقلبـين— فإنِّي أقل يقينًا. بوسـعي أن أسـلّم بوجودها، بـل وأن أتقبلها. ولكـن أن أعشـقها؟ إنَّ في ذلـك لمطلبًا عظيمًا. فأنا لم أبلـغ تلك المرتبة بعد. ولعلِّي لن أبلغها أبدًا، مهما تكرَّر الكون وتكرَّرت أنا معه.

وهناك سـببٌ وجيه لكون فيلم «يوم جرذ الأرض» فيلمًا كوميديًا. فإذا كان مقدرًا لنا أن نحيا الحياة ذاتها، مرَّةً تلو الأخرى، بنفس الطريقة، إلى أبد الآبدين، فما عسانا نفعل سوى أن نضحك؟

بـل خيرٌ مـن ذلك: ارقـص. لا تنتظر سـببًا لترقص. ارقص فحسـب. ارقـص رقصًا محمومًا، متحررًا مـن كل قيد، كأنَّ لا أحد يراك. حين تكون الحيـاة حلـوةً، ارقـص. وحين تكون مـرَّةً، ارقـص. وحين يأتيـك الأجل وينتهـي الرَّقـص، اصرخ صرخةً مدويـة: «Da capo!». فلنعِـد الكرة من جديد! من جديد، ومن جديد.

الفصل الثاني عشر

كيف تتأقلم مثل إبيكتيتوس

الساعة 4:58 مساءً. في بقعةٍ ما من ولاية ماريلاند. على متن قطار «كابيتول ليميتد» التابع لشركة «أمتراك»، يشق طريقه من واشنطن العاصمة إلى دنفر، مرورًا بشيكاغو.

وما هي إلا ثلاثون دقيقة تمضي من رحلتنا، حتى يتوقف القطار. فننتظر. ثم ننتظر. وأجدني أنتظر في نفاذ صبر، عالمًا بأنّي بذلك أخيب أمل «سيمون فايل»، ولكني عاجزٌ عن كبح جماح نفسي.

وليس الانتظار هو ما يضيق به صدري، بل الجهل بالسبب. أهي شجرةٌ هوت على القضبان؟ أم قطار بضائع له حق الأسبقية؟ أم لعلها ضربةٌ نووية وشيكة؟ أنظر إلى هاتفي كأنما فيه الجواب الشافي. (وليس فيه). فأتململ في مقعدي. ثم أنظر إلى ساعتي. ثم أعود إلى التململ.

أخشى أننا سنظلُّ ساكنين في أماكننا لساعات، وسيفوتني قطاري في شيكاغو. وهذا ليس بالأمر الهين، ليس بالأمر الهين على الإطلاق. فأقرر في نفسي أن الموقف يستدعي شيئًا من الجزع. فأجزع.

وإنّي لأدرك ما يكمن خارج نافذتي من جمال: صفوفٌ من أشجار بلوط الكستناء وأزهار القرانيا البيضاء تصطف على جانبي قناة «سي آند أو»، وهناك في الأعلى، سماءٌ زرقاء غنية. ولكني لا أستمتع بهذا المنظر، فذلك من شأنه أن يفسد عليَّ لذة الجزع. إني بحاجةٍ إلى عون. إني بحاجةٍ إلى

«معسكر الرُّواقية».

لقد أيقنت ذلك منذ اللحظة التي وقعت فيها عيني على الإعلان. لم يكن إعلانًا براقًا؛ بل مجرد إعلانٍ بالأبيض والأسود، لا رسوم فيه ولا زخارف. وقد جاء فيه: «اكتسب شعور (السكينة الرُّواقية) بالفرار إلى معسكرٍ عند سفوح جبال (سنوي رينج)».

وها نحن نتحرك من جديد. فلعل جزعي ذاك كان عبثًا لا طائل من ورائه، أو لعلَّ طاقته التي لا يستهان بها هي التي دفعت بنا إلى الأمام. فلطالما آمنت بأنَّ جزعي هذا هو الذي يمسك أركان العالم ويمنعه من التداعي، وأني لو كففت عنه لحظةً واحدة، لتوقف الكون عن الوجود.

ألحق بقطاري في شيكاغو، وما هي إلا فترة وجيزة حتى أجدني ماضيًا وجهة الغرب، صوب دنفر، ومنها في نهاية المطاف إلى سلسلة جبال «سنوي رينج» في وايومنغ. فقطارات «أمتراك» تبلغ أماكن كثيرة، ولكنها لا تبلغ مدينة «لارامي» في وايومنغ. فكان عليّ أن أقطع الشوط الأخير من الرحلة بحافلة. ولكن حين وصلنا إلى محطة «يونيون» في دنفر، لم يكن للحافلة من أثر. فتلقائيًا، ودون وعي، أتصور أسوأ الاحتمالات، وأعود إلى جزعي: لقد غادرت الحافلة من دوني، أو لعلَّها لم تكن موجودةً أصلًا، لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المستقبل.

وبعد ما خُيِّل إليَّ أنَّه ساعات، ولكنَّه لم يزد على اثنتي عشرة دقيقة، تصل الحافلة. فأتسلقها في عناء وأجد لي مقعدًا في الخلف. وها نحن نتحرك من جديد، نقطع المسافات، تمامًا كالقطار. ولكن، الأمر ليس سيان.

***

من أشـهر وصايـا الرُّواقيين قولهم: «عش في وئامٍ مـع الطَّبيعة». ويبدو أنَّ منظمـي «معسـكر الرُّواقية» قـد أخذوا هذه النصيحـة على محمل الجد، بحذافيرها. فأرض المعسـكر جاثمةٌ في أحضان غابةٍ كثيفة بولاية وايومنغ، عـلى بعـد أميالٍ من أقرب بلدة، وهي بلدةٌ لا تـكاد تكون بلدة؛ فليس فيها إلا محطة وقودٍ وثلاث حانات.

نجتمع نحن، معسـكر الرُّواقيين، في النّزل الرَّئيسي للجلسة التَّعريفية. إنَّها قاعةٌ فسـيحة، ذات سـقفٍ عالٍ، وفي أحد أطرافها مدفـأةٌ مهيبة، لا غنى عنها رغـم أننا في أواخـر مايو، فالحديث عـن الثَّلج يتردد على الألسـن. ومن أحد الجدران، يطلُّ علينا أيلٌ محشو عملاق بنظرةٍ متعالية. أمَّا أثاث المكان المزعوم، فما هو إلا خليطٌ غير متجانس من أرائك لا يجمعها جامع، وكراسٍ بلاستيكية صلبة؛ مشهدٌ جماليٌّ نشاز كان ليزعج «سي شوناجون» أيَّما إزعاج. فلو أن نزل تزلجٍ قد تزاوج مع سجنٍ ذي حراسةٍ مخففة، لكانت هذه هي ثمرتهما.

وإننـا لخليـطٌ عجيب، نحن معسـكر الرُّواقيـين. فهناك «غريـغ»، رائد أعمالٍ رقمي في الثَّلاثينيات من عمره قادمٌ من نيويورك، وهناك «ألكسندر»، مستشارٌ ألماني مرح، وثلةٌ من طلاب الدِّراسات العليا من جامعة وايومنغ: شـبانٌ وشـاباتٌ جادون تبدو على وجوههم آلام الوجود، بل آلام التَّفكير في الوجود، وهم الذين يهرعون إلى الخارج في فترات الاستراحة، لا يبالون بالطقـس، ليدخنوا. ثم هناك نحن، «أصحاب اللحى الشَّـائبة»، كما لُقبنا: أولئك الذين جذبتهم الرُّواقية في آخر لحظةٍ ممكنة، قبل فوات الأوان.

نجتمـع في حلقة، وهي الهندسـة الكونية لجلسـات المطارحة الفلسـفية والعـلاج الجماعي، نحتسي القهوة في أكـوابٍ ورقية. وينهض رجلٌ بدين،

ذو وجهٍ ملائكي، ليعلن بدء الجلسة. «روب كولتر» رجلٌ في منتصف العمر، له كرشٌ بارز، ولحيةٌ صغيرة شائبة، وعينان لماحتان ثاقبتان. يبدو كأنَّه «سانتا كلوز» مسنٌّ ذو طابعٍ عصري. وحين يكون بصدد قول شيءٍ ذي عمق، وهو ما يفعله كثيرًا، تجده يمسح على لحيته برفق.

«أهلًا بكم»، يقولها «روب» بنبرةٍ لا تكشف عن شيء. «إن كنتم قد اطلعتم على النشرة الجوية، فأنّتم تعلمون أنَّ قدراتنا الرّواقية ستكون على المحك». فنحن في أواخر مايو، ورغم ذلك تتنبأ النَّشرة بتساقط الثّلوج. الكثير من الثّلوج. فينتابني القلق؛ فقد حزمت أمتعتي لطقس الرَّبيع، لا لزمهرير الشِّتاء، وعليَّ أن ألحق بطائرةٍ بعد انتهاء المعسكر.

«روب» رجلٌ مليءٌ بالمتناقضات، شأنه في ذلك شأن الفلسفة التي يعشقها. فهو يقرأ اليونانية القديمة، ويصطاد السَّمك بالصَّنارة. يحيا حياةً صحية في أحضان الطَّبيعة، ولكنَّه يعترف أيضًا بأنَّ لديه «مشكلة مع مطاعم باندا إكسبرس». يملك فهمًا عميقًا للفلسفة، ولكنَّه لا يخشى أن يعترف بالجهل أيضًا. فيقول: «لا أعرف»، حين يُسأل سؤالًا شائكًا، ويُردف: «سأحتاج إلى التَّفكير في الأمر». لقد أعجبني «روب».

قبل بضع سنين، لاحظ اهتمامًا متزايدًا بالرّواقية. «فقلت في نفسي، حسنًا، شعار الرّواقيين هو ‹عش في وئام مع الطَّبيعة›، ونحن هنا لدينا من الطَّبيعة ما يفيض عن الحاجة». فطرح فكرة «معسكر وايومنغ للرّواقية» على زملائه الفلاسفة في الجامعة، فجاء ردهم فلسفيًا بامتياز: «هذا جنونٌ مطبق! لن ينجح أبدًا، ولكن امضِ وجرب حظك». ففعل. وها نحن أولاء بين يديه.

ويقص علينا «روب» كيف اهتدى إلى حبِّ الرّواقية. كان ذلك في تسعينيات القرن الماضي. كان يدرس الفلسفة في شيكاغو، التي كانت يومها معقلًا لـ«مشهدٍ أفلاطوني حقيقي». فدرس «روب» أفلاطون، وتلميذه النَّجيب أرسطو، لا لأنّه كان يهوى أفكارهما، بل لأنَّ ذلك ما كان يفعله طلاب الفلسفة الجادون. فيقول وهو يضرب بقبضته على الطّاولة تأكيدًا: «لقد كانوا فلاسفة بحقٍّ وحقيق!». نعم، كان على درايةٍ بالآخرين: أبيقور، والكلبيين، وأجل، الرّواقيين، ولكن هؤلاء لم يكونوا في نظره فلاسفة «حقيقيين»، أو هكذا خُيِّل إليه يومها.

لكلِّ فيلسوفٍ أناسٌ يميلون إليه، ولكل مرحلةٍ من العمر فيلسوفها. فروح «ثورو» المتمردة تأسر قلوب المراهقين. وشذرات «نيتشه» النَّارية تجذب الشَّباب. وتركيز الوجودية على الحرية يستهوي مَن هم في منتصف العمر. أمَّا الرّواقية، فهي فلسفة مَن تقدم بهم العمر؛ فلسفة أولئك الذين صقلتهم المعارك، وعركتهم النَّكسات، وذاقوا طعم الخسارة. إنَّها فلسفةٌ لمواجهة مصاعب الحياة وشقائها، كبيرها وصغيرها: الألم، والمرض، والرَّفض، والمدراء المزعجون، وجفاف البشرة، واختناقات المرور، وديون بطاقات الائتمان، والإهانة على الملأ، وتأخر القطارات، والموت. وحين سُئل «ديوجانس»، وهو من أوائل الرّواقيين، عما تعلمه من الفلسفة، أجاب: «أن أكون مستعدًا لكل قدر».

فالرّواقية، تلك الوليدة التي لم تكن في الحسبان، والتي خرجت من رحم حطام سفينة، قد بلغت أشدها في زمن الاضطرابات الكبرى في اليونان القديمة، ثم ازدهرت وترعرعت في خضم عالم الإمبراطورية

الرومانيـة الصاخـب المضطـرب. وقـد كان أشـهر أتباعها عرضـةً للنفي، والإعـدام، والتَّشـويه، والسُّـخرية. ورغم ذلك، وكما يوضـح «ماركوس أوريليوس» وهو نفسه رواقي، فقد كانوا أيضًا ناجحين نجاحًا باهرًا.

أمَّا أتباعها في العصر الحديث، فمنهم أبطال حربٍ ورؤساء أمريكيون. فهناك خيطٌ رواقي يمتد عبر تاريخ الولايات المتحدة: من الآباء المؤسسين، كجـورج واشـنطن وجون آدامـز؛ إلى فرانكلين روزفلـت، الذي حين قال مقولته الشَّـهيرة، «الشَّيء الوحيد الذي يجب أن نخافه هو الخوف نفسـه»، إنَّـما كان يعبر عن فكرةٍ رواقيـةٍ بامتياز؛ وصولًا إلى بيل كلينتون، الذي يعد كتـاب «التأمـلات» لماركـوس أوريليوس قطعـةً رائعة مـن أدب الحكمة، وكتابه المفضل.

«الحكمـة» كلمةٌ من تلك الكلمات التي يعرفهـا الجميع، ولكن لا أحد يحـدد كنهها. وقد كافـح علماء النَّفـس لعقودٍ طويلة لوضـع تعريفٍ عملي لهـا. وفي ثمانينيات القرن المـاضي، عكفت مجموعةٌ مـن الباحثين في «معهد ماكـس بلانك للتنمية البشرية» في برلين على وضع تعريفٍ جامعٍ مانعٍ لها. وقد حدد «مشروع برلين للحكمة» خمسة معايير تُعرَّف بها الحكمة: المعرفة الواقعية، والمعرفة الإجرائية، وفهم سياقات الحياة، ونسبية القيم، والقدرة على التعامل مع اللايقين.

وإنَّ المعيـار الأخـير، في ظنِّـي، هو أهمهـا جميعًا. فنحـن نعيش في عصر الخوارزميـات والذَّكاء الاصطناعي، وما تحملـه في طياتها من وعدٍ ضمني بإدارة لا يقين الحياة وفوضاها. ولكنَّها لم تفعل. بل إنَّ الحياة، على العكس من ذلك، تبدو اليوم أقل قابلية للتنبؤ، وأشد فوضويةً من أيِّ وقتٍ مضى.

وهنا يتجلى بريق الرّواقية. فتعاليمها الجوهرية —غيّر ما تستطيع تغييره، وتقبّل ما لا تستطيع— تجد صدى عميقًا في أزمنتنا المضطربة. إنَّ الرّواقية تقدّم لنا درابزينًا نتمسك به، وطريقًا نمضي فيه قدمًا. كنت أعرف هذا، فقد قرأت «ماركوس أوريليوس». ولكن ما لم أكن أعرفه هو كم أنَّ هذه الفلسفة متطلبة، وكم أنَّها ممتعةٌ في الآن ذاته.

***

إنَّ الرّواقية، فلسفة الأوقات العصيبة، قد وُلدت من رحم كارثة. فحوالي عام 300 قبل الميلاد، كان تاجرٌ فينيقي يُدعى «زينون» مُبحرًا إلى ميناء «بيرايوس» الأثيني، حين انقلبت سفينته وضاعت حمولتها الثَّمينة من الصّبغة الأرجوانية. وقد نجا «زينون» من الغرق، ولكن الأقدار ألقت به في أثينا، مفلسًا لا يملك من الدنيا شيئًا. وذات يوم، وقعت يداه على سيرةٍ لحياة سقراط، الذي كان قد مات قبل ذلك بزمنٍ طويل.

فسأل «زينون» بائع الكتب: «أين لي أن أجد رجلًا كهذا؟».

فأجابه البائع وهو يشير إلى رجلٍ أثيني رث الثياب كان مارًا من هناك: «اِتبع ذاك الرَّجل».

وكان ذلك الرَّجل هو «أقراطس»، أحد فلاسفة الكلبية. وقد كان الكلبيون أشبه بـ«هيبيز» العالم القديم؛ فقد كانوا يعيشون على القليل، لا يملكون شيئًا، ويشككون في كل سُلطة. وقد وجد «زينون» في نزعتهم إلى مخالفة المألوف أمرًا يدعو إلى الإعجاب، ولكن إلى حدٍ معين فحسب. فقد رأى أنَّها تفتقر إلى فلسفةٍ شاملة، فأسس من أجل ذلك مدرسته الخاصة.

وقـد أقـام «زينون» مدرسـته تحت «الـرّواق المزيـن» (stoa poikile)، وهو بهوٌ طويل ذو أعمدة كان الناس يأتون إليه للتسـوق، وإدارة الأعمال، والحديث. وهناك، بين جدارياتٍ تُصوّر معارك حقيقية وأخرى أسطورية، كان «زينون» يلقي محاضراته وهو يمشي جيئةً وذهابًا بخطى حثيثة. ولأنّهم كانوا يجتمعون عند هذا الرّواق (stoa)، فقد عُرف هؤلاء الفلاسـفة باسم «الرّواقيين».

وعـلى النقيض مـن الأبيقوريـين، الذين كانـوا يعتكفـون خلف جدار حديقتهـم، فقد مارس الرّواقيون فلسـفتهم على الملأ، على مرأى ومسـمعٍ من التّجار والكهنة والمومسـات وكل عابر سبيل. فالفلسفة عند الرّواقيين كانت فعلًا عامًا، ولم يبتعدوا يومًا عن خضم السياسة.

وفي أواخر حياته، كان «زينون» يحب أن يمازح قائلًا: «لقد كانت رحلتي موفقـةً حقًا حين تحطمت سـفينتي». وقد أصبحت هـذه الفكرة موضوعًا رئيسيًا في الفلسفة الرّواقية: ففي قلب الشّدة تكمن القوة، ومن رحمها يولد النماء. وكما يقول السّـيناتور الرّوماني والفيلسـوف الرّواقي «سينيكا»: «ما من شـجرةٍ تضرب بجذورها وتشـتدُّ إلا وقد عصفت بهـا رياحٌ كثر. فهي مـن خلال اهتزازها ذاته تُحكِم قبضتهـا، وتغرس جذورها في الأرض على نحوٍ أشد رسوخًا... فالكارثة فرصةٌ تتجلى فيها الفضيلة».

***

في اليـوم الأول مـن «معسـكر الرّواقية»، أكتشـف أنَّ كلَّ ما كنت أظنُّه عـن الرّواقية كان خطأً. فالصُّـورة النَّمطية للرّواقي المتحجر القلب، عديم الإحسـاس، لا تقل خطأً عن صورة الأبيقـوري النَّهم الغارق في الملذات.

فالرّواقي ليس إنسانًا بارد العواطف؛ فهو لا يكبت مشاعره الجياشة، ولا يتظاهر بالشَّجاعة وقلبه يرتجف في صدره. والرّواقيون لا يطرحون كلَّ الانفعالات جانبًا، بل يقتصرون على السّلبية منها: كالقلق، والخوف، والغيرة، والغضب، أو أيٍّ من سائر «الأهواء» الأخرى (أو «باثوس»، وهي أقرب كلمة في اليونانية القديمة إلى معنى «الانفعال»).

والرّواقيون ليسوا آلاتٍ صماء لا تعرف الفرح. وهم ليسوا «السيد سبوك». وهم لا يتحملون مصاعب الحياة بشفةٍ متصلبة، أو بأيّ عضوٍ آخر من أعضاء الجسد. يقول «روب»: «فالأمر ليس سيئًا أصلًا، وليس هناك ما يستدعي التحمل».

والرّواقيون ليسوا متشائمين. فهم يؤمنون أنَّ كلَّ شيءٍ يحدث لسبب، وأنّه نتيجةٌ لنظامٍ عقلانيٍّ كلي. وعلى النقيض من «شوبنهاور» المتبرم، فهم يؤمنون بأننا نعيش في أفضل العوالم الممكنة، بل وفي العالم الممكن الوحيد. فالرّواقي لا يرى الكأس نصف ممتلئةٍ فحسب، بل يرى في وجود الكأس أصلًا معجزة؛ أوليست جميلة؟ ثم يتأمل زوالها، وهي محطمةٌ إلى مئة شظية، فيزداد تقديره لها. ويتخيل حياته لو لم يمتلكها يومًا. ويتخيل كأس صديقه تنكسر والمواساة التي سيقدمها له. ثم يشارك كأسه الجميلة مع الآخرين، فهم أيضًا جزءٌ من «اللوغوس»، أو النظام العقلاني الكوني.

«فالرّواقي المبتهج» ليست عبارةً متناقضة، هكذا يقول «ويليام إيرفين»، أستاذ الفلسفة بجامعة «رايت ستيت» وأحد ممارسي الرّواقية المعاصرين. ويشرح قائلًا: «إنَّ ممارستنا للرّواقية قد جعلتنا أكثر قابلية لنوبات الفرح الصغيرة المفاجئة. فنجد أنفسنا، على غير توقع، نشعر ببهجةٍ غامرة لكوننا

مَن نحن، ولأننا نحيا الحياة التي نحياها، في الكون الذي شاءت الأقدار أن نوجد فيه». وإنّي لأعترف: إنَّ في هذا القول لجاذبيةً لا تقاوم.

والرّواقيون ليسوا أنانيين. فهم يساعدون الآخرين، لا بدافعٍ من عاطفةٍ جياشة أو شفقة، بل لأنَّ ذلك هو عين العقل، تمامًا كما تساعد الأصابع اليد التي هي جزءٌ منها؛ وهم يتقبلون بسرورٍ ما قد يصيبهم من انزعاجٍ أو حتى ألم في سبيل مساعدة الآخرين.

قـد تبـدو «الإيثارية الرّواقيـة» أحيانًا جافةً خاليةً مـن العاطفة، ولكنَّها فعالةٌ فعاليةً لا مثيل لها. ولي صديقةٌ اسمها «كارين»، هي رواقيةٌ في طبعها، وإن كانـت لا تـدري. عرفتها أول مرةٍ في القدس، حيـث كنا نعمل معًا في الصحافـة. وفي القـدس قططٌ ضالةٌ كثيرة، أكثر ممـا تجد في معظم الأماكن. وقـد كان قلبـي ينفطـر لرؤيـة هـذه المخلوقـات البائسـة، بفروهـا المتلبد، وجراحها المفتوحة. كنت أشعر بالأسى من أجلها. وكان هذا هو أقصى ما قدمته من «مساعدة»؛ فقد كانت استجابتي لمعاناتها هي أن أعاني أنا نفسي، كأنما كانت معاناتي تلك ضربًا من ضروب العون!

أمّا «كارين»، فكان شـأنها مختلفًا. فقد كانت تبادر إلى الفعل دون تردد، فتلتقط قطةً ضالةً من هنا، وأخرى شرقية قصيرة الشّـعر تعرج في مشـيتها مـن هناك. وكانـت تطعمها، وتأخذها إلى عيـادةٍ بيطرية، ثم تبحث لها عن مأوى. لقد فعلت ما هو أكثر من مجرد التعاطف والانفعال.

***

يناولنـا «روب» كُتيـب عمـل «معسـكر الرّواقيـة»، وإلى جـواره نصًـا قديـمًا صغير الحجم. بل هو أقـرب إلى كُتيبٍ صغير، لا يتجاوز ثماني عشرة

صفحة. إنّه كتاب «المختصر» (Enchiridion)، أو «الدّليل»؛ يحوي تعاليم «إبكتيتوس»، ذلك العبد الرّوماني الذي غدا فيلسوفًا. وفيه خلاصة الرّواقية المقطرة في أصفى صورها.

نفتح الصفحة الأولى على سطرها الأوّل، فيقرؤه «روب» على مسامعنا بصوتٍ عالٍ: «الأشياء بعضها في قدرتنا، وبعضها خارج عن قدرتنا». فتضرب هذه الجملة على وترٍ في نفسي؛ فهي صحيحةٌ أشدُّ الصّحة، وبديهيةٌ أشد البداهة. بالطبع بعض الأشياء في قدرتنا وبعضها ليس كذلك. ألهذا قطعت ألفي ميل؟

بيد أنَّ هذه الجملة الواحدة تعبر عن جوهر الرّواقية ولبابها. فنحن نعيش في عصرٍ يُقال لنا فيه إنَّ كلَّ شيءٍ في قدرتنا، وإنَّ كلَّ شيءٍ رهن إرادتنا. فإن لم تكن أذكى، أو أغنى، أو أنحف، فما ذلك إلا لأنَّك لا تحاول بالقدر الكافي. وإن مرضت، فذلك لشيءٍ أكلته أو لم تأكله، أو لفحصٍ طبي لم تجرِه أو أجريته، أو لتمرينٍ لم تفعله أو أفرطت فيه، أو لفيتامين تناولته أو لم تتناوله. الرّسالة واضحةٌ إذن: أنت سيد مصيرك. ولكن، أأنت كذلك حقًا؟ وأين يا ترى يكمن سلطانك الحقيقي؟

ليس حيث تظنُّ، هكذا يجيبك الرّواقيون. فجلُّ ما نحسبه تحت سيطرتنا، هو في حقيقة الأمر خارج عنها. فلا سلطان لك على الثّروة، أو الشّهرة، أو حتى الصّحة. ولا على نجاحك، أو نجاح أبنائك. نعم، بوسعك أن تواظب على الرياضة، ولكن قد تصدمك حافلةٌ في طريقك إلى النّادي. وبوسعك ألا تأكل إلا أصح الطعام، ولكن ليس في ذلك ضمانةٌ بطول العمر أيضًا. وبوسعك أن تقضي أربع عشرة ساعةً يوميًا في مكتبك،

ولكن ربما كان مديرك لا يطيقك، فيكيد لك ويحطم مستقبلك المهني.

وللرّواقيين مصطلحٌ يطلقونه على هذه الظّروف والإنجازات التي تقع خارج نطاق سيطرتنا، وهو: «الأشياء اللا مُبالى بها» (indifferents). فوجودها لا يزيد من قيمة شخصيتنا أو سعادتنا قيد أنملة؛ فهي ليست بخيرٍ ولا بشرٍّ في ذاتها. ولذا، فإنَّ الرّواقي الحق «لا يبالي» بها. وكما يقول «إبكتيتوس»: «أرني رجلًا يكون سعيدًا وهو مريض، وسعيدًا وهو في خطر، وسعيدًا وهو على فراش الموت، وسعيدًا وقد ساءت سمعته. أرنيه! أقسم بالآلهة، إن رأيته، فسأرى رواقيًا بحق!».

فالعدو قد يؤذي جسدك، ولكنَّه لا يستطيع أن يؤذيك «أنت». وكما قال «غاندي»، الذي كان قد قرأ للرّواقيين: «لا أحد يستطيع أن يؤذيني ما لم أمنحه أنا الإذن بذلك». بل إن تهديد طاغيةٍ بالتعذيب لا ينبغي له أن يسلبك سكينتك ونبل نفسك، هكذا يضيف «إبكتيتوس». وقد أعانت تعاليمه هذه «جيمس ستوكديل»، الطيار الأمريكي الذي أُسقطت طائرته فوق فيتنام الشّمالية، على أن يكابد سبع سنواتٍ طوال من الأسر والتّعذيب.

وقد أعانت «روب كولتر» أيضًا. فقد كان في نيوزيلندا، يتطلع إلى إلقاء محاضرة، حين بدأت آلام المعدة تداهمه. في البدء، لم يلقِ للألم بالًا، ظنًّا منه أنّه مجرد مغصٍ عابر من وعثاء السفر. ولكن الألم سرعان ما اشتدَّ، وازداد سوءًا. يقول «روب»: «إنَّه ذلك النّوع من الألم الذي يعجز المورفين عن تسكينه». وفي المستشفى، شخص الأطباء حالته بانسدادٍ في الأمعاء، وهي حالةٌ قد تودي بالحياة.

وفي خضم موجات الألم العاتية، استطاع «روب» أن يستدعي إلى

ذاكرتـه كلـمات «إبكتيتـوس»: «أنتِ لا شيء بالنسـبة لي». وظـل يكررها، مـرَّةً تلو الأخـرى، مخاطبًا بها موجـات الألم التي كانت تصطـدم به: «أنتِ لا شيء بالنسبة لي». فشعر بتحسن؛ ليس تحسنًا كبيرًا، ولكنه تحسن. وقال: «جسدي ليس تحت سيطرتي؛ وقد تجردت من كلِّ وهمٍ يخالف ذلك».

لقـد انكمـش عـالم «روب» ليقتصر عـلى: غرفـة المستشـفى، والأطباء والممرضات. وألمه. خمسـة أنابيب تبرز من جسـده. ولم يسـتحم لستة أيام. وكان مقبـلًا على جراحـةٍ صعبة، قد تتركه معتمدًا عـلى كيس فغر القولون لبقيـة حياته. فاتخذ قـراره على الطَّريقـة الرّواقية، بعقلانيـةٍ ومنطق: «إن لم أفعل هذا، فسأموت، إذن فلنفعلها».

وقد تكللت الجراحة بالنّجاح. فلا حاجة إلى كيس الفغر. وكان شفاؤه بطيئًا، ولكنَّه كان ثابتًا. وتكفلت شركة تأمينه بمقعدٍ له على الدّرجة الأولى في رحلة العودة إلى الوطن. ويسـمي الرّواقيون هذا النوع من النعم العابرة «شـيئًا لا مُبالى به، ولكنّه مفضل»، أيّ أنَّه شيءٌ جميلٌ نسـتمتع به بين الحين والآخر، ولكنه ليس جوهريًا لسعادتنا.

وحين ينظر «روب» اليوم إلى تلك الحادثة، فإنَّه يعلم أنَّ موقفه الرّواقي لم يغير من النّتيجة شيئًا، ولكنَّه غير من «كيفية» تحمله لها. لقد عانى، ولكنَّه لم يضاعف من معاناته بأن تمنى لو أنَّ الحياة كانت على غير ما كانت عليه.

***

وُلد «إبكتيتوس» عبدًا في عام 55م، في أرض تركيا الحالية. وكان سيده، وهو أحد مستشـاري الإمبراطور «نـيرون»، كثيرًا ما يضربه ويعنفه، ولكن «إبكتيتـوس» كان يحتمل سـوء المعاملة ذاك برباطة جـأشٍ رواقية. وتحكي

الرّواية أنه ذات يوم، شرع سيده في تعذيبه بأن أخذ يلوي ساقه. فقال له «إبكتيتوس» في هدوءٍ تام: «إن واصلت على هذا النّحو، فستكسرها». ولكن السّيد واصل ليّها حتى انكسرت. فقال «إبكتيتوس» وكأنّه يقرر حقيقةً واقعة: «ألم أقل لك إنّها ستنكسر؟». وقد ظلَّ أعرج طوال حياته.

وفي نهاية المطاف، نال حريته، فانتقل إلى روما، وهناك درس الفلسفة، وسرعان ما ذاع صيته كمعلمٍ متفانٍ ومؤثر. وحين نفى الإمبراطور «دوميتيان» كل الفلاسفة من روما في عام 93م، انتقل «إبكتيتوس» إلى «نيكوبوليس»، وهي مدينةٌ ساحلية مزدهرة غرب اليونان. وهناك، اجتذب عددًا أكبر من الطّلاب، بعضهم من المشاهير، كـ«هادريان» الذي أصبح إمبراطورًا فيما بعد، ولكن معظمهم كانوا شبانًا عاديين، قطعوا مسافاتٍ شاسعة ليصلوا إلى «نيكوبوليس». وكان الكثير منهم يعاني من الحنين إلى الوطن، ولكنهم جميعًا كانوا متعطشين للمعرفة.

لقد كان «إبكتيتوس» معجبًا بسقراط، وقد حاكاه في كثيرٍ من الأمور. فكما عاش سقراط ببساطةٍ في كوخ، لا يملك من الأثاث إلا فراشًا، عاش هو. وكما لم يكن لسقراط اهتمامٌ بالميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)، فكانت فلسفته عمليةً بحتة، كانت فلسفته هو. وكما قدّر سقراط الجهل واعتبره خطوةً ضرورية على درب الحكمة الحقة، فعل هو. وقد قال: «إنَّ الفلسفة تبدأ من وعينا بضعفنا».

إنَّ الكثير من شؤون الحياة يقع خارج نطاق سيطرتنا، ولكننا نملك زمام ما هو الأهم: آراؤنا، واندفاعاتنا، ورغباتنا، وما ننفر منه؛ أيّ عالمنا العقلي والوجداني بأسره. وكلنا نملك قوةً جبارة، قوة أبطالٍ خارقين، ولكنّها قوة

السّيطرة على عالمنا الدّاخلي. افعل ذلك، هكذا يقول الرّواقيون، وستكون «منيعًا لا تُهزَم».

فكثيرًا ما نضع سعادتنا أمانةً في أيدي الآخرين: مديرٍ مستبد، أو صديقٍ متقلب المزاج، أو متابعينا على «انستجرام». و«إبكتيتوس»، العبد المحرَّر، يشبّه مأزقنا هذا بعبوديةٍ نفرضها على أنفسنا. فالحرُّ وحده هو ذاك الرّجل أو تلك المرأة التي لا تريد شيئًا.

يقولُ «إبكتيتوس»: تخيل لو أنّك أسلمت جسدك لغريبٍ في الطّريق. أمرٌ سخيف، أليس كذلك؟ ولكن هذا بالضبط ما نفعله بعقولنا كلّ يوم. فنحن نتنازل عن سيادتنا للآخرين، ونسمح لهم بأن يستعمروا عقولنا. علينا أن نطردهم منها، حالًا. فالأمر ليس بذلك العسر؛ فتغيير أنفسنا أيسر بكثير من تغيير العالم. وهذه إحدى معضلات ما يسمى بـ«التّحذيرات من المحتوى المثير»، تلك التي شاعت في الجامعات؛ فهي تعزز من افتراض أنَّ طلاب الجامعة عاجزون عن التّحكم في ردود أفعالهم تجاه ما قد يثير قلقهم من محتوى. وهي بذلك تسلبهم قوتهم، وتجردهم من سلطانهم على أنفسهم. وليس هذا من سبيل الرّواقيين في شيء.

تأمل في حال رامي السّهام، هكذا يقول «شيشرون». إنّه يشد وتر قوسه، بكل ما أوتي من خبرةٍ ومهارة، ولكن ما إن ينطلق السّهم، حتى يطلق زفرةً، عالمًا بأنَّ مسار السهم لم يعد في قبضته. وكما يقول الرّواقيون: «افعل ما يتوجب عليك فعله، ودع ما قد يقع يقع». وبوسعنا أن نحصّن أنفسنا ضد لدغة الخيبة بأن نحول وجهة اهتمامنا من الغايات الخارجية إلى الغايات الدّاخلية: فلا تكون الغاية هي الفوز في مباراة التّنس، بل أن

نلعـب بأفضل ما أوتينا من قوة. ولا تكون الغايـة هي أن تُنشر روايتنا، بل أن نكتـب أفضـل روايـةٍ وأصدقها نحن قـادرون على كتابتهـا. لا أكثر من ذلك، ولا أقل.

***

خبـتْ النار وتحولت إلى جمرٍ متقـد، وبردت القهوة في الأكواب، ولكن لم يلحـظ أحـد. فقد كنـا غارقين حتـى الرّكب في بحـر الفلسـفة الرّواقية، ومسـتعدين لأن نغـوص إلى أعماقٍ أبعد. فأخذنا نقـرأ، الواحد تلو الآخر، تلـك الفقـرات الموجـزة البليغـة مـن «مختـصر» إبكتيتـوس. فبعضها كان يستحق نقاشًـا مطولًا، وبعضها الآخر كانت تكفيه إيماءة رأسٍ بسيطة. ثم نصل إلى هذه العبارة: «إنَّ ما يزعج النَّاس ليس الأشياء ذاتها، بل أحكامهم على الأشياء». فنظلُّ جالسين في صمت، تتشرب أرواحنا هذه الجوهرة من الحكمـة التي يعـود عمرها إلى ألفي عام، تلك الجوهـرة الواضحة وضوح الشَّمس، العميقة عمق البحر.

فالرّواقيـون يؤمنـون بأن انفعالاتنـا هي نتاج فكرٍ عقـلاني، ولكنَّه فكرٌ تشوبه الشّوائب. وبوسعنا أن نغير ما نشعر به، بأن نغير الطّريقة التي نفكّر بهـا. فالرّواقـي لا يهدف إلى ألا يشـعر بـشيءٍ على الإطلاق، بـل يهدف إلى أن يشـعر شـعورًا قويًا. وأدرك أنَّ هذا القول قد يبدو غريبًا على الأسـماع؛ فنحن لا نفكّر في انفعالاتنا على أنّها صوابٌ أو خطأ، بل هي كائنةٌ وحسب، ولا سلطان لنا عليها.

«ليـس هذا بصحيح»، هكذا يقول الرّواقيـون. فالانفعالات لا تغمرنا كما تغمرنا أمواج البحر على الشـاطئ؛ بل إنها تحدث لسـبب. وكما يوضح

الباحث الكلاسيكي «أ. أ. لونغ»: «فنحن عادةً لا نغضب أو نغار دون سبب، بل نغضب ونغار تحديدًا لأننا نعتقد أن شخصًا ما يعاملنا معاملةً سيئة، أو أنَّ شخصًا آخر يحقق نجاحًا نحن، لا هو، الأجدر به». فنحن مسؤولون عن انفعالاتنا مسؤوليتنا عن أفكارنا وأفعالنا. فهي ثمرة أحكامٍ نصدرها، وهذه الأحكام كثيرًا ما تكون معيبة. وليست هذه الأحكام، كما يقول الرّواقيون، مجرد أحكامٍ مضللة أو مشوشة، بل هي باطلةٌ من الناحية التّجريبية.

تخيل اختناقًا مروريًا. يجلس سائقان، سيارة كلّ منهما خلف الأخرى مباشرةً. أحدهما متوتر الأعصاب، غاضب، يضرب بقبضتيه على عجلة القيادة ويلعن. والآخر يجلس في سكينة، يستمع إلى الإذاعة، ويستدعي إلى ذاكرته وجبة «رافيولي» بجراد البحر استمتع بها مؤخرًا. ومن الواضح، هكذا يقول الرّواقيون، أنّه يستحيل أن يكون كلا السائقين «على صواب». وهما ليسا كذلك. فالسائق المتوتر مخطئ، خطؤه كخطأ من يستنتج أنَّ اثنين زائد اثنين يساوي ثلاثة. فتمني أن تكون الحياة على غير ما هي عليه، يمثل إخفاقًا ذريعًا للعقل.

دعنا نتأمل كيف يولد الانفعال المعيب. إنَّه يبدأ برد فعلٍ فطري (يُسمى «ما قبل الانفعال» أو «الهوى الأولي») تجاه حدثٍ خارجي (أو «انطباع» كما في مصطلح الرّواقيين). فحين يصطدم إصبع قدمك بشيء، تصرخ. وحين تعلق في زحمة السير، تلعن. هذا أمرٌ طبيعي، فنحن بشرٌ في نهاية المطاف. وهذه الصّدمة الأولية ليست انفعالًا، بل هي محض رد فعلٍ فطري، كاحمرار الوجه حين يصيبك الخجل. وإنّما يتحول إلى انفعالٍ حين «تمنحه

موافقتـك»، على حـد تعبير الرّواقيين. فحين تمنحـه موافقتك، فإنَّك ترفعه من منزلة رد الفعل الفطري إلى مرتبة «الانفعال» المتمكن.

كلَّ هـذا يقـع في لمح البـصر، ولكنَّه لا يقع أبـدًا دون إذنٍ منـا. وفي كلِّ مـرَّةٍ نختار فيها أن نكرّم هـذه «الأهواء الأولية» السـلبية ونضخمها، فإننا إنَّما نختار الشّـقاء والتَّعاسـة. فلمَ بحق السَّـماء، هكذا يسأل الرّواقيون، قد ترغب في فعل ذلك؟

علينـا أن نقطع الصلة بين «الانطباع» و«الموافقة». وهنا يأتي دور «وقفة سـقراط»؛ تلـك التي أسـميها «الوقفة الجبـارة». يقـول «إبكتيتوس»: «لا تجعل حيوية الانطباع تكتسـحك، بل قل له: أيُّهـا الانطباع، انتظرني قليلًا. دعنـي أرى ما أنت، وماذا تمثل. دعني أختبرك وأمحصك». فحين ندرك أنَّ ردَّ فعلنـا تجاه الشـدائد ليس تلقائيًا، بل هو خيار، حينهـا فقط نبدأ في اتخاذ خياراتٍ أفضل.

ولكن أليس كل النّاس يغضبون حين يعلقون في زحمة السّير أو يصطدم إصبـع قدمهـم بشيء؟ «كلا، ليسـوا جميعًـا كذلك»، يقـول روب، «وفوق ذلك، فإنَّ مجرد غضب الكثير من النَّاس حين يصطدم إصبع قدمهم بشيء، لا يعني أنَّه يتوجب عليك أن تغضب أنت أيضًا». فنحن أحرارٌ دائمًا في أن نحجب موافقتنا. وهذا الأمر متروكٌ لنا بالكلية.

وإن كان لا بد لك من أن تمنح موافقتك لـ«الهوى الأولي» هذا، فامنحها لوجهةٍ مختلفة، هكذا يقترح «إبكتيتوس». أعد تسـمية الأشـياء. فإن كنت وحيـدًا، فأطلـق على عزلتك اسـم «السـكينة». وإن كنت عالقًـا في زحام، فأطلق عليه اسـم «مهرجان»، «وهكذا تقبـل كل شيءٍ وأنت راضٍ». أهي

حيلـةٌ ذهنية أخرى؟ نعـم، ولكنها حيلةٌ نافعة. فعقلـك يمارس على الواقع حيلًا على الدوام. فلمَ لا تُسخر حيَلَه هذه لما فيه خيرك؟

في فيلـم «لورنـس العرب»، مشـهدٌ يطفئ فيه «لورنـس»، الذي يؤدي دوره الممثـل «بيـتر أوتـول»، عـود ثقـابٍ مشـتعل بـكل هدوءٍ بـين إبهامه وسبابته.

فيحاول ضابطٌ زميلٌ له أن يفعلها، فيصرخ متألمًا ويقول: «آه! إنَّها لمؤلمةٌ حقًا».

فيردُّ لورنس: «بالتأكيد هي مؤلمة».

«حسنًا، فما الحيلة إذن؟»

فيجيب «لورنس»: «الحيلة هي ألا تبالي بكونها مؤلمة».

لقـد كان جواب «لورنس» ذاك جوابًا رواقيًـا خالصًا. نعم، لقد أحسَّ بـالألم، ولكنَّـه ظلَّ عنـد حدود الإحسـاس الحسيِّ المجرد، مجـرد رد فعلٍ فطـري. فلـم يتفشَّ الألم في نفسـه ليتحـول إلى انفعالٍ كامـل. فـلورنس لم «يبـالِ» بـالألم، بالمعنى الحـرفي للكلمة؛ فهو لم يسـمح لعقله بـأن يختبر، أو يضخم، ما أحس به جسده.

***

إنَّ «معسكر الرواقية» ليس مجرد صالونٍ فلسفيٍّ يقع في أحضان غابات وايومنـغ، بل هـو مختبرٌ للتجـارب؛ ونحن، أهل المعسـكر، فئـران تجاربه. وهنـاك عـددٌ مـن التجـارب الجاريـة، كهذه مثـلًا: خذ رجـلًا في منتصف العمر، قد اعتاد على وسائل راحةٍ معينة —منها على سبيل المثال لا الحصر،

الوسائد، والأغطية، وشراب الشَّعير الفاخر— واغمسه في كوخٍ ريفي مع خمسة عشر طالب دراساتٍ عليا تفوح منهم الرَّوائح الكريهة. واحرمه من الفراش ومن شرابه. ثم أضف ضوضاء متصلة؛ وبهّرها بأنوار الفلورسنت السَّاطعة. وحرك المزيج باستمرار. ثم دعه يتجمد طوال الليل.

إنَّ التَّذمر جزءٌ من طبعي، بل هو في اسمي أيضًا. أريد أن أئن، وأتأوه، وأشكو، وأتذمر، وأتوجع. ولكني أكبح جماح نفسي، مستدعيًا إلى ذاكرتي حكمةً رواقية قديمة: «الرجل الصالح لا ينوح، ولا يتنهد، ولا يئن». فالشكوى، هكذا يذكرني «ماركوس»، لن تخفف من وطأة الألم، بل قد تزيده سوءًا. «وعلى أي حال»، كما يقول، «فالأفضل ألا تشكو».

أبحث عن صندوقٍ للاقتراحات —فالاقتراح، هكذا أقول لنفسي، ليس شكوى بالمعنى الدَّقيق— ولكني لا أجد. بطبيعة الحال. فهذا هو «معسكر الرّواقية». فأتوقف. آخذ وقفة. ليست تلك «الوقفة الجبارة»، بل هي «وقفةٌ صغرى»، ولكني أقبلها. أتمهل وأسأل نفسي: أي جوانب هذا الموقف تقع في نطاق قدرتي؟ ليست قلة التّدفئة أو الأغطية، فهذه أمورٌ خارجةٌ عن سيطرتي. فإن أردت كأسًا من الشّراب، فبوسعي أن أسير ثلاثة أميالٍ إلى البلدة. فالخيار خياري. فالشراب، والتدفئة، والأغطية، كلها «أشياء لا مُبالى بها»، وإن كنت أفضّلها. فهي ليست تحت سلطاني. وحده موقفي منها، موافقتي عليها أو رفضي لها، هو ما أملكه. ويضرب الرّواقيون لذلك مثل الكلب المربوط إلى عربة. فالعربة ماضيةٌ في طريقها، وستظل ماضية مهما حدث. والخيار المتاح للكلب هو: إمَّا أن يُجرَّ على الأرض جرًا، أو أن يهرول إلى جوارها طوعًا. لقد حان الوقت لأبدأ الهرولة.

وعلى أيّ حال، فإني أمارس ما يسميه الرّواقيون «الحرمان الطّوعي». (حسنًا، لست أمارسه طوعًا واختيارًا تمامًا في حالتي هذه). فـ«سينيكا»، الذي كان من أثرى أثرياء الرّومان، أوصى بأن يمارس المرء الفقر لأيامٍ قليلة كل شهر. فنصح بأن يأكل المرء «أقل الطعام كلفةً وأزهده»، وأن يرتدي «أخشن الثياب وأبسطها». وحين يمارس الرّواقيون «الحرمان الطّوعي»، فإنّهم على مستوى ما، يلتزمون بحكمتهم القائلة: «عش في وئامٍ مع الطبيعة»؛ فيعرقون إن كان الجو حارًا، ويرتجفون إن كان باردًا، ويشعرون بآلام الجوع إن جاعوا. بيد أنّ الغاية من «الحرمان الطّوعي» ليست الألم، بل اللذة. فبحرمان أنفسنا بين الحين والآخر من بعض وسائل الرّاحة، يزداد تقديرنا لها، ويخف سلطانها علينا.

إنّ «الحرمان الطّوعي» يعلّم ضبط النّفس، وفي ضبط النّفس منافع شتى. فإنْ أنت امتنعت عن قطعة حلوى، شعرت بالرضا عن نفسك. وإنّ في التخلي عن اللذة للذةً مَن أعظم اللذات.

كما أنّ «الحرمان الطّوعي» يُنمّي في النفس الشجاعة. وهو كذلك يُحصّننا ضد حرمان المستقبل، الذي قد لا يأتينا طوعًا. فنحن نكابد وخزة ألمٍ خفيفة الآن، لنتقي ألمًا أشد وطأةً فيما بعد.

وأدرك الآن أني كنت أمارس ضربًا من «الحرمان الطّوعي» لسنين طوال، وإن كنت قد أطلقت عليه اسمًا آخر أبهج وقعًا: «الرّفاهية المتقطعة». وقد بدأت هذه العادة حين كنت مراسلًا أجنبيًا للإذاعة الوطنية العامة، فقمت بعدة رحلات عملٍ إلى العراق إبان حكم صدام حسين. وبسبب عقوبات الأمم المتحدة، كان الطّيران محظورًا، مما كان يعني رحلةً بريةً طويلة وشاقة

من عمّان بالأردن، إلى بغداد.

كان لي روتينٌ خاص. فكنت أقضي بضعة أيامٍ في عمّان، أقدم على طلب تأشيرة الدّخول إلى العراق، وأتزود بالمؤن (شوكولاتة، وبدلاتٍ واقية من الكيماوي، وشراب شعير فاخر). كان الفندق في الأردن لطيفًا. ليس الأفضل في العالم، ولكنّه لطيف. «جيدٌ بما يكفي»، كما كان ليقول أبيقور. وما إن أحصل على أوراقي وأتزود بمؤني، حتى أستأجر سائقًا لرحلة الاثنتي عشرة ساعة عبر صحراء البادية. أمّا فندقي في بغداد، فكان مكانًا موحشًا يُدعى «الرّشيد»، وكان أقل لطفًا بكثير؛ فقد كانت رائحة العفن تفوح من غرفه، وأظنُّ أنّها كانت مزروعةً بأجهزة تنصتٍ من قبل عملاء صدام.

وحين عدت إلى عمّان بعد عدة أسابيع، خُيِّل إليَّ أن ذلك الفندق «الجيد بما يكفي» قد تحول إلى قصر. فبدا فراشه أشد وثارةً، وطعامه أطيب مذاقًا، وحتى ضغط الماء أحسست به أقوى. لم يتغير الفندق، بل أنا الذي تغيرت.

وبعد سنين، وحين كنت أقيم في ميامي، كنت أطفئ مكيف سيارتي بين الحين والآخر، حتى في ذروة الصّيف. ففي ثوانٍ، كانت مقصورة السّيارة تتقد حرًا، ويلتصق جلدي المتصبب عرقًا بمقاعد سيارتي الجلدية. ورغم ذلك، كنت أجد في الأمر متعة، فقد كنت أذكّر نفسي بما يعنيه الشّعور بالحر، فأجدد بذلك امتناني العميق الرّاسخ لـ«ويليس كارير»، مخترع مكيف الهواء الحديث. أهو حرمانٌ طوعي؟ أفترض ذلك، ولكني أفضل أن أسميه «رفاهية متقطعة»؛ كتلك الترّقية غير المتوقعة إلى الدّرجة الأولى، أو ذلك البذخ في مطعمٍ يلهج بذكره الجميع، أو ذلك الحمام الساخن بعد

رحلة تخييم دامت أسبوعًا كاملًا.

وهكـذا، أقـرر أن أكفَّ عـن التّذمـر (فالتّذمر الداخلي لا يـزال تذمرًا) بشـأن هـذه الظّروف القاسـية. فماذا عسـاي أتوقـع من مكانٍ يحمل اسـم «معسـكر الرّواقية»؟ اعرف ما أنت مقدمٌ عليه، هكذا نصح «إبكتيتوس». فـإن أنـت ذهبت إلى حمـامٍ عام، فتذكـر «أنَّ هنـاك من سيرشـقونك بالماء، ومن سـيدفعونك، ومن سـيهينونك، ومن سـيسرقونك». فلا تندهش إن تبللـت، أو سُرقت. إنَّه على حـق. فلمَ إذن أندهش أن تكون أماكن الإقامة في «معسـكر الرّواقية» على نفس مسـتوى فندق بغداد؟ فليس المسـكن هو الذي يجب أن يتغير، بل موقفي أنا منه. وفوق ذلك، يذكرني الرّواقيون بأنَّ الحال قد يزداد سوءًا على الدوام.

وهـذا يأخذنـا إلى لقـاحٍ آخر من «صيدليـة الرّواقيين»: وهـو ما يُعرف باللاتينية بـ«premeditatio malorum»، أي «التأمل المسبق في الشدائد». «ترقَّب سـهام القدر»، هكذا يقول «سـينيكا». «تخيل أسوأ السّيناريوهات وتمرن عليها في ذهنك: المنفى، والتَّعذيب، والحرب، وحطام السّفن».

وليـس تخيـل الشّـدائد كالقلق منهـا، هكذا يقـول الرواقيـون. فالقلق شـعورٌ غامـضٌ مبهـم، أمَّـا الشّـدة المتأمـل فيها فهي محـددة المعـالم؛ وكلما ازدادت تحديـدًا، كانـت أفضل. فلا تقـل: «أتخيل أني أعاني نكسـةً مالية»، بل قل: «أتخيل أني أفقد بيتي، وسـيارتي، ومجموعـة حقائبي كلها، وأضطر للعـودة للعيش مـع أمي». بل ويقترح «إبكتيتـوس» إضافةً مفيدة، فيقول: تخيـل أيضًـا أنَّك فقدت القدرة على الكلام، والسّـمع، والمـشي، والتّنفس، والبلع.

فبتخيلنا لأسـوأ السيناريوهات الممكنة، نسـلب من مصاعب المستقبل لسعتها، ويزداد تقديرنا لما بين أيدينا. فحين تقع الكارثة، وهو أمرٌ لا مفر منه، لا يتفاجأ الرّواقي، كما يقول «إبكتيتوس»، أكثر من تفاجئه حين تثمر شجرة التّين تينًا، أو حين يلاقي ربان السّـفينة ريحًا معاكسـة. فالشِّدَّة التي نتوقعها تخف وطأتها، والمخاوف التـي نعبر عنهـا يقل هولها. تلك هي النَّظرية، على أقل تقدير.

أمّا ابنتي، فلم تكن على نفس القدر من اليقين. فحين أخبرتها عن فكرة الرّواقيين في «التّأمل المسبق في الشّدائد»، أعلنت أنَّها فكرةٌ «غبية»، بل لعلَّها أغبى من فكرة «العود الأبدي» عند نيتشـه. فالتّأمل في الشدائد ليس كئيبًا فحسب، هكذا تقول، بل إنَّه لا داعي له أصلًا. ثم تسـأل: «فأنت تقلق أصلًا من وقوع السّوء. فلِمَ إذن تجبر نفسك على مزيدٍ منه؟». وفي قولها وجهة نظر. ولكن من ناحيةٍ أخرى، فما عمرها إلا ثلاثة عشر عامًا، وهي ليست تمامًا الجمهور الذي تخاطبه الرّواقية، تلك الفلسـفة التي تُولد من رحم الصّدمات القاسية والخبرات الصعبة. «أمهلها بعض الوقت»، هكذا أقول لنفسي.

***

وبحلول اليوم الثّالث من «معسكر الرّواقية»، كنـا قد وقعنا في روتينٍ منتظم. فنكرس فترات الصباح لـ«إبكتيتـوس» و«مختـصره»، أمّا فترات مـا بعد الظَّهيرة، فكنا ننقسـم إلى مجموعـاتٍ أصغر لنتـدارس «ماركوس أوريليـوس». وقد وجد طلاب الدّراسات العليا صعوبـةً في التّعامل مع الإمبراطور الفيلسوف؛ ففلسفته «غير محددة المعالم» أكثر من اللازم؛ فليس

فيها ما يمكن الإمساك به، ولا ما يصلح للتحليل والتّشريح. فـ«ماركوس» لا يسعى لإثبات شيءٍ أو دحضه، وهو لا يفترض افتراضات، بل هو رجلٌ يصارع بصوتٍ مسـموع شـكوكه الذاتية المتأصلة، ويجاهد ليكتشف معنى أن يكون المرء إنسانًا.

نحـن هنا في عزلـةٍ عن العـالم. فلا مشـتتات. لا تلفـاز. لا واي-فاي. وإشـارة الهاتف المحمول ضعيفةٌ متقطعة. ورغم ذلك، تسـود المكان بهجةٌ هادئـة. بعضهـا بهجـة الأرواح المتآلفـة، وقـد تكاتفـت في مواجهة قسـوة الطّبيعـة، وبعضهـا الآخر تلك البهجـة النادرة التي نجدهـا حين يتصارع البشر بصوتٍ عالٍ مع أسـئلة الوجود الكـبرى والملحة. وهكذا، أتخيل، لا بد أنّه كان شعور طلاب «إبكتيتوس»، وهم بعيدون عن ديارهم، لا أنيس لهم إلا بعضهم البعض، وفلسفتهم.

نحن الرّواقيون، تتوثق بيننا الأواصر. فنشـوي حلوى المارشـميلو على النار، ونتحدى قسـوة البرد برباطة جـأشٍ رواقية. ونتبادل دعاباتٍ رواقية طريفة. فتجري بيننا محادثةٌ كهذه:

«يا قوم، إني ذاهبٌ إلى البلدة لأشتري ست عبواتٍ من «الأشياء التي لا مُبالى بها، ولكنها مفضلة». فهل يريد أحدكم شيئًا؟»

«لا شكرًا. فإني أمارس «الحرمان الطوعي»».

«حسنًا. سأعود قريبًا، إن شاء القدر».

تلـك العبـارة الأخـيرة، «إن شـاء القـدر»، تعـبر عـما يُعـرف بـ«شرط التّحفـظ الرّواقي». وحين ذكرهـا «روب» لأول مرة، خامرني قلقٌ من أنّها

قـد تكون ضربًا من «الطّلاسـم القانونية» —ربّما إقـرارٌ علينا أن نوقعه— ولكن مخـاوفي كانت في غير محلها. فـ«شرط التّحفظ» هذا ليس قانونيًا، بل هو علاجي؛ أسلوبٌ رواقي آخر لمواجهة لا يقين الحياة.

ففي صميم الفلسـفة الرّواقية تكمن جبريةٌ عميقة. فالكون يسـير وفق نصٍ لسـت أنـت كاتبه. ومهـما تطلعت يومًـا إلى أن تكون المخـرج، فانسَ الأمـر. فما أنـت إلا ممثل، فتقبّل دورك واحتضنه. يقـول «إبكتيتوس»: «لو أني كنت عندليبًا، لقمت بدور العندليب؛ ولو أني كنت بجعة، لقمت بدور البجعة».

فالتـوق إلى دورٍ مختلـف ضربٌ مـن العبث، ولن يورثـك إلا معاناةً لا داعي لها، كحال ذلك الكلب الذي تجره العربة جرًا. علينا أن نتعلّم، هكذا يقـول الرّواقيـون: «أن نرغب فيما نملـك». وهذا يبدو قـولًا غريبًا، أدرك ذلـك. فالرغبة، بحكم تعريفها، هي تـوقٌ إلى ما نفتقده. فكيف نرغب فيما هو بين أيدينا أصلًا؟ وأظنُّ أنَّ «نيتشه» هو خير من يجيب عن هذا السؤال. فلا تستسلم لقدرك. ولا تقبله فحسب. بل اعشقه. ارغب فيه.

إنَّ «شرط التَّحفـظ» هـذا بمثابـة تذكرةٍ دائمـة بأننا نتبع نصًـا لم نكتبه. فالأحداث تتكشـف، «بمشـيئة القدر». فـإذا كان الرّواقي على وشـك أن يسـتقل قطـارًا إلى شـيكاغو، قـال في نفسـه: «سـأكون في شـيكاغو صباح الغد، إن شـاء القدر». وإذا كان مرشـحًا لترقية، قال لنفسـه إنَّه سينالها، إن شـاء القـدر. و«شرط التَّحفظ» هذا شـبيهٌ بـ«إن شـاء الله» عند المسـلمين، وبـ«بعزرات هاشم» عند اليهود، ولكنَّه مجردٌ من أيّ بعدٍ لاهوتي.

وليـس كلُّ مـن في المعسـكر يقتنـع بهـذه الحتميـة الرّواقيـة. فطـلاب

الدّراسـات العليا، بصرامتهم في المنطقية، متشككون على وجه الخصوص. فـإذا كان كل شيءٍ مقـدرًا، فأيـن محـل الإرادة الإنسـانية من كلٍّ هـذا؟ ولِمَ نكلف أنفسـنا عناء فعل أي شيء؟ ولِمَ ننهض من فراشنا صباحًا؟ وأجدني أشـاركهم هذه الهواجس، وألمح «روب» يمسـح على لحيته. وأتوق لسـماع رده.

ويـأتي رده في صـورة تشـبيهٍ بليغ (فالرّواقيون يعشـقون التشـبيهات). يقول وعيناه تلمعان: «إنَّ النَّاس كالأسـطوانات التي تتدحرج على سـفح تل. كل الأسطوانات ستصل إلى أسفل التَّل لا محالة. فهذا أمرٌ مفروغٌ منه. ولكن ما إذا كانت رحلتهم وعرةً أم ممهدة، فذلك أمرٌ يعود إليهم. فهل هي أسـطواناتٌ مصقولة، مثالية الشـكل، أم هي خشـنةٌ غير مستوية؟ وبعبارةٍ أخـرى، هل هي أسـطواناتٌ فاضلة؟ فنحن لا نتحكـم في التَّل ولا في قوة الجاذبيـة، ولكننـا نتحكم في نوع الأسـطوانة التي نكونهـا، وهذا هو كل ما يهم».

***

فـراشي يهتز. بعنف. وفي شـبه غفوتي، أقول لنفسي: زلـزال!؛ يا لها من شـدةٍ لم أتأملها مسـبقًا، وليتني فعلت. كلا، ليس بزلزال. فالاهتزاز منتظمٌ أشدّ من اللازم، ولعلَّه من فعل فاعل.

«لقـد حان وقت العيـش في وئامٍ مع الطَّبيعة»، هكـذا يقول صوتٌ ما. فأفتـح عينـي، وألقي نظرةً على سـاعتي: الخامسـة فجرًا. مـاذا يجري بحق السماء؟

آه، نعـم. إنَّه «ماركوس» الطَّيب. فقد تغنى بشـاعريةٍ بالاسـتيقاظ عند

الفجر لمشاهدة النجوم واستقبال الشَّمس، فقال: «تأمّل في جمال الحياة. راقب النجوم، وشاهد نفسك تعدو معها». وإني لعلى يقينٍ أنَّ «ماركوس» نفسه لم يستيقظ يومًا عند الفجر، ولم يعدُ مع نجمةٍ واحدة قط، ولكن «روب» قد أخذ كلمات الإمبراطور الفيلسوف على محمل الجد، وقرر أنَّ الاستيقاظ قبل شروق الشَّمس هو بالضبط ذلك «الدواء المنشط» الذي نحتاجه، نحن الرّواقيون الطَّامحون.

أمشي متعثرًا إلى الحمام، فألطم وجهي بماءٍ بارد، ثم أنضم إلى رفاقي في المعسكر. وأتسلق التَّل في عناء، وأكاد أتعثّر مرّاتٍ ومرّات، والبرد يأخذ مني كل مأخذ. فقد أعددت حقائبي لربيع «ماريلاند»، لا لشتاء «وايومنغ».

ولهذه المناورة الفجرية أساسٌ عقلاني. فقد كان للفلسفة الرّواقية جانبٌ جسدي. فمؤسسها «زينون» كان مشهورًا بلياقته البدنية، ولا شك أنَّ ذلك كان نتيجة مشيه الحثيث ذاك في الرّواق المزين. وكان خليفته «كليانثس» ملاكمًا سابقًا، وخليفة خليفته «خريسيبوس» عدّاءً للمسافات الطويلة. ولم تكنِ الغاية من كلِّ هذه الرّوح الرّياضية الفوز بالميداليات أو حتى اكتساب اللياقة، بل كانت، شأنها شأن كلّ شيءٍ آخر عند الرّواقيين، سبيلًا لممارسة الفضيلة؛ وبالأخص فضائل ضبط النَّفس، والشَّجاعة، والقدرة على التحمل.

أشعر أنَّ الرّيح تقطع أوصالي، فأتذمر. وهذه المرة تذمري مسموع. فنحن ثلاثةٌ فقط نتسلق التّل. فأين الآخرون؟ هكذا أتساءل.

ثم ألمحهم، وقد تمركزوا بالفعل على قمة التّل. فأقول لـ«روب»:

«مرحبًا، ماذا حلَّ بشعار ‹لا تترك رواقيًا خلفك›؟».

فيجيبني بوجهٍ خالٍ من أيّ تعبير: «لا يوجد شيءٌ في ‹المختصر› عن ذلك». فأغير دفة الحديث وأسأله ماذا كان «ماركوس» ليقول عن هذا البرد القارس. فيجيب «روب»: «كان سيقول: «استرجل»».

إنَّ الرّواقية لفلسفةٌ متطلبة؛ فهي ليست بالشيء الهين، وأهلها لا يدّعون ذلك. وقلّما تجد فيها شيئًا من ذلك «الاعتدال» اليوناني الشَّهير. إنَّها فلسفة «إمَّا كلُّ شيء أو لا شيء»؛ فالمرء إمَّا أن يكون فاضلًا أو لا يكون، وإمَّا أن يحيا في وئامٍ مع الطَّبيعة أو لا يحيا.

لقد رأى الرواقيون، شأنهم في ذلك شأن الأبيقوريين، أنَّ الفلسفة دواءٌ للنفس؛ ولكنَّه دواءٌ مرٌّ. ففي إحدى المرّات، شبّه «إبكتيتوس» مدرسة الفيلسوف بعيادة الطَّبيب، مضيفًا: «لا ينبغي لك أن تغادرها وأنت مسرور، بل وأنت تتألم». فالغاية، كما يضيف، ليست الاعتماد على الطبيب، بل أن تشفي نفسك بنفسك، وأن تصبح طبيب نفسك.

وهذا التَّشديد على الاعتماد على الذّات هو ما يفسر جاذبية الرّواقية للآباء المؤسسين لأمريكا، وللجنود في كلِّ مكانٍ اليوم. فهي تضع مسؤولية سعادتك على عاتقك أنت وحدك، لا على عاتق غيرك. فحين يشكو طالبٌ شاب من سيلان أنفه، يجيبه «إبكتيتوس»: «أوَلَيس لك يدان؟ امسح أنفك إذن، وكف عن لوم الإله».

يقول الرّواقيون إنَّ كلَّ واحدٍ منا يملك قبسًا من «اللوغوس»، ذلك الذكاء الإلهي الذي يسري في الكون كله. فالعقل هو أعظم نعمنا، والينبوع الحقيقي الوحيد للسعادة. والكون كله مشبعٌ بذكاءٍ إلهي، ولكنَّه عقلانيٌّ

كلّ العقلانيـة. وفي كلِّ مـرَّةٍ نتصرف فيها بعقلانية، فإننـا كأنَّما نصافح هذا الـذَّكاء الكوني. والتَّـصرف «بعقلانية» عند الرّواقيـين لا يعني أن تتصرف كإنســانٍ بارد العواطف؛ فأن تتصرف بعقلانيةٍ هو أن تتصرف في انسـجامٍ مـع الكـون، وليس في ذلك أي برود. «نحـن وكلاء للعناية الإلهية»، هكذا يقول «روب»، وأنا أرى الصدق كله في عينيه.

وهكذا، فإنَّ العيش في وئامٍ مع الطّبيعة هو أن توائم نفسك مع مملكة العقل، وهـذا بوسـعك أن تفعلـه في أيِّ مكان. «يمكنك أن تكون في وئـامٍ مع الطّبيعة في قلب مانهاتن بنفس السـهولة»، هكذا يقول «روب»، مما يجعلني أتسـاءل ما الذي أفعله أنا هنا في براري وايومنغ، بثيابٍ لا تقي من برد، وفي عتمة الليل.

ثم ينبلج نور السَّـماء، وتطل الشَّـمس من خلـف الأفق، فيأخذني جمال المنظر فأنسـى البرد والمسـكن الخشـن، ولا أعود أتسـاءل عن سر وجودي هنـا. وبينما أتأمل السَّـماء المشرقة، تخطـر ببالي عبارةٌ قالهـا «روب» في وقتٍ سابق: «إنَّ العالم مكانٌ فسيحٌ جدًا، أمَّا أنا فلا».

لقد كان يعبر عن المفهوم الرّواقي المسـمى «النظرة من الأعلى». فتخيل نفسـك تحوم عاليًا فوق الأرض، وتنظر إلى عالمك الضَّئيل بالأسـفل: ذاك الزِّحـام الـذي لا أهميـة لـه، وتلـك الأطباق المتسـخة، وتلك المشـاحنات التَّافهـة، والدَّفاتر المفقودة. كلها «أشـياء لا مبالى بها». أنت لا شيء. وأنت كل شيء.

***

والشِّـدَّةُ مرادفـةٌ للخسـارة، وللرّواقيين في هذا الشـأن قـولٌ كثير. وأنا مـسرورٌ لذلك، فـإني بحاجةٍ إلى عونٍ في هذا البـاب. ويقترح «إبكتيتوس»

أن نبدأ بالتكيف مع الخسائر الصَّغيرة، ثم ننتقل إلى ما هو أكبر منها. فهل فقدت معطفك؟ حسنًا، لقد فقدته لأنَّك كنت تملكه في الأصل.

ولكنك في منظور الرّواقيين، لم تفقده حقًا، بل «أعدته» إلى أصله. فلا ينبغي أن تصيبك صدمةٌ من ذلك، أكثر من تلك التي تصيبك حين تعيد كتابًا للمكتبة، أو حين تغادر فندقًا. وذلك الدَّفتر الذي أحببته وأخذته معي إلى إنجلترا؟ لم يضع، بل «أُعيد». وكما يقول «إبكتيتوس»: «وحين يُسلب منك شيء، فتخلَّ عنه بيسرٍ وفورًا، وكن ممتنًا للأوقات التي كان فيها في حوزتك؛ ما لم تكن تفضل أن تبكي وتنتحب كالأطفال على مرضعتك وأمك!». استرجل!

فكثيرًا ما نخلط بين ما هو لنا وما ليس لنا. ولا داعي لهذا الخلط، هكذا يقول الرواقيون. فالأمر بسيط: لا شيء لنا، ولا حتى أجسادنا. فنحن دائمًا مستأجرون، لا مُلَّاك. وفي هذه الفكرة تحريرٌ للنفس؛ فإذا لم يكن هناك ما يمكن أن تخسره، فلن يكون هناك ما تخشى خسارته.

لقد فقدت قبعةً مؤخرًا، وكنت قد اشتريتها قبل أيامٍ قليلة، فحزنت على فقدانها حزنًا شديدًا. وحين ذكرت الأمر لابنتي، قررت أن أصوغ ردَّة فعلي في كلماتٍ واضحة، فقلت: «لقد كانت تلك القبعة مصدر سعادتي، ولذا حين فقدتها، فقدت سعادتي». وما إن نطقت بهذه الكلمات بصوتٍ عالٍ، حتى بدت لي طفوليةً وسخيفة. فأنا لم أفقد القبعة، بل «أعدتها»، وفوق ذلك، فما كانت إلا «شيئًا لا مُبالى به».

فالرّواقيون، شأنهم شأن اليابانيين، يعلمون أنَّ «كلَّ الأشياء في كلِّ مكانٍ إلى فناء». ولكنَّهم يرون هذه الحقيقة لا سببًا للحزن، كما يراها الكثيرون

منـا، ولا مدعاةً للاحتفاء، كما يراها اليابانيـون، بل مجرد حقيقةٍ من حقائق الحيـاة. فلا شيء بوسـعنا أن نفعله حيالها بمنطـق العقل، فالأفضل إذن ألا نقلق بشـأنها. ويذكرنا «ماركوس» بأنَّ كلَّ ما نعتز به سيتلاشـى يومًا ما كما تتلاشى أوراق الشَّجر، ولذا علينا «أن نحذر لئلا يفضي بنا الاغتباط بها إلى أن نعتز بها كل الاعتزاز، لدرجة أن يفضي فقدانها إلى تدمير سكينة أنفسنا».

ولكن ماذا عن الخسـائر الأشـد فداحة؟ فلا شـك أنَّه لا خسارة أعظم من فقدان حبيب. فالحزن أمرٌ طبيعي، ولا بد أنَّ الرّواقيين يشجعون عليه، أليـس كذلك؟ كلا. فالرّواقيون يقرّون بالحاجة إلى قليلٍ من الحزن، ولكن ليس الكثير منه. فقد كتب «سينيكا» إلى صديقٍ فقد عزيزًا لديه يقول: «دع دموعك تنهمر، ولكن دعها تتوقف أيضًا». وفي مرَّةٍ أخرى، لام امرأةً لأنَّها سـمحت لحزنها على ابنها المتوفى أن يسلبها وقتًا كان من الأجدر أن تقضيه مـع أحفادهـا. وحين يأتيك نبأ وفـاة طفل، فإنَّ الجـواب اللائق، كما يقول الرَّواقيون، هو: «لقد كنت أدرك سلفًا أني قد أنجبت كائنًا فانيًا».

وهنـا، أعترف أني أفقد القدرة على مواكبـة الرّواقيين. فبقمعنا للحزن، ألا نقمـع الفـرح أيضًـا؟ ألا ينبغي لنـا أن نفتـح صدورنا لطيف إنسـانيتنا بأكمله، بما فيه من حزنٍ وأسى؟

ويخامرني شـكٌ بأنَّ «روب» هو الآخـر يكابد هذا الجانب من الرَّواقية، وهو شـكٌ تأكد لي حين قص علينا قصةً في أواخر أيَّام «معسـكر الرّواقية». كانـت المدفأة متأججةً على أشـدها. وفي الخارج، كان الجـو قد ازداد برودةً وغيمًا، والثّلوج على وشك الهطول.

كانت ابنة «روب» قد ثقبت أذنيها في سنٍ مبكرة، وأضافت عدة ثقوبٍ

أخـرى لاحقًـا. ولكن في مرّةٍ من المرّات، وهي في الثّالثة عشرة من عمرها، لم يتوقف النّزيف. فأخذاها إلى طبيب العائلة، ليكتشفا أنّ «فحوصات الدّم كلها خاطئة». ثم المزيد من الفحوصات. ثم جاء النّبأ المشـؤوم. كانت ابنة «روب» مصابـةً بمـرضٍ نادر يُدعى «فقـر الدّم اللاتنسـجي»؛ فقد توقف نخـاع عظمها عـن إنتاج الصّفائـح الدّموية، وهي الخلايا التـي تتكتل معًا لتساعد على تخثر الدّم.

إنّه لمرضٌ عسـير العلاج. وقال أحد الأطباء لــ«روب»: «إنّ السَّرطان لهـينٌ مقارنـةً بهـذا». وقـد شـاهدا صديقًا لهـما مصابًـا بنفس الـدّاء يموت أمامهـما. وحـين بحـث «روب» على الإنترنت عن متوسـط العمـر المتوقع للمصابين بالمرض، وجده: ستة عشر عامًا.

يواصـل «روب» بصـوتٍ هـادئٍ ثابـت: «وهنـا تكمن قيمـة الرّواقية بالنسبة لي، فهنا يكون المحك الحقيقي. سأكون صريحًا معكم. الأمر شاق. مـن الشّـاق أن أقـول عن ابنتـي: ‹أنتِ مجرد مظهـرٌ عابـر›، ولكنني مضطرٌ لذلك». وقد سأل «روب» نفسه السّؤال الرّواقي: أيُّ جزءٍ من هذا الموقف يقـع تحت سـيطرتي؟ وكان جوابه: أن أكون أفضـل أبٍ يمكنني أن أكونه. «فـكل التحليـلات والبراهين لا تسـاوي شـيئًا إن لم أسـتطع أن أكـون أبًا أفضـل. ومـاذا يعني ذلـك؟ يعني أن أكـون أنا من يأخذها إلى المستشـفى، وأنـا مـن يحضر لها دواءها. يعني أن أكون أنا ذلك الشّـخص الذي لا يفقد صوابـه». فأن تكـون رواقيًا يجعل «روب» أبًا أنفـع، وأبًا أفضل، ورغم أنّ الرّواقيين قلما يستخدمون هذه الكلمة، أبًا أشدّ حبًا.

***

في اليـوم الأخير من «معسـكر الرّواقية»، أسـتيقظ على عاصفـةٍ ثلجيةٍ هوجـاء. فقد تسـاقطت عـدة بوصـات، والمزيد منهـا في الطّريـق. ثلجٌ في أواخر مايو! تبدو الطَّبيعة نفسـها ليسـت في وئامٍ مع ذاتها، ولكن ما عساي أعرف أنا؟

كلُّ مـا أعرفـه أنَّ الطّريق إلى دنفـر مغلق، وأنَّ عليَّ أن ألحـق بطائرةٍ إلى باريس. فالنَّاس قلقون، وأعني بالنَّاس «أنا». و«روب» ينصح بالهدوء.

أقول: «ليت هناك تطبيقًا إلكترونيًا لذلك».

فيجيب: «بل هو موجود، وفي يدك».

«هاتفي الآيفون؟».

«كلا، في يدك الأخرى. ‹المختصر›. كتاب ‹إبكتيتوس›».

بالطبع. ألم أتعلم شـيئًا إذن في «معسـكر الرّواقيـة»؟ فكل تلك الأفكار العظيمـة عـن حجـب الموافقـة، و«شرط التّحفـظ»، و«التّأمـل المسـبق في الشـدائد»، كلها تتبخر وتتلاشـى حين أواجه شـدَّةً حقيقية. وهي ليسـت بالشـدَّةِ العظيمة حتى. فاضطراب سفري هذا لا شيء يذكر مقارنةً بوعكة «روب» الصّحية في نيوزيلندا، أو بمرض ابنته.

آخذ نفسًـا عميقًـا، وأغمض عيني، وأسـتحضر في خيـالي «النَّظرة من الأعلى». تسـاعدني هذه الحيلة قليلًا، ولكن ليس كثيرًا؛ ففي عين عقلي، لا أرى إلا طائرة باريس وهي تحلق من دوني.

فألتجئ إلى «سـينيكا»، ولكنَّه يفسـد عليَّ مأزقي الحالي هذا، بل ويفسد عـليَّ مشروع حياتي كلّه: «السّـفر العلاجـي». فيقول: «أتظـنُّ أنَّ الحكمة،

وهـي أعظـم المهـارات جميعًا، يمكن تحصيلهـا في رحلة؟ صدقنـي، ما من رحلـةٍ يمكنهـا أن تنأى بك عن ثورات غضبك، أو عن مخاوفك». يا له من رومانيٍّ لئيم!

فأعـود إلى «إبكتيتـوس»، فأجـده أكثـر تشـجيعًا. فهو يرى في المسـافر «متفرجًـا كونيًـا ذكيًا». وهـذا أفضل بكثير. لا يقدم نصيحةً مباشرة بشـأن العواصـف الثَّلجية في شـهر مايو، لـذا أرتجل..ما الذي يقع تحت سـيطرتي في هذا الموقف؟ ليس الثَّلج، ولا الطّرق المغلقة، ولا حتى، إن شـئنا الدّقة، رحلتي الفلسـفية هذه. فأنا متعلقٌ بكل ذلك أشـدّ التعلق. وإني، كما يقول «إبكتيتـوس»، لأشـبه أولئـك المسـافرين الذيـن يجـدون فندقًـا لطيفًا فلا يعودون يرغبون في مغادرته. «أنسيت نيتك أيُّها الرّجل؟ فأنت لم تسافر إلى هذا المكان، بل كنت مسافرًا من خلاله فحسب».

وأدرك أنَّ قلقـي هـذا ليـس إلا ردّ فعلٍ على خسـارةٍ متصورة. سـأفقد رحلتي، ومن ثم سأفقد الوقت، ومن ثم سأفقد... ماذا؟

لست متيقنًا. فلم أكن قد فكرت مليًا في العواقب. أما الآن وقد فعلت، فإني أدرك مدى ضآلة ما هو على المحك حقًا. فرحلتي إلى باريس «شيءٌ لا مُبـالى به». فسـعادتي لا تتوقف عليهـا، ولا قيد أنملة. وليـس لي فيها حق. وهي ليست ملكي لأخسرها. فما أنا هنا إلا نزيلٌ مؤقت، مجرد عابر سبيل. وعلى أيّ حال، فإنَّ بلوغي باريسَ من عدمه أمرٌ خارجٌ عن سـيطرتي. فإن كان الطَّريق مغلقًا، فهو مغلق.

حـان وقت إعادة تسـمية الأشـياء، هكذا أقرر في نفسي. فأعيد تسـمية مأزقـي هذا ليصبح «إجازةً قصيرة»، وفرصـةً لأقضي مزيدًا من الوقت مع

رفاقـي الرّواقيين. فباريس قائمةٌ هناك منذ قرونٍ عدة، وبوسـعها أن تنتظر قليـلًا. والثّلـج لـن يدوم إلى الأبـد؛ فما مـن شيءٍ يدوم. وقريبًا سـيتوقف، وسأجدني قائدًا سـيارتي جنوبًا، مرورًا بسلسلة جبال «سنوي»، تحت سماء وايومنغ الفسـيحة، في طريقي إلى مطار دنفر الـدّولي، ومنه في نهاية المطاف إلى أضواء باريس البهيجة. أجل، سأكون هناك عما قريب، إن شاء القدر!

الفصل الثالث عشر

كيف تتقدم في العمر مثل بوفوار

الساعة 1:48 ظهرًا. على متن قطار TGV فائق السرعة، رقم 8534، يشق طريقه من «بوردو» إلى باريس.

خضرةٌ ضبابية —لعلّها حقولٌ ومزارع— تنساب مسرعةً خارج نافذتي. وفي الأفق، طواحين هواءٍ بيضاء عملاقة تدور في كسلٍ في الهواء الساخن الساكن. تجلس قبالتي فتاةٌ مراهقة، ترتدي قميصًا رياضيًا كُتب عليه: «الواقع مقرف». آه، ولكن ما هو الواقع؟ هكذا كدت أقول، لو أنَّ لساني يطاوعني بالفرنسية.

أجول ببصري حولي، فأكتشف أني أكبر مَن في المكان سنًا. وقد أصبح هذا الأمر يتكرر كثيرًا في الآونة الأخيرة. وأجد في هذه الوفرة المفاجئة من الشَّباب المحيطين بي شيئًا من الارتباك والقلق. لا أستطيع أن أفسره. ولكني على يقينٍ أن لا علاقة له بي. فأنا لست عجوزًا.

فقبل أسابيع قليلة، قررت أن أجلس لأكتب في مقهى قريب من إحدى الجامعات. يا لها من غلطةٍ فادحة. فوجدت نفسي غارقًا في بحرٍ متلألئ من الشَّباب: نماذج بشرية مثالية، بأسنانٍ مثالية، وشعرٍ مثالي، ومستقبلٍ مفتوح على مصراعيه. يرتدون سراويل رياضية تبدو عليها علامات الأناقة المدروسة، ويضعون سماعات رأسٍ باهظة الثمن، ويحيي بعضهم بعضًا بلكمات قبضةٍ متفجرة.

«تبًا لهم»، كاد هـذا الخاطر أن يمرَّ بذهني، ولكني كبحت جماحه، فهذا بالضّبط ما قد يفكر فيه عجوزٌ حاقد، وأنا لست بعجوز. وحين أعلنت النَّادلة الشَّابة، بابتسامتها المشرقة، أنَّ كوب الشَّاي الخاص بي جاهز، ولم أجب لأني كنت سارحًا في الوجودية أو ربَّما في أفلاطون، فاضطرت لتكرار ندائها، خامرني قلقٌ من أنَّها قد خلصت إلى أني عجوز. وأنا لست بعجوز. لست مثل ذلك الشَّيخ الذي طلب نسخةً من «نيويورك تايمز» — نسخة ورقية!— فأحضرتها له النَّادلة من تحت الطَّاولة، كأنَّها شيءٌ محظورٌ؛ ولا مثل ذلك الرّجل الذي يشبه شجيرةً ذابلة، وقد نصب على طاولته آلةً حاسبة —آلة حاسبة!— كأنَّها قطعة أثرية من زمنٍ غابر. كلا، لست أنا ذاك. أنا لست بعجوز.

تأخر قطارنا عن الوصول إلى باريس. فيعلن قائد القطار عن تأخيرٍ لعشرين دقيقة، ثم لساعة، ثم لساعتين. فيدب التَّململ في نفوس الشَّباب على متن القطار، فيأخذون في تفقد ساعاتهم على نحوٍ قهري، كأنَّما في ذلك تعجيلٌ لوصولنا. أمَّا الرّكاب الأكبر سنًا، فلا يفعلون. وحين يعلن القائد، بكل أسف، عن تأخيرٍ آخر، ألوي أنا معصمي وأحدق في ساعتي بتركيزٍ متعمد، لأني، كما تعلمون، لست بعجوز.

***

إنَّ الشَّيخوخة جبلٌ عظيم راسخ، وهي أقرب إليك مما تبدو. والمواجهة معها ليست هينةً أبدًا. فأنت لا تحتك بها احتكاكًا خفيفًا، ولا تصدمها صدمةً جانبية، بل إنَّك ترتطم بها ارتطامًا، وجهًا لوجه.

ذات صباح، نظرت «سيمون دي بوفوار» في مرآتها، كما كانت تفعل

كلَّ صباح، فرأت امرأةً غريبة تحدق فيها. من هذه المرأة؟ هذه التي «ينزلق حاجباها نحو عينيها، وتتدلى الجيوب تحتهما، وتتورد وجنتاها امتلاءً مفرطًا، وتحيط بفمها مسحة حزنٍ تجلبها التَّجاعيد دائمًا»؟ يستحيل أن تكون هي. ولكنَّها كانت هي. فتساءلت في نفسها: «هل يمكن أن أكون قد غدوت كائنًا آخر، وأنا لم أزل أنا؟».

كانت «بوفوار» يومها في الحادية والخمسين من عمرها، وكانت لا تزال جميلة، ولكن العمر، كما ستحاجج فيما بعد في كتابها عن هذا الموضوع، إنَّما هو في أعين الناظرين إلينا. فكان يساورها القلق من أنَّ تلك الأعين لا تستحسن ما ترى، أو، وهو ما هو أدهى وأمرّ، أنَّها لا ترى شيئًا على الإطلاق. فقد خمّنت أنَّها في نظر أبناء العشرين، كانت «ميتةً محنطة لا حراك بها». ثم جاءت الضَّربة القاضية، التي اخترقت قلبها، حين أوقفتها شابةٌ في الشارع، بعد حادثة المرآة تلك بوقتٍ قصير، وقالت لها: «إنَّكِ تذكرينني بأمّي».

أحسّت «بوفوار» بالارتباك، وبغدر الزّمان. فالزّمن، الذي كان يومًا صديقها، قد أصبح الآن يكيد لها. لطالما عاشت متطلعةً إلى الأمام، «ممتدةً نحو المستقبل»، تخطط لمشروعها العظيم القادم أو لرحلتها التَّالية، ولكنَّها الآن أخذت ترجع القهقرى، وتنظر خلفها إلى ماضٍ ولّى. لقد ارتطمت «بوفوار» بعمرها ارتطامًا.

وقد يظنُّ الظان أنَّها كانت لترى هذا الارتطام قادمًا، فقد كان هاجس التَّقدم في العمر يستحوذ عليها منذ كانت فتاةً صغيرة. وكانت تخشى الشَّيخوخة أشدّ من خشيتها للموت. فالموت، في رأيها، هو «العدم

المطلق»، ولذا ففيه على نحوٍ غريبٍ ما يبعث على الطّمأنينة. ولكن ماذا عن الشّيخوخة؟ إنَّ الشَّيخوخة هي «مهزلة الحياة ومحاكاتها الساخرة».

إنَّ الشّيخوخة هي ما أسماه شريك حياتها، الفيلسوف «جان بول سارتر»، بـ «اللامُدرَك». و«اللامُدرَك» هو حالةٌ من الكينونة نسكنها بأجسادنا، ولكننا لا نستبطنها أبدًا في نفوسنا؛ وحدهم الآخرون هم من يدركونها فينا. فقد نبدو في الظّاهر شيوخًا، ونتصرف كالشيوخ، ونكون بكل المقاييس الموضوعية شيوخًا، ولكننا في قرارة أنفسنا لا نشعر أبدًا بالشّيخوخة. فنحن لا ندرك أبدًا حقيقة تقدمنا في العمر. وهكذا، فبعد اثني عشر عامًا من ذلك الارتطام بعمرها، تكتب «بوفوار» قائلة: «لقد بلغت الثّالثة والستين، ولا تزال هذه الحقيقة غريبةً عني، كأنّها لا تخصني».

***

قليلةٌ هي خرائط الطّريق التي ترشدنا في دروب الشّيخوخة، وأقل منها القدوات التي نقتدي بها. نعم، هناك الكثير من الشّيوخ الذين يتقمصون شخصيات الشّباب، ولكنهم بذلك قدواتٌ للشّيوخ الذين يتقمصون شخصيات الشّباب، لا قدواتٌ لكيفية التّقدم في العمر.

وسيمون دي بوفوار، الرّوائية والفيلسوفة والبطلة النّسوية، قد لا تبدو المرشحة المُثلى لهذا الدور، وأنا أعترف بذلك. فكتاباتها عن الشّيخوخة قراءةٌ كئيبة. فهي لم تَشِخ برشاقةٍ وهدوء، بل شاخت على مضضٍ، وفي صراعٍ دائم. لقد ثارت على خفوت النور واحتضاره، بل وثارت أيضًا على أولئك الذين أنكروا عليها حقها في هذه الثّورة. ولكنّها في نهاية المطاف، عقدت صلحًا مع الشّيخوخة، وتقبلتها، بل وأحببتها، وإن كانت لربما

ستنكر ذلك لو سُئلت.

وإني لأحتاج إلى قدوةٍ أقتدي بها، فقد بدأت أحسُّ بأنَّ ساعة ارتطامي قادمة. فالعلامات التَّحذيرية قد لاحت في الأفق. ففي هذا الصَّباح لا غير، ظهرت بقعةٌ بنيةٌ صغيرة على خدي الأيسر، لتنضم إلى توأمها على الخد الآخر، وإلى أشقائها على رأسي، وأبناء عمومتها البعيدين على عنقي. لم تكن هناك بالأمس. أو هكذا أظنُّ. والحق أني لا أنظر إلى نفسي في المرآة كثيرًا. وإذا فعلت، فما هي إلا لمحةٌ عابرة، لا نظرة فاحصة. فأستورد من المرآة إلى دماغي ما يكفي من البيانات البصرية لأتأكد من استمرار وجودي في هذا الكون المادي، ولكن ليس ما يكفي من البيانات لأسجل تلك الحقائق المزعجة، كهذه البقعة الوليدة. والآن، حين أفكر في الأمر، أجد أني لم أرَ نفسي حقًا منذ سنين.

وهل تلومني على ذلك؟ فأنا لست رجلًا في عمرٍ محدد، بل في عمرٍ غير محدد. كبير سنًا، ولكن لست بشيخ. فماذا عسانا نسمي هذه الفترة الفاصلة الحرجة؟ فـ«أواخر منتصف العمر» ليس بالاسم المثالي، لوجود كلمة «أواخر»، ولكنَّه أهون ألف مرَّةٍ من «بدايات الشّيخوخة»، لوجود كلمة «شيخوخة». وأنا لست بشيخ.

وحين أرى شيخًا حقيقيًا، أرى فيه ما تسميه «بوفوار» بـ«الآخر»: ذلك الكائن الغريب كلّ الغرابة حتى إننا نراه «شيئًا، لا جوهر له». إنَّه شيخ، هكذا أقول لنفسي. أمَّا أنا، فلست كذلك. وتضمر هذه الجملة في طياتها عبارة أخرى هي «ولن أكون كذلك أبدًا». وهي كذبة، أعلم ذلك، ولكنَّها كذبةٌ نافعة، فهي التي تسمح لي بأن أنهض من فراشي كلَّ صباح،

على خُطى «ماركوس»، وأواصل القتال.

وإني لأعلم أنّها معركةٌ خاسرة. فقد بدأت رحلة تراجعي بالفعل. فحين شـاب لون لحيتي أول مرة، كنت أصبغها باللون البني كل أسـبوع، خشـية أن أصبح من «أصحاب اللحى الشّائبة». أمّا الآن، فقد أصبح الأسبوع يجر أسـبوعين، ثم ثلاثة. ويمكنني أن أرى يوم استسلامي للون الرمادي رأي العين. يمكنني أن أرى ساعة ارتطامي قادمة. ولكن ليس الآن. ليس بعد. فأنا لست بشيخ.

وقـدرتي على خداع النَّفس هذه لم تبدأ مع أولى خصلات الشـيب. فكما لاحظ الفيلسوف الروماني «شيشرون»، فإنَّ الكثير من النَّقائص التي نلقي باللائمة فيها على الشّيخوخة، ليست في حقيقتها إلا نقائص في الشّخصية. فالشّيخوخة لا تخلق فينا طباعًا جديدة، بقدر ما تضخم من طباعنا الموجودة أصلًا. فحين نتقدّم في العمر، نغدو «نحن» على نحوٍ أشدّ كثافة. وعادةً، لا يكـون ذلك في صالحنا. فالشّـاب الحريص في أمواله، يغـدو عجوزًا بخيلًا متبرمًـا. والمـرأة الشّـابة ذات العزيمـة التـي تثـير الإعجاب، تغدو سـيدةً عجوزًا عنيدةً عنادًا يثير الغيظ. ولكن هل حتمًا على هذا التَّضخم في طباعنا أن يتجه دومًا نحو السـلب؟ ألا يمكننا أن نعكس هذا المسـار ونحن نتقدّم في العمر؟ ألا يمكننا أن نصبح نسخًا أكبر سنًا، وأفضل، من أنفسنا؟

***

إنَّ معظـم الفلاسـفة يلزمـون صمتًـا يثـير الفضـول حـين يتعلـق الأمـر بالشّـيخوخة. وأقـول «يثـير الفضـول»، لا لأنَّ الشّـيخوخة جـزءٌ مهـم مـن الحياة فحسـب، بل لأنَّ الكثير من الفلاسـفة أنفسـهم قد عاشـوا حياةً طويلة

حافلـةً بالإنتـاج. فـ«أفلاطـون» كان لا يزال عاكفًا على عملـه حين توفي وهو في الثّمانين. و«إيسـقراط» عاش حتى التاسـعة والتسـعين، وكتب أشهر أعماله وهو في الرّابعة والتسعين. أمّا «جورجياس»، فقد جعلهم جميعًا يبدون كفتيان صغار؛ فقد عاش حتى السّابعة بعد المئة، وظلّ يعمل حتى الرّمق الأخير.

«هنيئًـا لهـم»، قـد تقـول، «ولكـن هـل نحن حقًـا بحاجـةٍ إلى فلسـفةٍ للشّـيخوخة؟». ففـي نهايـة المطـاف، لا ينقصنـا البحـث العلمـي عـن «الشّيخوخة النّاجحة». (ويا له من مصطلحٍ سخيف! آه، إذن عليَّ الآن أن أشـيخ بنجاحٍ أيضًا؟ عظيم. ها هو سببٌ آخر لأشعر بالتّقصير والنّقص). فـلا تنقصنا الكتب عـن الحمية الغذائية، والرّياضـة، والطّب الوقائي، ولا تنقصنـا الكتيبات الدعائية البراقة التي تروج للحياة السّـعيدة في «مجمعات كبار السّن السّكنية». فماذا عسى الفلسفة أن تضيف إلى هذا الحوار؟

الكثير! فالفلسـفة لا تعلمنا «بمَ» نفكّر، بل «كيف» نفكّر، ونحن اليوم بحاجـةٍ إلى طريقـةٍ جديـدة للتفكير في الشّـيخوخة. والحق أنّنـا لا نفكّر في التّقدم في العمر حقًا، بل كل تفكيرنا منصبٌّ على البقاء شبابًا. فليست لدينا «ثقافةٌ للشّـيخوخة»، بل لدينا «ثقافةٌ للشّـباب»، يتشـبث بهـا جيلٌ آخذٌ في الشّيخوخة تشبث الغريق بخشبة الخلاص.

فالشّـيخوخة ليسـت مرضًا. وليسـت حالةً مرضية. وليسـت شذوذًا. وليسـت مشكلة. إنَّ الشَّيخوخة مسـارٌ متصل، وكلنا سائرون عليه. فكلنا نتقدّم في العمر في كل حين. وأنت الآن، وأنت تقرأ هذه الكلمات، تتقدّم في العمر، بنفس السّرعة التي يتقدّم بها طفلٌ رضيع أو شـيخٌ طاعن في السّـن، لا أسرع ولا أبطأ.

والفلسفة تعيننا على تحديد مصطلحاتنا، على طريقة سقراط. فماذا نعني بكلمة «شيخ»؟ إنَّ العمر الزّمني مقياسٌ قاصر، لا معنى له. فهو لا يخبرنا شيئًا عن الإنسان، هكذا يقول فيلسوف الشّيخوخة «يان بارس». «فالعمر الزمني ليس علةً لشيءٍ على الإطلاق».

***

كان عند قدماء الإغريق كلمتان للزّمن: «كرونوس» (chronos) و«كايروس» (kairos). فـ«كرونوس» هو الزّمن الكمّي المتسلسل: دقائق ساعتك، وشهور تقويمك. أمَّا «كايروس»، فيشير إلى الزّمن النّوعي، إلى الوقت المناسب أو اللَّحظة السَّانحة. إنَّه الزَّمن النَّاضج. فحين تقول: «إمَّا الآن أو لا أبدًا»، أو «ليس هذا هو الوقت المناسب»، فإنَّما تتحدث بلسان «كايروس».

وقد خُيِّل إليَّ أنَّ هذا هو الوقت الأمثل لرحلةٍ تجمعني بابنتي. فابنتي لم تعد تجد في نكاتي ما يضحكها، ولم تعد تعانقني، ولكننا لم نزل نتحدث. وفي عالمٍ لا يقين فيه، فمن يدري إلى متى سيدوم ذلك؟

إنَّ أطفالنا أشبه بحلقات الشَّجر التي يستخدمها الخبراء لتحديد عمرها؛ دليلٌ مادي على مرور السّنين. فهم ينمون ويتغيرون، ونعلم أنَّنا نتغير نحن أيضًا، وإن كان تغيرنا أقل وضوحًا. وأنا، بصفتي أبًا متقدمًا في السّن، أشعر بتراكم هذه الحلقات على نحوٍ أشد من معظم النّاس. فأقاوم إغراء تأجيل الأمر. فلِمَ لا تكون باريس؟ ولِمَ لا تكون الآن؛ قبل أن تجرفها سيول المراهقة الجارفة بعيدًا؟ وكان العامل الحاسم أنَّ «سونيا»، على عكسي، تتحدث الفرنسية. فإن لم تكن هذه هي اللحظة السانحة

«كايروس»، فلم أدرِ ما عساها تكون.

لقد رسمت كلَّ شيءٍ في ذهني سلفًا، وكما حذرنا سقراط، فإنَّ في ذلك لخطرًا دائمًا. فقد تخيلتها رحلةً مؤثرةً بين أبٍ وابنته إلى باريس. وتصورتنا ونحن نستكشف الأماكن التي ارتادتها «سيمون دي بوفوار». وتصورتنا ونحن نتناقش في مبادئ الفلسفة الوجودية ونحن نرتشف الشاردونيه والسبرايت في أحد مقاهي «الضّفة اليسرى». وتصورت أني وابنتي ذات الثلاثة عشر عامًا ستتعرف على بعضنا البعض على نحوٍ أعمق.

لقد كانت هذه الرّحلة هي «مشروعي»، وهو مصطلحٌ وجوديٌّ أثير. فالمشاريع تُمكّننا من أن نتجاوز ظروف حياتنا وأن نسمو فوق ذواتنا. ولكن «بوفوار» تحذرنا من أنَّ مشاريعنا في تصادمٍ دائم مع مشاريع الآخرين. فحريتنا متشابكةٌ بحريتهم، ولسنا أحرارًا إلا بقدر ما هم أحرار. وهكذا، فإنَّ مشروعي —تلك الرّحلة الحانية بين أبٍ وابنته إلى فرنسا— قد ارتطم ارتطامًا مباشرًا بمشروع «سونيا»: أن تأكل في «ماكدونالدز» وتراسل أصدقاءها في الوطن.

***

أجد صعوبةً في التّعامل مع آلة التّذاكر في محطة المترو. والمشكلة ليست في اللُّغة، بل في التّقنية الرّقمية؛ فلا أفلح في الضّغط على الأزرار الصّحيحة بالتّرتيب المطلوب.

«دعني أفعلها أنا، أيُّها العجوز»، هكذا تقول. فقد أخذت سونيا تناديني بـ«العجوز». فتقول مثلًا: «هيا بنا نأكل بعض قطع الدجاج، أيُّها العجوز». إنَّها تمازحني. فأنا لست بعجوز. تطير أصابعها على لوحة المفاتيح في خفةٍ

ورشاقة، وفي طرفة عين، تخرج تذكرتانا، ونعبر البوابات الدوارة.

نصل إلى وجهتنا: جامعة السّوربون. إنَّ الوجودية فلسفةٌ ضبابية، أكثر من معظم الفلسـفات. فأحتاج إلى شيءٍ مادي أتشـبث به، ولذا، وبوصفي كائنًـا يتعلق بالأماكن، فقد ركزت اهتمامي على تلـك الجامعة العريقة التي درست فيها سيمون دي بوفوار.

تلقـي سـونيا نظـرةً واحدة على المكان، ثـم تعلن أنَّها غـير معجبةٍ بـ«هذا المبنـى الكبير ذي اللون البيج». والأدهى من ذلك أنَّنا نكتشـف أنَّ الدخول لغير الطلاب ممنوع. فنقف لدقائق تحت رذاذ المطر البارد، نرمي بأبصارنا إلى الدّاخـل كالأطفال الذين ينتظرون أمـام واجهة متجر للحلوى. على الأقل، كنت أنا أحدق في المكان. أمَّا سونيا، فكانت تدير عينيها في سأمٍ وضجر.

أمـد يـدي إلى حقيبتي وأسـتل منها رزمـةً من الورق. دليـلٌ إلى باريس سـيمون دي بوفوار. إنَّها رزمةٌ صغيرة؛ فـ«بوفوار» تحظى باهتمامٍ يقل كثيرًا عن ذاك الذي يحظى به سـارتر، بطل فرنسا الفيلسوف. ولكن هناك، رغم ذلك، جسرٌ للمشـاة فوق نهر السّـين يحمل اسـمها. وهذا يبدو أمرًا مبشّرًا بالخير. فالجسـور، في خـبرتي، تنعش الجسـد وتقـدح زناد الفكـر. كما أنَّها تصلح استعاراتٍ بليغة.

«سنذهب إلى جسر سيمون دي بوفوار!» هكذا أعلنت، كأني «ديغول» يعلـن تحرير باريس. فجاء ردَّ سـونيا غير منطوق، مجـرد حركةٍ من عينيها، فيها من الحدَّة بقدر ما فيها من الخفاء.

نسـير بمحاذاة نهر السّـين، ونحن نلف أنفسـنا جيدًا اتقاءً لـبرد الرّبيع الذي جاء في غير أوانه.

تقول سونيا: أبي، لدي سؤال».

سؤال! بذرة كل فلسفة، وجذر كل عجب! لعلَّها تتساءل إن كان العالم وهمًا، أو كيف لنا أن نحيا حياةً أصيلة في عصرٍ زائف. أو لعلَّ ما يثير فضولها هو «الواجب المطلق» عند «كانط»؛ تلك الفكرة القائلة بأنَّ الإنسان المستقيم يتصرف بأخلاقيةٍ بصرف النَّظر عن الظَّروف أو الدّوافع. وعلى أيّ حال، فقد غمرتني السعادة، وتأهبت لأفيض عليها من حكمتي الأبوية.

«نعم يا سونيا. ما هو سؤالك؟»

«متى بدأ شعرك في الانحسار؟»

«آه، حين كنت في الرّابعة والعشرين من عمري، على ما أظنُّ».

«ولِمَ لم تحلقه كله وتنتهِ من الأمر؟»

«لعلَّني كنت أتشبث بخيطٍ من أمل»

«ولكن الأمور لا تسير على هذا النحو، أليس كذلك؟»

«أجل، أعلم».

حسنًا، لم يكن حوارًا أفلاطونيًا بكل تأكيد. ولكنَّه بداية، على ما أفترض.

وبينما نحن نسير، آخذ زمام المبادرة وأتفلسف على ابنتي شارحًا الوجودية. أشرح لها كيف أنَّها فلسفةٌ، كما يدل اسمها، تركز على «الوجود»، وكيف أنَّها تمثل بذلك عودةً إلى رسالة الفلسفة الأصلية العلاجية. فهي لا

تسـأل «ماذا»، بل تسـأل «كيف». كيف لنا أن نحيا حياةً أكثر أصالةً وعمقًا في المعنى؟

والخـبر السـار، كما يقول الوجوديـون، أنَّ الجواب متروكٌ لنا بالكلية. فـلا يمليه علينا إلـه، ولا تفرضه طبيعـةٌ بشرية. فليس هنـاك طبيعةٌ بشرية واحـدة، بـل هناك طبائع ممكنـة لا حصر لهـا. أو كما قالت «بوفـوار»: «إنَّ طبيعة الإنسان هي في ألا تكون له طبيعة».

إنَّـه لأمـرٌ يمنح قوةً هائلة، ويرعب في آنٍ واحـد. فنحن، على حد تعبير سـارتر الشَّـهير، «محكومٌ علينا بالحرية». نتوق إلى الحرية، ولكننا نخشـاها أيضًا؛ فإن كنا أحرارًا حقًا، فلا لوم على تعاستنا إلا على أنفسنا.

ففي نظر الوجوديين، نحن ما نفعله، وانتهى الأمر. فلا نزيد ولا ننقص عن مشاريعنا التي نحققها على أرض الواقع. فلا وجود لشيءٍ اسمه الحب المجرد، بل هناك أفعال حب؛ ولا وجود للعبقرية، بل هناك أفعال عبقرية. وبأفعالنا، نرسم لوحة ذواتنا، لمسة فرشاةٍ تلو الأخرى. ونحن تلك اللوحة «ولا شيء سـوى تلـك اللوحـة»، هكذا قال «سـارتر». فكُـفَّ عن محاولة العثور على نفسك، وابدأ في رسمها.

بوسـعنا أن نصبـح أيّ شيءٍ نريـده، هكذا أتفلسـف عليهـا من جديد. «فلمجرد كونك نادلًا في مقهى»، وهذا من أشـهر أمثلة سـارتر، «لا يعني أنَّـه محكـومٌ عليـك أن تظـلَّ نـادلًا». فأمامك خيـارات، ومن خـلال هذه الخيارات، التي نتخذها بوعيٍ ونسعى إليها بعزم، نخلق ماهيتنا وجوهرنا.

وحين أنتهي من فلسـفتي الأبوية، ألتفت إلى سـونيا. كانت تسـتمع في صمـت. فأعتبر ذلك علامـةً طيبة —فيبدو أنَّ فلسـفتي قد أتت أُكلها!—

ولكن نظرة عينيها تخبرني أنّها لم تقتنع بالأمر.

«إذن، يمكنني أن أكون أيّ شيء، بمجرد أن أختار؟»

«صحيح».

«ومـاذا لو أردت أن أكون دجاجة؟ لا يمكنني أن أصبح دجاجة لمجرد أني اخـترت ذلـك. بوسـعي أن أرقد على البيـض طوال اليـوم، وأن أنقنق كالدجاج، ولكني لن أصبح دجاجة. فهل ترى ريشًا ينبت على جلدي؟»

«آه، كلا، ولكـن ذلـك لأن كونكِ دجاجـة ليس جزءًا مـن ‹واقعيتك› (facticity)»

«واقعيتي؟»

« ‹الواقعيـة› مصطلحٌ وجودي آخر، يشـير إلى تلـك العناصر في حياتنا التـي لم نخترهـا. فأنتِ لم تختـاري أن تولدي في هذا البلد، في هـذا الزّمان، لهذين الأبوين. لا سـلطان لك على ‹واقعيتك› هذه. ولكن الخبر السّار هو أنّه بوسعك أن تتجاوزيها، وتسمي فوق ‹واقعيتك›، وفوق نفسك أيضًا».

«واقعيـة؟ أبهذا تهذي يا رجل؟ إنَّ ‹سـيمون دي بوفـوار› هذه مبالغٌ في تقديرها. ماذا عن شكسبير؟»

«وما شأنه؟»

«لقـد اخـترع عـددًا هائـلًا مـن الكلـمات. كمثـل كلمـة ‹مقلـة العين› (eyeball) وكلمة ‹رائع› (awesome). فما كان بوسـعك أن تقول: ‹يا لها من مقلة عينٍ رائعة يا صاح›، لولا شكسبير. تأمل في ذلك».

«في قولكِ وجهة نظر».

«أرأيت؟ بوسعي أن أكون ‹سيمون دي بوفوار› القادمة».

«بوسعكِ ذلك. ولكنكِ ستحتاجين إلى بعض المصطلحات الفلسفية. فكلُّ الفلاسفة الحقيقيين لديهم مصطلحاتهم. دعينا نرى. ما رأيك في ‹الرَّوْعِيَّة› (awesome-icity)؟»

«وماذا تعني؟»

«حسنًا، آه، إنَّها حالة كون المرء رائعًا. هي فكرة أنَّ في كلِّ إنسانٍ قليلًا من الروعة».

«وهل يملك بعض النَّاس من الرَّوعة أكثر مما يملكه آخرون؟»

«كلا. ولكن بعض النَّاس أقدر على التناغم مع ما فيهم من روعة من غيرهم. وحين تستحضرين مخزونك من الرَّوعة، فإنَّ ذلك يُعرف بـ‹الرَّوْعِيَّة›».

تصمت «سونيا»، ولا تدير عينيها. إنَّه لثناءٌ رفيع.

وبينما نحن نسير، وقد بدأت خيوط الشَّمس تخترق الغيوم، أدرك فجأةً أنَّنا كنا نمارس الفلسفة للتو؛ لا نقرأها أو ندرسها، بل نمارسها فعلًا. لقد تصارعنا بصوتٍ مسموع مع جانبٍ مهم من إنسانيتنا المشتركة — ألا وهو تجربة الرَّوعة— وابتكرنا مصطلحًا لننير به هذا الجانب. وأعلم أنَّ «الرَّوْعِيَّة» لا ترقى إلى مصاف «نظرية المُثُل» لأفلاطون أو «الواجب المطلق» لكانط، ولكنَّها بداية. ومن يدري إلى أين قد تفضي بنا؟

وأخيرًا، نبلغ جسر «سيمون دي بوفوار». إنَّه، في ظنّي، لجسرٌ فلسفيٌّ

إلى أقصى حد. تدخله من واحدٍ من ثلاثة مسارات، ثم بعد أن تعبر نهر السّين، تخرج منه عبر واحدٍ من ثلاثة مسارات أخرى. ولست مضطرًا لأن تدخل وتخرج من نفس المستوى؛ فبوسعك أن تغير مستواك في أيّ حين.

وأعود لأتفلسف على ابنتي، فأشرح لها كيف أنَّ الحياة، شأنها شأن هذا الجسر، تتألف من سلسلةٍ من الخيارات التي لا تنتهي. فنحن نختار اتجاهًا، ولكنَّنا نظلُّ أحرارًا في تغيير مسارنا في أيّ وقت. ونحن لا نتوقف أبدًا عن اختيار مساراتنا، وعن خلق ماهيتنا، والادعاء بغير ذلك تخلٍّ عن حريتنا وإرادتنا. إنَّ هذا الجسر هو الوجودية مجسدةً في الفولاذ.

«أبي؟»

«نعم».

«هل تعرف ما هو الحمل الكاذب؟»

«ممم، لا»، أجيبها، ولست أدري إلى أين ترمي بسؤالها هذا.

«إنَّه حين تظهر عليك كل الأعراض الجسدية للحمل، ولكنك في الحقيقة لست بحامل. كل ما في الأمر أنَّك قد أقنعت نفسك بذلك».

«هذا مثير للاهتمام يا سونيا، ولكنّي لا أرى ما علاقة ذلك بـ—»

«أنت تعاني من «فكرةٍ هيستيرية». تظنّ أن هذا الجسر البديع استعارةٌ لفكرةٍ كبرى، ولكنّي على يقينٍ تام أنّه ليس إلا مجرد جسرٍ بديع المنظر».

إنَّ الفلاسفة ميّالون إلى الشّطط في أفكارهم. ففي سعيهم الحثيث نحو العمق، يخاطرون بالوقوع في «هلوسةٍ فكرية»؛ فأحيانًا لا يكون الضوء المتلألئ في الأفق واحةً، بل مجرد خدعةٍ من عين العقل، وأحيانًا يكون

أبسـط التّفاسـير هو أفضلها. ولهذا السبب كان سـقراط يؤمن بأنَّ الفلسفة تُمـارَس عـلى أفضل نحـوٍ في ثنائيـات. إنَّـه «نظـام الرفيق». فأنـتَ بحاجةٍ إلى شـخصٍ آخـر، إلى عقـلٍ آخر، ليبقيك عـلى الدرب القويم. سـونيا هي سـقراطي الخاص؛ فهي التي تشـكك في مسلّماتي، وهي التي تزرع في نفسي بذور الشّك.

***

إنَّ سـيمون دي بوفـوار، عاشـقة المقاهي، قد وُلدت فـوق مقهى. فقد كانت شقة أسرتها ذات شرفةٍ تطل على مقهى «لا روتوند» بالضفة اليسرى مـن باريس. وذات يوم، وحـين كان والداها غائبين، أقنعت بوفوار أختها الصغـرى بأن تتسـللا نـزولًا إلى المقهـى لتنـاول «الكافيه كريـم». وتتذكر أختهـا هيلين تلـك الواقعة فتقول: «يا لها من جرأةٍ مـا بعدها جرأة! ويا لها من جسارة!».

لقـد كانـت بوفـوار، باعترافهـا هي نفسـها، «فتـاةً صغيرة متسـلطة»، وفضوليةً كذلك. فكانت تلتهم الكتب التهامًا بكل أنواعها، ولكنها كانت مغرمـةً عـلى وجه الخصـوص بحكايات الأسـفار والرحـلات، تلك التي أوقدت في نفسها جمرة حب التّرحال التي لازمتها طوال حياتها. ثم في يومٍ مـن الأيّام، اقـترح عليها أحد معلميها أن تدرس الفلسـفة، فكان ذلك هو قدرها؛ فوقعت في حبها على الفور، ولم تنفك عنها أبدًا.

وفي سـنٍ مبكرة، وقبل أن تصبح فيلسـوفةً وجودية، بل وقبل أن يوجد المصطلح نفسـه، قالت بوفوار: «إنَّ حياتي سـتكون قصةً جميلة تتحقق على أرض الواقـع، قصةً أؤلف فصولها بنفسي وأنا أسـير في دروبها». وهذا هو

جوهـر الفلسـفة الوجودية. فلا نـصَّ مكتوبًا نسـير عليـه، ولا توجيهاتٍ مسرحيـة نتبعهـا. فنحن مؤلفو قصـة حياتنـا، ومخرجوها، وأبطالهـا في آنٍ واحد.

اجتازت بوفوار امتحان «الأجريجاسـيون» المرموق في الفلسـفة، وهي في الحاديـة والعشريـن مـن عمرها، فكانـت بذلك أصغر مـن اجتازه قط، وقد حلّت في المرتبة الثانية، بعد سـارتر. ولفـرط جديتها ودأبها في العمل، وخلوها من روح الدّعابة، أطلق عليها أحد زملائها لقب «كاسـتور»، أيّ القندس. فالتصق بها اللقب، وحملته كأنَّه وسام شرف. ويقول كاتبو سيرتها الفرنسـيون إنَّ كلمة العمل «كان لها في نفسها وقع السحر، ورنينٌ ذو بريقٍ خاص، ونبرةٌ فريدة. لقد كانت كلمة السر التي عبرت بها إلى الحياة».

فلطالما كانت بوفوار عاكفةً على عملٍ ما، بل وكثيرًا ما كانت تعمل على عـدة أمورٍ في آنٍ واحد. فحين تعرضت لحادث سـيارةٍ خطير، ظلَّت تعمل وهي في فترة النَّقاهة بالمستشفى. وأثناء مرض سارتر الطَّويل، كانت تعمل عـلى كتابها عن الشّـيخوخة. وقد قالـت: «إنَّ درعي الـذي أتقي به شرور الحياة هو العمل. فلا يكاد يمنعني عن العمل شيء».

***

إنَّ الفلسـفة، كما أسـلفت، قد أهملت في الأغلب موضوع الشّيخوخة، إلا في اسـتثناءٍ واحدٍ بارز، وهو: «شـيشرون». فقد كان في الثّانية والسّتين مـن عمـره، يكابد آلامًـا مبرحة، حين كتـب مقالته المُحكمـة المتفائلة «عن الشّيخوخة».

«الـكل يأمـل أن يبلـغ الشّـيخوخة، ولكـن مـا إن يبلغها، حتـى يتذمر

معظمنا منها»، هكذا يقول. «ولِمَ ذلك؟ فالشّيخوخة ليست بذلك السّوء. فالتقدّم في السّن يزيد أصواتنا عذوبةً، وأحاديثنا متعة». ثم يخلص إلى القول: «فما في الحياة من رضا يفوق ذلك الذي نجده في شيخوخةٍ هانئةٍ مكرسةٍ للعلم والتّعلم».

«هراء!»، هكذا تقول بوفوار. فلم يكن لديها أيّ صبرٍ على تقييم «شيشرون» المبهج ذاك. بل كانت عازمةً على أن تحدق في وجه الشّيخوخة مباشرةً، دون أن يطرف لها جفن. وكانت النّتيجة كتاب «الشّيخوخة» (The Coming of Age)، وهو مجلدٌ ضخم من 585 صفحة، قراءته شاقةٌ وعسيرة. وهاك عينةً منه:

«مستقبلٌ محدود، وماضٍ قد تجمّد: تلك هي الحال التي يتوجب على الشّيوخ مواجهتها. وفي كثيرٍ من الأحيان، تشلّهم هذه الحال شللًا. فكل خططهم إمّا أنّها قد نُفذت أو قد تُركت، وقد أُغلقت الحياة على نفسها من حولهم؛ فلم يعد هناك ما يستدعي وجودهم، ولم يعد لديهم أيّ شيءٍ على الإطلاق ليفعلوه».

بل إنَّ الأمر يزداد سوءًا. فالشّيوخ، على حد قولها، «جثثٌ تمشي على قدمين... محكومٌ عليها بالفقر، والوهن، والبؤس، والقنوط». وتستعين بوفوار بعلم الأنثروبولوجيا لدعم قضيتها القاتمة، فتشير إلى أنَّ لدى شعب «الناميبيكوارا» كلمةً واحدة تعني «شاب وجميل»، وأخرى تعني «عجوز وقبيح». والتاريخ أيضًا في صفها؛ فما فتئ الشّيوخ يتعرضون للسخرية منذ الأزل، على أيدي من هم أصغر منهم سنًا.

ولنخض تجربةً فكرية: تخيل امرأةً نشأت على جزيرةٍ مقفرة، وحيدةً كلّ

الوحدة. فهل تشيخ؟ ستظهر عليها التّجاعيد، ولا بد أن تصيبها الأمراض. وستتباطأ حركتها. ولكن هل هذه هي الشّيخوخة؟ لم تظن بوفوار ذلك. فالشّيخوخة عندها كانت أمرًا ثقافيًا، حكمًا اجتماعيًا يصدره الآخرون. فإذا غابت هيئة المحلفين، غاب الحكم. فتلك الفتاة على الجزيرة ستعاني من «الهرم» (senescence)، أيّ التدهور البيولوجي، ولكنّها لن «تشيخ».

ولا شكَّ أنَّ رسالة بوفوار القاتمة عن الشّيخوخة قد تأثرت بظروفها الخاصة. فقد كتبت الكتاب وهي في السّتين من عمرها، حين بدأت صحتها، التي كانت حتى ذلك الحين «ممتازةً على نحوٍ محرج»، في التّدهور والضّعف. فأصبحت خطواتها أبطأ، وأخذ نفسها يضيق. وكانت تسخر كلما ذكر أحدهم «سنوات العمر الذّهبية». لقد كانت عازمةً على أن تكتب عن الشّيخوخة «دون تجميلٍ أو تزيين».

لقد وقعت بوفوار، في ظنّي، في فخٍ معرفي، وهو صورةٌ من صور «مقصلة هيوم». ليست مشكلة «الكائن» و«الواجب»، بل ما أسميه مشكلة «القَدْ» و«الجَبْر». فكوني «قد» أكشف عن مؤخرتي في العلن مثل روسو، لا يعني أنَّه «يجب» عليَّ ذلك. وكون الشّيوخ «قد» ينزلقون إلى اليأس، لا يعني أنَّه «يجب» عليهم ذلك. فأمامهم خيارات، وهو أمرٌ كنت لتظنَّ أنَّ فيلسوفةً وجودية مثل بوفوار تدركه.

ولا عجب أن يرفض فلاسفةٌ معاصرون مثل مارثا نوسباوم هذه الحتمية القاتمة عند بوفوار. فتكتب في كتابها هي الأخرى عن الشّيخوخة: «لا أجد في كلامها أيّ صدى لتجربتي الشخصية، ولا لتجربة أصدقائي ممن هم في مثل عمري».

أظـنُّ أنَّ بوفـوار قـد بالغـت في ردِّ فعلها عـلى تفاؤل شـيشرون المشرق. فاستبدلت بعدساته الوردية نظارةً شمسيةً حالكة السّواد. نعم، لقد حمتها من الأشـعة الضَّارة، ولكنها حجبت عنها النّور أيضًا. وهناك نور. فالشّيخوخة لا يجـب أن تكـون ذلـك الموت البطـيء الكئيب الـذي صورته بوفـوار. بل يمكنها أن تكون زمنًا للبهجة الغامرة والعطاء الإبداعي الخصب. وخير من يستطيع أن يقدم هذه الحجة؟ سيمون دي بوفوار نفسها.

***

ذات مسـاء، ونحـن نتنـاول وجبـة «لـو ناجتـس»، فاتحـتُ سـونيا في الموضوع. وإنَّ الحديث مع فتاةٍ في الثالثة عشرة من عمرها عن الشّيخوخة، لهو أشبه بالحديث مع حورية بحرٍ عن تسلق الجبال.

«ليـس هذا من شـأني»، هكـذا تقول، كأنّما الشّـيخوخة أمـرٌ اختياري، كلعـب «الباتشـينكو» أو حضـور عـرض باليـه؛ شيءٌ قـد تفعلـه إن وافق مزاجها، ولكنَّها لا تتخيل أن يوافق مزاجها على ذلك أبدًا.

فأذكّر سونيا بأنّها هي الأخرى تتقدم في العمر، تمامًا مثلي.

«أجل، ولكنك تشيخ شيخوخة السّوء، وأنا أشيخ شيخوخة الخير».

«شيخوخة الخير؟»

«نعم، فقريبًا سأتمكن من دخول المدرسة الثانوية، ومن قيادة السّيارة».

«إذًا، ما هو الفرق تحديدًا بين شيخوخة الخير وشيخوخة السّوء؟»

«شيخوخة الخير هي اقترابٌ من الحرية. وشيخوخة السّوء هي اقترابٌ من الموت».

فأسـلك معهـا دربًـا آخر من الأسـئلة. وأشرح لها أنّي أحـاول أن أجد جانبًا مشرقًا في الشّيخوخة. فلا بدَّ أنَّ هناك جانبًا مشرقًا، أليس كذلك؟

تقول: «كلا، في الحقيقة لا يوجد».

«ماذا عن المعرفة؟ فالشّيوخ يعرفون ما لا يعرفه غيرهم».

«ليـس بالـضّرورة. بل إنَّ الشّـباب يعرفون أكثر، فلهم معرفة الشّـيوخ مضافةً إلى المعرفة الجديدة».

فأغير دفة الحديث من جديد: «وماذا عن الذكريات؟ فالشّـيوخ لديهم من الذّكريات أكثر من الشّباب. فالأمر أشبه بأن يكون لديك مجموعة أكبر من أفلام ‹نتفليكس› لتختار منها. لا بدَّ أنَّ في هذا خيرًا».

«ليست كل الأفلام جديرة بالمشاهدة، أيُّها العجوز». ثم، وكأنَّها أحست بيأسي، ألقت إليَّ بطوق نجاة.

«أرى أنـك في صراع»، تقول. «فأنـت تكتب عن كيفية التقدّم في العمر برشـاقة، ولكنـك لا تـدري كيف. فلـمَ لا تقلـب الأمر رأسًـا على عقب، وتكتب فصلًا مختلفًا: كيف لا تشيخ؟ لا بجسدك، بل بعقلك».

«ليـس الأمـر بالهـين»، هكذا تقرُّ. «فحين يرتـدي الشّـباب سراويل ذات مربعات أو يسـتمعون إلى أسـطوانات الفينيل، يُقال: إنَّ ذلك ‹ريترو› أو عودة إلى القديم، ولكن إن ارتدى شيخٌ ملابس مراهق، قيل إنَّ ذلك ‹مثير للشفقة›.»

فأسـأل: «إذن، إن كانت الشّـيخوخة أمرًا بائسًـا، والمجتمع لن يدعني أتـصرف كشـاب، على الأقـل دون أن أكـون موضع سـخريةٍ لاذعة، فأين يتركني كلّ هذا؟».

«هذا يتركك عند مرتبة القبول».

«القبول؟»

«أجل، عليك أن تكتب شيئًا بعنوان ‹كيف تتقبل شيخوختك›، أو أي هراءٍ آخر من هذا القبيل».

لعلَّ عند هذه الفتاة شيئًا من الحكمة.

«إذن، كيف للمرء أن يتقبل شيخوخته؟ وبماذا تنصحين؟»

«ما عليك إلا أن تساير التيار، وألا تعكر صفو موجات دماغك».

«موجات الدماغ؟»

«أقصدها على سبيل المجاز، أيُّها العجوز، على سبيل المجاز. فإذا كان دماغك يقول لك: ‹اسمع يا صاح، لقد شخنا. فلنهدأ قليلًا›، فعليك أن تهدأ».

إنَّ ما تقترحه سونيا لهو قولٌ رواقيٌّ في صميمه. فإذا كان جوهر الحكمة، كما يؤمن الرّواقيون، هو التّمييز بين ما يقع في قدرتنا وما هو خارج عنها، فنغير ما نستطيع تغييره، ونسلّم بما لا نستطيعه، فإنَّ الشّيخوخة إذن لهي ميدان تدريبٍ ممتاز على الحكمة الرّواقية. فكلما تقدّم بنا العمر، مالت كفة الميزان من «السيطرة» إلى «القبول». والقبول ليس هو الاستسلام؛ فالاستسلام ليس إلا مقاومةً تتخفى في ثوب القبول. وإنَّ التّظاهر بالقبول كالتَّظاهر بالحب.

«القبول» كلمةٌ قلما تجدها في كتابات بوفوار. فقد كانت «القندسة» مستغرقةً كلّ الاستغراق في الاختيار، والصيرورة، والعمل على مشاريعها،

حتى إنَّه نادرًا ما كان لديها وقتٌ لتكون «كائنةً» وحسب. ولكن للمشاريع صورٌ شتى؛ فأحيانًا تتطلب دأبًا كدأب القندس، ولكن ليس دائمًا. فتعلُّم القبول —لا الاستسلام، بل القبول الحقيقي بصدرٍ رحب وقلبٍ منفتح— هو في حد ذاته مشروع، ولعلَّه أهم المشاريع كلّها.

***

ها أنا ذا في «مقهى دي فلور» بالضّفة اليسرى من باريس. وقد ساقني إلى هنا سببان وجيهان: أولهما أنّي قد سئمت «ماكدونالدز» ومللته، فلم أعد أطيقه. (وقد تركت سونيا لشأنها ولقطع الدجاج خاصتها في الفندق). وثانيهما أنَّ هذا المقهى كان من أحب المقاهي إلى قلب بوفوار وسارتر. فهنا كانا يتحادثان، ويشربان، ويفكران.

بل وهنا أيضًا كتبا كتبهما؛ في البدء لأنَّ المقهى، على عكس شققهما في فترة ما بعد الحرب، كان به تدفئة، ثم لاحقًا لأنّهما، ببساطة، كانا يهويان الكتابة في المقاهي. فالوجودية فلسفةٌ ضاربةٌ بجذورها في «التَّجربة المعاشة»، وليس هناك مكانٌ تكون فيه التجربة أكثر حياةً وحضورًا من مقهى باريسي. فلا يمكنك أن تطلب مختبرًا أفضل لدراسة النَّقائص البشرية والإمكانيات الكامنة فيها. لقد كان ذلك هو الحال في زمن بوفوار، ولا يزال كذلك اليوم. فنظرةٌ واحدةٌ على رواد المقهى تكشف لك عن الحياة في كلِّ تجلياتها: فهناك ذلك العاشقان الشابان يذوبان هيامًا على فنجاني إسبريسو؛ وهناك أولئك الشّيوخ المنهمكون في مبارزاتٍ فكرية؛ وتلك السيدة الأنيقة، وحيدةً مع كأس الشاردونيه وأفكارها.

ولا بدَّ أنَّ حياة المقهى قد تسربت إلى فلسفة بوفوار وسارتر. تأمل في

شأن النَّادل، هكذا يقول سارتر في مقطعٍ له عن أهمية «الأصالة».

«فالنادل ليس نادلًا بنفس الطريقة التي يكون بها الكأس كأسًا، أو القلم قلمًا. فليس في طبيعته ما يجعله نادلًا. فهو لم يستيقظ ذات صباحٍ ويقل: ‹أنا نادلٌ في مقهى›. بل هو من اختار هذه الحياة، وهو يخضع طواعيةً لأعرافها وتقاليدها. فهو ليس مضطرًا لأن يستيقظ في الخامسة فجر كل يوم. بوسعه أن يظلَّ في فراشه، حتى وإن كان ذلك يعني طرده. وإنَّ رؤيته لعمله على أنَّه أيُّ شيءٍ آخر غير كونه خيارًا، لهو خداعٌ للنفس؛ وفعلٌ من أفعال ‹سوء النّية›.»

ويراقب سارتر النَّادل عن كثب. إنَّه نادلٌ جيد، بل جيدٌ أكثر مما ينبغي، أو «مبالغٌ فيه» قليلًا كما قد تقول ابنتي. فيقول سارتر: «إنَّ حركته سريعةٌ مندفعَة إلى الأمام، فيها دقةٌ زائدة، وسرعةٌ زائدة. ينحني إلى الأمام بحماسٍ أشد من اللازم؛ وصوته وعيناه تعبران عن اهتمامٍ مفرطٍ في التودد بطلب الزّبون». ويخلص سارتر إلى أنَّه ليس نادلًا في مقهى، بل هو «يمثل» دور نادلٍ في مقهى.

إنَّ الكثيرين منا يسيرون في حياتهم هكذا، كمن يسير وهو نائم؛ فنخلط بين أدوارنا الاجتماعية وجوهرنا الحقيقي. و«يستحوذ علينا الآخرون»، على حدِّ تعبير «سارتر»، فلا نعود نرى أنفسنا إلا بأعينهم. وهكذا نتنازل عن حريتنا، ونفتقر إلى «الأصالة» (وهي كلمة مشتقة من اللفظ اليوناني ‹authentes›، الذي يعني «من يتصرف باستقلالية»).

وهذا التَّنازل عن الذَّات، في ظنّي، يصدق أشدَّ الصدق على كبار السّن. فالآخرون يرونهم عاجزين، لا شأن لهم، وما يلبثون هم أن يروا أنفسهم

بهذه العين أيضًا، فيأخذون في «تمثيل» دور الشّيخ. فتراهم يطلبون وجبات العشاء المبكرة المخفضة، ويذهبون في رحلاتٍ بحرية إلى الكاريبي، ويقودون سياراتهم لأميالٍ وإشارة الانعطاف إلى اليسار تعمل، لا لشيءٍ، إلا لأن هذا ما يُفترض بالشّيوخ أن يفعلوه. «ولكن مهلًا»، هكذا يقول سارتر. «فهل أنت حقًّا تحب وجبة العشاء المبكرة تلك؟ وهل هو خيارٌ اتخذته عن وعيٍ وقصد، أم أنّه مجرد دورٍ انزلقت إليه دون أن تشعر؟».

ولكن لا يجب أن يكون الأمر على هذا النّحو. تأمل في شأن التّقاعد؛ فبعد عمرٍ قضيناه ونحن نمثل دورًا معينًا —مصرفيًا كان، أم صحفيًا، أم نادلًا— نجد أنفسنا فجأةً مجردين من هذه الهوية. فمن نكون حينذاك؟ لعلنا، شأننا شأن إيفان إيليتش في رواية «تولستوي» القصيرة، نصل إلى حقيقة أنَّ حياتنا كانت كذبة؛ والأدهى من ذلك، أنّها كذبةٌ نحن من رويناها لأنفسنا. ففي مواجهة فنائنا المحتوم، نصبح أشدَّ استعدادًا لنطرح أدوارنا جانبًا، تمامًا كممثلٍ يخلع عن نفسه شخصية الدور ما إن يسدل الستار. ولعلّنا، مثل إيفان، نختبر لحظة تحررٍ خاطفة، حتى وإن جاءت بعد فوات الأوان.

***

أقرر أن أعيد قراءة كتاب بوفوار «الشّيخوخة». فلعلّه ليس بذلك القتامة التي تُخيّل إليَّ. وفي هذه المرة، أضع علامةً على الفقرات إمّا بحرف «ب» دلالةً على البؤس، أو بحرف «أ» دلالةً على الأمل، أيّ بصيص الأمل. وبعد أن أنتهي، أراجع علاماتي، فأجد أنَّ علامات «البؤس» تفوق علامات «الأمل» بفارقٍ شاسع. إذن، حُسم الأمر، أليس كذلك؟

مهـلًا، ليس بهـذه السّرعة. فأنا كائـنٌ حرٌ أصيل، أتصرف بحسـن نية. وبوسـعي أن أختار ما أركّز عليه. بل لا أملك إلا أن أختار. لذا، أختار أن أركّز على بصيص الأمل.

وهذه الفقرات، حين أجمعها معًا، تشكل كتابًا أقصر بكثير، ولكنّه أبهج روحًـا بما لا يقاس. كما أني قرأت مذكرات بوفوار بأجزائها الأربعة، وعدة مؤلفات كُتبت عنها.

وما اكتشـفته كان قصةً داخل قصة، أشبه بتلك الرّسائل المكتوبة بالحبر السّري، لا تتجلى حروفهـا إلا حين تسـلط عليهـا ضوءًا خاصًـا. وحين سلطت هذا الضّوء على حياة بوفوار، رأيت امرأةً شاخت شيخوخةً حسنةً للغايـة. فقد تلاشـى خوفها من الشّـيخوخة، وحل محله قبـولٌ هادئ، بل وبهجةٌ أحيانًا.

بوفـوار، بذلـك الكبريـاء الـذي عُرفت بـه كمثقفةٍ فرنسـية، مـا كانت لتتنازل يومًا وتجمع قائمةً بعنوان «أفضل عشر طرق للشـيخوخة». أمّا أنا، فلست بفخورٍ ولا بفرنسي، فلا أجد في نفسي أي حرجٍ من ذلك.

1: تملَّكْ ماضيك

مـاذا عسـانا نفعـل بماضينـا؟ إنّه لسـؤالٌ شـائك يواجه النّـاس في كل الأعمار، ولكنّه أشـدُّ إلحاحًا على كبار السّـن؛ فماضيهـم أطول من ماضينا. فحيثما التفتـوا، ارتطمـوا بماضيهـم، وتعثروا به. إنّه يشـغل حيـزًا ثمينًا في خزائـن أرواحهم. وقـد تراودهم أنفسـهم أن يتخلصوا مـن ماضيهم، أو يتبرعوا به للجمعيات الخيرية. وذلك خطأٌ فادح. فالماضي ثمين، وله قيمته من وجهين متمايزين: وجهٌ علاجي، ووجهٌ إبداعي.

«إنَّ في التذكر ضربًا من السّحر، سحرٌ يشعر به المرء في كل طورٍ من أطوار عمره»، هكذا تقول بوفوار. وهذا السّحر يضرب بجذوره في الماضي، ولكنَّه يزهر في الحاضر. فنحن دائمًا ما نعيش ماضينا، مهما نأى ببعده، في اللَّحظة الرَّاهنة.

فماضينا هو الذي يبث الرُّوح في حاضرنا. ولم تكن بوفوار لتتصور حياةً حاضرة دون ماضٍ ثريّ. وقد قالت: «لو أنَّ العالم الذي خلفنا كان قفرًا جرداء، لما كدنا نرى أمامنا إلا صحراء موحشة كئيبة».

فالتذكر ليس إعادة عرض؛ فالذاكرة تنتقي ما تحفظه. وهي لا تقتضي الحفظ فحسب، بل تقتضي النّسيان أيضًا، خشية أن نلقى مصير فونيس البائس، تلك الشَّخصية في قصة بورخيس التي، بعد أن سقطت من على حصان، أصبحت تتذكر كلَّ شيءٍ بأدق تفاصيله، فذاقت من العذاب ألوانًا.

ويذكرنا الوجوديون بأنَّنا أحرارٌ في اختيار أيّ الذكريات نوقظها ونستدعيها. فلِمَ لا نستدعي الذكريات الطّيبة؟ ولِمَ لا نكون كقدماء الإغريق، الذين كانت لغتهم تزخر بالكلمات التي تعبر عن بهجة الماضي المستعاد، ولكنَّها تفتقر إلى ما يقابلها من مرادفاتٍ سلبية، كالشّعور بالذّنب والنّدم؟

وهناك ضربٌ آخر من التّذكر، ضربٌ أكثر إبداعًا، أسميه «الخلاصة الكبرى». فالشّيوخ، وهم واقفون على قمة الحياة أو قريبا منها، يستطيعون أن يروا ما هو أبعد. فيميزون ملامح خفيةً في ماضيهم، ومنحنيات سرديةً استعصت على فهمهم وهم شباب، ويرون حياتهم ككلٍ متكامل. كما أنَّهم

يبدأون في ملاحظة المصادفات الخيّرة؛ تلك التي تسميها «بوفوار» «نقطة التقاء خطوطٍ كثيرة متقاربة».

وحين أشرع في تتبع المنحنى السَّردي لحياتي، ألاحظ أنا الآخر مصادفاتٍ سعيدة. ذلك الصَّديق الجديد الذي ظهر حين كانت الحاجة إليه أشدّ ما تكون. وتلك الوظيفة الحلم التي لاحت في الأفق في اللحظة المناسبة تمامًا، والطّرد الذي تلاها من تلك الوظيفة ذاتها، التي لم تكن حالمةً إلى ذلك الحد بعد كل شيء. فتخطر ببالي كلمات مؤلفٍ موسيقي آيسلندي يُدعى هيلمار قالها لي ذات مرَّة: «لقد قابلت كل من كنت بحاجةٍ إلى أن أقابلهم، في الوقت الذي كنت بحاجةٍ فيه إلى أن أقابلهم». إنَّها لملاحظةٌ تنم عن حكمة، حكمةٌ لا يبلغها إلا من عاش زمنًا.

ففي «الخلاصة الكبرى»، نحن لا نتتبع مسارنا السّردي فحسب، بل إنَّنا نشيّده ونبنيه، ذاكرةً تلو الأخرى. وتصف «بوفوار» هذه العملية بعباراتٍ حسية، مستخدمةً لغة الحرفي الماهر: «إنَّ همي الآن منصبٌّ على استعادة حياتي، بإحياء الذِّكريات المنسية، وإعادة القراءة، وإعادة النَّظر، واستكمال المعارف النَّاقصة، وسدِّ الثَّغرات، وتوضيح ما هو غامض، وجمع ما تشتت من عناصر».

ولكن الإفراط في التَّذكر ليس بالأمر الجيد. فنحن نخاطر بأن نظلَّ مكبلين بقيود ذواتنا الماضية: البطل الجندي إلى الأبد، أو الشَّابة الجميلة إلى الأبد. وهذا النّوع من الماضي ماضٍ متجمد، والماضي المتجمد ماضٍ ميت.

وهناك خطرٌ آخر للتذكر —وهو خطرٌ وقعت فيه بوفوار نفسها حينًا من الدَّهر— ألا وهو «فخ ماذا لو». فحين تنظر إلى الوراء، تجدها تتأمل في

خيـاراتٍ لم تُتخذ، ودروبٍ لم تُسـلك. ماذا لـو أنَّها وُلدت في عصرٍ مختلف، أو لأسرةٍ مختلفة؟ لربما أصابها المرض ولم تكمل دراستها قط. ولربما لم تلتقِ بسـارتر أبدًا. ولكنَّها تدرك في نهايـة المطاف أنَّ مثل هذه الأفكار لا تفضي إلى شيء. فتتخلى عنها وتتركها تذهب. فتقول: «إني راضيةٌ عن قدري، ولا أود أن يتغير على أي نحوٍ كان»، فتجيب بذلك على شيطان نيتشه بـ«فلنعِد الكرة من جديد! Da capo» مدوية.

2: اتخذْ أصدقاء

تؤكد الأبحاث الحديثة ما أشـار إليه أبيقور قبل ألفي عام: أنَّ الصَّداقة هي ينبوعٌ من أعظم ينابيع السَّـعادة. وأنَّ جودة علاقاتنا هي أهم متغيرٍ في معادلـة السَّـعادة. وقد أدركـت بوفوار ذلك بفطرتهـا، فكتبت في مذكراتها التـي بعنوان «كلُّ شيء قيل وفُعـل» (All Said and Done): «إنَّ علاقاتي بالآخرين —مودتي، صداقاتي— لتحتل المكانة الأهم في حياتي».

للأصدقـاء أهميتهـم وأنت شـاب، ولكـن أهميتهم تزداد وأنت شـيخ. ففضلًا عن المنافع المعتادة —كالاهتمامات المشتركة، وكتفٍ تبكي عليها— فـإنَّ الأصدقاء هم حلقة الوصل بين ذاتك الحاضرة وذاتك الماضية. ولهذا السَّبب يكون فقدان صديقٍ في الكبر مؤلمًا ألمًا خاصًا؛ فأنت لا تفقد صديقًا فحسب، بل تفقد معه قطعةً من ماضيك أيضًا. قطعةً من نفسك.

لقد كانت صداقة بوفوار بـسارتر، التي امتدت لنصف قرنٍ من الزَّمان، هـي الأهم في حياتها، ولكـن صداقةً أخرى، بـدأت في مرحلةٍ متأخرة من عمرها، جاءت في المرتبة الثَّانية بعدها مباشرة.

لقد كانت بوفوار تضنُّ بوقتها ضنًا شـديدًا، ولكنَّها كانت تضعف أمام

توسلات الطّلاب. لذا، حين وصلتها رسالةٌ من فتاةٍ تُدعى سيلفي لو بون، وهي طالبة فلسفةٍ في السَّابعة عشرة من عمرها قادمة من بريتاني، وافقت بوفوار على مقابلتها دون تردد.

وقد نشأ بينهما ألفةٌ فورية، وسرعان ما غدتا صديقتين لا تفترقان. فكانتا تلتقيان كلَّ يومٍ تقريبًا؛ تقرآن الكتب ذاتها، وتشاهدان العروض ذاتها، وفي عطلات نهاية الأسبوع، تنطلقان في رحلاتٍ طويلة بالسَّيارة في الرّيف الفرنسي. وكانتا تملكان اشتراكاتٍ موسمية في الأوبرا، وتسافران معًا في إجازاتهما إلى أوروبا وغيرها من الأصقاع.

وقد أحست بوفوار أنَّ هذه الصَّداقة مع فتاةٍ تصغرها بأربعين عامًا قد جددت شبابها. فكتبت تقول: «إنَّ بيننا لتبادلًا يجعلني أفقد الإحساس بعمري: فهي تشدني إلى الأمام نحو مستقبلها، وتأتي أوقاتٌ يستعيد فيها الحاضر بُعدًا كان قد فقده». (وقد كانت بوفوار تنفر بشدة من أي تلميحٍ إلى أنَّ علاقتهما كانت علاقة حب. فكانت تقول: «نحن صديقتان مقربتان جدًا جدًا جدًا»).

فكانت سيلفي هي من يرفع معنوياتها حين تقع عينها على نقدٍ لاذع. وكانت هي من يعينها على أن تبحر في عالم الحركات النِّسوية الشَّابة. وكانت هي من ينتشلها من غياهب الاكتئاب بعد وفاة سارتر.

وقد ذهبت هي وسيلفي في رحلةٍ بحرية عبر مضايق النَّرويج، فعادت إلى الكتابة من جديد. تقول سيلفي: «بدا الأمر وكأنَّها قد طرحت كلَّ شيءٍ وراء ظهرها. فتحدثت عن علاقتنا، وقالت إنَّها قد أعادت إليها طعم الحياة، ووهبتها سببًا لتعيش. وقالت: ‹أنا لا أحيا من أجلكِ، ولكني أحيا

بفضلكِ، ومن خلالكِ». وتلك كانت طبيعة العلاقة التي جمعت بيننا».

3: كُفَّ عن الاكتراثِ لرأي الآخرين

يحدث أمرٌ عجيبٌ ورائع حين نتقدم في العمر؛ فلا نعود نكترث لرأي الآخرين فينا. أو لنقل بعبارةٍ أدق: ندركُ أنَّهم لم يكونوا يفكرون فينا أصلًا.

وهكذا كان شأن سيمون دي بوفوار. فقد ازدادت ثقةً بنفسها، وقبولًا لطباعها الفريدة. بل وازدادت تواضعًا أيضًا. لقد شهدت «لحظتها الكوبرنيكية» الخاصة بها، ففقدت ذلك «الوهم الطفولي بأنَّها تقف في مركز الكون».

وقد كان في ذلك راحةٌ عظيمة لها. فكلّ واحدٍ منا كوكب، ولسنا شموسًا. نحن نمتص الضّوء، ثم نعكسه. ولكننا لا نخلقه.

وهذا الضرب من «اللامبالاة» يعيننا على فهم كيف يمكن للشيخوخة أن تكون محررةً للفكر. «فبمفارقةٍ عجيبة»، هكذا تقول بوفوار، «كثيرًا ما تكون اللَّحظة ذاتها التي يشك فيها الشّيخ في قيمة عمله كلّه، هي اللَّحظة التي يصل به فيها إلى أسمى درجات الكمال». وقد صدق هذا القول على «رامبرانت»، و«مايكل أنجلو»، و«فيردي»، و«مونيه»، وغيرهم. فبعد أن تحرروا من السَّعي وراء ثناء الآخرين، أصبحوا أحرارًا في أن يشكوا في أعمالهم، ومن ثمَّ، على حد تعبير بوفوار، أن «يتجاوزوا ذواتهم».

ولننظر في مصير أحد آخر كتب بوفوار: مجموعةٌ قصصية بعنوان «المرأة المدمرة»، نُشرت في عيد ميلادها السّتين، فقوبلت بنقدٍ لاذعٍ من كلِّ حدبٍ وصوب. فقد نبذها النُّقاد بوصفها «التَّعبير المرير عن امرأةٍ عجوز لم يعد

أحـدٌ يريدهـا، لا في الحيـاة ولا في الأدب». ولكن بوفوار، غـير آبهةٍ بذلك كلّه، واصلت الكتابة.

4: لا تفقدْ شغفَ الفضول

إنَّ مشـكلة الشـيوخ ليسـت في أنّهم يتصرفون كشـباب، بـل في أنّهم لا يتصرفـون كشـبابٍ بالقدر الـكافي. فتراهـم يتصرفـون كأنّهم في السَّـابعة والعشريـن مـن عمرهـم، في حـين أنَّ الأجدر بهـم أن يقتدوا بمـن هـم في السَّـابعة. فالشّـيخوخة هي أوانُ تجديد الصلة بالفضول، أو خيرٌ من ذلك، بالدَّهشـة. فما الفيلسـوف في نهاية المطاف، إلا طفلٌ في السَّـابعة من عمره، ولكن بدماغٍ أكبر.

يقول ثورو: «ما من شـيخوخةٍ أشدّ من تلك التي تفقد فيها حماستك». وبوفـوار لم تفقـد حماسـتها قـط، ولم تتوقف يومًا عن التسـاؤل والدَّهشـة. فكانـت تتحدث عن السّـينما والأوبـرا حديث النَّاقد المحـترف. وتواظب على قراءة الصّحف وتناقش أحداث العالم بسلطة العارف وشغف المحب. وقد نما لديها اهتمامٌ جديد بالأمريكتين. وكانت تمقت «رونالد ريغان» مقتًا شديدًا. (فلا شيء يطرد شبح الهرم مثل كراهيةٍ صحيةٍ قوية). وكانت تلتقي بالباحثين والصحفيين، وتسـدي الخدمات، وتجالس الأصدقاء، وغالبًا ما تكون مرتديةً رداء حمامها الأحمر الشهير.

وعـادت تسـتهويها اهتماماتٌ كانت قـد هجرتها قبل عقدٍ مـن الزَّمان. ففـي الثَّانية والخمسـين مـن عمرها، زعمت أنَّهـا لم تعد تجد متعـةً في رؤية عـالمٍ «قد أُفرغ مـن عجائبه»، ولكنَّها بعد عقدٍ مـن ذلك، عادت من جديد إلى دروب السَّـفر، موقنةً أنَّ «السَّـفر هو أحد الأشـياء القليلة التي بوسعها

أن تعيد إلى حياتنا رونق الجدة والتَّجديد». وقد آمنت بصيغة الكاتب المسرحي «يوجين يونسكو» القائلة بأنَّ يومين في بلدٍ جديد، خيرٌ من ثلاثين يومًا في محيطٍ مألوف. فقد مكنها السَّفر من أن تظلَّ منفتحةً على العالم، متقبلةً لجماله. وعلى الطَّريق، وجدت سكينتها. فقالت: «إني أعيش في لحظةٍ تحتضن الأبديّة. وأنسى فيها وجودي».

5: اِتخذْ لنفسِكَ مشاريعَ تسعى إليها

لقد آمنت بوفوار بأنَّ الشّيخوخة ينبغي أن توقظ فينا جذوة الشَّغف، لا أن تطفئها في سلبيةٍ وخمول، وأنَّ هذا الشَّغف يجب أن يتجه إلى الخارج. فلتكن لك مشاريع، لا مجرد هواياتٍ لتمضية الوقت. فالمشاريع تمنح الحياة معنى. وكما تقول: «ليس هناك إلا حلٌ واحد كي لا تغدو الشّيخوخة محاكاةً سخيفة لحياتنا السَّابقة، وهذا الحل هو أن نواصل السعي وراء غاياتٍ تمنح وجودنا معنى؛ كتفانينا من أجل أفراد، أو جماعات، أو قضايا؛ وكالعمل الاجتماعي، أو السّياسي، أو الفكري، أو الإبداعي».

وقد كانت بوفوار في سبعينيات عمرها أشدّ نشاطًا في السّياسة مما كانت عليه في عشرينياته. فبعد عقودٍ من التَّردد، وضعت اسمها في خدمة قضايا كثيرة. فاحتجت على حروب فرنسا في الهند الصينية والجزائر، وعلى حرب أمريكا في فيتنام. وتدخلت لصالح المتمردين السجناء، والفنانين الذين فُرضت عليهم الرّقابة، والمستأجرين المطرودين من بيوتهم.

وكانت بذلك تسير على خُطى تقليدٍ عريق من نشاط الشّيوخ. ففولتير، الذي كان جريئًا كل الجرأة على الورق، لم يترجم تلك الجرأة إلى فعلٍ إلا في أواخر حياته. والفيلسوف البريطاني برتراند راسل، وهو في

التَّاسعة والثَّمانين من عمره، سُجن لسبعة أيام لمشاركته في مظاهرةٍ مناهضة للأسلحة النَّووية. (وقد عرض عليه القاضي أن يعفيه من السجن إنَّ هو وعد بحسن السّلوك، فأجاب: «كلا، لن أفعل»). وبنيامين سبوك، طبيب الأطفال الأمريكي الشَّهير، أُدين عام 1968 بتهمٍ تتعلق باحتجاجه على حرب فيتنام، وكان يبلغ من العمر ثمانين عامًا. وقد قال: «وفي مثل عمري هذا، فما الذي يدعوني إلى أن أخشى الاحتجاج العلني؟». وهذه إحدى مزايا الشّيخوخة: أنَّ ما تملك أن تعطيه كثير، وما تخشى أن تخسره قليل. وتقول بوفوار: «إنَّ رؤية شغفٍ ملتهب لا يعرف الخوف، في جسد شيخٍ واهن، لهو مشهدٌ يهز الوجدان».

6: كُنْ شاعرَ عاداتِك

إنَّنا ننظر إلى الشّيوخ على أنَّهم أسرى لعاداتهم، ونشفق عليهم من أجل ذلك. ولكن هل ينبغي لنا ذلك؟ لم ترَ بوفوار الأمر على هذا النحو؛ فالعادة ليست شرًا بالضرورة، بل إنَّ لها جمالها الخاص.

فنحن بحاجةٍ إلى العادات؛ فبدونها، تهدد حياتنا بالتَّشظي إلى مليون شظيةٍ فاقدةٍ للمعنى. إنَّ العادات هي التي تشدنا إلى هذا العالم، وإلى عالمنا الخاص. فالعادات نافعةٌ، شريطة أن نتذكر دائمًا لِمَ كونّاها في المقام الأول، وأن نسائل قيمتها بالنسبة لنا باستمرار. علينا أن نملك نحن زمام العادة، لا أن تملك هي زمامنا. وتضرب بوفوار لذلك مثل الرَّجل الذي يلعب الورق كل ظهيرة؛ فهو يختار بحريةٍ تامة أن يلعب في هذا المقهى، وفي هذا الوقت بالذات. فالعادة هنا لها معناها. ولكنَّه إن غضب يومًا ما لأنَّ طاولته الخاصة كانت مشغولة، فإنَّ العادة حينئذٍ تكون قد تدهورت لتصبح مطلبًا

«جامدًا لا حياة فيه»، مطلبًا يقيد حريته بدلًا من أن يوسع آفاقها.

فالعادة ليست أخدودًا ضيقًا تسير فيه، بل فكر فيها كوعاء أو كحقيبةٍ إن شئت. فالحقيبة تمكننا من أن نحمل فيها أجزاء حياتنا، وهذا ما يجعلها نافعة. ونحن لا نقع في المشاكل إلا حين نخلط بين الحقيبة ومحتوياتها، بين العادات والمعنى الذي تحويه.

وفي ستينيات عمرها، احتضنت بوفوار ما يمكن أن نسميه «شعرية العادة». ففعلت ما اعتادت أن تفعله دائمًا: كتبت، وقرأت، واستمعت إلى الموسيقى. ولكنَّها لم تقرأ الكتب ذاتها، ولم تستمع إلى الموسيقى ذاتها. وتقول: «إنَّ أيّامي، في إيقاعها، وفي الطّريقة التي أملؤها بها، وفي النَّاس الذين أراهم، تتشابه فيما بينها. ورغم ذلك، لا تبدو لي حياتي راكدةً على الإطلاق». لقد كانت «بوفوار» سيدة عاداتها، لا أسيرةً لها.

7: فنُّ اللافعل

للحركة وقتٌ، وللسكون وقت. وإنَّها لحظة «الكيروس» السَّانحة. ونحن في ثقافتنا، نقدّر الأولى، ولكنَّنا لا نقدّر الثَّانية. لقد كانت بوفوار وسارتر غزيري الإنتاج حقًا، ولكنَّهما كانا يقدران بين الحين والآخر على أن يكفا عن «الفعل» ويكتفيا بمجرد «الكينونة». فقد كانت فصول الصَّيف التي يقضيانها في روما زمنًا لـ«لا شيء» المترامي الأطراف. فكانت بوفوار تطرح مشاريعها جانبًا، وتتخلى عن سعيها الذي لا يهدأ، وتغتسل في روما اغتسالًا. «القندسة» في استراحة.

ورغم أنَّ كلمة «القبول» قلما تجري على لسانها، إلا أنَّ «بوفوار» قد بلغت حالةً تشبهه. فعشية عيد ميلادها الخامس والسبعين، قالت: «إنَّ في

هذه الشـيخوخة شـيئًا من الحكمة والجمال بعد كلّ شيء». فشـأنها في ذلك شـأن نيتشـه، لم يكن لديها أيّ ندم. وقالت: «لقد استمتعت بكلِّ شيءٍ قدر ما استطعت، ولأطول مدةٍ استطعتها».

8: عائِقِ العَبَث

في طفولتي، كان هناك رسـمٌ كرتـونيٌّ واحد يزين ثلاجتنا. وفي ذاكرتي، كأنّه كان هناك على الدوام. يصور الرَّسم عالمًا مجنونًا في غرفةٍ تعج بالوحوش مـن كلِّ شـكلٍ ولون. ويجلـس العالم في يـأسٍ بجوار آلة الليـزر العملاقة، ويقول لمسـاعده: «سـبعةٌ وعشرون عامًا قضيتها في صنـع الوحوش، فماذا جنيت من ذلك؟ غرفةً ملأى بالوحوش».

ولا شـكَّ أنَّ «ألبير كامو» كان ليضحك ملء شـدقيه من هذا الرَّسـم. فهـذا الكاتـب الفرنسي-الجزائري كان من رواد فلسـفةٍ تُدعـى «العبثية». فالعـالم لا عقـلاني، ولا معنى له بالنسـبة له. وكل إنجازاتنـا تتهاوى تحت وطـأة الزَّمـن الـذي لا يرحم. ورغـم ذلك، نظـلّ نثابر. هذه هـي العبثية. وهـذه هي الحياة. إنّها عرضٌ مسرحي متقن، يُؤدَّى بحماسـةٍ وتكرار، أمام مـسرحٍ خالٍ من الجمهور. لقـد أخطأت بوفوار، هكذا سـيقول العبثيون. فالشّـيخوخة ليسـت مهزلة الحياة، بل الحياة نفسـها هي مهزلة الحياة. وما الشّيخوخة إلا «النّكتة الختامية».

فكيف عسـانا نواجـه مثل هذه العبثيـة؟ بوسـعنا أن نتجاهلها، لبعض الوقـت. فأجهـزة «فيتبيـت Fitbit» وخطـط التَّقاعد تمنحنا وهـم التقدم، ووهـم المعنـى. فنحـن نراقـب السّـعرات الحراريـة المحروقـة، والفوائـد المكتسـبة، ونفـترض أنّنا نتقدم نحو وجهةٍ ما. «حيـاتي لها معنى. أراه يلمع

بوضـوحٍ على هذه الشاشـة الصغيرة». ولكن سـيزيف وهـو يرتدي جهاز «فيتبيت» لا يقل عبثيةً عن سيزيف بدونه؛ بل هو أشدُّ عبثًا في الحقيقة، لأنَّه مخدوعٌ بوهم التقدم، على عكس سـيزيف الآخر الـذي لا يرتديه. فالعبثية حين تُحوَّل إلى أرقامٍ، تزداد عبثًا، لا تقل.

ولكـن مـا علاقة هذا بالشـيخوخة؟ أليسـت الحيـاة عبثيةً بالقـدر ذاته ونحـن في الخامسـة والعشريـن وفي الخامسـة والسـبعين؟ أجـل، ولكنَّنـا في الخامسـة والسـبعين نكون أشـدّ وعيًـا بذلك. فقد نكون قـد حصدنا ما يكفـي من الأوسـمة، وادخرنا مـا يكفي من المال، لنعـرف أنَّها في حقيقتها لا معنى لها. فـ«سـيزيف» في الخامسـة والعشرين لا يزال يتشـبث بالأمل، فلعلَّ الصَّخرة هذه المرَّة لن تتدحرج إلى الأسفل. أمَّا «سيزيف» في الخامسة والسبعين، فلا تخدعه مثل هذه الأوهام.

إنَّ مهمة «سيزيف»، وهي مهمتنا نحن أيضًا، هي أن نتقبل «يقين القدر الساحق، دون ذلك الاستسلام الذي يفترض أن يصاحبه»، على حد تعبير كامو. علينا أن نتخيل «سـيزيف» سـعيدًا. ولكن كيـف؟ كيف لكائنٍ واعٍ ذكي أن يجد السعادة في مهمةٍ رتيبةٍ كهذه، لا غاية من ورائها؟

بـأن يلقي بنفســه في خضم مهمته، رغـم عبثيتها، بل وبسـبب عبثيتها. «فمصـيره ملكٌ لـه»، هكذا يقول كامـو. «وصخرته هي شـأنه الخاص:... فكل ذرةٍ من تلك الصَّخرة، وكل شـظيةٍ معدنية من ذلك الجبل الغارق في اللَّيل، تشكل في حد ذاتها عالمًا. وإن الكفاح ذاته نحو القمم لكافٍ أن يملأ قلب الإنسان».

لم تؤمـن «بوفوار» إيمانًا كاملًا بـ«فلسـفة العبث» عند كامو، ولكنَّها تبنت

ما أسـمته «البطولة الشّـغوفة»، فوجدت لذتها في سـحر العمـل لذاته. وهي واقفةٌ في غرفةٍ ملأى بالوحوش، ظلَّت، حتى الرَّمق الأخير، تخلق المزيد منها.

9: فنُّ فكِّ الارتباطِ البنّاء

كلـما تقدم بنـا العمر، ازداد تشـبثنا بالحياة. فعلينـا أن نتعلم كيف نترك ونتخـلى. علينـا أن نمارس ما أسـميه «فـك الارتباط البنّـاء». وهو ليس لا مبالاة، ولا إعراضًا عن الدُّنيا، بل هو تراجعٌ رفيقٌ خطوةً إلى الوراء. فأنت لا تـزال راكبًـا في قطـار الحياة، ولا تـزال تكترث لأمر رفاقـك في الرحلة، ولكنـك أصبحت أقل جزعًا من عثرات الطريـق واهتزازاته، وأقل اهتمامًا ببلوغ الوجهة النّهائية.

ويقترح برتراند راسـل، الذي عاش حتى السابعة والتسعين، أن نوسع دائـرة اهتماماتنا، فنجعلها «أوسـع وأكثر تجردًا، حتـى تتراجع جدران الأنا شيئًا فشيئًا، وتغدو حياتك مندمجةً شيئًا فشيئًا في الحياة الكونية».

تخيـل الحياة الفردية نهرًا. في بدايته، يظلُّ حبيسًـا بـين ضفتيه الضيقتين، يندفع مسرعًا متجاوزًا الصّخور، وتحت الجسـور، وفوق الشـلالات. «ثم شـيئًا فشـيئًا، يتسـع النهر، وتنحسر ضفافه، وتجري مياهه في سكونٍ أكبر، وفي النهايـة، ودون أي انقطـاعٍ منظـور، تندمـج مياهـه في البحـر، فتفقـد كينونتها الفردية دون ألم».

وهذه، في ظني، هي مهمة الشـيخوخة الأخيرة: ليسـت تضييقًا لمجرى مياهنا، بل توسـيعًا له. وليسـت ثورةً على خفوت النور واحتضاره، بل ثقةً بـأنَّ النُّور سـيظلُّ حيًا في الآخريـن. إنَّها حكمة «الكـيروس». فلكلّ شيءٍ أوانه. حتى لهذا.

10: سَلِّم الشُّعْلَة

إنَّ ما قاله الناقد الفرنسي «بول فاليري» عن القصائد، ليصدق على حياتنا سواءً بسواء. فهي لا تكتمل أبدًا، بل تُهجر فحسب. فالأعمال التي لم تكتمل ليست علامةً على الفشل، بل على العكس من ذلك تمامًا؛ فالشخص الذي يرحل عن هذه الدُّنيا وليس لديه عملٌ لم ينجزه، هو شخصٌ لم يحيَ حياته ملء رئتيه.

فكلما انكمش مستقبلنا، نمت مستقبلاتٌ أخرى. وأعمالنا التي لم تكتمل، سيكملها آخرون. وهذه الفكرة، لعلَّها هي التي تخفف من لسعة الشيخوخة ومرارتها أكثر من أيّ فكرةٍ أخرى. وكما قالت بوفوار: «إني أحب الشَّباب، فإذا رأيت في مشاريعهم صدى لمشاريعي، شعرت أنَّ حياتي ستمتد من بعدي وأنا في قبري».

لا ضمانات في ذلك بطبيعة الحال. فالجيل الشَّاب قد يفسد مشاريعنا، تمامًا كما أفسدنا نحن مشاريع الجيل الذي سبقنا. ولسنا نطالب بشيء. فما نحن إلا كالمسافرين في نزل، مجرد عابرين، نحترم لافتة «ممنوع التَّدخين»، ونترك الغرفة على الحال التي وجدناها عليها، ولعلَّنا نترك ورقةً أو ورقتين في صندوق الاقتراحات.

لست مستعدًا بعد لتسليم الشعلة. ليس بعد. فأنا لست بشيخ. ولكن إذا —لا، بل حين— أرتطم بالشيخوخة، فأيّ ملاحظةٍ سأتركها لابنتي؟

وبينما أسافر معها في قطارٍ آخر، ألقي نظرةً على هذه الفتاة الواقفة على أعتاب الأنوثة. وسماعات الأذن في أذنيها، وأصابعها تطير على هاتفها

الذكـي، فـلا تلحظني وأنا أمد يـدي إلى «دفتر العجـوز» و«قلم العجوز»، وأخطُّ:

«ابنتـي العزيزة سـونيا: سـائلي كلّ شيء، لا سـيما أسـئلتكِ. انظري إلى العالم بعين الدهشة. خاطبيه في خشوع. أصغي إليه في حب. لا تتوقفي أبدًا عن التّعلـم. افعلي كلّ شيء، ولكن اتركي وقتًا لـ «اللاشيء» أيضًا. اعبري الجسور على أيّ مستوى تشائين، فلتكن الجسور سخيفةً ما شاءت. لا تلعني صخرة سيزيف، بل تملكيها. اعشقيها. آه، وخففي من «ماكدونالدز».

أو لا تفعلي. فالخيار خياركِ».

الفصل الرابع عشر

كيف تموت مثل مونتين

الساعة 11:27 صباحًا. على متن قطار TGV فائق السرعة، رقم 8433، يشق طريقه من باريس إلى بوردو.

في الخارج، سماءٌ رمادية تلف الرّيف الفرنسي كما يُلَفُّ الوليد في قماطه. أمّا في الداخل، فاللايقين هو السيد. فقد صعدنا إلى القطار خلسةً دون أن نحجز مقعدًا. وعلينا أن نغير مقاعدنا عند كلّ محطة، كلما صعد إلى القطار المزيد من الركاب. الأمر الذي يجعلها رحلةً قلقةً لا استقرار فيها. فما أكاد آلف مقعدي وأستأنس به، حتى أُطرد منه لأبدأ البحث من جديد.

وهذه هي طبيعة السفر في القطارات دون حجز، وهي طبيعة الفلسفة أيضًا. فما إن نطمئن إلى موقفٍ معين —كأن نقول إنَّ كلَّ المعرفة مستمدةٌ من الحواس مثلًا— حتى يأتي ما يقلب يقيننا ذاك رأسًا على عقب، فنضطر إلى أن نبدأ من جديد. إنّه لأمرٌ منهك، هذا الفرار الدائم من الراحة واليقين، ولكنه ضروري.

ألقي لمحةً على «سونيا»، فأجدها غارقةً في عالمها الرقمي، لا يزعجها تنقلنا هذا ولا تكترث له. فلِمَ لا أكون مثلها؟ هكذا أتساءل في نفسي.

وبينما أحاول أن أستوعب هذه الفكرة وأستأنس بها، يهتز سكون تفكيري مع تدفق دفعةٍ جديدة من الركاب. فأجمع «كتب العجوز» و«أقلام العجوز» وأتهادى في الممر، باحثًا عن مأوى جديد.

***

تخيل بركة سباحةٍ هائلة، تتسع لسبعة مليارات إنسان. لم يرَ أحدٌ هذه البركة قط، ولكن لا سبيل إلى إنكار وجودها. ففي لحظةٍ ما، لا بدَّ أن يُلقى كل إنسانٍ في هذه البركة. يُلقى معظم النَّاس فيها وقد بلغوا من العمر عتيًا، ولكن بعضهم يُلقى في منتصف العمر، وقليلٌ منهم وهم لا يزالون في ريعان الشّباب. وحده التَّوقيت هو ما يكتنفه الغموض. فلا أحد ينجو من أن يُلقى في البركة. وما من أحدٍ خرج منها قط.

وبالنظر إلى كلّ هذه الحقائق، قد تظنُّ أنَّ اهتمام النَّاس بهذه البركة سيكون هائلًا. وأنَّ الأسئلة ستتوالى: ما عمق هذه البركة؟ أدافئٌ ماؤها أم بارد؟ وكيف أهيئ نفسي ليوم أن أُلقى فيها؟ وهل هذا الإلقاء أمرٌ ينبغي أن أخشاه؟

ولكن النَّاس قلما يتحدثون عن البركة، وإن فعلوا، فحديثهم غير مباشر. فبعضهم لا يجرؤ حتى على أن ينطق بكلمة «بركة السباحة»، فيقولون «المسطح المائي»، أو بعبارةٍ أشد التواءً: «ذلك الشيء الذي تعلمه». فالمعلمون لا يناقشون أمر البركة مع طلابهم، والآباء (إلا ما ندر) لا يناقشونه مع أبنائهم. ويُعتبر من قلة الذوق إثارة الموضوع في حفلات العشاء أو المناسبات الاجتماعية. فالنَّاس يتجنبون بعنادٍ حتى مجرد التفكير في البركة. وخير ما يمكن فعله، هكذا يخلصون إلى القول، هو ترك الأمر لأهل الاختصاص.

ولكن، ومهما حاولوا أن يدفعوا شبح بركة السّباحة العملاقة تلك بعيدًا، فإنّه يظلُّ حاضرًا، جاثمًا في مؤخرة عقولهم كوحشٍ مائي خفي. وبينما هم يرتشفون قهوتهم، ويدونون نفقاتهم، ويدخلون أطفالهم في فراشهم، يتصاعد سؤالٌ إلى سطح وعيهم، سؤالٌ خافتٌ ولكن لا سبيل

إلى إنكاره: «هل اليوم هو اليوم الذي سيُلقى بي فيه في البركة؟».

***

كلُّ الفلاسفة الذين التقيتهم في رحلتي هذه يخاطبونني. بعضهم صوته أعلى من بعض. ولكن ما من أحدٍ منهم يخاطبني بمثل تلك القوة وذلك الوضوح اللذين أجدهما في صوت «ميشيل دي مونتين». فهذا الفرنسي الذي عاش في القرن السادس عشر، هو الفيلسوف الذي أودُّ لو أني أجالسه على كأس جعةٍ أكثر من أيّ فيلسوفٍ آخر. إني أرى نفسي فيه، وأراه في نفسي. وليس ما يجذبني إليه هو أفكاره بقدر ما هي طريقته في الوصول إليها؛ تلك الطّريقة الملتوية، المترددة، التي لا تسير في خطٍ مستقيم. إنَّ «مونتين» يفهمني. إنَّه توأم روحي في الفلسفة.

فهو، مثلي، قلقُ العقل والجسد. وهو، مثلي، يستمتع بالسفر، ولكنه يستمتع بالعودة إلى الديار أكثر. وهو، مثلي، مولعٌ بوضع الخطوط تحت الكلمات وتدوين الهوامش. وهو، مثلي، خطه رديءٌ فظيع، ويكابد الأمرّين ليفك طلاسم ما كتب. وهو، مثلي، سيءٌ في تدبر شؤون المال، وعديم الكفاءة على نحوٍ استثنائي في عالم الأعمال. («فأنا أفضل أن أفعل أيّ شيءٍ على قراءة عقدٍ من العقود»). وهو، مثلي، لا يحسن الطهي. («فلو أعطيتني كلّ ما في المطبخ من معدات، لمتُّ جوعًا»). وهو، مثلي، ينخرط في شؤون العالم، ولكنَّه بين الحين والآخر يشعر بحاجةٍ قوية، تكاد لا تُقاوم، إلى الفرار منه. وهو، مثلي، متقلب المزاج. وهو، مثلي، لا يرتاح للكتابة عن نفسه، ولكنَّه يفعلها رغم ذلك. وهو، مثلي، له سرعتان لا ثالث لهما: سريعة وبطيئة. وهو، مثلي، يخشى الموت. ولكنَّه، على عكسي، يواجه خوفه هذا وجهًا لوجه.

إنَّ الموت يجعـل منا جميعًا فلاسـفة. فحتـى أقل النَّاس تأمـلًا، لا بدَّ أن يتسـاءل يومًـا: مـاذا يحدث حـين نموت؟ وهـل الموت حقًا شيءٌ يُخشـى؟ وكيـف لي أن أتصالح معه؟ فالموت هو المحك الحقيقي للفلسـفة؛ فإن هي لم تعنّـا على مواجهة أشـدّ أحداث الحياة وطأةً ورعبًا، فـما نفعها إذن؟ وكما يقول مونتين: «إنَّ كلَّ ما في العالم من حكمةٍ ومنطق، يؤول في نهاية المطاف إلى نقطةٍ واحدة: أن تعلمنا ألا نهاب الموت».

ولكن معظم الفلاسـفة يتعاملون مع الموت كما نتعامل معه نحن، سائر البـشر: إمَّا بتجاهله، أو بخشـيته. فـ«ماركوس أوريليـوس» كان يغرق في كآبـةٍ عميقـة كلما فكر في المـوت. و«شـوبنهاور» كان يقلقه كيف سـيعبث المؤرخون بأفكاره بعد رحيله.

«خـيرٌ لنا ألا نفكر في الموت»، هكذا يخلـص أبيقور إلى القول. «فالموت لا يعنينا في شيء». فأنت لا تستيقظ كلّ صباحٍ قلقًا بشأن الزَّمن الذي سبق مولدك، فلِمَ إذن تقلق بشأن الزَّمن الذي يلي موتك؟ لقد كنت غائبًا حينها، وسـتغيب مرَّةً أخـرى. «فحين نوجد نحن، لا يوجـد الموت؛ وحين يوجد الموت، لا نوجد نحن».

لسـت مقتنعًـا بهذه الحجـة. فالعدم الـذي كنته قبل أن أولـد، ليس هو العـدم ذاتـه الذي سـأكونه بعـد أن أرحل. فـالأول عدمٌ كان عـلى الدوام عدمًا، أمَّا الآخر فعدمٌ كان يومًا ما شيئًا، وفي ذلك يكمن الفرق كلّه. ففراغ الفضـاء ليـس كحفرةٍ في الأرض. فالعدم إنَّما يتحـدد بقربه مما كان، ومما لا يزال كائنًا.

لقـد قـرأ مونتين لأبيقـور وغيره في موضـوع الموت، ولكنَّـه لم يقتنع بما

قالـوه هـو الآخر. فقد رأى أنَّهـم لم يتطرقوا للموضوع إلا تطرقًا سـطحيًا، «بالـكاد يلامسـون قشرتـه»، على حـد تعبـيره. فصمم عـلى أن يغوص إلى أعماقٍ أبعد وقد فعل. فما من فيلسوفٍ كتب عن الموت والاحتضار بصدقٍ وجرأةٍ تفوق صدق وجرأة «ميشيل دي مونتين».

وكـما كانـت بوفوار مهووسـةً بالتقـدّم في العمر، كان مونتين مهووسًـا بالمـوت، أو لنقـل بعبـارةٍ أدق، بالاحتضار. وقد قال: «ليـس الموت هو ما يفزعني، بل الاحتضار». فقد كانت فكرة الاحتضار تستحوذ على عقله في مرضه وفي صحته، بل وحتى «في أشدّ مواسم حياتي انغماسًا في الملذات... بين النساء ومجالس اللعب».

ولا ألومـه عـلى ذلك. ففـي زمانـه ذاك، في القرن السـادس عشر، كان شـبح الموت يحوم في الأجـواء. «كان يمسـك بخناقنا»، هكـذا يقول. فقد كان الكاثوليك والبروتسـتانت يقتتلون بمعدلٍ مفزع. ولم تكنِ الحرب إلا سـبيلًا واحدًا من سـبل الموت. فقد قضى الطاعون على قرابة نصف سكان بـوردو. ولم ينـجُ مـن أطفال مونتين السـتة إلا طفـلٌ واحد. ومـات أخوه «أرنو» وهو في الثالثة والعشرين من عمره في حادثٍ غريب، أودت بحياته فيه كرة تنس. أن تقتله كرة تنس! إنَّ الموت لعبثي. ولولا أنَّه خاتمة المطاف، لضحكنا منه وسخرنا.

ولكن الموت الذي كانت لسـعته أشدّ إيلامًا، كان موت صديقه الحميم «إتيـان دو لا بويـسي». فحين مات بالطاعون وهـو في الثانية والثلاثين من عمره، شعر مونتين «وكأنّنا قد شُققت نصفين».

قـد لا يلقي الموت بظلاله الطويلة على أيامنا هذه، كما كان يفعل في أيام

مونتين، ولكن ليس في ذلك عزاءٌ كبير. فالظل القصير لا يقل عتمةً عن الظل الطويل. فحينها، كما الآن، كانت احتمالات موت أيّ إنسانٍ هي مئة بالمئة بالضبط، بهامش خطإٍ يساوي صفرًا. فالجميع سيُلقى في البركة لا محالة.

***

إنَّ حزن الفقد قد يسحق، وقد يشل. ولكنَّه كذلك قد يكون دافعًا، فهو الذي دفع الإمبراطور المغولي المكلوم الفؤاد «شاه جهان» ليبني «تاج محل» تخليدًا لذكرى زوجته الحبيبة. والحزن —على فقدان زوجته وابنته وبصره— هو الذي ألهم «ميلتون» ليكتب «الفردوس المفقود». والحزن هو الذي دفع «ميشيل دي مونتين» ليصعد ثلاث طبقاتٍ من السلالم الملتوية إلى الطابق العلوي من برجٍ ذي سقفٍ أحمر، جاثمٍ على قمة تل، معرضٍ للرياح، وهناك خطَّ «مقالاته». فمن رحم المعاناة العظيمة، يولد الجمال العظيم.

أصعد أنا وسونيا درجًا حلزونيًا، هو ذاته الذي صعده مونتين قبل قرابة 450 عامًا. فهنا، كان يتلذذ بعزلته. وأظنُّ أنَّ مونتين كان، مثلي تمامًا، انطوائيًا قادرًا على أداء دور الانبساطي أداءً لائقًا حين تقتضي الظروف. وبوسعنا، نحن الانطوائيين الذين نجيد مخالطة الناس، أن نخدع العالم، ولكن بثمنٍ ندفعه من أنفسنا. فهذا الانبساط المصطنع يستنزف قوانا، وينهكنا.

لم يتغير البرج كثيرًا عن أيام «مونتين». فلا تزال النوافذ الثلاث الضيقة المطلة على ريف «آكيتاين» هنا. وكذلك مكتب مونتين وسروجه. لقد

أحب كلَّ شيءٍ في برجه ذاك. أحب إطلالته على كرم عنب العائلة. وأحب هدوءه. وأحب كيف كانت عيناه، حيثما نظر، تحطان على كتاب.

وقد كانت نواة مكتبته الثمينة تلك هديةً من «لا بويسي»، الذي أصر على أن يقبلها «مونتين» «تذكارًا من صديقك». فقبلها مونتين، على مضضٍ في البداية، وحمل الكتب صعودًا على الدرج الحلزوني ورتبها بعنايةٍ على الرفوف. ثم نما حبه لمكتبته، ونمت هي الأخرى. فبحلول وفاته، كان مونتين قد جمع ألف مجلد.

وكان يقضي السَّاعات والأيَّام في برجه ذاك، وحيدًا مع كتبه وخواطره. فالمسافة كانت أمرًا جوهريًا عند مونتين. ففي عزلته في برجه، كان يشق نفسه عن العالم الخارجي، وبمعنى ما، عن نفسه هو أيضًا. فكان يتراجع خطوةً إلى الوراء ليرى نفسه رؤيةً أوضح، كما يتراجع المرء نصف خطوةٍ عن مرآة. فنحن أقرب إلى أنفسنا مما ينبغي، فلا نعود نراها. «كلنا متكتلون ومنكمشون على ذواتنا، ورؤيتنا لا تتجاوز طول أنوفنا»، هكذا يكتب. لذا، حرّك أنفك. ضعه هنا، ثم هناك. فالبعد الخارجي يجعل القرب الداخلي ممكنًا.

وهنا، في برجه الأثير إلى قلبه، أنهى مونتين حواره مع العالم، وبدأ حوارًا مع نفسه. «لقد آن الأوان لأدير ظهري للرفقة»، هكذا قال، «وأتقوقع في صدفتي كسلحفاة».

أرفع بصري فأرى حكمةً تحدق في وجهي: قرابة خمسين مقولة محفورةً في عوارض السَّقف الخشبية. ومن بين تلك الأقوال المأثورة القديمة، مقولةٌ لمونتين نفسه: «Que sais-je?»، أي: «وماذا أعرف أنا؟». هذه الكلمات

الثلاث تلخص بإيجازٍ بليغ فلسفته، بل وطريقة حياته كلّها.

لقد كان مونتين «شكاكًا» (Skeptic)، بالمعنى الأصلي للكلمة: فهو ليس ذلك الرافض الذي يثقب أفكار الآخرين لمجرد التسلية، بل هو ذلك المتشكك الباحث عن الحقيقة. لقد شك «مونتين» كي يصل إلى اليقين. فبنى برج يقينه شكًا إثر شك.

فالبشر، في رأيه، لا يستطيعون أبدًا بلوغ الحقيقة المطلقة. وأقصى ما بوسعنا فعله هو أن نقتنص حقائق مؤقتة، مرهونةً بظروفها. إنّها شذراتٌ من الحقيقة. وهذه الشذرات ليست ثابتة، بل هي سائلةٌ متغيرة ولكنّك بها قد تقطع شوطًا بعيدًا، وقد فعلها مونتين.

لقد كان لمونتين، شأنه شأن «ثورو»، رؤيةٌ زاويةٌ للأمور. فكان يأخذ الفكرة ويعرضها على ناظريه من شتى الزوايا والمنظورات. وقد فعل ذلك مع كلّ شيء، حتى مع قطته. فكان يتساءل: أكنت أنا الذي يلاعب قطتي، أم كانت هي التي تلاعبني؟ وهذه الفكرة هي جوهر فكر مونتين الخالص: أن تأخذ شيئًا يظنُّ الجميع أنّهم يعرفونه —بل يوقنون أنّهم يعرفونه— ثم تختبره. تتلاعب به. «تظنُّ أنّك تعرف ما هو الموت»، هكذا يقول مونتين، «ولكن هل تعرفه حقًا؟ تلاعب بالفكرة».

وقد فعلها سقراط من قبله. فلعله ليس بذلك السوء، هكذا تساءل بصوتٍ مسموع بعد أن صدر عليه حكم الإعدام. فلعله «نومٌ هانئ بلا أحلام»، أو لعلَّ هناك حقًا حياةً أخرى. أوليس ذلك رائعًا، هكذا قال «ذبابة أثينا»، وهو يتخيل نفسه يقضي الأبدية سعيدًا، يتفلسف ويزعج الناس بأسئلته التي لا تنتهي.

لقد كان مونتين، شأنه شأن سقراط، «فيلسوفًا بالمصادفة»، على حد تعبيره هو. وفيلسوفًا شخصيًا أيضًا. فهو يسلي نفسه، ويثير حنق نفسه، ويفاجئ نفسه. وما يعجبني في «مونتين» هو أنَّه بدلًا من أن يطرح هذه الخواطر جانبًا بوصفها أوهامًا لا معنى لها، فإنَّه يفحصها ويمحصها. لقد أخذ نفسه على محمل الجد، لا فلسفته. «اعرف نفسك»، هكذا يحثنا الإغريق، ولكنَّهم لا يخبروننا كيف. أمَّا مونتين فيفعل. فأنت تعرف نفسك بأن تخوض المخاطر، وترتكب الأخطاء، ثم تبدأ من جديد، على طريقة «سيزيف».

وقد احتاج مونتين إلى قالبٍ أدبي لفلسفته العرضية هذه. ولم يكن هناك قالبٌ كهذا، فابتكره بنفسه: «المقالة» (essay). وهي كلمةٌ تأتي من الفعل الفرنسي «essayer»، الذي يعني «يحاول». فالمقالة تجربةٌ ومحاولة. ومقالاته كلّها ليست إلا محاولةً واحدة عملاقة. محاولةٌ لأي شيء؟ للتعرف على نفسه. فلم يكن بوسعه أن يموت ميتةً حسنة حتى يحيا حياةً حسنة، ولم يكن بوسعه أن يحيا حتى يعرف نفسه.

ولم يكن مونتين على الورق أكثر استقامةً مما كان عليه في الحياة. فهو، شأنه في ذلك شأن «سي شوناجون»، كان يمارس فن «الزويهيتسو»، أي: أن يتبع ريشته حيثما سارت به. فيكتب عن أكلة لحوم البشر، وعن العفة؛ وعن الكسل، وعن السكر؛ وعن غازات البطن، وعن الإبهام. وعن اللحوم المملحة أيضًا. يكتب عن حكة أذنيه، وعن حصوات كليتيه المؤلمة. يكتب عن قضيبه. يكتب عن النوم، والأسى، والروائح، والصداقة، والأطفال. يكتب عن الجنس، ويكتب عن الموت. ولكن الموضوع الحقيقي لكتاب

مونتين كان مونتين نفسـه. فيقول: «لقد قدمت نفسي لنفسي»، واصفًا ذلك بأنَّه «مشروعٌ جامحٌ وغريب».

إنَّ البـشر لبارعون في إنكار الحقائق المزعجة، وليس هناك حقيقةٌ أشـدّ إزعاجًـا من المـوت. وإني لأنظر إلى الموت بنفس الطريقـة التي أنظر بها إلى وجهـي الذي أخذته الشـيخوخة في المرآة: نظرةً خاطفـةً جانبية، إنَّ نظرت أصلًا، في محاولةٍ يائسة، وعقيمة، لأحصّن نفسي ضد لسعته.

لقد رأى مونتين أنَّ هذا التجنب ثمنه باهظٌ جدًا. فحين نتجنب الموت، «تنطفـئ فينا كلُّ لذةٍ أخرى». فلا يمكننا أن نحيا ملء حياتنا، هكذا يقول، دون أن نواجـه المـوت، موتنا نحن، مواجهـةً تامة. «فلنُجـرِّده من غرابته، ولنألفـه، ولنعتد عليه. وليكن الموت أكثر ما يشـغل بالنـا وفكرنا. وفي كلّ لحظة، فلنسـتحضره في خيالنـا بكل صوره وهيئاته. عنـد عثرة حصان، أو سـقوط قرميـدة، أو أدنى وخـزة دبـوس. فلنمضغ هذه الفكـرة في الحال: حسنًا، وماذا لو كان الموت نفسه؟».

فالموت قد يأتي في أيّ لحظة، هكذا يذكرنا مونتين، ويشير إلى أنَّ الكاتب المسرحي اليوناني «إسـخيلوس» يُروى أنَّه قُتل بسـلحفاةٍ سقطت عليه من السماء، ألقاها نسر. «فعلينا أن نكون على الدوام متأهبين للرحيل».

***

أتنقـل في رحلتي هذه بين برج مونتين وبلدة «سـانت إيميليون»، وهي واحدةٌ من تلك البلدات الفرنسية الصَّغيرة الكاملة، التي تجعلك تتساءل لِمَ لا يكون النَّاس كلّهم فرنسـيين. أنا ومونتين وحدنا؛ فقد اعتزلت سونيا في «عالم المراهقة» الخاص بها، وقلما تبرح الفندق. وفي كلّ صباح، أحمل نسختي

من «مقالات مونتين الكاملة»، ذلك المجلد الذي يمتد لنحو 850 صفحة، وأطلب فنجان إسبريسو مزدوجًا في مقهى محلي. إنَّه مكانٌ متواضع، يرتاده مدخنون شرهون يوازنون كؤوس بيرة الصّباح على طاولاتٍ متداعية. كما أنَّ للمقهى تجارةً رائجة في النبيذ الرخيص وتذاكر اليانصيب. وإنّي لأجد نفسي منجذبًا إلى هذا الضرب من الأماكن المتواضعة غير المتكلفة؛ فهي لا تطلب مني الكثير، وفيها أستطيع أن أفكر بصفاءٍ أكبر.

وأتعلّم أنَّ مونتين فيلسوفٌ متجسدٌ كلّ التجسد؛ فهو يمشي، ويركب حصانه، ويأكل، ويمارس الجنس. وإنَّ ما قاله «هنري ميلر» عن الفيلسوف «هيرمان فون كايزرلينج» ليصدق على مونتين أيضًا: «إنَّه مفكرٌ يهاجم بجسده كلّه، ويخرج في نهاية الكتاب والدماء تنزف من كلّ مسامٍ في جلده».

يخبرني مونتين أنَّ مشيته سريعةٌ حازمة، وأنَّه قصير القامة ممتلئ البنية. شعره كستنائي، ووجهه «ليس بالسمين، ولكنَّه ممتلئ». وهو فخورٌ بأسنانه، البيضاء المستقيمة. يعشق الشعر، ويمقت حر الصَّيف، ولا يطيق رائحة عرقه. ولا يقص شعره أبدًا بعد العشاء. ويحب أن ينام طويلًا. ويأخذ وقته في قضاء حاجته، ويكره أن يقاطعه أحد. وهو رياضيٌّ سيء، ما خلا ركوب الخيل، ففيه يتفوق. وهو يكره الأحاديث العابرة. ويحب الشطرنج والداما، ولكنَّه عاجزٌ فيهما كليهما. يحلم بأنَّه يحلم. وذاكرته ضعيفة. يأكل بسرعةٍ ونهم، حتى إنَّه ليعض لسانه أحيانًا، أو حتى إصبعه. وهو يخفف نبيذه بالماء، على طريقة قدماء الإغريق.

إنّ فلسفة مونتين لهي نسيجٌ مرقع، لحافٌ حيك من أفكارٍ مستعارة. ولكنَّه يضع عليها بصمته الخاصة، فيجعلها له. فمونتين يثق بتجربته

الشخصية ثقةً لا نملكها نحن؛ أو على الأقل لا أملكها أنا.

لقد استغرق الأمر منه وقتًا. فمقالاته الأولى، كما يقول: «كانت تفوح منها رائحة مِلكية الآخرين»، ولكنَّه مع كلّ صفحةٍ يخطها، كان يزداد ثقةً وجرأة. فأجدني أشدّ على يده وأشجعه. وأفعل ذلك حتى حين يلومني على غفوتي أثناء أحد استطراداته الطويلة. («فالقارئ الغافل هو الذي يضيع موضوعي، لا أنا»). وأصفق له بحرارة وهو يجد صوته الخاص. فرغم أنَّنا، كما يقول، قد دُرِّبنا على الاستعارة والتَّسول، فإنَّ كلَّ واحدٍ منا «أغنى مما يظنُّ».

ولم يكن مونتين يخشى أن يناقض نفسه. فكان يغير موقفه من الأمور، كبيرها وصغيرها. فالفجل مثلًا في البدء لم يكن يلائم معدته، ثم لائمها، ثم عاد فلم يلائمها.

وليس هناك موضوعٌ كان فيه أشدّ تناقضًا من موضوع الموت. ففي مقالاته الأولى، كان يؤمن أنَّ الدراسة والتأمل كفيلان بأن يحررا الإنسان من أهوال الموت. و «أن تتفلسف هو أن تتعلم كيف تموت» هو عنوان إحدى مقالاته. ولكنَّه مع نهاية رحلته، كان قد عكس مساره تمامًا. فأن تتفلسف، هكذا خلص في النهاية، هو أن تتعلم كيف تحيا. فالموت هو نهاية الحياة، ولكنَّه ليس غايتها.

***

لم تكن لدى مونتين رغبةٌ في الموت، بل كانت له رغبةٌ عارمةٌ في الحياة. ولكنَّه كان يعلم أنَّ هذه الرغبة لا يمكن أن تتحقق على وجهها الأكمل، ما لم يتصالح مع الموت. قد نظنُّ أنَّ الحياة والموت أمران متتابعان لا غير:

نحيـا، ثـم نموت. ولكن الحقيقة، كما يقول مونتـين، هي أنَّ «الموت يمتزج بحياتنـا وينصهـر فيها طـوال الوقت». فنحـن لا نموت لأنَّنـا مرضى، بل نموت لأنَّنا أحياء.

إنَّ مونتـين ليفكر في الموت بطرقٍ لم أكن أظنُّهـا ممكنة؛ فهو لا يتأمل فيه فحسب، بل يتلاعب به، بل وحتى —وأنا أدرك غرابة هذا القول— يتخذه صديقًا. فيقول: «إني أريد أن يكون للموت نصيبٌ في يسر حياتي وراحتها. فهو جزءٌ عظيمٌ ومهم منها».

وأجـدني أكابـد لأستوعب هـذه الفكـرة. فلسـت متيقنًا مـن أني أريد للموت أن يكون جزءًا من حياتي، عظيمًا كان شـأنه أم لا. فكيف لي، هكذا أتساءل، أن أتصالح مع الموت، وأبقيه في الوقت ذاته على مسافةٍ آمنة مني؟

«لا سـبيل إلى ذلـك»، هكـذا يجيبـك مونتـين. «فعليـك، إن لم تتخـذه صديقًـا، أن تنزع أنيابه على الأقـل». فأنت تظنُّ أنَّ الموت عدو، شيءٌ هناك في الخارج. وهذا خطأ. «فالموت شرطُ وجودك، وهو جزءٌ منك. وأنتم إنما تفـرون من أنفسـكم». علينا أن نعيد توجيه أنفسـنا تجاه المـوت؛ فهو ليس «آخر» غريبًا عنك، ولست أنت ضحيته.

لقـد آمن مونتين، شـأنه في ذلك شـأن غاندي، بـضرورة أن يجرب المرء كلَّ شيءٍ ولو لمرةٍ واحدة. وقد قال: «علينا أن ندفع الباب لنتيقن أنَّه موصدٌ في وجوهنا». وليس هناك بابٌ أشـدّ إيصـادًا من باب الموت. ورغم ذلك، علينا أن ندفعه. «لا تسخر من الموت حتى تجربه»، هكذا يقول.

عمّا تتحدث يا ميشيل؟ فبوسعنا أن نتدرب على الكثير من الأحداث — كحفلات الزفاف، واحتفالات «البار متسفا»، ومقابلات العمل — ولكن

ليس على الموت بالتأكيد. فهناك خبراء في شؤون الموت والاحتضار، ولكن ليس هناك خبراء في «الموت» نفسه. (فحتى المدقق الإملائي في حاسوبي لا يتعرف على الكلمة). لا يمكننا أن نتمرن على الموت. أم تُرى يمكننا؟ لقد فعلها مونتين.

كان ذلك في عام 1569. وكان مونتين يمتطي صهوة جواده، غير بعيدٍ عن بيته. وقد اختار حصانًا وديعًا سهل الانقياد. وقد سلك هذا الدرب مرارًا وتكرارًا، وكان يظنُّ أنَّه في مأمنٍ تام، حين حاول فارسٌ آخر، يمتطي صهوة حصانٍ ضخم وقوي، أن يتجاوزه بأقصى سرعة. «فصدمنا كالصاعقة بكل قوته وثقله، وقذف بنا كلانا فتهاوينا رأسًا على عقب»، هكذا يروي مونتين.

وها هو «مونتين» قد قُذف من على صهوة جواده، ملقىً على الأرض، والكدمات تملأ جسده، والدماء تنزف منه، «لا حراك فيه ولا حس، كأنَّه جذع شجرة». فأيقن المارة أنَّه قد مات. ولكنَّهم ما لبثوا أن لاحظوا حركةً طفيفة، فأنهضوه، فما كان منه إلا أن «تقيأ على الفور دلوًا مملوءًا بكتلٍ من الدم الخالص».

ويتذكر قائلًا: «خُيِّل إليَّ أنَّ حياتي لم تكن معلقةً إلا بطرف لساني». والعجيب أنَّه لم يشعر بألمٍ ولا بخوف، بل أغمض عينيه، ووجد لذةً في أن يترك نفسه تذهب، كأنَّه ينزلق في لطفٍ إلى نومٍ عميق. «إن كان هذا هو الموت»، هكذا قال مونتين في نفسه، «فليس هو بالسوء الذي يظنون، ليس سيئًا على الإطلاق».

وقد حمله أصدقاؤه إلى بيته. فرأى بيته، ولكنَّه لم يعرفه. وقدم له النَّاس

علاجاتٍ شتى، فرفضها جميعًا، موقنًا أنَّ جراحه قاتلةٌ لا محالة. ورغم ذلك كلّه، لم يشعر بألمٍ ولا بخوف؛ بل لم يجد في نفسه إلا «حلاوةً لامتناهية». كانت ستكون «ميتةً سعيدةً كلّ السعادة» كما يتذكر. إذ ترك نفسه تنسلُّ منه رويدًا رويدًا، دون جهدٍ أو عناء.

ثم أخذ يتعافى، ومع عودته إلى الحياة، عاد الألم. «خُيِّل إليَّ أنَّ صاعقةً من برقٍ قد ضربت روحي ضربةً عنيفة، وأني عائدٌ من العالم الآخر».

وقد تركت هذه الحادثة في نفس مونتين أثرًا عميقًا. فأخذ يشكك في افتراضه بأنَّ الموت أمرٌ لا يمكننا أن نتمرن عليه. فلعلّنا نستطيع. لعلّنا نستطيع أن نخوض التجربة، أن نحاول. فصحيحٌ أننا لا نستطيع أن نرى الموت ذاته، ولكن بوسعنا «على الأقل أن نلمحه لمحة، وأن نستكشف مداخله ومقارباته».

فالموت ليس شيئًا نتقنه إتقاننا للشطرنج أو صناعة النبيذ؛ فهو ليس بمهارةٍ تُكتسب، بل هو توجهٌ ووجهة، توجهٌ يتناغم مع الطبيعة. يقول مونتين: «ليس في الطبيعة شيءٌ لا فائدة منه، ولا حتى انعدام الفائدة ذاته». فالموت ليس إخفاقًا للحياة، بل هو نتيجتها الطبيعية.

وشيئًا فشيئًا، يأخذ مونتين في مقاربة الموت «لا ككارثة، بل كأمرٍ جميلٍ محتوم»، كورقة خريفٍ تتساقط من شجرة. فالورقة لا تقلق بشأن كيف ستسقط، وكذلك لا ينبغي لنا أن نقلق. «فإن كنت لا تعرف كيف تموت، فلا تقلق؛ فالطبيعة ستلقنك ما ينبغي فعله في حينه، تلقينًا كاملًا وكافيًا. فهي ستقوم بالمهمة عنك على أكمل وجه؛ فلا تشغل رأسك بالأمر».

أحقًا ستفعل، يا ميشيل؟ آمل ذلك. فهي متقلبة الأهواء على نحوٍ

فظيع. ففي لحظةٍ تراها تزهر كرزًا، وفي اللحظة التي تليها تطلق إعصارًا من الفئة الخامسة. وإني لا أؤمن بنظرية «ما دام طبيعيًا، فهو خيرٌ بالضرورة». فالصراصير طبيعية. والزلازل طبيعية. وشعر الأنف طبيعي.

***

فكيف تكون صورة الميتة الحسنة؟ إنّها عادةً (وليس دائمًا) تأتي في ختام حياةٍ طيبة. وللأجواء المحيطة أهميتها أيضًا؛ فكلما قلّت فيها مشاهد الحزن والجزع، كانت أفضل. فكثيرًا ما كان المحتضر في أيام مونتين، محاطًا بـ «عددٍ من الخدم الشاحبي الوجوه الباكين، وغرفةٍ معتمة، وشموعٍ موقدة؛ وفراشه محاصرٌ بالأطباء والوعاظ؛ وبكلمةٍ واحدة، كلّ شيءٍ حولنا رعبٌ وفزع». واليوم، تضاء غرف مستشفياتنا بأنوار الفلورسنت، لا بضوء الشموع. ولكن الأطباء والوعاظ لا يزالون هناك، وكذلك الرعب والفزع.

إنَّ أشدَّ تجاربي قربًا من الموت كانت مشاهدتي لحماي وهو يموت. وقد مات ميتتين: ميتةً بطيئة، ثم ميتةً سريعة. فقد كان هناك مرضٌ يُدعى «الخرف الجبهي الصدغي» يفسر ما كان يعتريه من جنون ارتيابٍ وغضب. ثم أصابته سكتةٌ دماغية، فأُدخل المستشفى، ثم دارًا للرعاية، ثم حين توقفت كليتاه عن العمل، عاد إلى المستشفى من جديد. كنا نعلم أنّها النهاية. وكان الأطباء يعلمون ذلك أيضًا. ورغم ذلك، لم يقرَّ أحدٌ بذلك. فخيَّمت على غرفة المستشفى مؤامرةُ صمتٍ، وكنا جميعًا شركاء في تلك المؤامرة لم يوجه إلينا اتهام. تلك هي مهزلة التجاهل المصطنع التي أصبحت تميز الاحتضار في عصرنا.

كنت أراقب صدر حماي يعلو ويهبط، وعيناه زائغتان قد غشاهما

المورفين، بينما كانت أجهزةٌ طبيةٌ تملأ المكان، كأنّها قمرة قيادة طائرة، تصدر أصوات صفيرٍ ورنين. وقد ثبتُّ نظري على شاشةٍ واحدة، كانت تراقب مستويات الأكسجين في دمه. خمسةٌ وأربعون... ثم خمسةٌ وسبعون... ثم هبوطٌ إلى أربعين. وكنت أراقب الرقم وهو يتأرجح، كأنّما في مراقبتي له إبقاءٌ له على قيد الحياة.

إنَّ التكنولوجيا الطبية تريحنا بأن تخدرنا، وتخدرنا بأن تلهينا. فما دامت الأجهزة تصدر صفيرها، والشاشات تومض بأنوارها، فكلُّ شيءٍ على ما يرام.

وما كان مونتين ليرضى عن هذا. فليس ما كان ليزعجه هو الرعاية التلطيفية، بل الإنكار. فالتكنولوجيا تبعدنا عن حقيقة الموت، والموت ليس في جوهره إلا الطبيعة ذاتها. وبما أنّنا جزءٌ من هذه الطبيعة، فإنّنا بذلك لا نبعد إلا أنفسنا عن أنفسنا. نفرُّ من أنفسنا، مع كلّ صفيرٍ من صفير الأجهزة. لقد كان لينظر إلى الشاشات الوامضة، ورنين جهاز تخطيط القلب، وقطرات المحلول الوريدي المحسوبة، ولرأى رأي العين ما كان غائبًا عن تلك الغرفة، القبول.

فليس علاج الموت في مزيدٍ من الحياة، تمامًا كما أنَّ علاج اليأس ليس في مزيدٍ من الأمل. فكلتا الحالتين تستدعيان الدواء ذاته: القبول. وتلك هي الوجهة التي انتهى إليها مونتين، شأنه في ذلك شأن «بوفوار». ليس قبولًا فاتر الهمة، بل قبولًا كاملًا وسخيًا؛ قبولًا للموت، نعم، وللحياة أيضًا، ولنفسه كذلك. قبولًا لخصاله الحميدة («فأن تقول عن نفسك أقل من الحقيقة هو غباء، لا تواضع»، هكذا يقول)، وقبولًا لعيوبه ونقائصه أيضًا،

كالكسل مثلًا. فكثيرًا ما كان مونتين يلوم نفسه على إضاعة الوقت، ولكنّه في نهايـة المطاف أدرك مدى سـخافة هذا الأمر. فنحـن حمقى بحق، يقول: «نقـول عـن فلان: ‹لقد قضى حياته في بطالة›؛ ونقول عن أنفسـنا: ‹لم أفعل شيئًا اليوم›. ماذا؟ أوَلم تحيَ؟».

***

مـن المسـلّمات أنَ الرجـال أسـوأ المرضى عـلى الإطلاق. وهي مسـلّمةٌ تصـادف أنّهـا صحيحـة. فأنا أتحول إلى طفـلٍ كبير كثير الجـزع حين يلم بي المـرض. وقد كان مونتين كذلك أيضًـا. ولكنَّه، على عكسي، كان يعاني من علةٍ حقيقية: حصوات الكلى المؤلمة التي عذبته طوال معظم سنوات رشده. وقد كان مونتين يلعن «الحصاة»، تلك التي قتلت أباه من قبل، وها هي ذي تهدد بأن تودي بحياته هو الآخر.

إنَّ المـرض هـو طريقة الطبيعـة في أن تهيئنا للمـوت، وفي أن تيسر علينا ولوجه. فكما تسـقط السّن من الفم دون ألم، كذلك ننسلُّ نحن من أنفسنا. فالانتقـال من حـال الصّحـة إلى حال الموت قفـزةٌ هائلة لا نطيـق تحملها، ولكـن «القفـزة من حيـاةٍ مؤلمة إلى لا حياة، ليسـت بتلك القسـوة»، هكذا يقول.

وهكـذا، فـإنَّ مونتـين يقترح نسـخةً مختلفـةً كلّ الاختلاف مـن «الميتة الحسـنة». فنحن نرى أنَّ الميتة الحسـنة هي تلك التي تأتي بعد مرضٍ قصير، أو دون مـرضٍ عـلى الإطـلاق. «كلا»، يقـول مونتين. «إنّها قفـزةٌ أكبر من اللازم. فإن تنسلَّ رويدًا رويدًا، خيرٌ من أن تهوي فجأة».

إنَّ نظريـة «الانـزلاق» عنـد مونتين تبـدو منطقية من ناحية؛ فالسـقطة

الصغيرة أهون من السقطة الكبيرة. ولكن جرّب أن تقول ذلك لشخصٍ هو في خضم السقوط. فعلى مدى السنوات القليلة الماضية، كنت أراقب حماتي وهي تهوي، ومرض «باركنسون» يسرقها مني، قطعةً قطعة. ففي البدء، سلبها مشيتها الثابتة، ثم قدرتها على المشي أصلًا. ولم يكتفِ بهذا النهب، بل امتدت يده إلى عقلها، فسلبها القدرة على قراءة كتابٍ أو إجراء محادثة. وحين تأتي سقطتها الأخيرة، نعم، ستكون سقطةً صغيرة، ولكن ليس إلا لأنَّها كانت تهوي منذ أمدٍ بعيد.

قد يكون المرض هو سبيل الطبيعة لتهيئتنا للموت، ولكني، كما علمتني تجاربي في الخطابة، أعلم أنَّ الإفراط في الإعداد أمرٌ ممكن. فأحيانًا يكون خيرًا لنا أن نقتحم الموقف اقتحامًا، جاهلين بما فيه من مخاطر. وأحيانًا تكون السقطة الكبيرة أهون من السقطة الصغيرة.

ومثل مونتين، بدأت أنا الآخر أنسلُّ من نفسي. فقد انسلَّ شعري مني قبل عقودٍ عدة، ومعه عضلات بطني المصقولة وبشرتي التي لا شائبة فيها. وبالنسبة لي، يكفي هذا القدر من الانزلاق. فهل يمكننا أن نتوقف الآن؟ لا أريد أن أموت، ولتذهب الطّبيعة إلى الجحيم. فبوسعي أن أعتاد الخلود. أم تُرى لا أستطيع؟

وتتلاعب سيمون دي بوفوار بهذا السّؤال في روايتها «كلُّ البشر فانون». فبطل الرواية نبيلٌ إيطالي يُدعى «ريموند فوسكا»، أُوتي الخلود بفضل جرعةٍ سحرية تجرعها في القرن الرابع عشر. في بادئ الأمر، يرى في الخلود نعمةً خارقة، ويسعى جاهدًا ليستخدمه في الخير، فيريد أن يُحسّن من حياة شعبه. ولكنَّه مع مرور الزمن، يصبح خلوده في نظره لعنة. فكل

مـن يحبهـم يموتون. ويغـرق هو في بحرٍ مـن الملل. (حتـى أحلامه تصبح مملة). ويفتقر إلى الكرم، فماذا عساه أن يضحي به وهو خالد؟ وتفقد حياته إلحاحهـا، وحيويتها. فقد نخشـى الموت، ولكن البديـل عنه —الخلود— أشدّ سوءًا وأعظم فداحة.

إنَّ الوعـي بالموت هو الذي يمكننـا من أن نحيا ملء حياتنا. وقد أدرك قدمـاء المصريين ذلك؛ ففي خضم ولائمهم، كانوا يجلبون الهياكل العظمية ليذكـروا ضيوفهـم بمصيرهـم المحتوم. وقد عـرف ذلك قدمـاء الإغريق والرومان أيضًا. يقول الشاعر «هوراس»: «أقنع نفسك بأنَّ كلَّ يومٍ جديد تشرق شمسـه سـيكون يومك الأخير؛ وحينها، سـتلقى كلَّ ساعةٍ تأتيك على غير توقع، بالامتنان».

***

تـوفي مونتين في قصره في الثالث عشر من سـبتمبر عـام 1592، وهو في التاسعة والخمسين من عمره. فلم يكن قد بلغ الشّيخوخة بعد. وكان سبب وفاته «الخانوق»، وهو خراجٌ مؤلم في الحلق ينشأ عن التهاب اللوزتين. وفي أيّامـه الأخيرة، عجز عن الكلام، ويـا له من بلاءٍ قاسٍ على رجلٍ كان يرى أنَّ المحادثة «أعذب من أيّ فعلٍ آخر في الحياة».

وفي ساعاته الأخيرة، استدعى خدم بيته وأعطاهم نصيبهم من الميراث. ويـروي أحد أصدقائه أنَّه «تذوق المـوت وقبّله في حلاوة». ولا نعرف عن الأمـر أكثـر مـن ذلك. فهـل كانت تلـك الحلاوة مـن نفس تلـك الحلاوة «اللامتناهية» التي شـعر بها بعد حادثة سـقوطه عن حصانه، أم كانت شيئًا آخر؟ وهل شـعر مونتين في نهاية المطاف، بالغبن لأنَّه حُرم من بضع سـنين

أخرى من الحياة؟

إنَّ مـا يكمن خلف فزعنا من الموت ليس الخوف فحسـب، بل الجشـع أيضًا. فنحن نريد أيّامًا أكثر، وسنينًا أكثر، وحين ننالها، رغم كلّ شيء، نريد المزيد. «ولِمَ ذاك؟» هكذا يتساءل مونتين. «فإن أنت عشت يومًا واحدًا، فقد عشـت الأيّام كلّها. فليس هناك ضوءٌ آخر، ولا ليلٌ آخر. وهذه الشـمس، وهـذا القمر، وهذه النجوم، وهـذا الترتيب الذي هي عليه، كلّها هي ذاتها التي اسـتمتع بهـا أجدادك، وهي ذاتها التي ستسـلي أحفـادك». وحين يأتي أجلي، آمل أن أتشبث بكلمات مونتين هذه.

«كلا»، هكـذا يوبخني ميشـيل. «ليسـت كلماتي، بل كلماتـك أنت. فلا وجـود لـشيءٍ اسـمه بصيرةٌ مجـردة غـير شـخصية. فالحقائق المسـتعارة لا تناسـب المرء، تمامًا كالملابس الداخلية المسـتعارة، وهي مقززةٌ بالقدر ذاته. فإمّا أن تعرف الشيء في قرارة نفسك، أو أنّك لا تعرفه على الإطلاق. فعش حياتك لا كاختبارٍ معياري، بل، شـأنك في ذلك شـأن ‹غانـدي›، كتجربةٍ واحدةٍ كبرى. وفي هذا الضرب من الفلسـفة الشـخصية المُعاشة، لا تكون الغايـة هـي المعرفة المجردة، بـل الحقائق الذاتية: ليسـت غايتـك ‹أن تعلم أن...›، بـل ببسـاطة ‹أن تعلـم›». وبـين الأمرين فرقٌ شاسـع. فإني «أعلم أنَّ» الحب انفعالٌ إنسـاني مهم وله منافـع صحية جمة. ولكني «أعلم» حبي لابنتي.

إنَّ فلسـفة مونتـين كلهـا تـؤول في النهايـة إلى هـذا: ثـق بنفسـك. ثـق بتجاربـك. وثـق بشـكوكك أيضًـا. دعها ترشـدك في دروب الحيـاة، وإلى عتبة الموت. نَمِّ في نفسـك القدرة على الدهشـة، من الآخرين ومن نفسك.

دَغدِغ نفسـك. وابْقَ منفتحًا على إمكانية «الإمكان». وبحق السـماء، هكذا يقول «مونتين»، وهو يضم يديه إلى يدي مواطنته «سيمون فايل»، كن يقظًا منتبهًا.

***

حين أعود إلى الفندق بعد زيارتي لبرج مونتين، آخذ دفترًا وقلمًا وأشرع في محاولـةٍ لوصف مـا رأيت، فأجد ذهني صفحةً بيضاء. لا شيء. فلم أكن منتبهًا. «تبًا»، أقولها بصوتٍ عالٍ.

«أعطني ورقة»، يجيب صوتٌ ما.

مـن قال ذلـك؟ يأتي الصـوت من الطـرف الآخر مـن الغرفـة. ويبدو مألوفًا.

«سونيا؟»

«أعطنـي ورقة يـا أبي». لقد أفاقت من سـباتها الشـتوي. فأناولها ورقةً وقلم رصاص. فتشرع في الكتابة، في الرسـم. وبعد خمس دقائق، تسـلمني الورقة.

فأُصعَـق وأُبهت. فقد رسـمت صورةً لـبرج مونتين عـلى درجةٍ مذهلة مـن الدقة، بتفاصيلها الكاملة، مع شروحاتٍ مثل «النافذة الثانية» و«سرج الحصان القديم الثالث». لقد كنت أظنُّ أنَّ جولة البرج قد أصابتها بالملل، وأنَّها كانت شـاردة الذهن. وللمرَّة التي ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، أذكّر نفسي بضرورة أن أسائل مسلّماتي دائمًا.

وبعد أيامٍ قليلة، تناولني سـونيا ورقةً أخرى: ترجماتٌ للأقوال المأثورة

المحفورة في عوارض سقف برج مونتين. وبينما أجول ببصري في الورقة، تستوقفني مقولةٌ قصيرة. للفيلسوف اليوناني «سكستوس إمبيريكوس»: «إنَّه ممكن، وهو غير ممكن».

أحدق في المقولة طويلًا. إنَّها من تلك الألغاز الفلسفية التي إمَّا أن تكون حكيمةً كلّ الحكمة، أو سخيفةً كلّ السَّخافة. ولعلَّها الاثنان معًا. فأقرر أن أختبرها، أن أجربها، على طريقة «مونتين». فآخذ «قلم العجوز»، وأخطُّ في «دفتر العجوز»:

ليس من الممكن لرجلٍ فرنسي من القرن السادس عشر، يعاني من غازات البطن وحكة الأذنين، أن يعلمنا شيئًا. ولكنَّه ممكن.

وليس من الممكن أن تسافر إلى فرنسا بصحبة فتاةٍ في الثالثة عشرة من عمرها متقلبة المزاج، وتحافظ على سلامة عقلك؛ بل وتتعلم شيئًا أو شيئين عن الحياة، والموت. ولكنَّه ممكن.

وليس من الممكن أن تواجه الموت —أجل، والحياة— دون خوفٍ وفي ألفةٍ حميمة. ولكنَّه ممكن.

هكذا أظنُّ، على الأقل. فماذا أعرف أنا؟

خاتمة

الوصول

الساعة 5:42 مساءً. على متن «الخط الأحمر» لقطار الأنفاق، أشُقُّ طريقي من محطة «يونيون» بواشنطن العاصمة إلى «سيلفر سبرينغ» بولاية ماريلاند. عائدًا إلى الديار.

إنَّ الألفة لا تولد الازدراء، بل تولد تبلدًا في الحس. فنعجز عن رؤية الجمال فيما هو قريب، وعن سماع موسيقى الديار.

ومن السَّهل أن نلقي باللائمة على ما يحيط بنا. وأنا أفعل ذلك. فقطار الأنفاق هذا ليس كقطارات سويسرا «الجميلة». فلا إطلالة هنا على جبال الألب، ولا على أي شيءٍ آخر يذكر. كل ما أراه هو الظهر المتصبب عرقًا لذاك الراكب الذي يقف قريبًا أكثر مما ينبغي. إني محاطٌ بشياهم شوبنهاور، وقد مدّت أشواكها، تقترب ثم تبتعد، وتقترب ثم تبتعد.

ولكن، إن كانت رحلتي هذه قد علمتني شيئًا، فهو أنَّ الإدراك خيار. فالعالم تصوري أنا، فَلِمَ لا أجعله تصورًا طيبًا؟

***

أخرج من القطار وأسير لبضع بنايات. ولست أسير متمهلًا كروسو، ولا أتمشى في خيلاء كثورو؛ بل إنَّ مشيتي هي مشية الراكب اليومي العجول.

أقف عند زاوية الشارع، أنتظر إشارة المشاة. ولا أطيق الانتظار

لعشريـن ثانية دون مثيرٍ خارجي، فأمدّ يـدي إلى هاتفي الذكي. فتزلُّ يدي (فلـم أكن منتبهًا)، وينزلق الهاتف من بـين أصابعي، فيهوي على الرصيف بقوة، وشاشته إلى الأسفل. لا يمكن أن يكون في هذا خير.

وكما توقعت، فقد تهشمت الشاشة. شبكةٌ عنكبوتية من الشّقوق تنطلق مـن نقطة الارتطام في الزَّاويـة اليسرى العليا، وتبرز منها شـظايا الزُّجاج. أحاول أن أرسـل رسالةً نصية لزوجتي، ولكني أتوقف بعد بضعة أحرف، والدماء تسيل من أصابعي بغزارة.

هنـاك من النَّاس مَن يواجهون نكسـات الحياة الصغـيرة برباطة جأشٍ وثبـات. وكـما لعلّـك قد اسـتنتجت الآن، فلسـت أنا من هـؤلاء. إنَّ هذه الشاشـة المهشمة لهي إشـارة، هكذا أخلص في نفسي، وليست بإشارةٍ تُبشّر بخير. فقد كانت احتمالية سـقوطه على شاشـته، حسب تقديري، هي أحد احتمالين اثنين لا غير، ورغم ذلك سقط. إذن، حُسم الأمر. فالكون يتربص بي الدوائـر. وكقاطـرة، يجـر الهاتف المهشـم خلفـه عرباتٍ من السـوداوية والقلق. فالهاتف المكسـور يرمز إلى حياةٍ مكسـورة. إنّها «إرادة» شوبنهاور تعمـل عملهـا، تلتهم كلّ مـا في طريقها، وأنا من بينهـم. فأين «نصيبي من اللانهاية»، كما أسماه ثورو؟

أقضي الدقائق القليلة التالية عابسًـا متجهمًا، ألعن وأشتم، وأبحث على «جوجل» عن «شاشـة مهشـمة» على هاتفي المهشـم. ولا بدَّ أني قد فقدت رطلًا من دمي.

ثم أفاجئ نفسي. آخذ وقفة. ليسـت تلك «الوقفة السـقراطية الجبارة»، بل هي «وقفةٌ صغرى»، ولكنَّها بداية. وهذه الوقفة تفتح الباب للأسـئلة،

وللدهشة. وأتساءل في نفسي لِمَ، بعد أن قضيت السنوات القليلة الماضية أتشرب الشعر المُحيي للروح لأربعة عشر من أعظم مفكري التاريخ، لم يخطر لي ببالٍ أن أعود إليهم وأستشيرهم. فإن لم تستطع الفلسفة أن تعينني على اجتياز هذه الأزمة الصغرى، فما نفعها إذن؟

فأسمع أصواتًا. أصواتًا تبعث على السلوى. وأصواتًا تلوم وتعاتب. وأصواتًا يملؤها الوقار والحكمة. فأسمع سقراط يحثني على أن أتوقف، وأن أسائل مسلّماتي. فأنا أفترض أنَّ هاتفي الذَّكي ضروريٌّ لسعادتي، لـ «اليودايمونيا» خاصتي، ولكن هل هو كذلك حقًا؟ وإني، شأني شأن الكثيرين، لأسعى سعيًا حثيثًا لتحقيق تواصلٍ أكبر وسرعاتٍ أعلى، ولكنَّني قلما أتوقف لأسائل تلك المسلّمة القائلة بأنَّ التواصل والسرعة خيرٌ متأصل.

«لست تعلم أنَّ هذا صحيح»، هكذا يذكرني سقراط. «وهل في زوال هاتفك الذَّكي كارثةٌ حقيقية؟ لعلَّها كذلك، ولعلَّها ليست كذلك».

يبصق «أبيقور» على «أزمتي» المزعومة هذه. فهاتفي لم يكن متعةً طبيعية ولا ضرورية. فليذهب إلى الجحيم إذن. وتذكرني «سي شوناجون» بأنَّ الهاتف، شأنه شأن زهر الكرز، فانٍ لا محالة. فتقبّل هذه الحقيقة. بل واحتفِ بها. أمَّا الرواقيون، فبطبيعة الحال، لا يعرفون الشفقة. فلو أني مارست «التأمل المسبق في الشدائد»، لكنت قد توقعت ذلك. لا سلطان لي على الأحداث التي أدت إلى تهشم هاتفي، ولكن لي السلّطان كلّه على ردّة فعلي. فبوسعي أن أمنح موافقتي لـ«هواي الأولي» أو لا أمنحها. وبوسعي أن أعبس وأتجهم، أو لا أفعل. فالخيار خياري. استرجل!

يا لكثرة الأصوات! تكاد تطغى على صوتي الخاص. فألتجئ إلى مقهى؛ لا شيء مميز فيه، ولكنَّه «جيدٌ بما يكفي». لأختلس بضعًا من «اللحظات الهاربة» على طريقة ثورو، كما كان يسمي هذه الشذرات الضَّائعة من الزَّمن، وأطلق العنان لعيني لتتجول على الشاشة المهشمة. لا أنظر إليها نظرة فاحصة، ليس تمامًا. بل أنظر إليها نظرةً مختلفة. مرَّةً من هذه الزاوية، ومرَّةً من تلك. فما عدت أنظر إلى هاتفي المكسور، بقدر ما أصبحت أحاوره.

فالرؤية حوار؛ حوارٌ رتيبٌ في العادة، ولكنَّه أحيانًا يكتسب جودةً شعرية. وبالنسبة لشخصٍ مثل «ثورو»، طليق اللسان بلغة العين، فقد كانت الحياة قصيدةً واحدة طويلة متصلة.

وبعد دقائق، أرى —وأعلم أنَّ في هذا القول غرابة— فنًّا. ليس من فن المتاحف الكبرى، ولكنَّه فنٌّ على أيّ حال. أرى الطّريقة التي تشكل بها الشظايا أشكالًا وأنماطًا: مثلثاتٍ، ومستطيلات، بل وأشكالًا مَعينية أيضًا. وأرى كيف أنَّ الشَّاشة، في هيئتها الكاملة، قد غدت تشبه نافذةً من زجاجٍ معشق كنت قد رأيتها يومًا في كنيسةٍ بفلورنسا. إنَّه «الجمال العَرَضي»، يتجلّى أمام ناظري.

أدسُّ هاتفي —هاتفي الجميل المهشم— في جيبي، وأعود إلى بيتي، ممتنًا لهذا البيت من الشّعر البصري الذي عشته للتو. إنَّ ما لدي ليس قصيدةً كاملة. مقطوعةٌ شعريةٌ، لعلَّها، ولكني أقبلها. إنَّه نصيبي من اللانهاية، قد نلته أخيرًا.

فما الذي تغير إذن؟ ليس هاتفي، فهو لا يزال مهشمًا. وليست قوانين

الطبيعـة، فهـي ثابتـةٌ لا تتبـدل. بل حواري مـع نفسي هو الـذي تغير. لقد فكـرت على نحـوٍ مختلف، فرأيـت على نحوٍ مختلـف. لقد كان مجـرد تحولٍ طفيـفٍ في المنظور؛ تحولٌ ضئيلٌ حقًا، ولكن كما تذكرني «سي شـوناجون»، فإن في الصغائر قوةً، وجمالًا، عظيمين.

وبينما أنا أسـير، يعلو صوتٌ أخير فوق كلّ الأصوات. إنَّه لا يخاطبني، بل يصرخ في وجهي! إنَّه «نيتشـه». يذكرني بأني سأسـلك هذا الشّارع ذاته، مرَّةً تلو المرَّة. وسـيتعثر هاتفي في يدي ويسـقط ووجهه إلى الأسـفل في كلّ مرَّةٍ. إلى الأبد. وسـأنزف، وسـأجزع، مرَّةً أخرى، وإلى أبد الآبدين. «فهل تقدر على أن تحيا مع ذلك؟» يسأل. «وهل تقدر على أن تعشق ذلك؟»

وبينـما أنا أسـير، تتجسـد إجابتـي أمامي. كلمتـانِ قصيرتـان: غريبتان ولكنهما مألوفتان، عبثيتان ولكنهما ممكنتان، أشـدّ واقعيةً من الواقع نفسـه: «Da capo»، فلنعِد الكرة من جديد!

شكرٌ وتقدير

لقد آمن سقراط بأنَّ الفلسفة نشاطٌ جماعي. وكذلك هي كتابة كتابٍ عن الفلسفة، كما اكتشفت أنا نفسي. فطوال رحلاتي، من نيودلهي إلى نيويورك، قدّم لي الأصدقاء والغرباء على حدٍّ سواء بصائر ملهمة، ودعمًا وعونًا. وإني لأشعر بامتنانٍ عميق لكل واحدٍ منهم.

ففي المراحل الأولى من بحثي، تفضل أستاذا جامعة ستانفورد، «كين تيلور» و«روب رايش»، فمنحاني من وقتهما وحكمتهما بسخاء. ولاحقًا، استحضر «تيم ليبون» أرواح الرّواقيين القدماء على مأدبة غداءٍ في نيويورك، ووافق «روب كولتر» بلطفه المعهود على أن يسجلني في «معسكر الرّواقية» في براري وايومنغ. وفي «كونكورد» بماساشوستس، شاركني كلٌّ من «ريتشارد سميث»، و«مايكل فريدريك»، و«توم بلانديغ» بسخاءٍ في بصائرهم حول كلّ ما يتعلق بـ«ثورو». كما أنار لي أستاذ جامعة نيويورك «موس روبرتس» الدرب فيما يخص «كونفوشيوس».

وفي أماكن أبعد، ففي باريس، شاركني «غونتر غورهان» و«كاثرين مونيه» بصائرهما الفلسفية على فنجان قهوةٍ بالحليب وقطعة كرواسان. وفي أثينا، حالفني الحظُّ فجاورت على مائدة الطعام العلامة «برادي كيسلينغ»، فضلًا عن اثنين من أتباع المذهب الأبيقوري من الطراز الرفيع: «كريستوس يابياكيس» و«إيلي بينسا». وفي سويسرا، أعانني «رولان كير» على تتبع خُطى «روسو»، و«بيتر فيلفوك» على تتبع خُطى «نيتشه». وفي طوكيو، قدمت لي العظيمة «جونكو تاكاهاشي» الإرشاد، والترجمة، والرفقة الطيبة.

والمؤلفون، شـأنهم شأن الفلاسـفة، بحاجةٍ إلى مكانٍ للتفكير والكتابة. وإني لممتنٌ لـ«مركز فيرجينيا للفنون الإبداعية» على توفيره لمثل هذا المكان. وفي نيويـورك، تفضـل «ديفيد» و«آبي سـنودي» بسـخائهما فمنحاني غرفةً خاصة بي، فضلًا عما قدماه من شراب الساكي والرفقة الكريمة.

وقد بحث مسـاعداي، «أليسـون رايت» و«أليك سـيغل»، بحثًا دؤوبًا لا يعرف الكلل، فوجدا الشـخص المناسـب في المكان المناسـب، ونقّبا عن جواهر فلسفيةٍ خفيّة. كما قرأ «جون ليستر» و«جوش هورويتز» المسودات الأولى من هذا الكتاب، وقدما اقتراحاتٍ قيمة.

ولم يقلَّ عن ذلك أهميةً ذلك الدعم المعنوي الذي أغدق عليَّ به الأصدقاء والغرباء. فمجموعتي غير الرَّسمية من الأصدقاء الأدباء، «الكُتّاب الذين يتغـدون معًا»، قد زودتني بغذاءٍ دائم من التشـجيع والكاري. وأصدقائي «سـتيفان غونتر»، و«ليزا غولدبرغ»، و«لورا بلومنفيلد»، و«جاكي لايدن» كانـوا يشـدون من أزري كلـما عصفت بي رياح الشـك في الـذات وبلغت قـوة الإعصار. وشـكرٌ خاص جـدًا لنـاشري البلغاري وصديقـي، «نيكو غينشـيف»، على ترجمتـه لكلماتي بكل دأبٍ وعناية، وعـلى جذبه للكثير من القراء في ركنه ذاك من العالم.

أمّـا وكيل أعمالي، «سـلون هاريـس»، فقد آمن بالمـشروع منذ أول يوم، ولم يتزعـزع دعمـه له قط. وإني لممتنٌ له على ذلك، وعلى مشـورته الحكيمة أيضًـا. وأدين بديـنٍ خاص لـ«بين لوينـين»، محـــرري في دار «أفيد ريدر بريس Avid Reader Press» التابعة لـ«سـايمون آند شوسـتر»، على إيمانه بي وبكتـابي، وعلى إمسـاكه بمبضعه التحريري الحاد بمهـارةٍ ورفق. كما أنَّ

«كارولين كيلي» من نفس الدار قد قادت مخطوطتي بخبرةٍ عبر مضمار التحرير الشَّاق. وشكرًا لـ«جوناثان كارب»، رئيس وناشر دار «سايمون آند شوستر»، على كونه هو «جوناثان كارب».

وشكرٌ جزيل لابنتي «سونيا». فقد تحملت غيابي عن البيت، وتحملت كذلك أسئلتي الفلسفية المزعجة التي لا تنتهي. وعلى الطّريق، كانت نعم الرَّفيق، حتى وإن لم تكن «الرياضة» من اختيارها. فهي نقيضي الذي يصقلني، وهي ملهمتي. وهذا الكتاب إهداء لها أيضًا.

لقد كان معظم الفلاسفة سيئي الحظ في الحب. أمَّا أنا، فما كنت لأكون أوفر حظًا مما أنا عليه. فزوجتي «شارون»، وقفت إلى جواري في السّراء وفيما هو أشدّ من الضّراء. فقد قرأت الصفحات الأولى الغضة، وبحبها وتشجيعها، منحتني نسمة الأمل الثانية، والثالثة، والرابعة. وما كان لهذا الكتاب أن يرى النور لولاها.

ببليوغرافيا مختارة وقراءات إضافية

قراءات عامة عن الفلسفة

Craig, Edward. Philosophy: A Brief Insight. New York: Sterling, 2002.
Curnow, Trevor. Ancient Philosophy and Everyday Life. Newcastle, UK: Cambridge Scholars Press, 2006.
———. Wisdom: A History. London: Reaktion, 2015.
Durant, Will. The Story of Philosophy: The Lives and the Opinions of the Great Philosophers of the Western World. New York: Simon & Schuster, 1926.
Hadot, Pierre. Philosophy as a Way of Life. Translated by Michael Chase. Oxford, UK: Blackwell, 1995.
———. What Is Ancient Philosophy? Translated by Michael Chase. London: Belknap, 2002.
Jaspers, Karl. The Great Philosophers: The Foundations. Translated by Ralph Manheim. New York: Harcourt, Brace & World, 1962.
Lehrer, Keith, B. Jeannie Lum, Beverly A. Slichta, and Nicholas D. Smith, eds. Knowledge, Teaching and Wisdom. New York: Springer, 1996.
Macfie, Alexander, ed. Eastern Influences on Western Philosophy: A Reader. Edinburgh, Scotland: Edinburgh University Press, 2003.
Magee, Bryan. Confessions of a Philosopher: A Journey Through Western Philosophy. New York: Random House, 1997.
———. The Great Philosophers. New York: Oxford University Press, 1987.
———. Ultimate Questions. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2016.
Miller, James. Examined Lives: From Socrates to Nietzsche. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2011.
Monk, Ray, and Frederic Raphael, eds. The Great Philosophers: From Socrates to Turing. London: Orion, 2001.
Needleman, Jacob. The Heart of Philosophy. New York: Harper & Row, 1982.

الفصل الأول

Aurelius, Marcus. Meditations. Translated by Gregory Hays. New York: Modern Library, 2002.

Briley, Anthony. Marcus Aurelius: A Biography. New York: Barnes & Noble, 1966.

Camus, Albert. The Myth of Sisyphus and Other Essays. Translated by Justin O'Brien. New York: Vintage International, 1991.

Hadot, Pierre. The Inner Citadel: The Meditations of Marcus Aurelius. Translated by Michael Chase. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998.

Kellogg, Michael. The Roman Search for Wisdom. Amherst, NY: Prometheus, 2014.

McLynn, Frank. Marcus Aurelius: A Life. New York: Da Capo, 2008.

الفصل الثاني

Gower, Barry, and Michael Stokes, eds. Socratic Questions: New Essays on the Philosophy of Socrates and Its Significance. New York: Routledge, 1992.

Johnson, Paul. Socrates: A Man for Our Times. New York: Penguin, 2011.

Kreeft, Peter. Philosophy 101 by Socrates: An Introduction to Philosophy via Plato's Apology. San Francisco: Ignatius, 2002.

May, Hope. On Socrates. Belmont, CA: Wadsworth, 2000.

Morrison, Donald, ed. The Cambridge Companion to Socrates. New York: Cambridge University Press, 2011.

Plato. Plato: Complete Works. Indianapolis: Hackett, 1997.

Taylor, C. C. Socrates: A Very Short Introduction. New York: Oxford University Press, 1998.

الفصل الثالث

Amato, Joseph. On Foot: A History of Walking. New York: New York University Press, 2004.

Damrosch, Leo. Jean-Jacques Rousseau: Restless Genius. New York: Houghton Mifflin, 2005.

Delaney, James. Starting with Rousseau. New York: Continuum, 2009.

Gros, Frederic. A Philosophy of Walking. Translated by John Howe. New York: Verso, 2015.

Rousseau, Jean-Jacques. The Confessions. Ware, Hertfordshire, UK: Wordsworth, 1996.

———. Emile: or On Education. New York: Basic Books, 1979.

———. Reveries of the Solitary Walker. Translated by Peter France. New York: Penguin, 1979.

———. The Social Contract and Discourses. London: Everyman's Library, 1973.

Solnit, Rebecca. Wanderlust: A History of Walking. New York: Penguin, 2000.

Wokler, Robert. .Rousseau: A Very Short Introduction. New York: Oxford, 1995.

الفصل الرابع

Cameron, Sharon. Writing Nature: Henry Thoreau's Journal. New York: Oxford University Press, 1985.

Casey, Edward. The World at a Glance. Bloomington: Indiana University Press, 2007.

Cramer, Jeffrey S., ed. The Quotable Thoreau. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2011.

Goto, Shoji. The Philosophy of Emerson and Thoreau: Orientals Meet Occidentals. Lewiston, NY: Edwin Mellen, 2007.

Harding, Walter. The Days of Henry Thoreau: A Biography. New York: Knopf, 1965.

Leddy, Thomas. The Extraordinary in the Ordinary: The Aesthetics of Everyday Life. Calgary, Alberta, Canada: Broadview Press, 2012.

Petrulionis, Sandra. Thoreau in His Own Time: A Biographical Chronicle of His Life, Drawn from Recollections, Interviews, and Memoirs by Family, Friends, and Associates. Iowa City: University of Iowa Press, 2012.

Richardson, Robert. Henry Thoreau: A Life of the Mind. Berkeley: University of California Press, 1986.

Sullivan, Robert. The Thoreau You Don't Know. New York: Harper

Perennial, 2009.

Tauber, Alfred. Henry David Thoreau and the Moral Agency of Knowing. Berkeley: University of California Press, 2001.

Thoreau, Henry David. A Year in Thoreau's Journal: 1851. New York: Penguin, 1993.

———. Letters to a Spiritual Seeker. Edited by Bradley Dean. New York: W. W. Norton, 2004.

———. The Major Essays of Henry David Thoreau. Ipswich, MA: Whitston, 2000.

———. Selected Journals of Henry David Thoreau. New York: Signet, 1967.

———. Walden and Civil Disobedience. New York: Barnes & Noble, 2012.

———. Walking. Boston: Beacon Press, 1991.

———. A Week on the Concord and Merrimack Rivers. Mineola, NY: Dover, 2001.

Versluis, Arthur. American Transcendentalism and Asian Religions. New York: Oxford University Press, 1993.

Young. J. Z. Philosophy and the Brain. New York: Oxford University Press, 1987.

الفصل الخامس

Cartwright, David. Schopenhauer: A Biography. New York: Cambridge University Press, 2010.

Janaway, Christopher, ed. The Cambridge Companion to Schopenhauer. New York: Cambridge University Press, 1999.

Lewis, Peter. Arthur Schopenhauer. London: Reaktion, 2012.

Magee, Bryan. The Philosophy of Schopenhauer. New York: Oxford University Press, 1983.

Odell, S. On Schopenhauer. Boston: Cengage Learning, 2001.

Safranski, Rudiger. Schopenhauer and the Wild Years of Philosophy. Translated by Ewald Osers. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991.

Schirmacher, Wolfgang. The Essential Schopenhauer: Key Selections from The World as Will and Representation and Other Writings.

New York: HarperCollins, 2010.

Schopenhauer, Arthur. Essays and Aphorisms. Translated by R. J. Hollingdale. New York: Penguin, 1970.

———. The World as Will and Representation. Vol. 1. Translated by Judith Norman. New York: Cambridge University Press, 2010.

Sim, Stuart. A Philosophy of Pessimism. London: Reaktion, 2015.

Yalom, Irvin. The Schopenhauer Cure: A Novel. New York: HarperCollins, 2005.

Young, Julian. Schopenhauer. New York: Routledge, 2005.

الفصل السادس

Cooper, David. A Philosophy of Gardens. New York: Oxford University Press, 2006.

Crespo, Hiram. Tending the Epicurean Garden. Washington, D.C.: Humanist Press, 2014.

Epicurus. The Art of Happiness. Translated by George Strodach. New York: Penguin, 2012.

———. The Epicurus Reader: Selected Writings and Testimonia. Translated by Brad Inwood and L. P. Gerson. Indianapolis: Hackett, 1994.

———. The Essential Epicurus: Letters, Principal Doctrines, Vatican Sayings, and Fragments. Translated by Eugene O'Connor. Buffalo, NY: Prometheus, 1993.

Klein, Daniel. Travels with Epicurus: A Journey to a Greek Island in Search of a Fulfilled Life. New York: Penguin, 2012.

Long, A. A. From Epicurus to Epictetus: Studies in Hellenistic and Roman Philosophy. New York: Oxford University Press, 2006.

Lucretius. The Way Things Are. Translated by Rolfe Humphries. Bloomington: Indiana University Press, 1969.

Nussbaum, Martha. The Therapy of Desire: Theory and Practice in Hellenistic Ethics. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

O'Keefe, Tim. Epicureanism. Berkeley: University of California Press, 2009.

Seneca. Letters from a Stoic. Translated by Robin Campbell. New

York: Penguin, 1969.

Slattery, Luke. Reclaiming Epicurus: Ancient Wisdom that Could Save the World.

New York: Penguin eBooks, 2012.

Warren, James. The Companion to Epicureanism. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2009.

الفصل السابع

Gray, Francine. Simone Weil. New York: Viking Penguin, 2001.

Hellman, John. Simone Weil: An Introduction to Her Thought. Eugene, OR: Wipf and Stock, 1982.

Mole, Christopher, Declan Smithies, and Wayne Wu, eds. Attention: Philosophical and Psychological Essays. New York: Oxford University Press, 2011.

Murdoch, Iris. The Sovereignty of Good. New York: Routledge, 2001.

Pétrement, Simone. Simone Weil: A Life. Translated by Raymond Rosenthal. New York: Pantheon, 1976.

Seneca. On the Shortness of Life. Translated by C. Costa. New York: Penguin, 2004.

von der Ruhr, Mario. Simone Weil: An Apprenticeship in Attention. New York: Continuum, 2006.

Weil, Simone. An Anthology. New York: Grove, 1986.

———. Formative Writings, 1929–1941. Translated and edited by Dorothy McFarland

and Wilhelmina Van Ness. New York: Routledge, 2010.

———. Gravity and Grace. Translated by Arthur Wills. London: Octagon Books, 1979.

———. Late Philosophical Writings. Translated by Eric Springsted and Lawrence Schmidt. Notre Dame, IN: Notre Dame University Press, 2015.

———. Waiting for God. Translated by Emma Craufurd. New York: HarperCollins, 2009.

الفصل الثامن

Dalton, Dennis. Mahatma Gandhi: Nonviolent Power in Action. New York: Columbia University Press, 1993.

Easwaran, Eknath, trans. The Bhagavad Gita. Tomales, CA: Nilgiri Press, 1985.

Fischer, Louis. Gandhi: His Life and Message for the World. New York: Penguin, 1954.

Gandhi, Manuben. Last Glimpses of Bapu. Translated by Moli Jain. Agra, India: Shiva Lal Agarwala, 1962.

Gandhi, Mohandas. The Bhagavad Gita According to Gandhi. Translated by Mahadev Desai. Floyd, VA: Sublime, 2014.

———. Mahatma Gandhi & The Railways. Ahmedabad, India: Navajivan, 2002.

———. The Penguin Gandhi Reader. New York: Penguin, 1996.

———. The Story of My Experiments with Truth. New York: Dover, 1983.

Gandhi, Rajmohan. Why Gandhi Still Matters: An Appraisal of the Mahatma's Legacy.

New Delhi: Aleph, 2017.

Guha, Ramachandra. Gandhi Before India. New York: Knopf, 2014.

Homer, Jack, ed. The Gandhi Reader: A Sourcebook of His Life and Writings. New York: Grove, 1994.

Juergensmeyer, Mark. Gandhi's Way: A Handbook of Conflict Resolution. Los Angeles: University of California Press, 1984.

الفصل التاسع

Armstrong, Karen. The Great Transformation: The Beginning of Our Religious Traditions. New York: Anchor, 2007.

Confucius. The Analects. Translated by D. C. Lau. New York: Penguin, 1979.

Dan, Yu. Confucius from the Heart: Ancient Wisdom for Today's World. Translated by Esther Tyldesley. New York: Atria, 2006.

Gardner, Daniel. Confucianism: A Very Short Introduction. New York: Oxford University Press, 2014.

Goldin, Paul. Confucianism. Berkeley: University of California Press, 2011.

Ivanhoe, Philip, and Bryan Van Norden, eds. Readings in Classical Chinese Philosophy. Indianapolis: Hackett, 2005.

Mencius. Mencius. Translated by D. C. Lau. New York: Penguin, 1970.

Ni, Peimin. On Confucius. Belmont, CA: Wadsworth, 2002.

Phillips, Adam, and Barbara Taylor. On Kindness. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2009.

Puett, Michael, and Christine Gross-Loh. The Path: What Chinese Philosophers Can

Teach Us About the Good Life. New York: Simon & Schuster, 2016.

Schuman, Michael. Confucius and the World He Created. New York: Basic Books, 2015.

Tuan, Yi-fu. Human Goodness. Madison: University of Wisconsin Press, 2008.

Van Norden, Bryan. Introduction to Classical Chinese Philosophy. Indianapolis: Hackett, 2011.

الفصل العاشر

Hume, Nancy, ed. Japanese Aesthetics and Culture: A Reader. Albany: State University of New York, 1995.

Morris, Ivan. The World of the Shining Prince: Court Life in Ancient Japan. New York: Vintage, 2003.

Richie, Donald. A Tractate on Japanese Aesthetics. Berkeley: Stone Bridge Press, 2007.

Saito, Yuriko. Everyday Aesthetics. New York: Oxford University Press, 2007.

Shōnagon, Sei. The Pillow Book. Translated by Meredith McKinney. New York: Penguin, 2006.

Tanizaki, Junichiro. In Praise of Shadows. Translated by Thomas Harper. New York: Vintage, 2001.

Tuan, Yi-fu. Passing Strange and Wonderful: Aesthetics, Nature, and Culture. Washington, D.C.: Island, 1993.

الفصل الحادي عشر

Cate, Curtis. Friedrich Nietzsche. New York: Overlook, 2005.

Danto, Arthur. Nietzsche as Philosopher. New York: Columbia University Press, 2005.

Haase, Ullrich. Starting with Nietzsche. New York: Continuum, 2008.

Magnus, Bernd. Nietzsche's Existential Imperative. Bloomington: Indiana University Press, 1978.

Nietzsche, Friedrich. Basic Writings of Nietzsche. Translated by Walter Kaufmann. New York: Random House, 2000.

———. Ecce Homo: How One Becomes What One Is. Translated by R. J. Hollingdale. New York: Penguin, 1979.

———. The Gay Science. trans. Thomas Common. New York: Barnes & Noble, 2008.

———. Human, All Too Human. Translated by R. J. Hollingdale. New York: Cambridge University Press, 1986.

———. A Nietzsche Reader. trans. R.J. Hollingdale. New York: Penguin, 1977.

———. Thus Spoke Zarathustra: A Book for Everyone and No One. Translated by R. J. Hollingdale. New York: Penguin, 1961. Reginster, Bernard. The Affirmation of Life: Nietzsche on Overcoming Nihilism. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006.

Safranski, Rudiger. Nietzsche: A Philosophical Biography. Translated by Shelley Frisch. New York: Norton, 2003.

Solomon, Robert. Living with Nietzsche: What the Great «Immoralist» Has to Teach Us. New York: Oxford University Press, 2003.

Solomon, Robert, and Kathleen Higgins. What Nietzsche Really Said. New York: Schocken, 2000.

Steinhart, Eric. On Nietzsche. Belmont, CA: Wadsworth, 2000.

Zweig, Stefan. Nietzsche. Translated by Will Stone. London: Hesperus, 2013.

الفصل الثاني عشر

Graver, Margaret. Stoicism and Emotion. Chicago: University of Chicago Press, 2007.

Long, A. A. Epictetus: A Stoic and Socratic Guide to Life. New York: Oxford University Press, 2002.
———. Hellenistic Philosophy: Stoics, Epicureans, Sceptics. Berkeley: University of California Press, 1974.
Epictetus. The Discourses. London: Orion, 1995.
———. The Handbook. Translated by Nicholas White. Indianapolis: Hackett, 1983.
Irvine, William. A Guide to the Good Life: The Ancient Art of Stoic Joy. New York: Oxford University Press, 2009.
Robertson, Donald. Stoicism and the Art of Happiness. London: Hachette, 2013.

الفصل الثالث عشر

Baars, Jan. Aging and the Art of Living. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2012.
Bair, Deirdre. Simone de Beauvoir: A Biography. New York: Simon & Schuster, 1990.
Beauvoir, Simone de. All Said and Done. Translated by Patrick O'Brian. New York: Putnam, 1974.
———. The Coming of Age. Translated by Patrick O'Brian. New York: Norton, 1996.
———. The Ethics of Ambiguity. Translated by Bernard Frechtman. New York: Open Road, 1948.
———. Force of Circumstance. Translated by Richard Howard. New York: Harper & Row, 1977.
———. Memoirs of a Dutiful Daughter. Translated by James Kirkup. New York: Harper Perennial, 2005.
———. A Very Easy Death. Translated by Patrick O'Brian. New York: Pantheon, 1965.
Booth, Wayne, ed. The Art of Growing Older: Writers on Living and Aging. Chicago: University of Chicago Press, 1992.
Cicero, Marcus. How to Grow Old: Wisdom for the Second Half of Life. Translated by
Philip Freeman. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2016.
Cox, Gary. How to Be an Existentialist: or How to Get Real, Get a

Grip and Stop Making Excuses. New York: Bloomsbury, 2009.
Nussbaum, Martha, and Saul Levmore. Aging Thoughtfully: Conversations About Retirement, Romance, Wrinkles, and Regret. New York: Oxford University Press, 2017.
Sartre, Jean-Paul. Existentialism Is a Humanism. Translated by Carol Macomber. New Haven: Yale University Press, 2007.
Stoller, Silvia, ed. Simone de Beauvoir's Philosophy of Age: Gender, Ethics, and Time. Boston: De Gruyter, 2014.
Tidd, Ursula. Simone de Beauvoir. London: Reaktion, 2009.
Wartenberg, Thomas. Existentialism: A Beginner's Guide. Oxford, UK: Oneworld, 2008.

الفصل الرابع عشر

Bakewell, Sarah. How to Live: Or A Life of Montaigne in One Question and Twenty
Attempts at an Answer. New York: Other Press, 2010.
Beauvoir, Simone de. All Men Are Mortal. Translated by Leonard Friedman. New York: Norton, 1992.
Frame, Donald. Montaigne: A Biography. New York: North Point Press, 1984.
Frampton, Saul. When I Am Playing with My Cat, How Do I Know She Is Not Playing with Me? Montaigne and Being in Touch with Life. New York: Vintage, 2012.
Friedrich, Hugo. Montaigne. Translated by Dawn Eng. Berkeley: University of California Press, 1991.
Malpas, Jeff, and Robert Solomon, eds. Death and Philosophy. New York: Routledge, 1999.
Montaigne, Michel. The Complete Essays of Montaigne. Translated by Donald Frame. Stanford: Stanford University Press, 1958.
Zweig, Stefan. Montaigne. Translated by Will Stone. London: Pushkin, 2015.

قطار سقراط

بحثًا عن دروسٍ من فلاسفة راحلين

ينطلق إيريك وينر في رحلة فكرية صاخبة ومبهجة، مقتفيًا آثار أعظم مفكري التاريخ، ليرينا كيف يقدّم كلٌّ منهم - من أبيقور إلى غاندي، ومن ثورو إلى دي بوفوار - دروسًا عملية وروحانية لأزماننا المضطربة هذه.

إننا نلجأ إلى الفلسفة لنفس الأسباب التي تدفعنا إلى السفر: لنرى العالم من منظور مختلف، ولنستخرج جمالًا دفينًا، ولنجد سبلًا جديدة للوجود. نحن نريد أن نتعلم كيف نحتضن الدهشة، وكيف نواجه الندم، وكيف نحافظ على الأمل.

يجمع إيريك وينر بين شغفيه التوأمين: الفلسفة والترحال العالمي، في رحلة حج تكشف عن دروس حياتية مدهشة من مفكرين عظام حول العالم، من روسو إلى نيتشه، ومن كونفوشيوس إلى سيمون فايل. إذ يقطع آلاف الأميال مسافرًا بالقطار (وهي وسيلة النقل الأكثر دعوة للتأمل)، متوقفًا في أثينا، ودلهي، ووايومنغ، وكوني آيلاند، وفرانكفورت، وغيرها، ليعيد التواصل مع غاية الفلسفة الأصلية: تعليمنا كيف نحيا حياة أكثر حكمة ومعنى.

ومن سقراط وأثينا القديمة إلى سيمون دي بوفوار وباريس القرن العشرين، يقدم الفلاسفة والأماكن التي اختارها وينر علامات إرشادية مهمة ونحن نشق طريقنا عبر أزماننا الفوضوية هذه.

في كتاب قطار سقراط، يدعونا وينر إلى الإبحار بجانبه في سعيه الحثيث وراء الحكمة والاكتشاف، وهو يحاول أن يجد إجابات لأسئلتنا الأكثر حيوية وأهمية.

الناشر

معًا نطوي المسافات

ISBN: 978-9922-9127-4-5

منشورات درابين